

لجنة عليا للدراسات
اقتصادية
بجامعة بغداد

محات اجتماعية من

تاريخ العراق الحديث

الجزء السادس

من عام ١٩٢٠ الى عام ١٩٢٤

المقدمة

يشمل هذا الجزء أربعة أعوام ما بين ١٩٢٠ و ١٩٢٤ ، وتلك فترة ذات أهمية بالغة في تاريخ العراق الحديث ، لانها الفترة التي تأسست فيها الحكومة العراقية ، واستقرت قواعد الحكم فيها على نمط معين . وأود أن أعيد هنا ما كنت قد ذكرته في مقدمة الجزء الاول من هذا الكتاب ، هو أنني لست مؤرخا وان قصدي من سرد الحوادث التاريخية ان اكشف من ورائها خصائص المرحلة الاجتماعية التي مر بها العراق . ولهذا قد يلاحظ القارئ في هذا الجزء ، كما لاحظ في الاجزاء السابقة ، كثيرا من التفاصيل الجزئية والطرائف التي لا يهتم بذكرها المؤرخون عادة ، غير انها من الناحية الاجتماعية ذات أهمية لا يستهان بها لانها تكشف عن طبيعة القيم والعادات السائدة في فترة معينة من الزمن ، وعن مستوى التفكير الذي كان عليه الناس حينذاك .

ولابد لي هنا من أن اتحدث باختصار عن المصادر التي اعتمدت عليها في دراسة تلك الفترة . فقد اعتمدت في الدرجة الاولى على بحوث المؤرخين ، ولكنني اعتمدت على مصادر أخرى أذكرها كما يلي :

(١) الوثائق البريطانية : وهي تتضمن المراسلات السرية التي كانت تجري بين الحكومة البريطانية وممثليها في الخارج كالمسؤولين والقناصل والمندوبين وأتباعهم وغيرهم . وكانت الحكومة البريطانية لاتسمح بنشر تلك الوثائق الا بعد انقضاء خمسين سنة عليها ، ثم خفضت المدة مؤخرا الى ثلاثين سنة . وقد وضعتها في دائرة خاصة بها في لندن مفتوحة للباحثين اسمها : دائرة الوثائق العامة . . وكنت قد زرت هذه الدائرة في صيف ١٩٧٣ واطلعت على الكثير من اضايرها ، كما استحصلت على نسخ من البعض منها . ولا اكتم القارئ اني واجدت فيها من الاسرار ما جعلني

أغير رأيي في كثير من القضايا التي كنت واثقا من صحة رأيي فيها قبلئذ .

(٢) رسائل المس بيل : فقد كانت هذه الأنسة تتولى منصب السكرتيرة الشرقية للمندوب السامي في العراق ، واعتادت ان تسجل ذكرياتها في رسائل تبعثها الى أمها أو أبيها أو احد أقربائها واصدقائها . وقد نشر قسم من رسائلها في عام ١٩٢٧ - على أثر وفاتها - ثم تبين ان هناك قسماً آخر من رسائلها بقي مكتوماً غير مسموح له بالنشر ، وظل هذا القسم طي الكتمان حتى عام ١٩٦١ ، حيث نشر في جزئين كبيرين . والواقع ان هذا القسم المنشور أخيراً يحتوى على اسرار لا تقل اهمية أو غرابة عن اسرار الوثائق البريطانية . واني افضل رسائل المس بيل على الوثائق البريطانية من بعض الوجوه واعتبرها أصدق تصويراً للواقع ، فالوثائق تكون عادة ذات أسلوب رسمي جاف ولا تمس الاحداث الا من جانبها الشكلي . أما رسائل المس بيل فهي حية مليئة بالحرارة وتعطينا كثيراً من الصور النفسية والاجتماعية التي يندر أن نجد لها مثيلاً في الوثائق . وهذا هو السبب الذي جعلني كثير الاعتماد على رسائل المس بيل والاقتراس منها في هذا الجزء .

(٣) الرسائل الجامعية : وهي الاطروحات التي قدمها بعض طلبة الدراسات العليا في جامعة بغداد وغيرها للحصول على شهادة الماجستير أو الدكتوراه في التاريخ . واعترف ان هذه الرسائل افادتني في تأليف هذا الجزء فوائد لا تثنى ، وخاصة رسائل قسم التاريخ في كلية الآداب بجامعة بغداد .

(٤) مذكرات الساسة العراقيين : وهي كثيرة اذ هم تفوقوا فيها على زملائهم في الاقطار العربية الاخرى . وهذه المذكرات قد تناقض في ذكر الاحداث ولكن تناقضها يعطينا وجهات نظر مختلفة حول الاحداث ، وقد يساعدنا على فهم بعض خفاياها . ويجب ان لا ننسى ان بعض البريطانيين

الذين شاركوا في احداث تلك الفترة قد سجلوا مذكراتهم ايضا ، واعطونا بذلك وجهات نظر اخرى •

(٥) احاديث المسنين الذين عاصروا تلك الفترة : وهم كثيرون ولكنهم مع الاسف يتناقصون بمرور الايام • والواقع ان احاديث هؤلاء لا يستثنى عنها لفهم الاحداث الماضية والكشف عن بعض الزوايا المهمة منها • وفي رأيي أن احاديث المسنين الاميين قد تكون انفع للباحث من احاديث المتعلمين احيانا • فالتعلم قد يحاول ان يصور الاحداث بالصورة التي تلائم اتجاهاته الفكرية أو تحزبه السياسي، أما الامي فهو حين يتكلم عن الاحداث يأتي بها كما شاهدها من غير تزويق ، وان روايته قد تكون سطحية ساذجة انما هي قد تكشف عن بعض النواحي الخفية من الاحداث - تلك النواحي التي لا يهتم بذكرها المتعلمون عادة •

(٦) الجرائد المحلية القديمة : ولا حاجة بنا الى ذكر اهمية هذه الجرائد في دراسة الاحداث الماضية ، ولهذا حرصت البلاد الراقية على حفظ مجموعات جميع الجرائد القديمة وتمكين الباحثين من الاطلاع عليها بسهولة ، ومن المؤسف اننا لم نهتم بحفظ الجرائد الا مؤخرا • وقد بذلت بعض مؤسساتنا الثقافية - كمكتبة المتحف والمجمع العلمي والمكتبة المركزية والمركز الوطني للوثائق والمكتبة الوطنية - جهودا كبيرة في شراء مجموعات الجرائد المتيسرة لدى بعض الاشخاص ، ودفعت فيها اثمانا باهضة ، ولكنها على الرغم من ذلك لم تستطع الحصول عليها كاملة • وقد يجد الباحث الآن صعوبة في العثور على الجريدة التي يطلبها في بعض الاحيان •

الوثائق العراقية : فلدينا الآن دائرة للوثائق العامة باسم « المركز الوطني للوثائق » ، ولكن هذه الدائرة جديدة اذ لم يبدأ بتأسيسها الا في عام ١٩٦٣ ، وهي تضم نحو نصف مليون اصابة جمعت من مختلف دوائر

الدولة ، وأهمها أضاير البلاط الملكي . ولكن هذه الدائرة تعاني مع الاسف نقصا شديدا في الاختصاصيين والموظفين ، وقد تكومت فيها الاضاير في غرف غير مناسبة بحيث يخشى عليها من التلف ، وقد تلف الكثير منها فعلا . لانكر انها الآن في وضع افضل جدا من وضعها القديم . وعلمت مؤخرا ان الحكومة خصصت ثلاثة ملايين دينار لبناء مجمع وثائقي ، ونحن نرجو أن يتم البناء في وقت قريب . فالوثائق ثروة علمية لا تثنى . وقد أتيسح لي أن اطلع على بعض اضاير البلاط الملكي ، ولا سيما تلك الاضاير التي تخص الفترة التي أبحث فيها ، فوجدت فيها من الامور ما يذهل . ولو أن جميع الوثائق العراقية أصبحت مسورة للباحثين لانكشفت بذلك صفحات مجهولة ذات اهمية كبرى من تاريخ العراق الحديث .

حول قواعد النحو :

كنت في مقدمة الجزء الرابع من هذا الكتاب قد انتقدت النحو العربي وطالبت بتقليص قواعده لانها كثيرة لافائدة فيها . وقد أحدث هذا الانتقاد رد فعل لدى الكثيرين من القراء . ولا بد لي هنا من توضيح موقفني من النحو مرة أخرى .

أرجو ان يعلم القارئ اني لست الوحيد في المطالبة بتقليص قواعد النحو ، فهي في الواقع ضرورة حضارية ملحة شعر بها الكثيرون . وقد أشارت الى ذلك جريدة « العلم » المغربية في ٣٠ آذار ١٩٧٤ حيث قالت ما نصه « النحو لازال رغم جهود اكثر من نصف قرن غير ميسر ولا زال حتى الآن موضوع أخذ ورد ، لذلك وجه اتحاد المجامع اللغوية العربية الدعوة الى كل من مصر وسوريا والعراق لعقد ندوة في القاهرة خلال العام الحالي لمناقشة موضوع تيسير النحو » .

لست أدري ماذا حل بهذه الدعوة ، وهل تم عقد الندوة أم لا . واني على أي حال أعتقد اعتقادا جازما بان بقاء النحو على حاله مضر كل الضرر

بمسيرتنا الحضارية ويؤدي الى كثير من التبذير في جهودنا الفكرية دون ان
 ينفعنا شيئاً . وقد قال لي أحد المختصين بالنحو ان ثلاثة ارباع القواعد
 النحوية التي تدرس الآن في المدارس يمكن ان تلغى من غير ان ينتج عن
 ذلك أي ضرر . والواقع اني لا أفهم لماذا هذا التعصب للنحو عند بعض
 مثقفينا مع العلم ان معظم القواعد النحوية انما اختلقها النحاة المرتزقة في
 العصر العباسي وما بعده لكي يجعلوها أداة للتمايز الطبقي ، أي لكي
 تمكن الطبقة اشرفة من التحذلق في لغتها بحيث يصعب على السوقة
 مجاراتهم فيها^(١) .

لا انكر ان القواعد النحوية موجودة في جميع لغات العالم ، وليس
 في العالم لغة من غير نحو ، انما تفاوتت اللغات فيما بينها في مبلغ
 هافي نحوها من سهولة او صعوبة . واني في زيارتي لبولندا مؤخرا وجدت
 لغتها تتميز بقواعد نحوية في غاية الكثرة والتعقيد ، ولكن الذي لاحظته ان
 البولنديين لا يشعرون بصعوبة كبيرة فيها اذ هي قواعد مطبقة في اللغة
 الدارجة التي يتكلم بها الناس في حياتهم اليومية ، وينشأ عليها الضمير
 فيعود عليها وتصبح عنده بمرور الزمن كأنها طبيعية . وهنا منشأ الفرق
 بينها وبين قواعد نحونا ، فان الطفل عندنا لا ينشأ عليها بل هو يتعلمها في
 المدرسة فقط ، وهو بعد اداء الامتحان فيها ينساها ، ولهذا لانجد بين
 متعلمينا من يستطيع الخطابة ارتجالا مع المراعاة التامة لقواعد النحو الا
 نادرا . واذا ظهر مثل هذا الشخص فإنه يشعر كأنه يملك موهبة ثمينة
 جدا ، وهو قد يسرع الى الصعود الى منصة الخطابة في كل مناسبة ، او بغير
 مناسبة احيانا ، لكي يظهر « عبقريته الفذة » للناس .

اني - كما يعلم القارىء - كنت قد صممت على مخالفة قاعدتين من

(١) بحثت هذا الموضوع باسهاب في كتابي « اسطورة الادب الرفيع »
 المطبوع في عام ١٩٥٧ ، فليراجع .

قواعد النحو التي تدرس في مدارسنا وهما : (١) اعراب اسماء الاعلام الحديثة كفيصل وأبو الحسن ومحمد علي ، (٢) حذف الياء من الاسماء المنقوصة كسامي وكافي وراضي وساري ، والغريب ان بعض النحويين جاؤوني يقولون ان هاتين القاعدتين قد أجاز النحاة القدامى مخالفتها وانك لم تأت بشيء جديد . فكان جوابي لهم : اذا كان ماتقولونه صحيحا فلماذا اذن تدرس هاتان القاعدتان في المدارس ؟ ولماذا يرسب التلميذ اذا خالفهما ؟ ان هذا معناه ان النحاة الحديثين أكثر تزمنا وتعصبا من القدامى . ولست أدري متى ينقذ الله الامة من هذه المحنة ؟!

شكر :

لا بد لي في هذه المناسبة من ابداء الشكر للذين اعانوني في تأليف هذا الجزء ، وقد فاتني أن اشكرهم في الاجزاء السابقة ، وأخص بالذكر منهم القائمين بشؤون مكتبة كلية الآداب ، والمكتبة المركزية ، ومكتبة المتحف ، والمركز الوطني للوثائق ، والمكتبة الوطنية ، ومكتبة المجمع العلمي ، ومكتبة الدراسات العليا في كلية الآداب ، ومكتبة قسم الاجتماع في كلية الآداب . كما أشكر الشيخ مهدي الخالصي الصغير على اعارته ايادي جميع الوثائق والمذكرات المخطوطة التي في حوزته . وأشكر السادة الافاضل : سلمان الصفواني وسامي خوند و عبدالرزاق الفضلي واحمد الراوي وعبدالحميد الياسري وصائب شوكت وعبدالهادي الظاهر ، والمرحومين احمد زكي الخياط ومهدي البصير ، على السماح لي بالاطلاع على مذكراتهم او التحدث اليّ عن بعض الاحداث التي شهدوها . فالى هؤلاء جميعا ، وإلى غيرهم ممن لاتحضرني أسماؤهم في هذه الساعة ، أقدم شكري الجزيل .

الفصل الاول

انشاء الحكومة العراقية

أشرنا في الجزء الخامس من هذا الكتاب^(١) الى ان السر برسي كوكس قد استدعي الى لندن في ٦ حزيران ١٩٢٠ - وكان يومذاك وزيرا مفوضا لبريطانيا في طهران - للتشاور معه حول انشاء ادارة مؤقتة في العراق . وبينما كان كوكس في طريقه الى لندن نشبت الثورة في العراق . وحين وصل الى لندن وجد فيها ضجة حول الثورة . يقول كوكس في تقرير له :

« عند وصولي الى لندن بعد بضعة ايام وجدت الرأي العام البريطاني قد اضطرب كثيرا من الوضع الذي وصلت اليه الامور في العراق ، وحصل هياج شديد لدى فريق من الصحف البريطانية اذ هي أخذت تطالب الحكومة بوجوب الجلاء عن العراق وايقاف الخسائر التي تكبدها هناك . وكانت الحكومة البريطانية نفسها مضطربة جدا من جراء البرقيات المقلقة التي كانت ترد اليها من بغداد ، وكان هناك خلاف كبير في الرأي حول الخطة المثلى التي يجب اتباعها وعلى أي حال فقد كان واضحا ان الثورة يجب ان تقمع قبل اتخاذ اية خطة في العراق . وأصبح السؤال الذي يشغل البال هو ماذا نعمل بعد عودة الاستقرار الى العراق ، هل نوقف خسائرنا ونترك الانتداب ونجلو عن العراق أم نصب حكومة وطنية - اذا كان في الامكان نجاح مثل هذه الحكومة ؟ ولما سئلت عن رأيي في الموضوع بصفتي الضابط الموجود في الموضع الذي تجرى فيه الاحداث ، كان جوابي ان الجلاء عن العراق لا يمكن التفكير به ، اذ ان ذلك لا يؤدي فقط الى التخلي

(١) تأجل طبع الجزء الخامس لعدم استكمال البحث فيه ، وسوف يصدر قريبا - ان شاء الله .

عن العراق وعن سبعة او ثمانية ملايين باون من رؤوس الاموال المستخدمة من قبلنا في العراق ، انما يعد في الوقت نفسه خرقا كبيرا لجميع التعهدات التي قطعناها على انفسنا للعرب اثناء الحرب العالمية ، كما ان البلاد ستعود الى الفوضى والى الحكم التركي حالما تترك العراق . واخيرا فان جلاءنا عن العراق سوف يثير الكراهية النشطة ضدنا لدى السكان الذين غدرنا بهم ، وسوف نحتاج عندئذ الى فرقة عسكرية اخرى لتأمين جلائنا من البلاد . اما عن السؤال حول احتمال النجاح في نصب حكومة وطنية فكان جوابي ان الامر يستحق المجازفة فيما اذا اعتبرناه الخيار الوحيد بدلا عن الجلاء ، ولو اني لست واثقا من ذلك كالم الثقة . وبعد مناقشات طويلة سئلت هل انا مستعد لتحمل عبء انشاء الحكومة الوطنية في العراق فيما اذا استقر الرأي على ذلك ، فأجبتهم بالايجاب ،... (٢) .

توديع واستقبال :-

وافقت الحكومة البريطانية على اقتراح كوكس وانا طت به مهمة انشاء حكومة وطنية في العراق . وفي ٢٠ آب ١٩٢٠ غادر كوكس بريطانيا بحرا ترافقه زوجته وثلاثة رجال لمساعدته في مهمته كان فيلبي احدهم . وبينما كان كوكس في طريقه الى العراق كان السر أرنولد ويلسون الذي كان يشغل منصب الحاكم السياسي العام فيه بالوكالة يستعد لمغادرته . وفي ١٩ ايلول اقام السيد طالب النقيب ببغداد حفلة توديعية لويلسون ألقى فيها جميل صدقي الزهاوي كلمة اطرى فيها على خدمات ويلسون للعراق واذم الثورة والثوار ، كما ألقى السيد طالب كلمة أخرى بمثل هذا المعنى . وقام ويلسون أخيرا فشكر صاحب الدعوة والحاضرين وأبدى اسفه على عدم تمكنه من اتمام خدمته للعراق .

(2) Lady Bell (The Letters of Gertruda Bell) - London 1947
- P 426-427.

وفي اليوم التالي أقيمت حفلة أخرى في دائرة السكك الحديدية ألقى فيها ويلسون كلمة طويلة سجل نصها في مذكراته وفيها نسب سبب الثورة أولاً إلى السياسة البريطانية التي شجعت القومية في العراق دون أن ترسل أوامر محددة لإنشاء حكومة محلية في الوقت المناسب ، وثانياً إلى زعماء المعارضة الذين وصفهم بقلة التبصر والتعصب والفوضوية^(٣) .

وفي ٢٤ ايلول غادر ويلسون بغداد بالقطار إلى البصرة ، ثم غادرها بعدد السيد طالب من أجل استقبال كوكس . وفي مساء ١ تشرين الأول وصل كوكس وحاشيته إلى البصرة ، وكان في استقبالهم حشد كبير من الناس وفي مقدمتهم ويلسون والسيد طالب . وفي اليوم التالي أقيمت حملة كبرى في جداول البصرة احتفاءً بكوكس حضرها الشيخ خزعل . وفي مساء اليوم نفسه أقام السيد طالب وليمة فخمة في قصره المطل على شط العرب في السيليات . وفي تلك الليلة أهدى أعيان البصرة سيف شرف لويلسون بمناسبة مغادرته العراق ، كما خطب عبداللطيف النذيل ومزاحم الباججي في الثناء على الخدمات التي أسداها ويلسون في العراق . وقد سجل ويلسون في مذكراته جزءاً من خطاب الباججي فنقل فيما يلي نبذة منه :

« ويؤسفني جداً أن تؤدي حماقات الأفراد العرب إلى ازعاج الأمة البريطانية في مهبتها المشرفة . لقد ارتكبت هذه الأعمال بسبب أحلام لا يمكن تحقيقها من جهة ، ولمصالح شخصية من جهة أخرى . إن الحركة الحالية - يقصد الثورة - ليست عربية خالصة ، إنما هي حركة يختلط بها عنصر اجنبي كان مع الأسف الشديد ناجحاً في استغلال الشهرة والثروة والدماء العربية لمنفعته الخاصة من أجل اضماعاف مركز بريطانيا العظمى في بلاد أخرى . فلا تقفوا بالمظاهر التي هي خداعة في الغالب

(3) Wilson (Loyalties) - London 1932 - vol. 2, P. 318-320.

ولا سيما في الشرق • ولا تعتبروا الثورة الحالية التي تقوم بها بعض القبائل البدوية ثورة وطنية حقة تنشد الاستقلال اذ لايمكن ان تعتبر مثل هذه الحركة ممثلة لشعور المجتمع كله • ان الاسر المتنفذة في بغداد لاتعطف على حركة خربت بلادها • ان هذه هي مشاعر الناس الذين لآرائهم وزنها ، وهم يتلهفون الى نقل ما يفكرون ويشعرون به الى اولئك الذين يطالبون في بريطانيا بالانسحاب من هذه البلاد • فهم لا يستطيعون ان يدركوا ان الانسحاب لايعني أقل من انتهاك حرمة القانون وتدمير الشعب وما يعقب ذلك من انتشار الفوضى في انحاء البلاد الامر الذي قد ينطوى على نشوب حرب آسيوية لايمكن لبريطانيا ان تقف في معزل عنها» (٤) •

وفي صباح اليوم التالي اصطف حرس الشرف على رصيف الميناء لتوديع ويلسون • يقول فيلبي في مذكراته عن ويلسون : « وقد جرى لي حديث معه قبل الرحيل فوجدته مستاءا استياء مرا من سير الامور بوجه عام ، ومن نظام الحكم الجديد المقترح على الاخص ، حيث ان ذلك كان يعني انتهاء احلامه المزوقة عن العراق كدرة لامعة في التاج البريطاني • وفي الاخير كان الاسف يغمرني عندما رأيته يرحل ، حيث ان مزاياه العظيمة التي لامناقشة فيها قد تبددت من اجل انحراف بالي في الرأي ، وان البناء الذي حاول تشييده قد انهار فأصبح انقاضا بالية على مسمع منه • والخيبة من هذا القيل لاسبيل الى الرحمة فيها •» (٥) •

بين فيلبي والسيد طالب :

مكث كوكس في البصرة بضعة ايام ، وذهب بالطائرة الى الناصرية والعمارة والقرنة وقلعة صالح ، حيث تداول مع وجهاء المدن ورؤساء

(4) Ibid - vol. 2, p. 821.

(٥) جون فيلبي (ايام فيلبي في العراق) - ترجمة جعفر خياط - بيروت ٩٥٠ - ص ٣٨-٣٩ •

العشائر حول المهمة التي جاء من أجلها • وبعد ان اتم مداولاته غادر البصرة مع حاشيته بإخرة نهريّة متوجّها الى بغداد ، وكان في صحبته بالباخرة السيد طالب النقيب •

جرى في الباخرة التّقاء وحديث خاص بين فيليبي والسيد طالب ، وكان فيليبي قد تعرف على السيد طالب قبل هذا في الاسكندرية بمصر ، وعندما التقيا الآن في الباخرة اخذ السيد طالب ييوح له بسرّه وهو انه يطمع ان يكون ملكا على العراق تحت الرعاية البريطانيّة • وقد احتفظ فيليبي بهذا السر فلم يبيع به لاحد حتى لرئيسه كوكس •

ويخيل لي ان فيليبي كان في ذلك الحين يريد ان يقوم بدور كالدور الذي قام به لورنس في الحجاز اثناء الحرب • ولعل فيليبي كان يبحث عن شخصية عراقية تساعد في اداء هذا الدور على نحو مافعل فيصل مع لورنس • ومن الممكن القول ان فيليبي وجد ضالته في شخصيّة السيّد طالب • ان فيليبي بعبارة اخرى ربما كان يطمح ان ينال شهرة عالميّة من طراز الشهرة التي نالها لورنس في مغامراته في البلاد العربيّة • تتبين هذا مما كتبه فيليبي في مذكراته في وصف السيّد طالب على اثر اجتماعه به في الباخرة ، فهو يقول في ذلك ما يلي :

« والحقيقة هي انني كان لي أمل كبير في مستقبله ، حيث كان من الواضح أنه ابرز شخصيّة في العراق في الذكاء وقوة الشخصية ، لكنه كان على جانب كبير من الطيش والغرور ولذا كان مرهوب الجانب عند الناس ومكروها من معظمهم • واذا كان في الامكان الاستفادة من مزاياه الحميدة واستخدامها تاما فاني كنت اتكهن له ان دوره سيكون اداة مصائر العراق المستقل لعدة سنوات تأتي في ارجح المناصب التي تحتمها الظروف والاحوال - كمنصب رئيس وزارة مثلا أو رئيس جمهوريّة • ومنذ ذلك الحين أخذت أدربه على الاضطلاع باحد هذين

الدورين ويعجب عليّ ان اعترف هنا انه كان تلميذا ذا اهلية وقابلية بشرط ان تكون اليد التي تدربه فيها شيء قليل من الود والصدقة . وربما كنا قد نجحنا معه لولا ان تقف في سبيل ذلك بعض الظروف الخاصة...» (٦)

والغريب انه في الوقت الذي كان فيه فيلي قد اكتشف السيد طالب وصمم على تدريبه ، كانت المس بيل في بغداد قد بدأت تتخوف من السيد طالب ونحاول تهديمه . والمظنون ان ساسون حقيق هو الذي جعلها تتخوف من السيد طالب ، فقد كان هذا الرجل يعقت السيد طالب كل المقت ، وكانت المس بيل من جانبها شديدة الاعجاب بساسون حقيق وتأثر بأرائه .

كُتبت المس بيل في ١٠ تشرين الاول تقول انها اجتمعت بساسون حقيق قبل بضعة ايام وجرى بينهما حديث لطيف حول السيد طالب حيث قال لها بصراحة : ان الناس يكرهون السيد طالب ولكنهم يتظاهرون بحبه خوفا منه ، ولهذا فهم اذا علموا بان الانكليز يؤيدونه وافقوا على ذلك ظاهرا بغض النظر عما يكونه في قلوبهم نحوه . ويروي ساسون لها قصة شاهدها بنفسه عندما كان هو والسيد طالب عائدتين الى البصرة باخرة واحدة في أواخر العهد العثماني فيقول : صدقني ياخاتون ان اهل البصرة خرجوا كلهم الى المحمرة لاستقبال السيد طالب ، وقد كانوا كلهم بلا استثناء يبغضونه ويرهبونه ، فكان اشدهم بغضا له اكثرهم اظهارا للود له ، فلقد كانوا يومذاك خائفين منه ، وسيكونون كذلك في هذا اليوم (٧) .

لم تحب المس بيل ان يصل السيد طالب الى بغداد وهو في صحبة كوكس ، ذلك لان السيد طالب عند وصوله مع كوكس سيبدل جهده لكي

(٦) المصدر السابق - ص ٣٩ - ٤٠ .

(٧) Burgoyne (Gertrude Bell) - London 1961 - vol. 2. P. 170-171.

يظهر كأنه يتملقه ويقدمه الى الجمهور تحت رعايته • ولهذا ابرقت المس
بيل الى كوكس تقترح عليه أن يرسل السيد طالب الى بغداد قبله • وقد
فعل كوكس ما اقترحته عليه المس بيل حيث مكث هو وحاشيته في الكوت
يوماً واحداً وارسل السيد طالب الى بغداد بالقطار • وكان القطار يومذاك
موجوداً بين الكوت وبغداد •

وصول كوكس :

وصل كوكس وحاشيته بالقطار في ١١ تشرين الاول ، في الساعة
الخامسة والنصف مساءً ، وقد أعد له استقبال فخيم في محطة باب الشيخ ،
وكان على رأس المستقبلين السيد طالب والجنرال هالدين • فاطلقت
المدافع سبعة عشر طلقة وعزفت الموسيقى العسكرية مقطوعة : يحمي الله
الملك ، والمقصود بها الملك جورج الخامس طبعاً •

وبعدما تم تقديم المستقبلين الى كوكس تقدم الشاعر جميل صدقي
الزهاوي فألقى قصيدة من ثلاثة واربعين بيتاً مدح فيها الانكليز وضم الثورة •
وهذه ابيات نموذجية منها :

عد للعراق واصلح منه ما افسدا
وابث به العدل وامنح أهله الرغدا

ان العراق لسعود برؤيته
أباً له من بلاد العدل قد وردا

ارأف بشعب بغاة الشر قد قصدوا
اثارة الشر فيه وهو ما قصدوا

ظنوا الهدى في الذي جاؤوه من عمل
وقد يكون ضلالاً ما يمد هدى

قالوا عسى أن تنيل الشعب ثورته
سعادة غير أن الشعب ما سعدا

فيالها فتنة عيباء ثائرة

قد عذبت من بينها الروح والجسد

احزم بناس رأوا في أرضهم فتناً

فلم يكونوا لمن قاموا بها سنداً^(٨)

وبعد ان انتهى الزهاوي من قصيدته ألقى كلمة في ذم الثورة ، وكان من جملة ما قاله : . . . قد زال ايها الاب المشفق بعدك الامن الذي وطدته في ربوع العراق وأخذت الفتن والاضطرابات والمخاوف وباللاسف تحل مكانه فتعبت بالراحة التامة . . . ،^(٩) .

ولما انتهى الزهاوي من كلمته تكلم كوكس فقال : « يا جميل أفندي ، ويا ايها المندوبين » ان دولة انكلترا ارسلتني للمساعدة والاتفاق مع اشراف ورؤساء العراق لتحصل على الغاية المطلوبة للطرفين ، وتأليف الحكومة العربية حكومة مستقلة بنظارة دولة انكلترا ، ولقد جئت لهذا المقصد ، ولكن مازال الاغتشاش مستمرا ، طبعا لايمكن العمل ، وانا حاضر عندما تحصل الفرصة وهذا شيء بيدكم ،^(١٠) .

يبدو ان الاستقبال لم يعجر على ما يرام ، وقد أشارت المس بيل الى ذلك في احدي رسائلها حيث قالت ان حفلة الاستقبال التي جرت فسي المحطة أغضبت الكثيرين من وجهاء بغداد ورؤساء العشائر الذين كانوا مدعويين اليها ، فقد جاء بعض هؤلاء اليها في دائرتها في اليوم التالي يشكون اليها من الاهانة التي لحقت بهم هناك اذ لم يسمح لدخول المحطة الا لعدد

(٨) ابراهيم الوائلي (ثورة العشرين في الشعر العراقي) - بغداد ١٩٦٨
- ص ١٥٣ - ١٥٨ .

(٩) جريدة (العراق) - في عددها الصادر في ١٢ تشرين الاول ١٩٢٠ .

(١٠) عبدالرزاق الحسيني (الثورة العراقية الكبرى) - صيدا ١٩٧٢ -
ص ٢٥٢ .

قليل من المدعويين ، أما اكثرهم فقد حشروا خارج السياج في الغبار فلم يتمكنوا من مصافحة السر برسي كوكس . وقد قال لها شيخ محترم من رؤساء العشائر وهو في اشد الغضب : « اننا جئنا جأ وطاعة ولكننا عندما حاولنا الاقتراب من صاحب الفخامة دفعونا بعيدا » . وقد حصل هذا حتى لاختوة النقيب^(١١) . وتعلق المس بيل على ذلك قائلة : « ومما زاد في العطين بلة ان الشخص الذي فعل هذا بالمدعويين هو الميجر ديلي أي نفس الرجل الذي اعتبره الجميع المسؤول شخصيا عن ثورة الفرات العشائرية »^(١٢) .

الانكليز الغاضبون :

أصبح كوكس منذ وصوله الى بغداد يلقب بـ « الندوب السامي » وكان قبلئذ يلقب بـ « الحاكم السياسي العام » . وكان القصد من ذلك الاشارة الى انه لم يعد حاكما على العراق بل اصبح مندوبا عن بريطانيا لانشاء حكومة وطنية فيه .

عين كوكس المس بيل في وظيفة « السكرتيرة الشرقية » له . وأخذت المس بيل بالتعاون مع فيليبي تعمل على اعداد قائمة تضم اسماء مائة من الوجهاء لمقابلة كوكس ، كما اعدت قائمة اخرى بأسماء بعض الخاصة الذين يجب ان يتداول كوكس معهم تداولا شخصيا حول نظام الحكم المنوي اقامته في العراق . وقد أشارت جريدة « العراق » الى الاجتماع الذي عقده كوكس مع الخاصة ، وكان قد جرى في صباح ١٣ تشرين الاول ، حيث تكلم فيه كوكس حول تشكيل حكومة مؤقتة ، فقام السيد ابراهيم الراوى فتكلم في وجوب معاونة الحكومة البريطانية ، ثم قام الشيخ كاظم الدجيلي فألقى كلمة مطولة شرح فيها سبب القلاقل الحالية - يقصد أحداث الثورة - وقال انها نشأت من جراء عدم التفاهم الذي أحدثته

(11) Lady Bell (op. cit.) - P. 455-456.

(12) Burgoyne (op. cit.) - vol. 2, P. 178.

التطرفون من الجهتين ، فلو ان الفريقين تساهلا وتفاهما لكان في ذلك سعادة العراق . (١٣) .

بينما كان كوكس يقوم بمداولاته كانت هناك فئة كبيرة من الموظفين الانكليز في العراق غير راضية عن هذه المداولات وعن السياسة الجديدة التي شرعت الحكومة البريطانية باتتهاجها في العراق . يقول آيرلاند في هذا الصدد : ان كثيرا من الموظفين الاداريين كانوا يرتابون من تشكيل حكومة عربية حتى انهم كانوا لا يخفون مشاعرهم في معارضتها ، فقد كان اكثرهم مؤيدين وموالين لويلسن ولرأيه في الدور الذي يجب أن تقوم به بريطانيا في العراق ولم يكن في وسعهم قبول وجهة النظر الجديدة التي جاء بها كوكس (١٤) .

لقد كان هؤلاء الانكليز المعارضون لخطة كوكس متشبعين بما يسمى برسالة الرجل الابيض في تمدين الشعوب ، فقد كان رأيهم ان العراقيين لو اتيح لهم الاستقلال التام في حكم انفسهم لاكل بعضهم بعضا ، ولهذا أصبح من واجب بريطانيا أن تستمر في حكم العراق مدة كافية الى ان يتعود العراقيون على الحياة المدنية الحديثة ويتركوا عاداتهم القبلية القديمة في الغزو والنار وسفك الدماء .

صدر في لندن في عام ١٩٢٣ كتاب يمثل وجهة النظر هذه لمؤلف اسمه توماس ليل كان موظفا في العراق في تلك الايام ، فهذا الرجل لا يكتفي بالقول ان العراقيين غير اكفاء للحكم بل يعمم القول على المسلمين كلهم ، وعلى الشيعة منهم بوجه خاص . فهو يقول في مقدمة كتابه ما نصه : « اني مقتنع اقتناعا قويا نتيجة اطلاع شخصي دقيق ان الدين

(١٣) جريدة « العراق » - في عددها الصادر في ١٧ تشرين الاول ١٩٢٠ .

(١٤) فيليب آيرلاند (العراق - دراسة في تطوره السياسي) - ترجمة جعفر خياط - بيروت ٩٤٩ - ص ٢١٧ .

الاسلامي ليس تقدما ، وانه ذو أثر مضعف للشخصية ومخرب لكل نزعة في المواطنة او التماسك الاجتماعى او الطموح القومى . وقد دفعنى هذا الاقتناع الى القول بان الرجل المسلم ، وخاصة الرجل الشيعي ، لا بد ان يبقى لسنوات عديدة غير لائق تماما للحكم الذاتى ، وهو انما يطلب الحكم الذاتى لانه يجد فيه فرصة لكي يتخلص من القانون والنظام ، (١٥) .

ويوجه ليل اللوم الى كوكس واعوانه الذين اخذوا يشوهون سمعة ويلسون ويعدون سياسته السبب الاكبر في الثورة . ان ليل يعتبر ويلسون رجلا عظيما ، ويعزو سبب الثورة الى ان العشائر هي في ثورة دائمة ضد كل حكومة ، وانها قد وجدت نفسها في عهد ويلسون تخضع للنظام لاول مرة في تاريخها . ويقول ليل ان الثورة كان المفروض ان تحدث قبل الوقت الذى حدث فيه فعلا وان سبب تأخرها يعود كله الى الجهود الدائبة التى بذلها ويلسون . ثم يقول ليل : « ليس هناك رجل يستحق التأييد الصميمي من ابناء بلاده كالسر ارنولد ويلسون ، ولكنهم مع ذلك تخلوا عنه مرة بعد اخرى . فافترى عليه أولئك الذين هم في انكلترا ، وحتى أولئك الذين كانوا يعملون سابقا تحت رئاسته . . ان من سوء الحظ ان تشجع الهيئة الجديدة - يقصد بهم كوكس واعوانه - مشاعر الناس ضد ادارة السر ارنولد ويلسون . فكان من اول اعمال هذه الهيئة استدعاء السويدي الملوّث . . . واصدار العفو عن الذين عاقبهم ويلسون . أما الذين هربوا خوفا من العقاب فقد طلب منهم العودة . وخففت الضرائب على الجميع ، فأخذ العرب يلهجون عاليا بمديح الحكومة » . ويقول ليل ان هذه السياسة الجديدة في تخفيف الضرائب ، ولا سيما على الشيوخ الذين قادوا الثورة ، سوف يكون لها أثرها على دافع

(15) Thomas Lyell (The Ins and Outs of Mesopotamia) - London 1928- P. 7.

الضريبة البريطانية دون ان يكون وراها أي مبرر • ثم أبدى ليل ألمه مما قام به احد المتحمسين من اعوان كوكس حين تكلم امام جمع من البغداديين فانتقد ويلسون بشكل طائش من غير ان يتوقف لحظة ليفكر في تأثير هذا الكلام على الاذهان الشرقية (١٦) •

استمر كوكس سائرا في طريقه غير مكترث بمعارضة هؤلاء • فقد كان يعلم مالا يعلمون • يقول آيرلاند : « لما كان السريرسي كوكس مقتنعا بان الحالة تتطلب اما تأسيس حكومة عربية او اخلاء البريطانيين للبلاد فقد مشى في طريقه برغم المناقشة التي اثيرت في الدوائر الرسمية » (١٧) •

اختيار رئيس الوزارة :

استقر رأى كوكس على ان يعمل في أول الامر على تشكيل وزارة موقفة ، أما موضوع اختيار الامير او الملك للبلاد فقد أجهل الى ما بعد ذلك •

أن المشكلة الاولى التي واجهت كوكس في هذا الشأن هي : من الذى ينبغي أن يتولى رئاسة الوزارة الموقفة المنوى تشكيلها ؟ • وقد اتجه تفكير كوكس في البداية الى ترشيح السيد طالب لرئاسة الوزارة ولكن المشاورات التي أجراها مع مستشاريه جعلته يغير رأيه (١٨) •

كان من رأي كوكس ومستشاريه ان أفضل من يمكن ان يتولى رئاسة الوزارة هو نقيب اشراف بغداد عبدالرحمن الكيلاني ، ولكن المشكلة هل يقبل النقيب ان يفعل ذلك ؟

(16) Ibid (op. cit.) - P. 204-210.

(١٧) فيليب آيرلاند (المصدر السابق) - ص ٢١٧ •

(١٨) المصدر السابق - ص ٢١٨ •

كان النقيب يومذاك في الثامنة والسبعين من عمره ومصابا بداء
المفاصل ، وكان فوق ذلك زاهدا بالدنيا ومناصبها ، وقد اعتاد ان يصف
نفسه بـ « الدرويش » ، اضاف الى ذلك انه كان يعتبر قبوله المناصب في
ظل الحكم البريطاني مما يحط من مكانته الدينية في نظر اتباعه المتشربين
في العالم . وقد ذكرت المس بيل في تقرير لها كُتِبَته في عام ١٩١٩ انها
عرضت عليه امارة العراق عامئذٍ فرفض ذلك بشدة . فهي تقول في هذا
التقرير : انها زارته في بيته في ٦ شباط ١٩١٩ وبعد حديث طويل معه
وجهت اليه هذا السؤال : « اذا اقتضت الضرورة لاسباب سياسية لايمكن
التكهن بها مقدما ، أن ينصب على رأس الدولة العراقية أمير من الامراء
فهل يسعكم قبول هذه المسؤولية بمعونتنا وتعضيدنا لكي نتجنب انتخاب احد
الامراء من الحجاز ؟ » فكان جوابه وهو مصحوب بتأكيد شديد : « كيف
يمكنك اللقاء مثل هذا السؤال عليّ ؟ أنا درویش فہلا تعصمني عادتسى
هذه ؟ » وأخذ يؤشر بالاشارة المعروفة بتحريك جبته السوداء ، ثم استمر
قائلا : « ان صيروتى رئيسا سياسيا للدولة هي ضد أشد مبادئ عقيدتى
تأصلا ، ففي أيام جدى عبدالقادر اعتاد الخلفاء العباسيون استشارته كما
تطلبين أنت وزملائك مشورتى الآن ، لكنه لم يكن يوافق على الاشتراك
في الشؤون العامة . وسوف لا اوافق أنا ولا أي احد من احفاده على ان
نفعل ذلك . هذا جوابي من الوجهة الدينية ، لكنى سأعطيك جوابا يستند
على اسباب شخصية . فاني متقدم في السن . وأرغب في أن اقضي
الخمس او الست سنوات التي بقيت من حياتي في الدرس والتأمل ، حيث
انهما مشغوليتى المستديمة » . وبعد سكوت قليل قال رافعا صوته : « سوف
لا تراجع عما قلته الآن حتى اذا كان في ذلك انقاذ العراق من الدمار
التام » (١٩) .

(١٩) مس بيل (فصول من تاريخ العراق القريب) - ترجمة جعفر
الخياط - بيروت ١٩٧١ - ص ٤٨٠-٤٨٠ .

مهما كان الحال فقد قرر كوكس ان يعجب حظه وان يذهب الى النقيب بنفسه يعرض عليه رئاسة الوزارة • وقد ذهب اليه فعلا في يوم ٢٣ تشرين الاول • تقول المس بيل : انها بينما كانت جالسة في دائرتها مع فيليبي في ذلك اليوم اذ دخل عليها السر برسي كوكس وهو يلهث من التهيج وهتف قائلاً : « نعم ، لقد قبلها ! » ، وتعلق المس بيل على ذلك قائلة : « وهكذا حصل اول نجاح ، ولم يكن هنالك غير السر برسي قادراً على القيام به ، والحق ان اقناع النقيب بان يشارك في الامور العامة شيء قريب من المعجزة • ان فرح السر برسي بهذا النجاح كان مساوياً لفرحنا نحن ، فبقينا نصف ساعة نتطايّر من الفرح ونمجّد النقيب كما نمجّد المندوب السامي ، (٢٠) •

يواجهنا هنا سؤال مهم : كيف تمكن كوكس من اقناع النقيب بتحمل مسؤولية رئاسة الوزارة • أو بعبارة اخرى ماهو السبب الذي جعل النقيب يرضى بتولى رئاسة الوزارة في عام ١٩٢٠ بينما كان في العام الماضي يرفض امانة العراق رفضاً باتاً ؟

انا لانجد في جميع المصادر التي بين ايدينا ما يكشف لنا عن سر هذا التحول العجيب في موقف النقيب ، وهو سر جدير بالباحثين أن يدرسوه ويميطوا اللثام عنه •

تشير بعض القرائن الى ان كوكس انما استطاع اقناع النقيب عن طريق ضربه على بعض الاوتار الحساسة في قلبه • فالمعروف عن النقيب انه كان يمقت الثورة والقائمين بها مقتاً شديداً كما كان يمقت المجتهدين الذين ايدوا الثورة بقاوتهم • وكان كذلك يشمئز من وضع مقاليد الحكم في ايدي كل من هب ودب من الناس بل يرى وضعها في ايدي الاشراف

(20) Lady Bell (op. cit.) - P. 460.

من ابناء الاسر وذوي النسب والحسب • والمظنون ان كوكس عندما ذهب الى النقيب يحادثه في أمر تشكيل الوزارة اخذ يضرب على مثل هذه الاوتار الحساسة ، وربما ذكر له ان قيامه بتولى المسؤولية أمر واجب عليه يفرضه الشرع والعرف وانه اذا لم يفعل كان مقصرا في واجبه نحو بلاده ومعقده الديني • ويخيل لي ان كوكس قال له محذرا انه اذا لم يقبل تولي المسؤولية فسيضطر هو الى وضعها في أيدي اناس من الفئة التي يمتقتها مقتا شديدا ، وسيكون في ذلك خراب البلاد • يقول آيرلاند : ان كوكس ناشد النقيب بواجبه نحو البلاد وألح له عن المطامع الشخصية لدى الآخرين ومدى الضرر الذي سوف يقع من جرائها اذا لم يتول هو تشكيل الوزارة (٢١) :

اختيار الوزراء :

بعد أن رضي النقيب بتولى رئاسة الوزارة ظهرت مشكلة اخرى هي اختيار اعضائها ، ولم تكن تلك بالمشكلة الهينة في تلك الظروف • فقد كان بعض الرجال المعروفين لايقبلون بالاشتراك بالوزارة لاعتقادهم انها تحط من سمعتهم في نظر الناس ، كما ان رجالا آخرين كانت لهم أسباب اخرى تمنعهم من دخول الوزارة • وتحدثنا المس بيل في رسائلها عن الصعوبة التي جابهتها في اقناع بعض الرجال المرشحين • فهي تقول مثلا عن جعفر العسكري الذي رشح لوزارة الدفاع ، وكان قد عاد من سوريا منذ ايام قليلة ، انه جاء اليها يسألها عن رأيها فيما اذا كان اشتراكه في الوزارة سيحطم سمعته الوطنية لان الوزارة سيعتبرها الناس لعبة انكليزية ، فقامت اليه المس بيل تلومه بشدة على هذا القول ، وظللت تحاوره حتى اقنعه بالقبول (٢٢) •

وبعد جعفر العسكري جاء دور السيد طالب فهو قد رشح لوزارة

(٢١) فيليب آيرلاند (المصدر السابق) - ص ٢١٩ •
(22) Burgoyne (op. cit.) - vol. 2, P. 175.

الداخلية ، ولكنه كان منعتظا يشعر ان ذلك اهانة له لانه لا يستطيع ان يكون ذا مرتبة ثانوية حتى ولو بالنسبة للنقيب نفسه ، فحاولت المس بيل بالتعاون مع فيلبي اقناعه ، ولم يقتنع الا بعد ان طلب منهم ان يصلنوا انه يأتي بعد النقيب في المرتبة مباشرة ، فاذا تمرض النقيب او مات حل محله ، وعلى اى حال فهو يريد ان تمنح له ارفع التشريفات ويحاط بحرس شخصي كبير^(٢٣) . ويقول فيلبي في مذكراته : انه كان في ذلك الوقت على اتصال دائم بالسيد طالب حيث اشار عليه بالصبر واوصاه بالاذعان لخطط كوكس من اجل ان يتم تشكيل الحكومة المؤقتة^(٢٤) .

وعندما تم اقناع السيد طالب اعلن ساسون حسقيل الذى كان مرشحا لوزارة المالية امتناعه عن القبول . فقد كان هذا الرجل لا يحب ان يكون وزيرا مع السيد طالب في وزارة واحدة . وتصف المس بيل الجهود التي بذلتها هي وفيلبي وكلايتون لاقناعه ، فهي تقول فى ذلك مانصه : « جاءني الميجر بيتس لتناول الشاي عصرا ومعه المستر تود وزوجته ، ففاجأنا المستر تود بقوله انه عندما ذهب لتهنئة ساسون افندى بوزارة المالية وجده هو وحمدى باشا بابان (الذى عرض عليه منصب وزارة بلا حقيقة) كليهما في حالة رفض ... فتركت فنجان الشاي دون ان اشربه واسرعت عائدة الى الدائرة . لاخبار المستر فيلبي . انه لم يكن هناك ولكني لمحت نورا في غرفة السر برسى ، فذهبت اليه واخبرته . فأمرني بان اذهب حالا الى ساسون افندى وكلفني بمحاولة تغيير رأيه . فذهبت الى ساسون وانا اشعر كأنني احمل مستقبل العراق كله على يدي وحين وصلت الى بيت ساسون شغرت بالارتياح لانني وجدت المستر فيلبي والكابتن كلايتون هناك . ذلك لان النقيب عندما تسلم رسالة ساسون بالرفض ارسلهما اليه على وجه السرعة ، وقد وصلت انا فى الوقت المناسب ، فانهما قد بذلا كل جهدهما

(28) Ibid - vol. 2. p. 177.

(٢٤) جون فيلبي (المصدر السابق) - ص ٤٦ .

لاقناعه دون جدوى • واعتقد ان قلقي الشديد لابد قد اوحى لي شيئاً لاقناعه لانه تأثر تأثراً محسوساً بعد ساعة من المجادلة المركزة معه على الرغم من ان اخاه شاؤول (الذي احترمه واعجب به ايضا) قد جاء وبذل جهده ضدنا ••• وقد استطعنا اخيراً ان نجعل ساسون افندى يوافق على مراجعة فكره والاجتماع بالسر برسى غدا • اني كنت على يقين في قلبي بان اللعبة قد كسبناها ولم انم تلك الليلة كثيراً ، فقد كنت أقلب في عقلي الادلة التي جادلته بها وتساءلت هل كان في مقدورى الاتيان بأفضل منها • وفي الصباح التالي ، يوم الخميس ، جاء ساسون افندى في الساعة العاشرة ، فأخذته فوراً الى السر برسى وتركه معه • وبعد نصف ساعة خرج واخبرني بانه وافق ••• (٢٥) •

أعلن تشكيل الوزارة في ٢٥ تشرين الاول وكان اعضاؤها صنفين : صنف يتألف من وزراء عاملين وعددهم تسعة ، اما الصنف الآخر فعددهم اثنا عشر وهم الذين وُصفوا بانهم وزراء بلا مناصب وزارية ، او هم حسب التعبير الفرنسي « وزراء بلا حقائب » •

كان الوزراء العاملون هم : السيد طالب للداخلية ، وساسون حسيقل للمالية ، وجعفر العسكري للدفاع ، وحسن الباججي للعديلة ، وعزت الكركوكلي للمعارف والصحة ، ومصطفى الألوسي للاوقاف ، وعبد اللطيف المنديل للتجارة ، ومحمد علي فاضل للنافة • وقد اعتذر حسن الباججي عن الاشتراك في الوزارة فحل محله في وزارة العديلة مصطفى الألوسي ، وحل محل الألوسي في وزارة الاوقاف محمد علي فاضل • وبقيت وزارة النافة شاغرة حتى ٢٩ كانون الثاني ١٩٢١ - كما سنأتي اليه •

أما الوزراء بلا مناصب وزارية فهم : حمدي بابان ، عبد الجبار الحياط ، عبد الغني كبة ، عبد المجيد الشاوي ، عبد الرحمن الحيدري ، فخرى الجميل ، محمد الصيهود ، عجيل السمرمد ، احمد الصانع ، سالم الخيون ،

(25) Lady Bell (op. cit.) - P. 460.

هادى القزوينى ، داود اليوسفانى • وقد اعتذر حمدى بابان وهادى القزوينى عن الاشتراك في الوزارة فحل محلهما ضارى السعدون ونجم البدرائى •

يقال ان تعيين هؤلاء الوزراء غير العاملين كان من بنات افكار النقيب لانه كان يريد ان يجمع في وزارته اكبر عدد ممكن من ابناء الاسر القديمة • ومن طريف ما يروى عنه في هذا الصدد انه عندما رشح فخري الجميل ليكون احد هؤلاء الوزراء تردد كوكس في قبوله فقال له النقيب : « مولاي ، انه ابن فلان ، وجده فلان ، فبأى وجه اقبل اجداده في العالم الآخر اذا لم ادخله الوزارة ، (٢٦) »

وقد عين لكل وزير عامل مستشار بريطاني يسيره ويوجهه ، وتقرر ان يعرض الوزير جميع الاعمال الرسمية على مجلس الوزراء عن طريق المستشار ، وأن تنقل جميع مقررات المجلس الى الوزير عن طريق المستشار ايضا • وللمستشار الحق في حضور جلسات مجلس الوزراء حين يجرى البحث فيها حول أعمال الدائرة المختصة به ، وان يشارك في المناقشة دون ان يكون له حق التصويت (٢٧) •

كان المستشار فى الواقع هو الحاكم الفعلي في كل وزارة تقريبا ، ولم يكن للوزير من أمر ونهي الا في نطاق محدود جدا • وقد أخذ بعض الوزراء يتذمرون من ذلك بينما سكت الآخرون وأطاعوا • وادرك الاهالى حقيقة النظام الجديد فصاروا يفضلون ان يراجعوا فى معاملاتهم المستشار بدلا من الوزير ، اذ انهم كانوا واثقين من أن حاجاتهم لا تقضى الا عن هذا الطريق • يروى ساطع الحصرى عن احد الوزراء وهو عزت الكركوكلى الذى كان في العهد العثماني قائدا عسكريا انه قال له : « أنا فى كل الوظائف التى توليتها قبلا كنت أمرا مطلقا • ولكن بعد ان صرت وزيرا

(٢٦) خيرى العمرى (حكايات سياسية) - القاهرة ٩٦٩ - ص ٤٣ •

(٢٧) فيليب آيرلاند (المصدر السابق) - ص ٢٢٢ •

هنا صار امرى لا يتعدى حدود هذا البارافان» (٢٨) .

وقد نظم معروف الرصافي في هذا الموضوع بيتين من الشعر بعنوان «حمام الوزارة» تناقلتها الافواه في ذلك الحين هما :

الا بلغوا عني الوزير مقالة
له بينها لو كان يخجل توبخ

أراك بحمام الوزارة نورة
وأما جناب المستشار فزربخ (٢٩)

وقد اشار الى مثل هذا المعنى باقر الشيبى حيث قال في قصيدة له
نظمها بعدئذ :

المستشار هو البذى شرب الطلا
فعلام يا هذا الوزير تعربد

مفارقات البداية :

وقع الاختيار على القشلة لكي تكون مقر الوزارات (٣٠) غير انها كانت في ذلك الحين مشغولة من قبل الجيش الانكليزي ، وقد طلب كوكس من الجنرال هامبرو اخلاءها ولكن الجنرال تلكأ في ذلك وماطل ، ولم يتم اخلاءها الا بعد فترة غير قصيرة .

وعندما انتقلت الوزارات الى القشلة استحوذ السيد طالب على افضل الاجنحة فيها ليكون مقرا لوزارته ، وهو الجناح الذى يقع فوق الساب الوسطى . وقد خصص السيد طالب غرفة واسعة بجانب غرفته لفيلبي البذى كان قد عين مستشارا له ، كما خصص غرفة واسعة اخرى لتكون ديوانا له يستضيف فيها زواره ويقدم لهم الطعام عندما يحين وقت الغداء . وكان السيد طالب يسكن يومذاك في دار قريبة من القشلة في محلة جديد حسن

(٢٨) ساطع الحصرى (مذكراتي في العراق) - بيروت ١٩٦٧ - ج ١ -

ص ٥١ .

(٢٩) معروف الرصافي (ديوان الرصافي) - بيروت - ص ٥١٤ .

باشا ، فكان الطعام الفاخر يجلب من داره كل يوم الى غرفة الديوان له
ولضيوفه •

والغريب ان أردأ اجنحة القشلة خصص لوزارة الدفاع ، فامتعض
من ذلك وزير الدفاع جعفر العسكري كل الامتناع • يقول فيلبي فسي
مذكراته : « جاءني جعفر باشا يشكو ، والدموع في عيونه لانه كان رجلا
حساسا شديد العصبية ، من حشره هو ومستشاره الكولونيل ايدي في
غرفة تشابه الاصطبل ليس فيها الاثاث الذي يليق بالمكتب • ألم يكن هو
وزيرا للدفاع مع لاشيء يدافع به ولا شيء يدافع عنه . . . » (٣٠)

خصص لرئيس الوزراء راتب شهري قدره سبعة آلاف روبية ، كما
خصص لكل من الوزراء والمستشارين ثلاثة آلاف روبية • والواقع ان هذا
الراتب كان يعد ضخما جدا في تلك الايام • ولم يكن من المؤلف في العهد
العثماني ان ينال احد مثل هذا الراتب الا نادرا • ويروي ان وزير العدلية
مصطفى الآلوسي حين ذهب الى المصرف العثماني لقبض راتبه الاول
وشاهد الرزمة الكبيرة من النقود الورقية التي قدمها المحاسب له ، سأل
قائلا : « أهذه الرزمة كلها لي ؟ » ولما أجابه المحاسب بالايجاب رفع
يده الى السماء بلا شعور وقال : « اللهم انصر الدين والدولة ! » (٣١) •

وعلى أي حال فان السيد طالب لم يهن عليه ان يكون راتبه مثل
راتب بقية الوزراء ، فذلك يخالف الشرط الذي اشترطه على الانكليز عند
قبوله الاشتراك في الوزارة • وفي ٢٢ شباط ١٩٢١ أرسل المندوب السامي
الى مجلس الوزراء اقتراحا بجعل راتب وزير الداخلية خمسة آلاف روبية
اسوة براتب وزير الداخلية في اسطنبول • وفي ٢٧ منه اجتمع مجلس
الوزراء للنظر في الاقتراح فقرر بالاجماع قبوله مع اضافة ألف روبية

(٣٠) جون فيلبي (المصدر السابق) - ص ٤٨-٤٩ •

(٣١) خيري العمري (المصدر السابق) - ص ٤٥ •

اليه ، وبهذا صار راتب السيد طالب ستة آلاف روبية^(٣٢) - أي ضعف راتب الوزراء ، ولا يعلوه سوى راتب النقيب .

وتروى في هذا الصدد قصة طريفة جداً هي ان الوزراء كانوا قد اتفقوا فيما بينهم قبل انعقاد المجلس على معارضة الاقتراح عند تقديمه اليهم ، واخذ يشجع بعضهم بعضاً على الصمود تجاه السيد طالب . ولكنهم عندما انعقد المجلس تحاذلوا تجاه نظرات السيد طالب المرعبة ، وكان اول المتخاذلين ساسون حسيقل حيث سارع الى القول « موافق » ، ثم أخذ الوزراء يقتدون به واحداً بعد الآخر حتى وصل الدور الى عبد المجيد الشاوي وكان معروفاً بحسن النكتة ، فهو بدلاً من أن يقول « موافق » قال « منافع »^(٣٣) . وكان في ذلك اصدقهم جميعاً !

ومن الجدير بالذكر ان مجلس الوزراء كان ينعقد في دار النقيب الواقعة على شاطئ النهر بجوار بناية المصرف الزراعي الحالية ، وسبب ذلك ان النقيب لم يكن قادراً على الخروج من داره لابتلائه بداء المفاصل . وكان المجلس ينعقد مرتين في الاسبوع ، في يومى السبت والاثنين ، فيتوجه الوزراء اليه بعد صلاة الظهر ، حيث يأتي فريق منهم راكباً بالسيارة ، وفريق بالعربة ، وآخرون على ظهور الخيل ، حتى اذا انتظم عقدهم وشربوا القهوة اشار النقيب الى سكرتير المجلس السيد حسين افنان قائلاً له « اقرأ يا ولدى » . فيباشر السيد حسين بقراءة الكتب الواردة وبعد ان يتم المجلس مداولاته يدعوهم النقيب لتناول طعام الغداء عنده ، ولا يقبل معذرة احد منهم . فاذا فرغوا من تناول الطعام وارادوا الخروج وقف السيد محمود الكيلاني ، وهو ابن النقيب الاكبر ، عند الباب على طريقة الولايم التقليدية : فهم يقولون عند الخروج « سفرة دائمة وبیت عامر » ، وهو يرد عليهم بالعبارات المناسبة^(٣٤) .

(٣٢) عبدالرزاق الحسيني (تاريخ الوزارات العراقية) - صيدا ١٩٦٥ - ج ١ ص ٢١-٢٢ .

(٣٣) خيرى العمري (المصدر السابق) - ص ٤٥-٤٦ .

(٣٤) المصدر السابق - ص ٤٣-٤٦ .

بحر العلوم الطبائبي :

كان كوكس راغبا منذ البداية في اسناد وزارة ذات حقبة الى رجل من الشيعة ، وقد وقت تجاه رغبته هذه عقبتان : اولاهما ان النقيب وبعض الوزراء المتنفذين لم يكونوا يوافقون على ذلك . والثانية هي ان الشيعة أنفسهم كانوا يحتقرون أي رجل منهم يقبل الاشتراك في الوزارة ، فاذا تجرأ أحد منهم ودخل في الوزارة نبذوه اجتماعيا وربما اهانوه . واذا كان هذا الرجل من رجال الدين اطلقوا عليه لقب « عالم الحفيز » اي صديق الانكليز او عميلهم .

تمكن كوكس اخيرا من اقناع النقيب والوزراء المتنفذين بالموافقة على اسناد وزارة ذات حقبة الى رجل من الشيعة . ففي ١٤ تشرين الثاني ١٩٢٠ كتبت المس بيل تقول : المظنون ان الوزارة سوف يعصاد توزيع المناصب فيها من اجل ادخال رجل شيعي فيها^(٣٥) . ومما يلفت النظر ان هذا الذي ذكرته المس بيل حول اعادة توزيع المناصب الوزارية لم يتحقق الا بعد مرور اكثر من شهرين ، والظاهر ان هذا التأخر نشأ من جراء صعوبة العثور على رجل من الشيعة له مكاتبة الاجتماعية ويرضى بالاشتراك في الوزارة .

تم العثور اخيرا على رجل من اهل كربلاء يرضى بذلك اسمه السيد محمد مهدي بحر العلوم الطبائبي . فأرسل اليه النقيب في ٢٤ كانون الثاني رسالة يذكر فيها اسناد وزارة المعارف والصحة اليه ، وفي ٤ شباط أجابه الطبائبي برسالة مليئة بالعبارات التقليدية الطائفة ، وهذا نصها :

حضور جناب الاكمل الافضل حضرة رئيس الوزراء نقيب الاشراف والعظيم من صفوة آل عبد مناف دام ظلّه وعلاه .

بعد السلام عليكم وعلى من يحظى شرفا بخدمتكم ورحمة الله

(35) Lady Bell (op. cit.) - P. 464.

وبركاته • لقد تشرفت اناملي اليوم باستلام أمركم الصادر علي المؤرخ
١٤ جمادى الاولى ١٣٣٩ متهيجا به حيث أنابني عن توجيه أطفاكم علي
مخلصكم واني لافخر بخدمة الوطن والملة التي اصبحت زعيمها وعظيمها
ولو لم يكن بها من الشرف الا امتثال أوامركم لكفاني فخرا وها أنسي
مترقب اجراء أمركم السامي سعيًا علي العين لاسعيًا علي القدم •

٢٥ جمادى الاولى ١٣٣٩ بحر العلوم زادة : محمد مهدي (٣٦)

كان عزت الكركوكلي يتولى حينذاك وزارة المعارف والصحة ،
فجرى نقله الى وزارة النافعة بعد تبديل اسمها الى « وزارة الاشغال
والمواصلات » • وفي ٢٢ شباط تم اسناد وزارة الصحة والمعارف الى
الطباطبائي •

ومما يجدر ذكره في هذا الصدد ان الطباطبائي كانت له خدمة سابقة
في وظائف الحكومة في بداية الاحتلال ، حيث ورد اسمه في القوائم التي
ذكرها ويلسون في ملاحق مذكراته ، فقد عينه الانكليز معاون حاكم
سياسي في كربلاء في ١ شباط ١٩١٨ (٣٧) • ومعنى هذا ان الطباطبائي كان
من « علماء الحفيظ » •

ازمة وزارية :

في أواخر تشرين الثاني ١٩٢٠ حدثت ازمة في الوزارة تعد اول
ازمة وزارية في تاريخ العراق الحديث ، وكان مشيرها السيد طالب • وتعلل
المس بيل سبب الازمة بان السيد طالب حين يش من مساعدة الانكليز له
علي نيل التاج العراقي أخذ يتظاهر بالوطنية وأعلن استقالته من الوزارة •
تقول المس بيل في رسالة الى والدها مؤرخة في ٢٩ تشرين الثاني
مانصه :

« نحن الآن في أوج أزمة وزارية • فان السيد طالب استقال وطلب

(٣٦) عبدالرزاق الحسيني (المصدر السابق) - ج ١ ص ٩٠
(٣٧) Wilson (op. cit.) vol. 2, p. 888. (87)

أن نسمح له بالذهاب الى لندن هو وأولاده ، وقدم لاستقالته حججا واهية جدا . أما دوافعه الحقيقية فهي كما اعتقد انه أدرك اننا لانوى فرضه على الناس ضد رغبتهم فأراد أن يجتذب اليه المتطرفين وحتى الوطنيين الحقيقيين . ولهذا ألقى في مجلس الوزراء خطبة طويلة طلب فيها اعلان العفو العام . انه كان يتوقع من النقيب ان يرفض هذا الطلب ، وعندئذ سيظهر نفسه للناس بأنه وطني حقيقي وانه كان على استعداد للعمل مع الانكليز ولكنه وجد ذلك مستحيلا . وعلى اى حال فان النقيب وعدة وزراء كانوا قد علموا بالامر مقدما ، وان جعفر وساسون قضيا معظم الصباح في الحديث معي . واتخيل انهم سوف يتبنون منهج السيد طالب مع بعض التعديل ، وبذا يأخذون الريح من أشرعه . وقد اتفقنا فسي الرأي على ان استقالته تدعو الى الاسف ، اذ هي تؤدي الى هز الوزارة التي هي في وضع غير مريح . وفي الوقت نفسه اذا أصر السيد طالب على الاستقالة فإبنا يجب ان نواجه ذلك بصلافة . فاننا اذا استطينا الصمود تجاه هذه الضجة فيسكون تخلصنا من السيد طالب ذا فائدة كبيرة لنا بلا ريب (٣٨) .

ولم يكتف السيد طالب باعلان استقالته بل اتصل بجريدة «الاستقلال» التي كانت في ذلك الوقت تنطق بلسان الوطنيين ، وقد نشرت له الجريدة حديثا قالت انه جرى بينه وبين احد محرريها . فقد سأله المحرر يستوضح منه خبر استقالته ، فأجابه السيد طالب قائلا بان الرأي العام ضد الوزارة الحاضرة ، وهو يعتقد ان الحكومة اذا لم يعاضدها شعبها فانها لايمكن ان تنجح في مهمتها . وذكر السيد طالب في حديثه انه قدم مطالب مشروعة ومعتدلة من أجل نفع الامة والوطن ولكن هذه المطالب حصل بعض التردد في قبولها ، فاضطر هو الى الاستقالة لكي تبقى صحيفته بيضاء كما كانت في أول امرها . ولما سأله المحرر عن ماهية تلك المطالب ، أجاب : ان ذلك

سر لا يمكن افشاؤه ولكن الرأي العام سيطلع عليه في الوقت المناسب • ثم قال ان اكرتية الوزراء يقفون الى جانبه • فسأله المحرر : هل ان استقالته نهائية ؟ فأجاب : ان استقالته ليست نهائية وهو يمكن ان يرجع عنها حين يتأكد من قبول مطالبه (٣٩) •

وفي ٤ كانون الاول كتبت المس بيل الى والدها رسالة اخرى ذكرت فيها شيئاً عن استقالة السيد طالب وأثرها في الرأي العام ، فهي تقول : « ان بهلوانيات السيد طالب تثير معظم اهتمامنا • وقد اخبرتك عن استقالة السيد طالب وسحبها • فان هدفه الوحيد هو التملق للوطنين • وقد أوضح موقفه بجلالة في حديث له مع محرر جريدة الاستقلال المتطرفة التي ظهرت بعد سحب استقالته ، حيث قال بأنه كان قد راقب الرأي العام بدقة فوجده ضد الوزارة الحالية ، وهو من جانبه قد قدم سلسلة من المطالب التي يجب أن يعرضها مجلس الوزراء على السر برسى كوكس ، وكان من جملة هذه المطالب عودة المنفيين واللاجئين ، ومنح حرية اكبر للوزراء في ممارسة اعمالهم الخ ... ولكن هذه المطالب لم ينظر اليها زملاؤه الوزراء بعين القبول ، ولهذا وجد من واجبه كوطني ان يستقيل وهو يأمل من زملائه أن يقتدوا به في الاستقالة اذا كانوا يحبون وطنهم ، ثم ألمح بغموض الى انه سيعيد النظر في موقفه في حالة موافقة المجلس على مطالبه • وفي الحقيقة ان مناورات السيد طالب قد دعمت موقفه بين الشباب العرب الذين كانوا يمقتونه من قبل ، •

وأضافت المس بيل الى ذلك قائلة : ان ساسون حسقيل وعبدانجيد الشاوي كانا الوحيدين اللذين وقفا حقاً ضد السيد طالب في المجلس ، أما جعفر العسكري فقد وافقه على لعبته • وهي تملل ذلك بان العسكري انما فعل ذلك لكي يجد له طريقاً فيما بعد ولا سيما عند عودة العراقيين من

(٣٩) جريدة « الاستقلال » في عددها الصادر في ١ كانون الاول ١٩٢٠ •

سوريا • وتنقل المس بيل قولاً قاله حسين افنان في وصف لعبة السيد طالب هو : « ان السيد طالب قضى ثلاثين سنة قبل هذا في مكايذة أدهى الموظفين الاتراك وعرف كل صغيرة وكبيرة من فن اللعبة » (٤٠) .

وعلى أي حال فان السيد طالب لم يستمر في لعبته طويلاً • ففي ١٨ كانون الاول كتبت المس بيل تقول : « جاءني السيد طالب اليوم ، وهو يوم الاحد ، ويجب ان اعترف انه احدث انطباعاً حسناً لدي » • فانه اخبرني بصراحة بأنه يرغب في ان يكون امير العراق • واخذنا نتداول حصول وضعه بتفصيل ، وظننت انه ابدى حكمة وتعقلاً • وبعد هذا بدأنا نتحدث عن الجريدة الوطنية العنيفة - تقصد جريدة الاستقلال - التي اصبحت الآن بلشفية تماماً ومن المحتمل انها تقبض المساعدات المالية • فانه يفكر اننا يجب ان نغلقها ، واعتقد ان رأيه هذا صحيح وسوف أنقله الى السر برسى غدا • • (٤١) .

جريدة الاستقلال :

ان جريدة « الاستقلال » - كما أشرنا اليه آنفاً - كانت تنطق بلسان الوطنيين • والواقع ان هذه الجريدة لم تكن جريدة اعتيادية بل كانت شبه منظمة سياسية يجتمع في دارها الوطنيون ويساهمون في كتابتها • انها كانت أول جريدة معارضة للسياسة البريطانية في العراق •

صاحب الجريدة هو عبدالغفور البدرى، وكان في اثناء الحرب ضابطاً وانضم اخيراً الى الثورة العربية • وهو لم يستطع الحصول على امتياز الجريدة الا بعد تردد ومماطلة من المسؤولين • وقد صدر العدد الاول منها في ٢٨ ايلول ١٩٢٠ • وكانت ادارتها على شاطئ النهر في جانب الرصافة قرب المحكمة الشرعية الحالية •

لم يكن عبدالغفور البدرى يتقن الكتابة ، او لعله لاقدرة له على

(40) Ibid - vol. 2. p. 188-189.

(41) Ibid - vol. 2. p. 129.

الكتابة كما قيل ، ولكنه كان رجلاً ذا حزم ورأي واستطاع ان يجمع حوله عدداً من الكتاب ليساهموا في تحرير جريدته ، وكان من جانبه يتحمل تبعه ما يكتبون ويحميمهم . وكان رئيس تحرير الجريدة في اول امرها قاسم العلوي ، ويساعده في التحرير كثيرون منهم علي محمود الشيخ علي وطالب مشتاق ومهدى البصير وسامي خونده ورشيد الصوفى وعونى بكر صدقى وحسين الرحال ومصطفى علي وبقار الشيبى وسلمان الشيخ داود واحمد جمال الدين وفهمى المدرس وعبد اللطيف حبيب وخيرى حماد الفلسطينى وغيرهم . ويقول رفائيل بطي في وصف هذه الجريدة : « كان المرء يحس وهو في ادارة هذه الجريدة انها مؤسسة شعبية وطنية ونادى سياسي مكتظ بالكافحين ، حركة نشيطة يشترك فيها جماعات من الاهلين من طبقات الشعب ، هذا يتبرع بالمال ، وذاك يكتب ، وآخرون يشبعون بتسيير ادارة الجريدة ، وذلك يبدى الافكار ويوجه . وتلف الجميع حماسة جارفة ... حتى ان (لافقة) الجريدة على باب الادارة كتبت بالالوان المربعة (الابيض والاسود والاخضر والاحمر) وهى ألوان العلم العربى الذى حمل ابان الثورة فى الحجاز ، قبل أن يرفرف في سماء العراق علم عراقي ، . ويضيف رفائيل بطي الى ذلك قائلاً : « وهناك حقيقة يحسن تسجيلها هي ان صدر حكومة الاحتلال الانجليزية كان رجلاً ازاء ما تكتبه جريدة الاستقلال ، فأفسحت مجالاً لا بأس به من حرية الصحافة مما لم نجده بعد ذلك مُراعى دائماً في عهد الاستقلال » (٤٢) .

وقد أعطتنا المس بيل في احدى رسائلها وصفاً عجيباً للجماعة التي كانت تلتف حول جريدة « الاستقلال » حيث قالت : « ان القوميين التقدميين هنا ، وهم الذين لا يريدون الاثراك ولكنهم غير راضين عن وضعهم الحاضر ، يستعملون اسطورة البعع التركي على أمل ان يأتي الاثراك لخراجنا من البلاد ثم يأتون هم بدورهم ليخرجوا الاثراك منها »

(٤٢) رفائيل بطي (الصحافة في العراق) - القاهرة ٩٥٥ - ص ٦٠ .

ان الذين يفكرون بمثل هذا التفكير هم جماعة صغيرة ولكنها ذات
صخب ، وعندهم جريدة تنطق بلسانهم تسمى « الاستقلال » وان معظم
كتابها وأتباعهم أشخاص لا تستطيع أية حكومة استخدامهم ، ولو أننا
خرجنا من البلاد لصاروا ضد الذين يأتون بعدنا ... » (٤٣)

كانت جريدة «الاستقلال» تكثر من ترديد اسم الامير فيصل على
صفحاتها ، وتطلب في مدحه وتبدي تألها لما جرى على سوريا عقب اخراجه
منها . وكانت فوق ذلك تشير بصورة مباشرة أو غير مباشرة الى ان فيصل
هو المرشح اللائق لعرش العراق . وقد نشرت في
١١ آب ١٩٢٠ برقية صدرها لندن فحواسها ان فيصل في طريقه
الى سويسرا لمقابلة رئيس الوزارة البريطانية الموجودة هنالك
للمداولة في شأن اجلاسه على عرش العراق . ولا حاجة بنا الى القول بان
هذا الالاحاح من الجريدة على ذكر فيصل كان يستفز السيد طالب ويغضبه .
مروي طالب مشتاق في مذكراته : ان السيد طالب عرض على
عبدالغفور البدري اثني عشر ألف روبية لقاء الامتناع عن ذكر فيصل ،
فرفض البدري ذلك (٤٤) .

ويروي سلمان الشيخ داود الذي كان من محرري الجريدة كما
أسلفنا : ان السيد طالب عندما قدم استقالته استدعاه وعرض عليه اوراقا
تضمن استقالته وشكواه من تدخل المستشارين وقال له ان فيليبي والمس
يل راجعاه واقنعاه لسحب الاستقالة وأنه وعدهم بذلك . ثم طلب السيد
طالب من سلمان أن يكتب في الجريدة مقالا في مدحه وفي الاشادة بوطنيته،
ولكن سلمان لم يفعل ما طلبه منه السيد طالب بل فعل العكس من
ذلك (٤٥) . فقد ظهرت الجريدة في اليوم التالي تحمل مقالا بعنوان

(43) Burgoyne (op. cit.) - vol. 2, P. 205.

(٤٤) طالب مشتاق (اوراق ايامي) - بيروت ١٩٦٨ ج ١ ص ٩٦ .
(٤٥) خيرى العمرى (شخصيات عراقية) - بغداد ١٩٥٥ - ج ١ ص ٣٨ .

« أريد حياته ويريد موتي » وكان مقالا يتضمن هجوماً شديداً على السيد طالب من دون ذكر اسمه انما يشير اليه اشارة تدل عليه بوضوح (٤٦) .

صار السيد طالب يتحين الفرصة للايقاع بجريدة « الاستقلال » ومحرريها . وقد واثته الفرصة أخيراً في ٩ شباط ١٩٢١ ، ففي ذلك اليوم كان بعض المنفيين في جزيرة « هنجام » قد عادوا الى بغداد بعد اطلاق سراحهم وكان من بينهم أحمد الشيخ داود وجعفر الشيبلي وعارف السويدي ومحمد مصطفى الخليل ونوري فتاح وغيرهم . فأصدرت الجريدة عدداً خاصاً بتلك المناسبة كتبت في صدره عنواناً مثيراً بالخط العريض هذا نصه « نهى الامة العراقية بقدوم بعض منفيينا الكرام ونطلب ارجاع جميع المنفيين بلا استثناء كما اننا نواصل الطلب في تنفيذ سائر المواد السبعة » .

ثم ذكرت الجريدة تحت هذا العنوان منهاجاً للكفاح السياسي يتضمن سبع مواد منها اطلاق حرية الصحافة والاجتماعات ، واصدار العفو العام ، والفاء الادارة العرفية . ولم يكد هذا العدد ينتشر بين الناس حتى صدر الامر من وزارة الداخلية باغلاق الجريدة وتوقيف صاحبها مع أحد عشر رجلاً من أعوانه .

لم يمكث الموقوفون في الحبس مدة طويلة ، فقد توسط مستشار العدلية بونهم كارتز في أمرهم ، واستطاع أن يطلق سراح سبعة منهم . ثم أبعدت الحكومة اثنين آخرين منهم ، أما الثلاثة الباقون وهم عبدالغفور البدري ومهدي البصير وقاسم العلوي فقد سيقوا الى المحكمة ، وتعتبر محاكمتهم أول محاكمة صحافية في تاريخ العراق الحديث . وقد حكمت المحكمة على البدري بالسجن مع الاشغال الشاقة لمدة سنة واحدة ، وعلى البصير لمدة تسعة أشهر ، وعلى العلوي لمدة ستة أشهر . كما قررت المحكمة تعطيل جريدة « الاستقلال » لمدة سنة كاملة .

(٤٦) جريدة « الاستقلال » في عددها الصادر في ٢٢ كانون الاول ١٩٢٠ .

يضحكى ان السيد طالب مر على عبدالغفور البدرى وهو يعمل في
في تكسير الاحجار في الشارع مع السجناء العاديين ، فقال له : « أيعجبك
هذا يا عبدالغفور ؟ » فاجابه البدرى : « ليس أحب اليّ من التعذيب في
سبيل وطني وشعبي ، امضو في تعذيبكم ما شاء لكم الهوى ، والويل لكم
من الشعب ! » (٤٧) .

العائدون :

كان في سوريا عدد كبير من الضباط والموظفين العراقيين
الذين كانوا في خدمة الحكومة الفيصلية فلما سقطت تلك الحكومة على
أثر معركة ميسلون فقدوا وظائفهم وصار الكثير منهم في ضيق معاشي شديد .
كان جعفر العسكري أول من عاد منهم الى العراق ، وقد وصل في
١٦ تشرين الاول ١٩٢٠ حيث تولى وزارة الدفاع - كما ذكرنا من قبل .
وصار العسكري يلح في مجلس الوزراء لكي تبذل الحكومة مساعدتها في
تسريع عودة الباقين بالنظر لحالتهم المعاشية السيئة من جهة ولحاجة العراق
الى خدماتهم من الجهة الاخرى (٤٨) .

استحصلت الحكومة من القنصل الفرنسى ببغداد قائمة تحتوي على
٢٤٠ اسماً من أسماء الضباط العراقيين الموجودين في سوريا . وفي ٢٧
تشرين الثاني ١٩٢٠ أبرق كوكس الى لندن يطلب الاذن بتسهيل عودتهم .
وفي منتصف شباط ١٩٢١ وصلت الى بغداد أول جماعة منهم كان في
مقدمتهم نوري السعيد الذى عين وكيلاً لوزير الدفاع جعفر العسكري .
ويجب أن لا ننسى في هذا الصدد ان نوري وجعفر كانا متصاهرين اذ كان
كل منهما متزوجاً من أخت الآخر .

كتبت المس بيل في ٢٤ شباط تقول : « شهد الاسبوع الماضى الوصول

(٤٧) فائق بطي (اعلام في صحافة العراق) - بغداد ١٩٧١ - ص ١٧٣ .

(٤٨) فيليب آيرلاند (المصدر السابق) - ص ٢٢٥ .

الاول لعناصر جديدة هم الضباط العراقيون الذين كانوا في سوريا وبدأوا يعودون . وكان أول من جاء منهم نوري باشا زوج أخت جعفر ...

وفي اليوم التالي لوصوله تلفن لي جعفر يسألني متى يستطيع نوري لقاء السر برسي . فطلب السر برسي منهما المجيء حالاً وتناول طعام الغداء عنده . فجاء في الساعة الثانية عشرة وجلسا ساعة معي . وقد دعوت الكابتن كلايتون الذي كان يعرف نوري ويحبه . وجاء الميجر موراي ، وجرى بينهما حديث مهم جداً ... (٤٩) . وأخذت المس يل تقارن في رسالتها بين جعفر العسكري ونوري السعيد ، فقالت : « ان جعفر رجل طيب تحفزه أرفع المثل ، وتموزه القوة . انه في طبيعته رجل متسامح ، بدين جداً ، مع ابتسامة مشرقة ، وهو يستجيب فوراً للصدقة والتعاطف ، ويمنحك في الحال ثقته . ومن العجيب ان رجلاً بمثل هذه المميزات البدنية والذهنية يكون متحمساً في اعتقاداته السياسية . ولكنه ليس لديه ما يجعله معروفاً بذلك لدى الجمهور . فهو لم ينجح في اجتذاب المتطرفين الشبان في بغداد وفي أقاليمهم بنزاهتنا على نحو ما هو مقتنع بها . أما صهره نوري فهو يختلف عنه تماماً ، ففي اللحظة التي رأيته فيها ... أدركت أننا نواجه طاقة قوية ومرنة وان علينا ان نتعاون معه او ندخل معه في صراع شاق - شاق جداً للاتصاف عليه » (٥٠) .

أخذ جعفر ونوري يعملان معاً لتسهيل عودة العراقيين من سوريا وإيجاد الوظائف المناسبة لهم . وفي ٦ آذار وصل عن طريق البحر ١١١ ضابطاً عراقياً مع افراد عائلاتهم . وفي ١٤ منه وصل عن طريق الصحراء ناجي السويدي مع خمسة عشر شخصاً . وفي ٣ تشرين الثاني وصل توفيق السويدي . وفي

(49) Lady Bell (op. cit.) p. 476.

(50) Burgoyne (op. cit.) - vol. 2, P 209-210.

٢١ منه قرر مجلس الوزراء تخصيص ٧٥ ألف روية لاعادة بقية الضباط العراقيين الذين ظلوا في سوريا لعدم توفر نفقات السفر لديهم .
وفي الوقت نفسه أخذ العراقيون الذين كانوا موجودين في تركيا يعودون الى العراق (٥١) ، وهم من الموظفين السابقين او الضباط او التجار أو الطلاب . وكانت قد وصلت قبلئذ أول دفعة من الاطباء العراقيين الذين درسوا الطب في اسطنبول ، وهم : هاشم الورتى وفائق شاکر وسامي شوكت وشاکر السويدي واسماعيل الصفار وصائب شوكت وشوكت الزهاوي وغيرهم (٥٢) .

٥. الوظائف :

كانت الوظائف الحكومية في بداية الاحتلال البريطاني يشغلها موظفون بريطانيون ومنود في الغالب . وكان قليل منهم عراقيين . وعند تشكيل الوزارة النقيية الموقية بدأت السياسة تتجه نحو تقليص عدد البريطانيين والهنود ، وتكثير العراقيين . يقول فيلبي في مذكراته : انه عندما تولى منصب مستشار وزارة الداخلية وجد عدد الضباط البريطانيين الاداريين يبلغ ١٣٥ فعمل على تخفيضه الى ٤٠ ، وقد منح الذين أخرجوا من وظائفهم اكراميات سخية لكي يتسنى لهم تدبير شؤونهم حتى يمكن لهم الحصول على وظائف اخرى (٥٣) .

وفي ٦ كانون الثاني ١٩٢١ تأسست قيادة للجيش العراقي في مقر وزارة الدفاع من عشرة ضباط ، وأخذ الجيش ينمو منذ ذلك الحين بمناصبه وتشكيلاته ، وصار الضباط العائدون من سوريا يمثلون

(51) Report on Iraq Administration - October 1920 - March 1922 - P. 7.

(٥٢) هاشم الورتى ومعمار خالد الشاهندر (تاريخ الطب في العراق) - بغداد ١٩٣٩ - ص ٥٠ .

(٥٣) جون فيلبي (المصدر السابق) - ص ٤٦-٤٧ .

تلك المناصب شيئاً فشيئاً . وفي الوقت نفسه أخذ مجلس الوزراء يصدر التعيينات انتعاقية للمراء الوظائف الادارية في الالوية . وقد كتبت المس بيل في ٧ شباط تقول : « ان المجلس قرر عدداً من التعيينات في المناصب الادارية في الالوية - متصرفين وقائمقامين . وكان الكثير منهم صالحين الى حدٍ ما . وان السر برسي يوافق على التعيينات عندما يصبر النقيب ، وأظن انه مصيب في ذلك . فاننا يجب أن نجلس ونرى كيف يرتكبون الالوية . ان كل التعيينات تصدر من وزارة الداخلية^(٥٤) » .

وفي ٢٧ شباط وافق مجلس الوزراء على الاستثناء عن الموظفين الهنود تدريجاً وتعين موظفين عراقيين بدلاً عنهم^(٥٥) . وبهذا أصبحت أبواب الوظائف مفتوحة للعراقيين ، فأسرع لاغتنامها العائدون من سوريا وتركيا ، كما أسرع اليها الموظفون السابقون الذين فقدوا وظائفهم على اثر انسحاب الأتراك من العراق . وذكرت المس بيل ان السيد طلب حدثها عن الحاجة الفورية لسد افواه رواد المقاهي من الموظفين التدماري والضباط ، وقال عنهم انهم الان في فقر مدقع ولا يد من اسكاتهم بتعيينهم في وظائف حكومية . وقد وافقت المس بيل على رأيه هذا موافقة تامة^(٥٦) .

والملاحظ بوجه عام ان العائدين من سوريا حصلوا على حصة الاسد من الوظائف العالية مما أثار عليهم حنق أبناء الأسر المعروفة الذين كان يحتكرون كثيراً من تلك الوظائف في العهد التركي . فلقد كان العائدون في الغالب من اسر متوسطة او فقيرة ، وقد حدث صراع خفي بينهم وبين أبناء الأسر المعروفة واستمر هذا الصراع مدة طويلة ، كما سنأتي اليه في حينه .

(54) Lady Bell (op. cit.) - P. 474.

(55) عبدالرزاق الحسيني (المصدر السابق) - ج ٢١ .

(56) Burgoyne (op. cit.) - vol. 2, P. 192.

ويجب أن لا ننسى في هذا الصدد ان اليهود استطاعوا ان يحصلوا على حصة كبيرة من الوظائف في ذلك الحين . ويُعزى ذلك الى سبين، اولهما : ان اليهود كانت لديهم مدارس خاصة بهم ذات مستوى تعليمي لا بأس به حيث تعلموا فيها اللغات الاجنبية ومسك الدفاتر وغيرها من المواضيع التي كانت يومذاك من الامور النادرة في العراق ، ولهذا فقد اعتبرتهم الحكومة أكفاء لتولي الوظائف التي تحتاج الى خبرة في تلك المواضيع . والسبب الثاني هو ان الانكليز كانوا يعتبرون اليهود من انصارهم والمؤيدين لحكمهم في العراق ، فساعدوهم على دخول الوظائف . ويمكن أن نضيف الى ذلك سبباً ثالثاً هو شخصية زعيمهم ساسون حسيقل الذي تولى وزارة المالية وكان الانكليز يحترمونه كثيراً ، فقد دأب هذا الرجل على ملء الكثير من وظائف وزارته وغيرها بأفراد من قومه اليهود . يقول ساطع الحصري في وصف ساسون : « لا شك أنه كان أذكى الوزراء، وأعرفهم في شؤون الحكم .. ولكن ابعدهم عن التفكير في مصالح البلاد . فان مصلحة طائفته الاسرائيلية كانت تشغل الموقع الاول في تفكيره وفي عمله (٥٧) » . وحدثني رجل اثق به أنه شهد مرة مشادة عنيفة بين ساسون وعبدالمحسن السعدون حول تعيين اليهود في الوظائف ، اذ كان السعدون في أشد حالة من الحنق والغيظ تجاه الحاح ساسون وتوسطاته المتنوعة في هذا الشأن .

المرجعية الشيعية :

عند نشوب ثورة العشرين كانت المرجعية الدينية لدى الشيعة قد انحصرت في المرزا تقي الشيرازي الذي كان يسكن كربلاء . وقد ساعد هذا الرجل على قيام الثورة وقيادتها مساعدة فعالة كما هو معروف . وقد

(٥٧) ساطع الحصري (المصدر السابق) - ج ١ ص ٥٢ .

مات في ١٧ آب ١٩٢٠ عندما كانت الثورة في عنفوانها • فانتقلت المرجعية الى الشيخ فتح الله الاصفهاني الملقب بـ « شيخ الشريعة » وكان يسكن النجف • واستمر هذا على مساعدة الثورة والاشراف عليها حتى آخر أيامها • غير انه لم يبق بعدها الا قليلا ، حيث مات في ١٨ كانون الاول من العام نفسه •

كان هناك ثلاثة مجتهدين مرشحين للمرجعية عند موت شيخ الشريعة : اثنان منهم يسكنان النجف هما السيد ابو الحسن الاصفهاني والمرزا حسين الناييني ، وواحد يسكن الكاظمية هو الشيخ مهدي الخالصي • وقد كان الخالصي اكبر الثلاثة سنا ، وكان زميلا يعترفان بمكانته فيهم ويحترمان رأيه في كثير من الاحيان • وكان هو يمتاز عليهما بكونه عربيا من اسرة عراقية عريقة ، غير انه حصل على الجنسية الايرانية في العهد العثماني من اجل التخلص من الجندية ، على نحو ما فعل الكثيرون ، بينما ظل في ملبسه ومسلكه ولهجته عربيا عراقيا •

ويمتاز الخالصي ايضا بانه كان شديد الاهتمام بالسياسة ويعددها جزءا لا يتجزأ من الدين • انه كان يعتبر الدين له ظاهر وباطن ، فظاهرة العبادات والشعائر ، أما الباطن فينحصر في السعي لتخليص البلاد الاسلامية من تسلط الكفار • وقد كان يفضل حكم الاتراك على حكم الانكليز ، فاولئك مسلمون وهؤلاء كفار ، والحاكم المسلم في نظره ولو كان ظالما خير من الكافر العادل • فالخالصي بهذا يخالف رأي ابن طاووس الذي افتى به قديما وهو ان الكافر العادل خير من المسلم الظالم •

وعندما فتحت ابواب الوظائف للعراقيين في الشهر الاول من عام ١٩٢١ أفتى الخالصي بحرمة الدخول فيها حيث اعتبرها بمثابة التعاون مع الكفار • ومن الجدير بالذكر ان فتوى الخالصي في حرمة الوظيفة لقيت

رواجا واسعا في اوساط الشيعة فصار الكثيرون منهم يرفضون الوظائف التي عرضت عليهم • ومن الممكن القول ان الانتعاش الاقتصادي الذي كان سائدا في البلاد يومذاك ساعد على تدعيم تلك الفتوى وترويجها ، اذ كان الرجل الشيعي يفضل ان يكسب المال « الحلال » في السوق على ما تدره عليه الوظيفة من مال « حرام » •

كان كوكس حريصا على ادخال الشيعة في الوظائف ، وخاصة في منطقة الفرات الاوسط والعتبات المقدسة ، ولكنه وجد امامه عقبتين تعرقلان عليه سبيله اولاهما فتوى الخالصي ، والاخرى امتناع النقيب وبعض الوزراء من قبول الشيعة في الوظائف • وقد استطاع كوكس اخيرا ان يقنع النقيب والوزراء بتوظيف عدد محدود من الشيعة ، ولكنه لم يستطع ان يقنع الخالصي بالتنازل عن فتواه •

حدثني من اثق به أن كوكس طلب من السيد جعفر عطيفه رئيس بلدية الكاظمية أن يدبر له لقاء مع الخالصي للكلام معه ، فارتأى السيد جعفر ان من الممكن الالتقاء بالخالصي عند مجيئه الى الصحن للصلاة ، وتم الاتفاق بين كوكس والسيد جعفر على ذلك ، ووفقا معا عند باب الصحن الصغيرة التي اعتاد الخالصي ان يدخل منها الى الصحن لاداء الصلاة • ولما جاء الخالصي تقدم منه السيد جعفر قائلا : « يا جناب الشيخ ، ان جناب المندوب السامي يحب السلام عليك » • ولم يكذ الخالصي يسمع باسم المندوب السامي حتى وضع عباءته على رأسه وأسرع بدخول الصحن دون ان ينبس بكلمة • ولم يستطع كوكس ان يدخل وراءه الى الصحن طبعاً • وهكذا اخفقت المحاولة !

الفصل الثاني

طبخة الملكية

بعد أن أتم كوكس تشكيل أول وزارة في العراق على النحو الذي أسلفنا ذكره في الفصل الماضي أخذ يفكر في البحث عن ملك للعراق يكون ملائماً للمصالح البريطانية من جهة ويرضى به الشعب العراقي من الجهة الأخرى .

لقد كان العراقيون العائدون من سوريا ، وعلى رأسهم جعفر العسكري ونوري السعيد ، يشنون الدعاية للأمير فيصل بن الحسين ويعتبرونه أفضل مرشح لعرش العراق ، وكانت المس بيل تؤيدهم في ذلك وتشجعهم عليه بصورة غير مباشرة .

ومما يجدر ذكره في هذا الصدد أن ويلسون كان أول مسؤول بريطاني يفكر بلياقة فيصل لعرش العراق . ففي ٣١ تموز ١٩٢٠ - أي على أثر خروج فيصل من سوريا مطروداً - أبرق ويلسون الى لندن يقترح عليها عرض امانة العراق على فيصل ، وينوه بمواهبه ، ويشير ضمناً الى أن خيبة فيصل في سوريا ستكون ذات أثر في نفسه يجعله أكثر ادراكاً للواقع وأكثر تعقلاً في معالجة الأمور^(١) . وقد لقي هذا الاقتراح قبولا في لندن غير ان الساسة البريطانيين كانوا يخشون من معارضة فرنسا له .

وفي ٨ آب ١٩٢٠ فأنح وزير الخارجية البريطانية اللورد كرزون الحكومة الفرنسية يسألها هل لديها اعتراض على تنصيب فيصل في العراق ، فردت الحكومة الفرنسية تقول انها تتعرض على ذلك كل الاعتراض . وأخذ الفرنسيون يشوهون سمعة فيصل لدى لانكليز لكي ينفروهم منه ، فاتهموه

(1) Wilson (Loyalties) - London 1936 - vol. 2, P. 305-306.

بأنه ذو وجهين ، وقالوا للإنكليز : لا تأمنوا من فيصل فانه كان يفاوضنا سرّاً من وراء ظهركم في أثناء حكمه في سوريا للتعاون معنا ضد السلطة البريطانية في العراق^(٢) . وقال وزير الخارجية الفرنسية لرئيس الوزارة البريطانية : ان فيصل ذو اخلاق ضعيفة وانه خطر . فرد عليه رئيس الوزارة البريطانية قائلاً : ان فيصل كما تصفه ولكن شيوخ العراق يريدونه ، واذا وافقت الحكومة الفرنسية حتى تنصّبه في العراق فان في مقدورنا الاستغناء عن السبعين ألف جندي الذين يضبطون الأمن في العراق الآن^(٣) .

وفي ١١ تشرين الثاني حينما كان فيصل معتكفاً في شمال ايطاليا وصلته رسالة من اللورد كرزن يدعوها لزيارة لندن ، وفي أواخر الشهر توجه فيصل الى لندن . ويروي فيصل نفسه : انه في اليوم التالي لوصوله الى لندن قام بزيارة للورد كرزن فلاحظ هذا عليه انه لم يرتد العباءة العربية التي اعتاد على ارتدائها من قبل ، فسأله : « اين هي عباةك الحلوة ؟ » فأجابته فيصل : « انهم شلحوني بلادي يا حضرة اللورد ، فسلحت عباةتي » . فقال كرزن : « بل ستلبس أحسن منها » . ففهم فيصل من هذه العبارة انهم سيعرضوه عن عرش سوريا بعرش العراق^(٤)

يمكن القول على أي حال ان الحكومة البريطانية ظلت مترددة في أمر فيصل خشية من غضب فرنسا عليها ، فكانت تقدم خطوة وتؤخر أخرى . وفي ٢٦ كانون الاول وصلتها من كوكس في بغداد برقية يقول فيها ان فيصل أُلقي شخص لحكم العراق ، وأن اعتراض فرنسا عليه يمكن ان يعالج على وجه من الوجوه^(٥) . وقد أثرت هذه البرقية على الحكومة البريطانية وكانت

(٢) سليمان موسى (الحركة العربية) - بيروت ١٩٧٠ - ص ٥٧٥ .
(3) Elie Kedourie (Chatham House Version) - London 1970 - P. 240 .

(٤) خيرية قاسمية (عونى عبدالهادي) - بيروت ١٩٧٤ - ص ٥١ .
(5) Ghassan Atiyyah (Iraq) - Beirut 1978 - P. 864.

عاملاً اضافياً زاد في ميل الحكومة نحو فيصل .

وفي ٧ كانون الثاني ١٩٢١ أرسل كرزن الميجر كورنواليس الى فيصل لمناقشته في الأمر بصورة غير رسمية . وكان كورنواليس على صلة وثيقة بفيصل في الشام حيث نشأت بينهما منذ ذلك الحين صداقة شخصية . وقد أوصاه كرزن ان يكون حديثه مع فيصل متضمناً شرطين ، أولاً أن يقبل فيصل بالانتداب البريطاني ، وثانياً أن يتجنب أي عمل عدائي ضد فرنسا في سوريا . وكذلك أوصاه كرزن بان يوضح لفيصل بأنه يجب أن يتظاهر أمام الناس بأنه مستقل وليس ألعوبة بيد الحكومة البريطانية (٦) .

تمت المقابلة بين كورنواليس وفيصل في الساعة الواحدة. بعد منتصف الليل على أثر عودته من دار التمثيل ، واستمرت ساعتين (٧) ، والظاهر أنها لم تكن ناجحة . فقد قال فيصل ان أباه الملك حسين لا يقبل بترشيحه لعرش العراق بل يريد ابنه الآخر الأمير عبدالله ، وأنه - أي فيصل - لو قبل بعرش العراق لظنه والده وظنه الناس جميعاً بأنه أناني يسعى لمصلحته الخاصة بالتعاون مع بريطانيا ، وأنه يطلب عرشاً على حساب أخيه . وقد كتب كورنواليس تقريره عن المقابلة وقال في ختامه ان هناك طريقين مقترحين لحل مشكلة العراق هما : أن يذهب عبدالله الى العراق ، أو يسمى كوكس نحو جعل العراقيين ينتخبون فيصل بشكل هاديء غير ظاهر . ويقول كورنواليس ان الطريق الأول أسهل ، ولكن الطريق الثاني أنفع لان فيصل أفضل من أخيه عبدالله كثيراً وأنه سوف يخدمنا باخلاص وكفاءة (٨) .

كلف لويد جورج اللورد وترتون بمحاولة أخرى لاقتناع فيصل ، وكان وترتون صديقاً شخصياً لفيصل ، فدعاه الى بيته ودعا معه جبرائيل

(6) Ibid, P. 865.

(٧) فيليب آيرلاند (العراق) - بيروت ١٩٤٩ - ص ٢٤١ .

(8) Ghassan Atiyyah (op. cit.) - P. 868 - 866.

حداد باشا ممثل الملك حسين في لندن ، كما دعا لورنس وآخرين • وتداول هؤلاء الحديث مع فيصل ساعات طويلة بغية اقناعه ، واستمرت الجلسة حتى الساعة الثانية بعد منتصف الليل • وقد انتهز فيصل الفرصة فأخذ يوجه نقداً مراراً على المعاملة الفاشمة التي عامله بها الفرنسيون والبريطانيون معاً ، وبدرت منه ملاحظات جارحة عن أخلاق البريطانيين بوجه عام ^(٩) • وأخيراً رضي فيصل بقبول عرش العراق على شرط اقناع أخيه عبدالله بالتنازل عن حقه في ذلك العرش •

وفي ١٤ شباط ١٩٢١ انتقل تشرشل من وزارة الحرب الى وزارة المستعمرات ، فأصبح بذلك مسؤولاً عن حل مشاكل الشرق الأوسط • وقد أسس تشرشل في وزارته الجديدة دائرة خاصة بالشرق الأوسط وجعل صديقه لورنس مستشاراً له فيها • ثم قرر تشرشل عقد مؤتمر في القاهرة للنظر في قضايا الشرق الأوسط بوجه عام ، وقضية العراق بوجه خاص • وسافر تشرشل الى القاهرة لحضور المؤتمر مستصحباً معه لورنس • وقد بدأ المؤتمر في ١١ آذار وحضره من العراق السريسي كوكس والجنرال هالدين والمس بيل وجعفر العسكري وساسون حسيقل وثلاثة من المستشارين البريطانيين هم سليتر وايدى واتكنسن • وتم الاتفاق في المؤتمر على نفس الرأي الذي كان قد تقرر في لندن من قبل وهو أن فيصل هو الشخص الملائم لعرش العراق واقترح لورنس أن يتولى سلاح الطيران زمام السيطرة على البلاد بدلاً من جيش الاحتلال الذي هو كثير النفقات ، فوافق المؤتمر على ذلك •

وفي ١٦ منه - بينما كان المؤتمر لا يزال منعقداً - وصلت برقية الى تشرشل من لويد جورج يذكره فيها بموقف فيصل من عرش العراق وكيف أنه لا يقبل به الا بعد تنازل أخيه عبدالله عنه ^(١٠) • فتمهد تشرشل بأنسه

(٩) سليمان موسى (المصدر السابق) - ص ٥٨٠ •

(١٠) المصدر السابق - ص ٥٩٤ •

سيذهب بنفسه ومعه لورنس لاقناع عبدالله بالتنازل .

اقناع عبدالله :

كان الأمير عبدالله قد وصل الى منطقة شرق الاردن في ٢١ تشرين الثاني ١٩٢٠ قادماً من الحجاز ومعه قوة صغيرة من البدو وثلاثة ضباط عراقيين (١١) ، وأعلن أنه جاء استجابة لصرخات الاستغاثة التي أرسلها زعماء سوريا الى أبيه وانه عازم على تحرير سوريا وانقاذها من الفرنسيين المعتدين والأخذ بثأر أخيه منهم . وأخذ الكثير من رجال سوريا وزعمائها الذين هربوا منها يتوافدون عليه ، وصار في نيته ان يؤلف منهم حكومة منفى ، ثم نشر بياناً الى السوريين عموماً قال فيه : « كيف ترضون ان تكون العاصمة الأموية مستعمرة فرنسية ؟ ان رضىتم بذلك فالجزيرة لا ترضى وستأتكم غضبي ، وان غايتنا الوحيدة هي كما يعلم الله نصرتمكم واجلاء المعتدين عنكم ، وها انا أقول ولا حرج باننى قبلت تجديد بيعه ملككم فيصل الاول عن الاكثرية الغالبة التي جددت تلك البيعة على يدى » (١٢) .

كانت منطقة شرق الاردن في ذلك الحين لا يتجاوز عدد سكانها ثلث المليون ، ولم تكن فيها حكومة مركزية بل كان فيها بضع حكومات محلية صغيرة على النمط العشائري ، وكان لكل واحدة منها مستشار انكليزي . ولم يفعل المستثمرون شيئاً تجاه حركات عبدالله مما جعل الناس يظنون ان بريطانيا راضية عنها او هي من تدبرها .

وفي آذار ١٩٢١ كان الأمير عبدالله قد استقر في عمان . قبله ان الحكومة البريطانية تنوي نصب أخيه فيصل ملكاً على العراق فانزعج من ذلك وغضب . يقول عوني عبدالهادي الذي كان من حاشية الامير عبدالله

(١١) ان الضباط العراقيين الثلاثة هم حامد الوادي ورؤوف الشهبواني وسعيد الكلاك .

(١٢) خير الدين الزركلي (عامان في عمان) - القاهرة ١٩٢٥ - ص ١٦ .

في ذلك الحين : « فهاج الأمير عبدالله وماج ، وفتح صدره لجميع زائريه ومن في معيته ، وقذف الشرر والنار على فيصل الذي وافق على الترشيح لعرش العراق ، وأصر على أن يناقش هذا الموضوع مع المستر تشرشل لان العرش عرشه ولا يسمح بالتنازل عنه » ويضيف عوني على هذا قائلاً : « وقد ألححت على سموه أن لا يبحث موضوع عرش العراق مع الوزير البريطاني . وكان سموه يثور وينضب ويردد من حين الى حين : كيف يمكنني السكوت على ضياع عرش أقرته لي الامة العربية » (١٣) .

ويروى خيرالدين الزركلي : ان الامير عبدالله استدعاه في تلك الايام ، وقال له انه غير واثق من أن أخاه فيصل سيقبل عرش العراق ، ثم أورد أدلة على انه صاحب العرش الشرعي ، وان من يتعرض له لا يكون الا غاصباً ، ثم قال وهو هائج : « الا تكتب لنا سلسلة مقالات في الموضوع ياخيرالدين » . ويقول الزركلي انه أصبح في موقف حرج وأخذ يسأل نفسه : هل يمكن أن تعود في العراق قضية الامين والمأمون مرة أخرى ، وهل تأتي الى الناس باضحوكة جديدة هي تزاحم الاخوين على عرش مصنوع في لندن (١٤) ؟

وبعد أيام قليلة استدعي الامير عبدالله الى القدس لمقابلة تشرشل ، وعندما كان الأمير ماراً ببلدة السلط في طريقه الى القدس استقبله لورنس ، فباتا معاً هنالك ، وأخذ لورنس يحدث الامير لاقناعه بالتنازل عن عرش العراق ، حيث قال له : انك معروف بتضحية مطامحك الشخصية من أجل الامة ، ولهذا يجب عليك ان تبقى في شرق الاردن لتؤسس فيها ادارة مدنية سالمة من أي عنف في مراميها السياسية ، واذا نجحت في ذلك فانك ستظفر بعد ستة أشهر بوحدة سوريا ان شاء الله ،

(١٣) خيرية قاسمية (المصدر السابق) - ص ٤٤ .

(١٤) خيرالدين الزركلي (المصدر السابق) - ص ٤٦ .

وسوف نزورك عند ذاك في دمشق لتقديم التهاني لك (١٥) .

وفي ٢٩ آذار تم اللقاء في القدس بين الامير عبدالله وتشترشل ، وحضره لورنس ، وعوني عبدالهادي ، والمندوب السامي لفلسطين السر هيرت صموئيل ، وسكرتيره وندهام ديدس . وقد أعطانا عوني عبدالهادي في مذكراته صورة مفصلة عن ذلك اللقاء تقتطف منه مايلي :

بعد ان رحب تشترشل بالامير تحدث فوراً بحديث تظهر عليه الشدة حيث قال : « انه عند وصوله الى القاهرة فوجيء بوجود الامير في عمان ، وقد استولت عليه الدهشة حين بلغه أن الامير يريد ان يسترد بقوة السلاح المناطق التي كان يحكمها فيصل ، مع أن الامير لا يجهل ان فرنسا هي حليفة بريطانيا وان أي اعتداء على فرنسا يعتبر اعتداء على بريطانيا نفسها . ثم ارتفع صوت تشترشل واشتدت لهجته قائلاً : « انه لا يريد أن يتصور أن يقع مثل هذا الاعتداء من بعض آل هاشم حلفاء بريطانيا . . ويسر الحكومة البريطانية أن تعمل بتفاهم تام مع آل هاشم في جميع المجالات السياسية والدولية ، غير انها تريد أن تعمل معهم جميعهم وليس مع بعضهم . واني سأكون صريحا مع سموكم الى أبعد حدود الصراحة ، فقد صممت الحكومة البريطانية أن تعمل مع آل هاشم جميعهم أو لا تعمل مع أحد منهم » . ثم قال تشترشل بلهجة حازمة : « ان فيصل أبحر من لندن وهو الآن في طريقه الى القاهرة وسيذهب بعد زيارته لوالده الى بغداد حيث ينصب ملكا على العراق ، واني أعرف أن فيصل سيلاقى مشاغبين يعملون ضد انتخابه للعرش ولكن فيصل سيجلس على عرش العراق ، وان هذين الكتفين - وأشار بيديه الى كتفيه اليمنى واليسرى - سيتحديان هؤلاء المشاغبين » .

وقعت هذه الكلمة على الأمير وقع الصاعقة ، وأراد أن يغير موضوع الحديث فقال : « ولكن ياسعادة الوزير ان الامر الذي يهم العرب قبل كل شيء هو فلسطين ، فقد علمت ان اليهود طامعون في اقامة دولتهم اليهودية في هذه البقعة العربية الغالية وطرده العرب منها ، والعرب كما أشرت من حلفاء بريطانيا العظمى ، فهل تعتبر الحكومة البريطانية العرب في فلسطين بمثابة أشجار يجوز قطعها » • وهنا اقرب صموئيل من تشرشل وهمس في اذنه يستأذنه في جواب الامير ثم قال : « ليس من سياسة الحكومة البريطانية يا سمو الامير قطع أشجار فلسطين ولكن بالعكس انها مصممة على زيادة أشجارها بأنواع اخرى تزيد من قيمتها » •

وهنا نظر الامير الى تشرشل بنظرات العتاب ، ثم أخذ يتكلم عن مساعيه الماضية في عقد الحلف بين بريطانيا والعرب ، اذ هو كان صاحب الفكرة وأول من سعى لتحقيقها ، وهو كان كذلك الوسيط بين لورنس وفصل ، ثم كانت النتيجة ان فضلت الحكومة البريطانية غيره لتولي عرش العراق ، ولو كان هذا الغير أخوه فيصل • ثم قال الأمير : « لقد حز هذا الايثار في نفسي ولاسيما ان العراقيين الذين مثلوا العراق في المؤتمر السوري المعقود في سنة ١٩٢٠ هم الذين نادوا بي ملكا على العراق ، ولقد أدهشني ياسعادة الوزير قولكم بأن أخي فيصل قد أبحر من لندن في طريقه الى العراق ليعتلي العرش وقتلتم ان بعضهم سيقوم بمشاكسته وان كتفك سيتحملان تلك المشاكسة ، وربما حسبتهموني في عداد هذا البعض • واني معاذ الله أن اعمل ما لا يتفق مع سياسة الحكومة البريطانية •• »

وعند هذا أخذ تشرشل يلفظ من حديثه ، واعترف بما قام به الامير من خدمات في أثناء الحرب ثم قال : « واذا كانت الظروف الحاضرة قد اقتضت أن يعتلي أخوك عرش العراق فقد لا تكون بعيداً أن تعتلي أنت - وربما كان ذلك قريبا - عرش سوريا ، ومن الجائز خلال هذه السنة •

واني سأبذل كل جهودي لازالة سوء التفاهم الآن بينكم وبين فرنسا ، الأمر الذي يساعد على اعادة المياه الى مجاريها بينها وبينكم ، ولما كانت فرنسا لا ترغب في ايجاد أية علاقة مع فيصل فان الطريق تصبح ممهدة لسموكم في هذه الحالة . واني احذر سموكم من السماح لأي شخص أو هيئة بالاعتداء على سوريا من حدود المنطقة التي أرغب في أن تتولى سموكم الحكم فيها مؤقتاً أقول حكم سموكم المؤقت ، لانه لا بد من موافقة حكومتي على السياسة التي ستطبق في هذه المنطقة وكذلك موافقة شعوب المنطقة عليها ، مما يقتضي التريث حتى يتم الاتفاق النهائي خلال الشهور الستة القادمة ، (١٦) . . .

وافق الأمير عبدالله على خطة تشرشل ، وهو يقول في مذكراته ان تشرشل هدده قائلاً : « انكم ان لم تفعلوا هذا ستضيعون كل شيء » ، وان في امكان ابن سعود أن يصل الى مكة في ثلاثة أيام ، وان انكلترا عملت ما تستطيع » ثم يقول الأمير انه شاور الزعماء السوريين الذين كانوا معه في هذا الموضوع فوافقوا عليه بالاجماع . ولهذا تم الاتفاق على أن يزور السر هربرت صموئيل عمان لوضع الاساس للادارة المدنية المطلوبة (١٧) .

حسرات عبدالله :

كان فيصل قد غادر لندن بحرا في ٣١ آذار ١٩٢١ . متوجهاً الى الحجاز ، فمر في طريقه بالقاهرة ومكث فيها بضعة أيام حيث نزل في فندق شبرد . فأرسل اليه عبدالله من عمان عوني عبدالهادي يحمل رءالتين احدهما له والآخرى لوالده . ويقول عوني في مذكراته : ان فيصل بعد أن قرأ الرءالتين علق عليهما قائلاً : « يعتقد أخي اني اغتصبت منه عرش العراق .

(١٦) خيرية قاسمية (المصدر السابق) - ص ٤٦ - ٤٨

(١٧) عبدالله بن الحسين (مذكراتي) - القدس ١٩٤٥ - ص ١٨٠ - ١٨٢

واني مزقت القرار الذي أصدره العراقيون في المؤتمر السوري ، ولقد بلغني كل ما كان يقوله غني ، وكنت أقول دائماً سامحه الله وأخذ فيصل يحدث عوني كيف ان البريطانيين أرادوا اسناد عرش العراق اليه وكيف انه لم يوافق على ذلك وأراد العرش ل أخيه عبدالله ، ولكن البريطانيين أصرّوا عليه اصراراً . ثم يقول عوني : انه عند عودته الى عمان حاول اقناع عبدالله بالرضا بما تم من أمر اسناد عرش العراق الى فيصل ، فكان جوابه : « اني أعرف أخي يا عوني ، فلقد سبق أن اعتلى عرش سوريا فأصبح رأساً لدولة ، ولا يحلو له في الحياة بعد ذلك غير اعتلاء العروش . ان أخي فيصل لا يختلف عن بقية رؤساء الدول في هذا الشأن ، فلقد علمنا التاريخ ان كل من أصبح من العرب رأساً لدولة أصر على بقاءه رأساً ولو كان في ذلك هلاكه . ولهذا فضل أخي اعتلاء عرش العراق ولو كان هذا العرش من حق أخيه وليس لي هنا الا أن أطلب له السماح من الله » .

ويقول عوني : انه حين ذهب الى القاهرة مرة اخري وأبلغ فيصل تحيات أخيه قال له فيصل : « اني أعرف أخي عبدالله واني أشعر بما يعانيه من ألم لفقد عرش العراق ، واني متأكد من أنه لن ينسى ضياع هذا العرش منه ، وان حقه عليّ من أجل هذا العرش ان يزول بسهولة وقد أشار الى ذلك اشارات واضحة تضمنه خطابه الذي حملته اليّ وقرأته عليك (١٨) » .

ظل عبدالله مثلاً لضياع عرش العراق منه . وقد اشتد ألمه عندما اتضح له عجز الانكليز عن تحقيق وعدهم له بعرش سوريا . ويسري ساطع الحصري قصة طريفة في هذا الصدد هي : ان أربعة من الضباط العراقيين الذين خرجوا من سوريا ذهبوا الى عمان ومكثوا فيها فترة من

الزمن • فكانوا اذا حضروا مجلس الامير عبدالله كان هو يتكلم في كل مناسبة عن حقه في عرش العراق ويقول « والدي طلب مني أن اتنازل عن حقي ، ولكنني لم ألب طلبه ، لم أتنازل ، ولن اتنازل ، عن حقي في عرش العراق • سأحتفظ بحقي ولو للتاريخ » ، وكثيرا ما يكرر عبارة « للتاريخ • للتاريخ » • وكان يطلب من الضباط العراقيين بعض التفاصيل عن العراق ، وكلما سمع منهم مدحا للعراق كان يزداد تحسرا وتأوها ، ويعاود الحديث عن حقه في عرش العراق ، ويصرح بعزمه على عدم التخلي عن حقه هذا والتمسك به ، ولو للتاريخ • وقد دفعت كثرة تحسره على العراق أحد الزعماء السوريين الذين كانوا موجودين هناك أن يقول للضباط العراقيين : « جوزوا بقي عن مدح العراق ، خلوا الرجل يشتغل هنا ••• » ، ويقول ساطع الحصري : ان احاديث عبدالله عن حقه في عرش العراق شاعت كثيرا حتى انعكست على صفحات الجرائد ، وحتى ان احدى الجرائد التركية اتخذت ذلك ذريعة للطعن بالثورة العربية (١٩) •

والغريب ان عبدالله لم ينس حقه في عرش العراق حتى بعد موت فيصل • يحكي انه حضر الى العراق بعد موت فيصل فأقيمت له حفلة وانشد فيها أحد الشعراء قصيدة في مدحه كان منها هذا البيت :

تنازل عن عرش العراق تكرماً

وأكرم من عرش العراق تنازله

فلما سمع عبدالله هذا البيت ظهر عليه الغضب وقاطع الشاعر قائلاً :
« احسأ لم اتنازل ولن اتنازل » •

(١٩) ساطع الحصري (مذكراتي في العراق) - بيروت ١٩٦٧ - ج ١ ص

نشاط السيد طالب :

كان السيد طالب في بغداد قد أحسّ بأن الرياح تمشي ضده وان الانكليز لا يريدونه . وقد ازداد احساسه هذا عند تشكيل الوفد الذي سافر الى مؤتمر القاهرة ، فهو لم يدع للاشتراك في الوفد بينما اشترك فيه ساسون خضوري وجعفر العسكري والمس بيل وهم غير ميلين اليه . كتبت المس بيل في رسالة لها مؤرخة في ٢٤ شباط ١٩٢١ - على اثر مغادرتها بغداد مع الوفد في باخرة نهريّة - فقالت مانصه :

« نحن مغادرون ... جعفر وساسون افندي سعيان لاشتراكهما في الوفد . ولكن السيد طالب من الجهة الاخرى متمعضا كل الامتعاض لعدم اشتراكه في الوفد . وقد تناولنا معه طعام العشاء في الليلة التي غادرنا بغداد في صباحها ، وكنت جالسة بجانبه واخذت اشجعه على الكلام . وعندما دارت كؤوس الويسكي همس في أذني بنبرة ثملة حزينة حيث قال انه كان دائما يعتبرني بمثابة اخته ، ويطيع نصيحتي ، وهو الآن يعدني معتمده الوحيد ومستنده » . وتعلق المس بيل على ذلك قائلة : « ولما كنت أشعر بعمق ان مطامحه سوف لا ولن تتحقق ، فقد صرت أتمتع له ببعض العبارات الودية التي لا لون لها ، » (٢٠) .

انتهاز السيد طالب فرصة غياب كوكس عن العراق أثناء اشتراكه في مؤتمر القاهرة ، فصار يبذل جهودا كبيرة وينفق أموالا طائلة للدعوة الى نفسه ، وكان شعاره في ذلك : «العراق للعراقيين» . ذكر سليمان فيض في مذكراته ، وكان يومذاك حاكما في بغداد ، ان السيد طالب زاره في المحكمة وطلب محادثته على انفراد وقال له : « اني عزمت على ترشيح نفسي لعرش العراق ، ونظرا لما اعهدته فيك من محبة لي أرجو ان تبث لي الدعاية في الاوساط القضائية وتحمل الحكام والمحامين وطلاب الحقوق وموظفي وزارة العدلية على التصويت بجانبني » . ولما ذكر له سليمان ان مسعاه سيبيوء

بالفشل قال السيد طالب: «انك واهم فالمستر فيلبي في جانبي، وقد تعهد لي ببذل أعظم الجهود . انه وعدنى باقناع السر برسي كوكس الذى لايزال مترددا في أمر الملك الجديد ، وبحمل المس بيل على التخفيف من تحميلها للامير فيصل ، ثم انه كتب الى الحكام السياسيين فى الالوية الجنوبية يوصيهم ببذل المساعدة لي . لذلك عزمت على الطواف فى تلك الالوية ، والقيام بدعاية انتخابية واسعة هناك . فأرجو منك ان تقوم بالدعاية في الميدان الذى اخالك متنفذا ومحبوبا فيه ، . . . ولما يش السيد طالب من اقناع سليمان فيضي خرج من عنده غاضبا» (٢١) .

ويروى عبدالعزيز القصاب في مذكراته : انه بينما كان جالسا في مجلس عبدالعزيز الزئبق في عصر احد الايام اذ دخل المجلس السيد ابراهيم الشواف وأخوه علي وبدهما مضبطة تتضمن الطلب من المندوب السامي بتعيين السيد طالب حاكما على العراق ، وقد اعترض القصاب على المضبطة ، ثم تداولها الحاضرون دون ان يوقعوا عليها . وضرب القهواتي رأسه يده ثم قال متهمكا « ليش هذا تمين مختار محلة ، . فضحك الحاضرون ، (٢٢) . . .

وفي ٨ آذار بدأ السيد طالب جولاته في الالوية الجنوبية التى استغرقت ثلاثة عشر يوما . وكان يصحبه فيها زمرة من اصحابه المؤيدين له كسالم الخيون وعبدالرزاق المير وعبود الملاك واحمد الراوى وشاكر النعمة واحمد السالم . وقد بذل السيد طالب فى جولاته مبالغ طائلة من المال ، وكان انصاره يقيمون له فى كل بلدة استقبالا فخما وولائم كثيرة ، وكان هو يخطب في الناس يحبب نفسه اليهم ويشتر بالمبادئ التى توافق معتقداتهم

(٢١) سليمان فيضي (في غمرة النضال) - بغداد ١٩٥٢ - ص ٢٦٢ - ٢٦٣ .

(٢٢) عبدالعزيز القصاب (من ذكرياتي) - بيروت ١٩٦٢ - ص ٢٠٧ - ٢٠٨ .

وميولهم • ومن طريف ما يروى في هذا الصدد ان بعض العشائر اطلقت
هوسة في استقباله هي :

ثلث لله وثلثين لطالب

وثلث الله يطالب به طالب

وفي خلال جولته أخذ السيد طالب يعلن للناس انه سيذل كل جهده
لاطلاق سراح جميع المعتقلين السياسيين الذين ساهموا في ثورة العشرين •
وعندما مر بالحلة زار المعتقلين فيها وطمأنهم بقرب الافراج عنهم • وكانت
خطبته في النجف نموذجية في هذا الشأن حيث ضرب بها على اوتار القلوب
تنقل فيما يلي نبذة مما قاله هناك :

• • • رأيت من الواجب عليّ أن استمد من افكار وآراء الرجال
الخيرين والعلماء المجتهدين •• عما يلزم العمل به لاهياء مآثر الدين
القومى والتماس سبل الحضارة والتقدم لوطننا المشترك ولا سيما النجف
الاشرف وكر بلاء •• واني قد سعت بادىء الامر بتأدية اول واجب عليّ
قبل الامور التمهيدية وهو اعادة المنفيين جميعا والعفو عن المجرمين واعادة
اخواني العراقيين المهاجرين فى سوريا والبلاد الاخرى غير أن أملي الوطيد
يجعلنى حسن الاعتقاد بحضرات مؤيدى الشريعة الغراء وهمهمم العالية ••
وادعو الله بحرمة اجدادى الطاهرين ولا سيما جدى الاعظم سيدى ومولائى
امير المؤمنين عليه السلام الذى اعاهدكم على تحقيق آمالكم امام حضرته
المقدسة •• واني قد عينت لكم متصرفا عاقلا اديبا حازما وقائما ما ذا خبرة
وتجارب فيسرنى اذا كاشفتهموها فى جميع ما يهمكم ليرفعا لي عما يجب
العمل به فى مختلف الشؤون • وأبشركم أن حضرة رئيس الوزارة
الحاضرة صاحب السمو حضرة نقيب اشرف بغداد سيدى السيد
عبدالرحمن افندى اعرب لي عظيم اعتماده عليكم وثقته العظيمة بذواتكم
وقد كلفني بابلاغ عطفه وتوجيهاته نحوكم جميعا بصورة خاصة، (٢٣) •

(٢٣) حسين هادي شيلاه (طالب النقيب) - رسالة جامعية غير مطبوعة -

استدعاء الرصافي :

كان الرأي العام في بغداد آنذاك منقسما الى فريقين : أحدهما يدعو الى مبدأ «العراق للعراقيين» وزعيمه السيد طالب كما اسلفنا ، والثاني يدعو الى اختيار احد ابناء الملك حسين لعرش العراق . وكان هذا الفريق الثاني يُطلق عليه اسم « الحزب الشريفي » .

كان الفريق الاول يضم في الغالب ابناء الاسر العريقة والميالين للاتراك ، وهم الذين يُطلق عليهم في أيامنا اسم « الرجعيين » . أما الفريق الثاني ، اي الحزب الشريفي ، فكان يضم معظم الذين شاركوا في ثورة العشرين ، ودعاة القومية العربية . وكانت القومية تعتبر في تلك الايام حركة تقدمية . تقول المس بيل في رسالة ركتبها بعد عودتها من مؤتمر القاهرة :

« أن الاعيان المتعاليين باتمائهم الطبقي الرفيع كرهوا ان يروا الشبان الذين حكموا سوريا تحت رئاسة فيصل - وهم في الغالب ممن لايتمون الى عائلات معروفة - قد يحكمون العراق أيضا . فأن تفكير الاعيان لاينطبق مع تفكير هؤلاء الشبان الذين هم قدميون جدا ولهم استعداد للتحدث علنا وباستمرار في وجوب التخلص من الرجعيين الشيوخ وادخال افكار جديدة ... » (٢٤)

ومن الجدير بالذكر ان النقيب عبدالرحمن الكيلاني كان يؤيد الفريق الاول . فهو بحكم تفكيره الطبقي يمقت الشبان الثوريين الذين ظهروا للوجود وهم من أسر غير عريقة . وكان بالاضافة الى ذلك يمقت الاسرة الهاشمية . وقد أعلن عن رأيه هذا بصراحة الى المس بيل في عام ١٩١٩ حين قال لها : « أفضل ألف مرة عودة الترك الى بغداد على ان ارى الشريف أو ابناءه ينصب احدهم هنا » (٢٥) .

(24) Burgoyne (op. cit.) - Vol. 2, P. 212

(٢٥) المس بيل (من تاريخ العراق القريب) - ترجمة جعفر الخياط - بيروت ١٩٧١ - ص ٤٨٠ .

وفي يوم من تلك الايام اجتمع زعماء الفسريق الاول ، وكان على رأسهم النقيب والسيد طالب وحكمت سليمان وتوفيق الخالدي ، وقرروا اصدار جريدة تنطق بلسانهم على ان يكون الشاعر معروف الرصافي رئيسا لتحريرها . وقد كان الرصافي يومذاك في مدينة القدس يدرس آداب اللغة العربية في دار المعلمين فيها ، فأبرق حكمت سليمان اليه يستدعيه الى بغداد ، كما ابرقت الوزارة الى المندوب السامي في فلسطين تطلب منه تفسير الرصافي على حسابها . وعلى هذا سافر الرصافي الى القاهرة في انتظار باخرة تنقله من السويس . وقد التقى الرصافي ببعض اعضاء الوفد الذين حضروا مؤتمر القاهرة . وحين علم كوكس بان الرصافي ذاهب الى بغداد اقترح عليه ان يسافر معهم في نفس الباخرة . ولم يكن كوكس يدري ان الرصافي ذاهب الى بغداد من أجل هدف معاكس للهدف الذي تقرر في مؤتمر القاهرة .

يقول الرصافي في مذكرات له : « ولما وصلت الى بغداد وواجهت النقيب عبدالرحمن افندي علمت بعد ذلك انهم يريدون معارضة فيصل باعتبار (العراق للعراقيين) ، ، ثم اجتمعنا عند النقيب مع السيد طالب ، وأنا كنت من جملة المؤيدين لهذه الفكرة ، وقد اقترحت عليهم - بعد أن تداولنا في الموضوع مليا - أن هذا العمل واقتصد عمل الدعاية لا يمكن ان يقوم الا على المال ، فقلت لهم ان ذلك لا يمكن أن يكون بأقل من مائة ألف ليرة عثمانية . فاستعظم النقيب هذا المبلغ ثم قال طالب باشا انه مستعد لوضع ضعف المبلغ الذي يضعه النقيب . ولم يسفر الاجتماع عن اتفاق في الرأي وانقضى على ان نجتمع مرة أخرى ، فاتصلت بتوفيق الخالدي - الذي كان حاضرا في الاجتماع - وقال لي انا سوف نذهب سوياً . باخرة صغيرة أنا وانت وطالب باشا وهناك تتذاكر في الموضوع . ولكن قبل ان يحصل هذا الاجتماع نفى الانكليز السيد طالب باشا . » (٢٦)

وصل كوكس الى بغداد في ٩ نيسان ، غير أنه لم يعلن عما تقرر في مؤتمر القاهرة من اختيار فيصل ، بل ترك الناس يتجادلون ويتناقشون حول المرشحين المتنافسين على العرش ، وظل هو يتفرج عليهم كأنه لاشأن له في الامر . وفي ١٢ نيسان اذاع كوكس بيانا حول الامور التي بحثها مؤتمر القاهرة فأشار الى مسألة تقليص النفقات العسكرية ، ومسائل الامن الداخلي ، وحماية الحدود ، واصدار العفو العام ، ولكنه لم يتطرق اطلاقا الى موضوع اختيار فيصل الذي كان في الواقع أهم مباحثه المؤتمر من أمور .

كان فيلبي قد كتب قبل وصول كوكس مذكرة يحتج فيها على ما اشيع من اختيار فيصل في مؤتمر القاهرة ، ويذكر اضطرابه الى الاستقالة من منصبه اذا صحت تلك الاشاعة ، لان ذلك في نظره يخالف الوعود البريطانية السابقة في ترك العراقيين أحرارا يختارون لانفسهم من يشاؤون . وقد قدم فيلبي هذه المذكرة الى بونهام كارتير الذي كان يتولى منصب المندوب السامي بالوكالة . فأيده بونهام كارتير على وجهة نظره . ولما وصل كوكس عرض عليه كارتير المذكرة ، ثم جاء فيلبي لمواجهته ، فكان جواب كوكس له : " ان الحكومة البريطانية لاتنوى التناول عن وعودها لاهل العراق " (٢٧) . والظاهر ان فيلبي اقتنع بهذا الجواب وخرج مطمئنا لايدري ماذا يخبىء له ولصاحبه القدر !

ترك كوكس فيلبي حرا في نشاطه للدعوة الى السيد طالب ، كما ترك المس بيل من الجانب الآخر حرة في نشاطها للدعوة الشريفة . ووقف كوكس بين الاثنين موقفا قريبا من الحياد ، او كما وصفه هو بـ " الحياد

(٢٧) جون فيلبي (أيام فيلبي في العراق) - ترجمة جعفر خياط - بيروت

الودى . . فكان اذا جاء اليه الناس يسألونه عن رأيه قال لهم : ان الحكومة البريطانية تؤيد ترشيح أمير شريفى للعراق ولكن الناس احرار في قبوله او رفضه . وفي الوقت نفسه أبرق كوكس الى حكومته يحذرها من فرض فيصل على العراقيين ناصحا لها ان تترك فيصل يتولى بنفسه اقناع العراقيين عند وصوله اليهم بأنه هو الرجل الذى يليق بعرشهم (٢٨) .

يمكن القول من الناحية الاجتماعية ان كوكس كان فى موقفه هذا داهية من الطراز الاول ، فلو انه أعلن للناس رغبة الحكومة البريطانية باختيار فيصل لحصل من جراء ذلك رد فعل فى أوساط الوطنيين وربما أدى ذلك الى اضعاف الحزب الشريفي أو تحطيمه .

يجب ان لا ننسى ان الوطنيين كانوا قبل قيام الثورة ، وفي أثنائها ، يطالبون باختيار أمير شريفى لعرش العراق ، وهم انما فعلوا ذلك تحديا للسلطة الانكليزية التى كانت يومذاك غير راغبة فى ذلك ، ولو ان السلطة كانت راغبة فى هذا الاختيار وتدعو اليه لكان جواب الوطنيين على الضد من ذلك طبعاً .

ان هذا سر من اسرار المجتمع العراقى والظاهر ان كوكس أدرك فحوى هذا السر ، واراد ان يتجنب الغلطة التى وقع فيها سلفه ويلسون . ولهذا وجدناه يتظاهر بالحياد مع العلم انه كان مأمورا من حكومته على نصب فيصل ملكاً ، على اى حال .

السيد طالب يهدد :

كان السيد طالب قد اعتاد فى ايامه الاولى فى العهد التركى ان يستخدم اللطف والتملق فى نيل مطالبه فاذا وجد ذلك غير مجدي لجأ الى التهديد ، وقد يلجأ احيانا الى الفتك وسفك الدماء عندما يفشل التهديد . وقد نجح

(28) Graves (Sir Percy Cox) - London, second impression - p.287.

السيد طالب في طريقته هذه نجاحا كبيرا • ويبدو انه أراد ان يتبع الطريقة نفسها مع الانكليز ناسيا ان الانكليز غير الاتراك وان كوكس يختلف عن الوالي التركي اختلافا كبيرا •

في شهر نيسان ١٩٢١ وصل الى بغداد السر برسيغال لاندون المندوب الخاص لجريدة الديلي تلغراف اللندنية ، وكان هذا الرجل يعرف العربية ، فقرر السيد طالب انتهاز الفرصة لالقاء كلمة تهديد للانكليز ، فأقام وليمة عشاء فخمة في بيته احتفاء بلاندون •

اقيمت الوليمة في مساء ١٣ نيسان ، وحضرها القنصل الفرنسي ، والقنصل الايراني ، وآرثر تود مدير شركة لنج وزوجته ، والشيخ محمد الامير رئيس عشيرة ربيعة ، والشيخ سالم الخيون رئيس عشيرة بني اسد في الجباش ، وآخرون • وقد اعتذر فيلبي عن حضور الوليمة كأنه ادرك بأنها ستكون ذات خطورة من الناحية السياسية ولم يحب ان يتورط فيها • أما حسين أفان فقد حضر الوليمة لترجم الكلمة التي سوف يلقيها السيد طالب الى الانكليزية •

لدينا تقريران عما جرى في الوليمة أحدهما ورد في مذكرات فيلبي والاخر ورد في كتاب غريفز الذي سجل فيه سيرة حياة كوكس • ولعل من المجدي ان نستعرض فيما يلي شيئا من كلا التقريرين •

يقول فيلبي في وصف الوليمة : « فكان الحديث سياسيا في الحقيقة ، وقد سالت الخبرة خلاله كما يسيل الماء وفي ضمنها أفضر انواع السبائيا • كما كان صاحب الدعوة مرحا مثل أي مدعو آخر ، وربما كان اكثر مرحا من غيره • وفي نهاية الدعوة نهض ليخفف عن قلبه شيئا من العبء السياسي الذي كان اكثر مما يتمكن تحمله • وكان فحوى حديثه ان شائعات تعيين فيصل ملكا في العراق اخذت تملأ الاندية والمحافل وهو يود ان يوضح للحاضرين وللحكومة البريطانية أن اهالي العراق لا يريدون فيصلا ولا

يسأهلون في فرضه عليهم • وإذا كنتم تشككون في حديثي
فينبأ على هذه المائدة هنا الشيخ محمد أمير ربيعة عنده
أربعون ألفاً من أشداء الرجال ، و الشيخ فلان وفلان على رأس قبيلة تعد
ثلاثين ألف رجل ، أسألهم ليحييوكم عما يفكر فيه الناس في هذا الشأن ؟
وان الحكومة البريطانية كانت قد وعدت بأننا سنتخبط شكل الحكومة
الذي نريده بحرية ، وانني احتج ضد أي تغيير يطرأ على ذلك
الوعد ، (٢٩) •

أما غريفر فكان تقريره أكثر توضيحاً وتفصيلاً ، فهو يقول : ان
كلمة السيد طالب لم تكن عفو الخاطر بل كانت كأنها معدة اعداداً متقناً من
قبل ، وقد بدأها السيد طالب بتكراره القول انه راضي عن موقف المندوب
السامي ومعتقد بان الحكومة البريطانية تنوي البقاء على الحياد تماماً ، ثم
التفت نحو لاندون يطلب منه التأكيد على ذلك فأجابه لاندون : ان هذا هو
ما يعتقده أيضاً • فسأله السيد طالب : ” هل أنت واثق من ذلك تماماً ؟ “ •
فشعر لاندون بشيء من الامتعاض تجاه هذا السؤال ثم أجاب بانه قد حصل
في ذلك على تأكيد من المندوب السامي • فاستمر السيد طالب في كلامه
قائلاً : ان بعض الموظفين البريطانيين في حاشية المندوب السامي متحيزون
نحو الشريف وهم يحاولون ممارسة نفوذهم في هذا الاتجاه بشكل غير
مناسب • ثم وجه السيد طالب سؤالاً الى لاندون يقول فيه : هل ينصحه
لاندون بأن يرفع شكواه الى الملك جورج أو الى المندوب السامي ضد
هؤلاء الموظفين من أجل نقلهم من مراكزهم ؟ فاجابه لاندون مشيراً الى
ان هناك بعض الموظفين البريطانيين معروفون بتحيزهم نحو النقيب ، ولهذا
فان نقل الموظفين المتحيزين الى جانب معين يجب أن يصحبه نقل الموظفين
المتحيزين الى الجانب الآخر • وهنا همس حسين أفنان في اذن السيد
طالب مشيراً الى دقة هذه النقطة وما تؤدي اليه من عواقب ، فزمجر

السيد طالب قليلا ثم ترك النقطة متحولا في كلامه الى نقطة أخرى حيث التفت الى الشيخ محمد الأمير طالباً منه التأييد وقال : ان أهل العراق مصممون على أن تكون الحكومة البريطانية ودية بوعودها واذا لم تفعل فان هناك محمد الامير لديه ثلاثون ألف بندقية يريد أن يعرف السبب في ذلك ، كما أن هناك شيخ الجبايش بجميع أفراد عشيرته • ثم واصل السيد طالب حديثه بانه اذا بدرت أقل اشارة من الحكومة البريطانية بالتحيز نحو أحد الجانبين فان النقيب مستعد ان يرفع شكواه الى العالم الاسلامي ، الى الهند والقاهرة واسطنبول ، والى باريس ايضاً ، (٣٠) .

لم تكذ الوليمة تنتهي حتى أسرع آرثر تود الى بيت المس ييل في محلة السنك ليخبرها بما جرى ، وتلاه لاندون واخبرها بذلك ايضاً • فأرسلت المس ييل الى كوكس تقريراً مفصلاً بما سمعت ، وضمنت تقريرها تحذيراً الى كوكس تخبره بان السيد طالب قد جمع حوله رجال العصاة الذين كان يستعين بهم في البصرة لارهاب الناس ومنهم الرجل الذي قتل القائد التركي قبيل الحرب ، وقالت المس ييل في تقريرها ايضاً ان السيد طالب قد يحاول قتل فيصل عند قدومه الى العراق (٣١) •

نفي السيد طالب :

كان السيد طالب عندما ألقى كلمته التهديدية يريد أن يسمع بها كوكس عن طريق تود ، وكان يظن لغروده أن كوكس سوف يشمر بالخوف من تهديده ، غير أن كوكس كان على العكس من ذلك (٣٢) ، فقد اعتبر كلمة السيد طالب بمثابة تهديد باعلان الثورة ، او اعلان الجهاد ، فاذا هو سكت عنها وشاع أمرها بين الناس كان ذلك في نظر الناس دليلاً

(80) Graves (Op. cit.) - P. 288 - 289.

(81) Burgoyne (op. cit.) - Vol. 2, P. 214.

(82) Monroe (Philby of Arabia) - London 1978 - P. 108.

على ان السيد طالب أصبح قوياً يتحدى بريطانيا ويفعل ما يشاء
بلا رادع (٣٣) .

قرر كوكس اعتقال السيد طالب ونفيه في أقرب وقت ممكن ،
وأبرق بذلك الى لندن . ولم يشأ كوكس ان يكلف الشرطة بأمر الاعتقال
خشية الفشل ، بل اتصل بالجنرال هالدين قائد القوات العسكرية طالباً
منه اعتقال السيد طالب بقواته .

وفي صباح ١٥ نيسان عقد هالدين اجتماعا عسكريا مستعجلا في مقر
قيادته لوضع خطة الاعتقال . وبعد المداولة قرر تكليف الميجر بوفيل
بمهمة الاعتقال ذلك لان بوفيل كان صديقا للسيد طالب ويعرفه معرفة
جيدة فلا يخطئ في تشخيصه عند القاء القبض عليه . وقد احتج بوفيل
واعترض على تكليفه بهذه المهمة قائلا : ان السيد طالب صديقي الشخصي ،
وطالما تمتعت بضيافته وأكلت من طعامه فلا يجوز لي أن أكون انا الذي
يلقي القبض عليه . واقترح بوفيل ان تناط المهمة برجال الشرطة . فرد
عليه هالدين قائلا بأن التجارب السابقة أثبتت ان رجال الشرطة لا يعتمد
عليهم ، أضف الى ذلك انهم سوف يترددون في اعتقال السيد طالب الذي
هو رئيسهم المحترم . ثم قال هالدين مخاطب بوفيل : يجب عليك ان
تنسى عواطفك الشخصية وتقوم بالمهمة باعتبارها واجبا عسكريا .

وضع هالدين خطته على أن يتم الاعتقال في عصر ذلك اليوم - أي
في عصر ١٥ نيسان . وسبب ذلك ان السيد طالب كان على موعد في ذلك
الوقت مع زوجة كوكس لزيارتها في دارها وتناول الشاي عندها . فاذا
خرج من الدار تم اعتقاله فوراً . وقد اعترض بوفيل على هذا ايضا قائلا
بأن الامر قد يساء فهمه من قبل الناس حيث يعتبرونه خرقاً لأداب الضيافة

وتكون زوجة كوكس ملومة في ذلك • ولكن هالدين أصر على رأيه لانه لم يكن يحب ان يكون هناك أي احتمال للفشل في تنفيذ الخطة •

كان كوكس وزوجته يسكنان في نفس الدار المشهورة التي أصبحت فيما بعد مقر السفارة البريطانية ببغداد ، وكانا قد انتقلا اليها منذ عهد قريب بعد اكمال بنائها، وهي تقع على شاطئ النهر في محلة الكريمات في جانب الكرخ • وقد استعدت زوجة كوكس لاستقبال السيد طالب في حديقة تلك الدار وهي لا تعرف شيئاً عن خطة اعتقاله ، وكانت قد استدعت المس بيل لتكون مترجمة بينها وبين السيد طالب • أما كوكس نفسه فلم يحضر الدعوة بل ذهب الى ساحة السباق ليتفرج على ركض الخيول ! وصل السيد طالب الى الدار بسيارته في الساعة الرابعة والنصف ، فجلس في الحديقة يتناول الشاي مع زوجة كوكس والمس بيل • وجاء بعد قليل الميجر بوفيل يصحبه ضابط شاب اسمه الكابتن كوكس ، فتناولوا الشاي ثم خرجا • وبعد عشر دقائق نهض السيد طالب مودعا لانه كان مدعوا لتناول العشاء عند السيد جعفر عطيفة في الكاظمية • فقامت المس بيل تمشي معه الى الباب لتوديعه • وركب السيد طالب سيارته فتحركت به متجهة نحو الجسر ، ولكن السيارة لم تكد تسير به قليلا حتى فوجئت بسيارة حمل كبيرة وهي واقفة في منتصف الطريق كأن عطلاً أصابها ، وكانت هناك سيارة حمل أخرى محملة بالجنود تسير خلف سيارة السيد طالب • ولما هم السيد طالب بالاعتراض والتساؤل عن سبب وقوف السيارة ظهر الميجر بوفيل والكابتن كوكس فجأة ، فاعتذرا عن انسداد الطريق ، وطلبا منه أن يعتبر نفسه سجيناً عندهما • ثم أخذاه الى شاطئ النهر حيث كان الزورق البخاري الخاص بالقائد العام واقفاً بالانتظار • وتحرك الزورق يحمل السيد طالب نحو الجنوب •••

كان هالدين لشدة حرصه على نجاح الخطة قد أمر بقطع تلفون

فيلبي ، ولهذا فان فيلبي لم يعلم بالحادث في حينه (٣٤) . وهو يقول في مذكراته : انه لم يعلم بالحادث الا في المساء عندما ذهب وزوجته الى نادي العلوية لتناول العشاء فيه بناء على دعوة سابقة من الكابتن كوكس ، ولما وصل الى النادي وجد الكابتن كوكس غائبا وكان هناك ضابط آخر ينوب عنه في الضيافة ، وقد حدثه الضابط بما جرى على السيد طالب فاشتد غضب فيلبي عند سماعه القصة ، كما انزعجت زوجته . وفي الصباح ذهب فيلبي لمقابلة كوكس وهو مزعم على تقديم استقالته في الحال . ولكن كوكس أخذ يهدئه ويعتذر اليه عن عدم اخباره بالامر في وقته مخافة ان يعترف السيد طالب بأمر اعتقاله فتفشل الخطة . وأكد كوكس له مرة اخرى بان ليس في النية فرض فيصل على الناس . ثم أخبره بانه قد عين وزيراً للداخلية بدلا من السيد طالب ، فخرج فيلبي من عنده راضيا (٣٥) .

وفي ١٩ نيسان اذيع بيان من المندوب السامي في تبرير نفي السيد طالب خلاصته ان الحكومة البريطانية لاتزال عند وعدما في ضمان الحرية التامة للعراقيين للاعراب عن رغبتهم بشأن نوع الحكومة التي يطلبونها ، ولكن السيد طالب تفوه بكلام ينم عن تهديد شائن باسهار السلاح في وجه الحكومة البريطانية ، وهذا امر لا يمكن ان يتسامح به المندوب السامي لاسيما وهو يصدر من رجل يشغل منصبا خطيرا كالسيد طالب (٣٦) .

لم يتحدث نفي السيد طالب أي تأثير في بغداد ، حيث قابله الناس بهدوء كأنه أمرا اعتاديا . وعندما فاتح بعض الوزراء النقيب بالامر اكتفى

(84) Monroe (op. cit.) - P. 109.

(٣٥) جون فيلبي (المصدر السابق) - ص ٥٣ - ٥٥ .

(٣٦) عبدالرزاق الحسيني (تاريخ الوزارات العراقية) - صيدا ١٩٦٥ - ج ١ ص ٢٩ - ٣٠ .

النقيب بقوله : « أوصيت ان يعاملوه باحترام وأدب » (٣٧) . أما في لندن فكان الامر على خلاف ذلك اذ ان الصحافة نشرت القصة واخذت تدعو الى التخلي عن الانتداب في العراق وتصفه بـ « الكابوس » (٣٨) . وكتب الى كوكس أحد اصدقائه في لندن يقول : ان زوجته لم تما لك نفسها من البكاء على المسكين السيد طالب (٣٩) .

مسير السيد طالب :

لعل من المناسب هنا ان نتحدث باختصار عن مسير السيد طالب بعد اللقاء القبض عليه في بغداد . فقد سار به الزورق البخاري حتى اوصله الى الكوت ، ومن هناك اركب باخرة نهريّة سارت به الى الفاو ، وفي الفاو أركب باخرة بحريّة ابحرت به الى جزيرة سيلان ، فأودع فيها رهين الاعتقال . وقد خصصت له الحكومة البريطانية راتباً شهرياً قدره ٢٥٠٠ روبية .

ظل السيد طالب معتقلاً في سيلان حتى تم تتويج فيصل ، فأطلق سراحه . وعندما هاجم ابن سعود الحجاز في عام ١٩٢٤ ذهب السيد طالب الى جدة للمشاركة في التوسط بين الفريقين ، وهناك التقى بالكاتب اللبناني أمين الريحاني . وقد كتب الريحاني في وصف التقائه بالسيد طالب فقال مانصه : « واني لاذكر اجتماعنا في جدة في خريف ١٩٢٤ وأذكر من الاحاديث حديثاً عن العراق . فقد قص علينا بعض وقائع أيامه تلك ، ونحن نشرب الويسكي والصدودا ، ثم وضع الكأس على المائدة ، ورفع يده الى ذلك الرأس اللامع الشريف يمسحه ويربته قائلاً : ان ها هنا شيئاً لايفلب -

(٣٧) خيري العمري (حكايات سياسية) - القاهرة ١٩٦٩ - ص ٤٨

(38) Monroe (op. cit.) - p. 109.

(39) Graves (op. cit.) - P. 808.

لا يغلب • وكان يفكر بالعودة الى العراق والى السياسة • كان لايزال يحلم
الاحلام الذهبية • فقال يستأنف الحديث : الامور مرهونة بأوقاتها ،
وستسمعون عندما اعود مايدعش ويسر أن شاء الله • وسأطلبك يا استاذ
واعينك وزير المعارف» (٤٠) •

يبدو ان السيد طالب فقد كل أمل له بعد انتهاء حرب الحجاز فأخذ
يسعى نحو العودة الى العراق وقد عثرت بين وثائق البلاط الملكي على
رسائل منه الى الملك فيصل يتوسل اليه أن يسمح له بالعودة • وأخذ فيلبي
من جانبه يسعى لدى حكومة لندن لرفع ما اصابه من ضيم (٤١) • فسمح
له اخيراً بالعودة • وفي ١ أيار ١٩٢٥ وصل السيد طالب بالبصرة الى
البصرة وكان في استقباله على الرصيف جمهور من البصريين يقدر عددهم
بثلاثة آلاف (٤٢) •

اعتكف السيد طالب في داره في « السيليات » الواقعة على ضفة شط
العرب قرب البصرة ، واخذ يكثر من تعاطي الويسكي ويتجنب مواجهة
الناس او حضور الحفلات • وكان اذا ذهب الى البصرة سلك طرقاً خالية
هرباً من نظرات المارة (٤٣) • و الظاهر انه أصيب بعقدة نفسية شديدة من
جاء انهيار آماله • لقد كانت شخصيته قائمة على أساس حب الامرة والمجد
العريض ، ومن الصعب على رجل مثله ان يكون شخصاً عادياً كسائر
الناس •

وفي ربيع ١٩٢٥ جاء السيد طالب الى بغداد بغية مقابلة الملك فيصل
بعد أن توسط له عبدالله المضايفي في ذلك • وقد أقيمت له في بغداد عدة

(٤٠) أمين الريحاني (فيصل الاول) - بيروت ١٩٥٨ - ص ٨٤ •

(41) Monroe (op. cit.) - P. 100.

(٤٢) جريدة « العراق » في عددها الصادر في ٥ أيار ١٩٢٥

(٤٣) خيري أمين العمري (شخصيات عراقية) - بغداد ١٩٥٥ - ج ١
ص ٤٠ •

ولائم احتفاءً به كان آخرها وليمة النقيب الكيلاني • وعندما دخل السيد طالب على النقيب قام هذا مرحباً به واصفاً اياه بـ « ولده » و « حبيه » و « قرة عينه » • وأخذ السيد طالب يعاتب النقيب على عدم مساعدته له عند القاء القبض عليه ، ثم أهوى على يده فقبلها (٤٤) •

لم يمكث السيد طالب في بغداد سوى اسبوع واحد عاد بعدها الى داره في « السيليات » • وفي عام ١٩٢٩ أصيب بمرض خطير ، فسافر الى ميونيخ للمعالجة في إحدى مستشفياتها • وفي ١٦ حزيران لفظ أنفاسه الاخيرة ، فنقل جثمانه الى البصرة •

جرى لجنaze السيد طالب في البصرة تشيع منقطع النظير ، فagلقت الاسواق حداداً عليه وعج الجمهور بالبكاء حوله • لقد انقلب السيد طالب عقب موته الى زعيم شعبي محبوب • وليس ذلك بالأمر الغريب !

نجاح الدعوة الشريفة :

كان نفي السيد طالب من بغداد في نيسان ١٩٢١ سبباً في تدعيم الحزب الشريفي ، وضربة مهلكة لخصومه • وقد أخذ جعفر العسكري ونوري السعيد وغيرهما من رجال الحزب الشريفي يضاعفون جهودهم ، يؤيدهم العائدون من سوريا من جهة ، وتؤيدهم المس بيل من الجهة الأخرى •

وبعد أيام قليلة من نفي السيد طالب حدث حادث آخر أدى الى زيادة تدعيم الحزب الشريفي ، هو أن جماعة من رجال الدين ورؤساء العشائر اجتمعوا في الكاظمية برئاسة المجتهد الكبير الشيخ مهدي الخالصي ، وقرروا أن يبرقوا الى الشريف حسين في مكة يطلبون منه ارسال ابنه فيصل ليكون ملكاً في العراق مقيداً بمجلس نياي • ولكنهم عندما أرسلوا

(٤٤) المصدر السابق - ص ٤٣ - ٤٥ •

برقيتهم الى دائرة البرق امتنع الموظف المسؤول عن قبولها متذرعاً ببعض
الاعذار والحجج .

لاندرى ما هو السبب الذى جعل الموظف المسؤول يمتنع عن قبول
البرقية ، ولكن هذا الامتناع على أية حال أدى الى حماس الناس واصرارهم
على ابراق البرقية . فقد اعتبروا امتناع الموظف تحدياً لرغبتهم الوطنية ،
وظنوا ان هناك لعبة انكليزية تدبر ضدهم .

عاد رجال الدين ورؤساء العشائر الى الاجتماع عند الخالصى مرة
أخرى وقرروا تنظيم احتجاج يرفعونه الى المشدوب السامي ، غير ان
الخالصى أوصاهم بالترث ، وأرسل رسالة الى نوري السعيد يطلب فيها
منه ان يساعدهم في ابراق البرقية الى الشريف حسين . وهذا هو نص
الرسالة .

لحضرة الماجد نوري باشا السعيد المحترم

بعد الدعاء لك بالتوفيق ، ان الانكليز أبوا أن يعطوا الحرية للعراقيين
بكل شيء حتى باختيارهم ملكهم الذين ضحوا في سبيله النفس والنفس
وذلك أن أوغزوا الى مأموري البرق أن لا يقبلوا البرقيات المعنونة الى
الملك حسين بن علي التي يطلبون بها ارسال أحد أنجاله ليكون ملكاً على
العراق ، وهذا أمر لا شك وان عاقبته غير مرضية ، لذلك أرى من الواجب
تدخلكم بصورة رسمية أو خصوصية لرفع هذا القيد واعطاء العراقيين
الحرية التامة بهذا الخصوص ، أما غير هذا فذلك مما يعود لهم ، والسلام .
١٠ شعبان ١٩٣٩
عن مهدي الخالصى

أرسل الخالصى رسالته هذه بيد رسول خاص ليوصلها الى نوري
السعيد في وزارة الدفاع . وحين أوصل الرسول الرسالة الى نوري قال
له هذا : انه سيقوم بالتحري ويبحث الجواب بالسرعة الممكنة . وأضاف
الى ذلك قائلاً : انه يعتقد بأن هذه اللعبة لا علم لحكومة بريطانيا في لندن

بها ، بل هي لعبة بعض موظفي الإنكليز في بغداد مع زمرة من العراقيين الذين لا يرغبون بتوبيج أحد أنجال الملك حسين ملكاً على العراق .
وفي اليوم التالي وصلت الى الخالص رسالة من نوري السعيد كان هذا نصها :

١١ شعبان ١٣٣٩

وزارة الدفاع

لحضرة العلامة الكبير والمجاهد الاعظم صاحب السماحة الشيخ
محمد مهدي الخالصي متع الله الامة بدوام بقاءه .

سلام الله تعالى عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعد فاني أعرض لمولاي
الاستاذ انني ذاكرت من يتعلق بهم الأمر من رجال الحكومة البريطانية
(بصورة رسمية) بخصوص التلغرافات التي يراد ارسالها الى جلالة الملك
حسين بطلب ارسال أحد انجاله الكرام ، فأجابوني بأنه لا يوجد أدنى مانع
من ذلك ، وقد أحييت أن اكتب الى مولاي بهذا الأمر ، واذا كان سماعته
يرى انتظار منشور المندوب السامي فلا بأس بذلك ، وان دوائر البرق
مستعدة في كل وقت لقبول البرقيات التي هي من هذا النوع . وتفضلوا
في الختام بقبول فائق احترامي وتعظيمي سيدي . (٤٥)

المخلص

نوري السعيد

وعند وصول هذا الجواب الى الخالصي أعلن شكره لنوري السعيد
وأوصى الناس بارسال برقياتهم الى الشريف حسين كما يرغبون . وكان
لهذا الاعلان رنة فرح بين الناس ، حيث شجروا بأنهم انتصروا في مطالبهم
الوطنية . وأخذ الناس في مختلف انحاء العراق يتهاقنون على دوائر البرق

(٤٥) فريق المزهري آل فرعون (الحقائق الناصعة) - بغداد ١٩٥٢ - ج٢
ص ٥١٧ - ٢١٨ .

ليرقوا الى الشريف حسين بارسال ولده فيصل • وصارت البرقيات تصل الى مكة تباعاً بشكل لم يسبق له مثيل •

كُتبت المس بيل في ١٢ حزيران تعلق على ذلك قائلة مانصه •

« يوجد في أعماق عقلي يقين ثابت أن ليس هناك شعب يجب أن يكون محكوماً بصفة دائمة من قبل شعب آخر • ففي السنة الماضية عندما كانوا كلهم يهتفون باسم عبدالله لم يكونوا يريدونه لانه كان الرجل الامثل ، او لأنهم كانوا تحت تأثير الحماس الوطني ، بل لأنهم كانوا يعتبرون الهتاف باسمه هو خلاف وغبة الانكليز ... ولقد كان من القصور في النظر السياسي أننا تركنا الفكرة تبلور عندهم في أن الوطنية مضادة للانكليز • والآن نحن نحاول أن نغذي الوطنية ولكنني أعترف بان الوطنية التي هي ليست ضد الاجانب قد تنمو ضعيفة • ان فيصل حين يأتي ويسير معنا جنباً الى جنب سوف لا يكون شخصاً محبوباً كما لو كان يقود حركة جهاد ضدنا • انه سوف لا يقود حركة جهاد، وليس هذان مزاجه • فهل نستطيع أن نمدد بالروح التي تجعله قادراً على الهام دولة عربية الهاماً حقيقياً ... ان هذا أمر يعتمد على شخصيته ، وان من حكمة السر برسي كوكس ان يظل مختفياً يعمل من وراء ستار ، (٤٦) •

موقف الصحف البغدادية :

على أثر اغلاق جريدة « الاستقلال » في ٩ شباط ١٩٢١ لم يبق من الجرائد العربية في بغداد سوى جريدة «العراق» لصاحبها رزوق غنام، وكانت هذه الجريدة تؤيد السياسة الانكليزية في العراق • وعندما صار الحزب الشريفى ينشط للدعاية للأمير فيصل ، اتخذت جريدة «العراق» نفس الموقف الذي اتخذه كوكس ، أي موقف « الحياذ الودي » •

ففي ٥ أيار نشرت جريدة «العراق» مقالة لمعروف الرصافي بتوقيع مستعار هو «عراقي مفكر» ، يدعو فيها الى مبدأ «العراق للعراقيين» . ويرد على الذين يدعون الى اختيار أمير شريفي للعراق . وهذه نبذة من تلك المقالة حيث يقول كاتبها : «... أما ما تفضل به أحد اخواننا العراقيين من أن النهضة العربية الاخيرة قد بزغت شمسها في القطر الحجازي وخصوصاً في بيت الشريف ملك الحجاز ولذلك يلزم أن يجلس على اريكة الملك أحدهم فانه لم يصب بذلك كبد الحقيقة لان في النهضة المذكورة اشترك كثير من أبناء العراق وسوريا وفادوا بالنفيس وجاهدوا حق الجهاد في سبيل الحرية والاستقلال ، لذلك فيمكننا أن نقول ان النهضة عينها ما قامت كما ينبغي الا بهؤلاء العراقيين وأمثالهم من العرب وليس بالحجازيين فقط ، فلهذا ليس لأمرأ الحجاز هذا الحق .. »

وحين ظهرت هذه المقالة انبرى لها الشريفيون يردون عليها ، وقد فتحت جريدة «العراق» صدرها لردودهم ، وكأنها كانت تشجهم على ذلك من طرف خفي كما تقتضيه السياسة الانكليزية يومذاك . فنشرت رداً لعبدالله الديلمي في ١١ أيار ، ورداً آخر لرشيد الهاشمي في ١٢ منه ، ورداً ثالثاً لسليمان الزهير في ١٣ منه .

وفي ٢٠ حزيران ظهرت جريدة جديدة باسم «الفلاح» ، لصاحبها عبداللطيف الفلاح ، وهو من خريجي الكلية العسكرية في اسطنبول ، وأخذ يجاهر بالدعوة الى اختيار فيصل . فقد كتب في العدد الاول منها يقول: ان الامة حين جاهرت بدعوتها للامير فيصل لانها تراء جامعا للصفات التي تؤهله أن يكون ملكاً عليها وتترف بما قدم للامة العربية من الايادي الطائلة ، بالاضافة الى ما اكتسبه من التجارب السياسية لطول احتكاكه بساسة الغرب وما حصل عليه من المكانة الرفيعة عند أهل الحل والعقد . وفي ٢٣ حزيران ظهرت جريدة ثالثة هي «لسان العرب» ، لصاحبها

ابراهيم حلمي العمر • وكان هذا الرجل قبلئذ يصدر الجريدة نفسها في دمشق ، واشتهر هناك بالتحول السريع من حال الى حال • وقد أعلن ابراهيم عن موقفه السياسي في أول عدد أصدره من الجريدة في بغداد حيث قال انها يجب أن لا ينتظر الناس منها ميلاً الى حزب دون آخر • والمظنون انه اتخذ هذا الموقف تجاوباً مع موقف «الحياة الودي» الذي اتخذه كوكس •

وفي ٢٥ حزيران ظهرت جريدة رابعة باسم « دجلة » لصاحبها داود السعدي ، وأخذت تتجه اتجاهاً معارضاً للحزب الشريفي بشكل غير مباشر • وقيل ان لفيلبي ضلعاً في هذه الجريدة^(٤٧) • وقد اخذت هذه الجريدة تنوع في أحاديثها بنية توهين الاتجاه الشريفي في العراق ، فكانت تارة تشير الى ما ينطوي عليه النظام الملكي من استبداد وجور ، وتارة أخرى تحت العراقيين على التمسك ببيعة عبدالله التي تم الاتفاق عليها في التسام سابقاً^(٤٨) •

ومما يلفت النظر ان الرأي العام صار ينظر الى جريدة « دجلة » نظرة لاتخلو من ريبة واتهام ويعتبرها جريدة تنطق بلسان الانكليز أو الممالئين لهم ، وأخذ النقد الشديد يوجه على الجريدة من كل جانب حتى بلغ الأمر بصاحب الجريدة ذات يوم الى أن يكتب مقالاً افتتاحياً يرد به على ناقيده بعنوان : « الحر ممتحن بأولاد الزنا »^(٤٩) •

خزعل يوشح نفسه :

كان، الشيخ خزعل أمير المحمرة يطمع بامارة العراق منذ انتهاء الحرب ، فهو قد خدم الانكليز خلال الحرب خدمة عظيمة وكان يأمل منهم ان ينصبوه أميراً على العراق مكافأة له على خدمته • ففي ٢٢ كانون

(٤٧) رفائيل بطي (الصحافة في العراق) - القاهرة ١٩٥٥ - ص ٨٦ •

(٤٨) خيرى العمري (حكايات سياسية) - ص ٧٣ •

(٤٩) رفائيل بطي (المصدر السابق) - ص ٨٦ •

الاول ١٩١٨ كتب الشيخ خزعل الى كوكس مانصه :

« يظهر ان الحكومة البريطانية تبحث عن أمير للعراق • وليس هناك مرشح لائق في متناول اليد • ان تسعة أعشار العراق هم شيعة ، والامير يجب ان يكون شيعيا أيضا واني مواطن عراقي • وقد ولدت وترعرعت على شط العرب • وبرهنت على اخلاصي •• وسوف أعمل في كل الامور وفق رغبات المندوب السامي وأوامره ، كما كنت في الماضي ••»

ان كوكس لم يؤيد الشيخ خزعل على طلبه هذا • فقد كان رأي كوكس ان اختيار خزعل لامارة العراق سيكون ذا تأثير سيء على السنين الذين كانوا ذوي النفوذ الاعظم في العراق (٥٠) •

لم يئأس الشيخ خزعل بل ظل يتحين الفرصة للمطالبة من جديد بعرش العراق • وأخذ يقوي علاقاته بالعراقيين بشتى الوسائل ، ولا سيما بعلماء الشيعة وشعرائهم وخطابهم ، وصار يفتد عليهم الاموال ويتجنب اليهم • وفي عام ١٩٢٠ أمر بطبع كتاب في مصر يتضمن تاريخ الامام علي وقصيدة طويلة جدا في مدحه بقلم عبدالمسيح الانطاكي صاحب جريدة « العمران » القاهرية • وقد انتهى طبع الكتاب في ٣٠ نيسان فأرسلت نسخه الى المحمرة ومن هناك ارسلت الى العراق لتوزيعها على الناس مجانا في سبيل الدعاية لخزعل ، ولكن السلطة البريطانية لم تسمح بنشره ، فبقيت نسخ الكتاب مخزونة في بيوت الذين كلفوا بتوزيعه ، ولم ينشر الا بعد سنوات - أي بعد فوات الآوان !

وفي أوائل ١٩٢١ عندما كان الأنكليز يبحثون عن مرشح ملائم لعرش العراق استعاد خزعل نشاطه في هذا السبيل ، فأرسل أحد رجال الدين الى النجف ومعه مبلغ ضخم من المال قدر بعشرين ألف ليرة ذهب لكسي

(50) Gassan Atiyyah (op. cit.) - p. 868.

يوزعها هناك من اجل الدعاية له ، كما أرسل مزاحم الباججي الى بغداد لهذا الغرض ايضا •

لم يوزع رجل الدين من المال شيئاً بل احتفظ بالمبلغ كله لنفسه ، وقيل انه اخفاه في احد جدران بيته وبنى عليه ، ولم يفتحه الا قيل وفاته • أما مزاحم الباججي فقد باءت مساعيه في بغداد بالفشل • وقد كتب الى خزعل رسالة مؤرخة في ٩ آذار ١٩٢١ تقتطف منها ما يلي :

حضرة مولاي السردار

بعد التشرف بلشتم أناملكم الشريفة أعرض انساني وفقاً لامركم ذهبت الى بغداد وحكيت مع المعلومين فوجدتهم كما سبق مني التنبؤ بحقهم ، ورأيت الاحوال متغيرة للغاية ، وأقناع أحد بالمطلوب من أصعب الامور بل يكاد يكون مستحيلاً ... انني اختبرت الحالة جيداً وعرفت بواطنها وظواهرها ، وصدقي مع سموكم يجبرني ان اقول ذات القول الذي قلت قبل شهر وهو ان المسألة متبهة والسعي فيها لا أرى فيه أقل نفع اذا لم يكن فيه بعض الضرر ، ولا يبعد ان يكون هذا الضرر على مثلي اذا حاول تبديل ما وقع عليه الاتفاق وفاء به أهل الحل والعقد ... هذا وانني لا ازال ذلك الغبد المخلص الصادق لسموكم أطال الله بقاءكم ومتعنا بعمركم وجعلكم لي فخراً وذخراً •

الداعي

مزاحم الامين الباججي (٥١)

أدرك خزعل ان الدعاية وبذل الاموال لاجدوى منهما تجاه ارادة القوى الخفية العاملة من وراء الستار ، ولهذا أثر الانسحاب في الوقت المناسب بدلاً من الضاد • وفي ١٤ حزيران نشرت جريدة « العراق » بياناً تحت عنوان « حول عرش العراق » وقدمته بقولها « جاءنا ما يأتي من مصدر ثقة في البصرة » • وهذا هو نصه :

(٥١) خيرى العمري (المصدر السابق) - ص ٥٧ - ٥٨ •

« اجتمع السردار اقدس صاحب السمو الشيخ خزعل خان امير المحمرة بلفيف من اشراف البصرة واعيانها منهم حضرات اصحاب السعادة أحمد باشا الصانع وعبد اللطيف باشا المنديل وعبد الكريم بك السعدون ومزاحم بك الامين الباججي وبلغهم صريحا ما يأتي : « انني عندما طرحت مسألة عرش العراق على بساط البحث ورأيت أن الذين رشحوا انفسهم لذلك العرش هم دوني في المنزلة والكفاءة والمقدرة وفي جميع الزايات والصفات التي يجب أن يتصف بها ملك أو امير ، كنت رشحت نفسي لذلك العرش لانني رأيت أنني احق واجدر من جميع الذين رشحوا انفسهم له . أما الآن وقد بلغني ترشيح سمو الامير فيصل لهذا العرش ، فأنني اتنازل عن ترشيح نفسي لانني ارى في شخص سمو الامير فيصل جميع الصفات والمواهب التي تؤهله لان يتولى ذلك العرش ، وانى اقبل ترشيح سمو الامير فيصل بكل ابتهاج وأؤيده كل التأييد وأرجو من جميع اصدقائي ومواطني أن يؤازروه بكل قواهم . »

أثبت الشيخ خزعل بهذا انه اكثر حنكة من السيد طالب وأبصر منه بحقائق الامور !

ماذا في مكة :

في الوقت الذي كانت فيه بغداد مشغولة بأمرها كانت مكة مشغولة أيضا . فقد كان فيها عدد غير قليل من رجال الثورة الفارين من العراق وهم لاجئون عند الملك حسين وفي ضيافته ، وكانوا فريقين : فريق البغداديين وهم : جعفر ابو التمن وعلي البازركان ومحمود رامز وشاكر القرغولي واسماعيل كنة وامين زكي وعبدالرزاق الهاشمي . اما الفريق الآخر فيتألف من سادة الفرات الاوسط ورؤساء عشائرها وهم : نور الياسري وهادي المقوطر وعنوان الياسري ومحسن ابو طيخ ثم مرزوق الصواد وصلال الموح ومهدي الفاضل وشعلان الجبر ورايح العطية .

وصل فيصل الى مكة في ٢٥ نيسان ، وكانت البرقيات يومذاك قد بدأت ترد تباعا من العراق الى الملك حسين . يروى علي البازركان : انه كان ذات ليلة في مجلس الملك حسين على سطح قصرة في مكة ، فمد الملك يده تحت فراشه وأخرج ورقة قال انها برقية من اهل العراق ، وناولها الى البازركان قائلا : « خذها ياشيخ واقرأها » . وكان هذا نص البرقية : « نرجو ارسال نجلكم الملك فيصل الى العراق ليكون ملكا دستوريا . متظرين تشريفه » . وكانت موقعة من قبل محمد مهدي الصدر ونوري السعيد وحمد الباججي ومحيي الدين السهروردي وبهجست زينل . وسأل الملك حسين عن هوية أصحاب البرقية فأجابه البازركان يمدحهم ، وسأل الملك مرة اخرى : « ان العراقيين طلبوا بالامير عبدالله في بادىء الامر ليكون ملكا دستوريا عليهم فما الذى دعاكم الى تغيير وجهة نظرهم ؟ » فأجابه البازركان : بانهم طلبوا عبدالله حين كان فيصل ملكا في سوريا وهم يطلبون الآن فيصل لانه بلا شغل . فقال الملك : « ولكنني أخشى ياشيخ ان يعامل اهل العراق فيصل كما عاملوا جده الحسين (ع) من قبل » . فأجابه البازركان قائلا : « سيدى لقد تغير الزمن وان اهل العراق ليسوا كاسلافهم في زمن الحسين بن علي بن ابي طالب عليهما السلام ، فهم الآن يقومون باكرام الضيف وبخدمة ملكهم » . وعند هذا ضرب الملك كفا بكف وصاح بلهجته الحجازية : « يا عيال نادوا فيصل » (٥٢) .

وبعد هذا اجتمع العراقيون الذين كانوا في مكة عند الملك حسين وابلغوه رضة اهل العراق في تتويج ابنه فيصل ملكا عليهم ، فقال لهم : « انني اوقفت نفسي ومن يتبعها لخدمة الامة العربية ، وقد وردتني كثير من الرسائل والبرقيات حول هذا الطلب وبينها الشيء الكثير من العلماء وزعماء

(٥٢) علي البازركان (الوقائع الحقيقية) - بغداد ١٩٥٤ - ص ٢٢٩ - ٢٣٠ .

القضية العربية في الفرات • وقد أمرت فيصل ان يتوجه الى العراق وهو وديعتي عند العراقيين ، قوموا واذهبوا معه ، وارجو ان لا يحدث معه في العراق مثل ما حدث في سوريا ، • فقام محسن أبو طيخ وقال : « ان العراق غير سوريا ، وان العراقيين راغبون في سموه • وها انني انني أول من يبايع الامير فيصل ملكا على العراق ، • ومد يده نحو فيصل يبايعه ، فحذا حذوه في المبايعة بقية العراقيين^(٥٣) • ويقال ان الملك حسين التفت نحو السيد نور الياصري يخاطبه باعتباره اكبر الحاضرين سنا وقال له : « ياسيد نور اني اعتبرك كأخي الاكبر واني قد أودعت ولدي فيصل عند جدتنا فاطمة الزهراء عليها السلام ثم اودعته عندهم ، • فأجابه السيد نور : « انا سرحب بفيصل وسيكون موضع احترامنا ومحبتنا ونضحكي في سبيله كل ما نملك^(٥٤) .

فيصل يتوجه الى العراق :

في ٣٠ أيار ١٩٢١ صدر في بغداد بيان العفو العام عن جميع الذين شاركوا في ثورة العشرين حيث لم يستثن منهم سوى افراد معينين • وكان القصد من هذا البيان ان يكون رجال الثورة الذين فروا من العراق في صحة فيصل عند وصوله الى العراق • وفي ١ حزيران ابرقت حكومة لندن الى فيصل تأذن له بالتحرك نحو العراق^(٥٥) .

وفي ٣ حزيران ابرق فيصل الى محمد الصدر ويوسف السويدي وعلي جودت الايوبى الذين كانوا في دمشق بالتوجه الى القاهرة ، ومنها الى الحجاز • وفي ٦ حزيران سافر هؤلاء الثلاثة من دمشق بسيارة حمل ، وعند وصولهم القاهرة وجدوا فيها رستم حيدر وابراهيم كمال وصبيح نجيب

(٥٣) فريق المزهري آل فرعون (المصدر السابق) - ج ٢ ص ٥٢٤ - ٥٢٥ .

(٥٤) عبدالشهيد الياصري (البطولة في ثورة العشرين) - النجف ١٩٦٦ - ص ٢٤٠ - ٢٤١ .

(55) Graves (op. cit.) - p. 298.

ومكي الشربتي • فسافروا من القاهرة جميعا الى جدة بعد ان انضم اليهم
الميجر كورنواليس وكان هذا قد طلبه فيصل ليكون مستشارا له ووسيطا
بينه وبين المندوب السامي في العراق •

واعدت الحكومة البريطانية طرادا حريا اسمه « نورث بروك » لنقل
فيصل وحاشيته الى العراق • وفي ١٢ حزيران أبحر الطراد من جدة
وكان يحمل علاوة على اولئك الذين جاؤوا من القاهرة جميع الذين كانوا
في الحجاز من رجال الثورة ماعدا أربعة منهم ، وهم : جعفر ابو التمن
ومحسن ابو طيخ ومرزوق العواد ورايح العطية • فقد امتنع هؤلاء عن
مرافقة فيصل معتذرين برغبتهم في اداء فريضة الحج الذي كان موسمه
قريبا • ويقال ان أبو التمن قال بانه لا يجب ان يشترك في هذه « الزفة » •
أول برقية وصلت الى بغداد عن ابشار فيصل من جدة كانت رسالة
من جعفر ابو التمن الى بعض الوطنيين في بغداد ، وكان هذا نصها : « سمو
الشريف فيصل أبحر اليوم الى البصرة ، اعدوا الاستقبال اللائق » • وقد
وصلت نسخة من هذه البرقية الى يد النقيب • يقول فيلبي في مذكراته عن
هذا الموضوع ما يلي :

« وفي احد الايام بعد انتهاء جلسة طويلة من جلسات مجلس الوزراء
طلب اليّ النقيب الشيخ ان أتأخر لانه كان يريد التحدث اليّ شخصيا •
وعندئذٍ بادرنى قائلا : هل تعرف شيئا عن هذا ؟ ووضع في يدي برقية بعد
ان ترك الجميع الغرفة • وكانت البرقية قد وردت من جدة بتوقيع جعفر
ابو التمن ... فأجبت قائلا : « كلا ، لا أعرف شيئا ، ولكن هل في وسمي
أن احتفظ بالبرقية ؟ سوف اذهب لمواجهة كوكس في الحال ثم اعود
لاخبركم بما يقول » • ثم ذهبت فورا الى المقيمة حيث وجدت كوكس غير
مشغول ، وبادرته قائلا : « ان الاسواق ملأى بالشائعات بان فيصلا قد ابحر
من جدة متجها الى البصرة ، فهل ذلك صحيح ؟ » الا انه اجابني : « أؤكد

لك يا فيلبي ، لا أعرف شيئاً عن ذلك ، حيث أنني لم تصلني مثل هذه الاخبار ، • وعند ذلك ابرزت البرقية قائلاً : « أذن قد يهلك ان تقرأ هذه » • فكرر تأكيدات السابقة بأنه لا يعرف شيئاً عنها ، ثم خرجت لموافاة النقيب بالنتيجة ، (٥٦) •

وفي ١٤ حزيران ألقى تشرشل بياناً مطولاً حول العراق في مجلس العموم البريطاني قال فيه ما يلي : « ... ليس في النية اكراه الشعب على قبول حاكم مخصوص ، وستطلق الحرية التامة في البحث والافصاح عن الرأي ، سواء كان ذلك في انتخاب الحاكم او انتخاب الجمعية العمومية ... » وقد أبلغت حكومة صاحب الجلالة البريطانية الامير فيصل انها لا تعارض في ترشيحه ، وانه اذا تم انتخابه فالحكومة البريطانية تؤيده • وهو الان في طريقه الى البصرة ، ولا شك في انه اذا انتخب فيصل نكون قد توصلنا الى حل فيه مستقبل ناجح سعيد ، (٥٧) •

نشرت جريدة « الاوقات البغدادية » بيان تشرشل في اليوم التالي • فاستاء منه فيلبي كل الاستياء ولكنه كتم استيائه لانه كان يعد حفلة عشاء ورقص فخمة في مساء ذلك اليوم في نادى العلوية • وقد حضر الحفلة عدد كبير من المدعوين كان من بينهم كوكس وزوجته والمس بيل • ورقص فيلبي في البداية مع زوجة كوكس التي كانت منشرحة جداً ، ثم رقص مع المس بيل وغيرها • ويقول فيلبي في مذكراته : انه شرب كثيراً ليغرق أحزانه واتراحه ، ولما رقص رقصته الاخيرة مع المس بيل كان ثملاً جداً ، فناقشها أثناء الرقص مناقشة حادة ، وهو لم يشعر بما فعل لشدة سكره ، غير أن زوجته أخبرته به في صباح اليوم التالي (٥٨) •

(٥٦) جون فيلبي (المصدر السابق) - ص ٥٦ •

(٥٧) عبدالرزاق الحسيني (المصدر السابق) - ج ١ ص ٣٣ •

(٥٨) جون فيلبي (المصدر السابق) - ص ٥٧ - ٥٨ •

وبعد ثلاثة ايام وصلت الى النقيب برقية من الملك حسين كان هذا نصها :

فرع الدوحة البوية فضيلة السيد الاجل حضرة النقيب • ضرورى
بلفكم توجه ابنى فيصل الى طرفكم بناء على طلبات الاهالي المتعددة ،
ولامتزاج عائلتنا بكم ، فلا احتاج ان ابحت عما يجب لسميكم جميعا فيما
يستلزم راحة البلاد ومضاعفة الرغبة وتأمين مستقبل الكل • هذا ما انتظره
من هم نجاتكم والحسبة الدينية والقومية • والله يتولانا واياكم بالتوفيق •
عن مكة المكرمة في ١٧ حزيران ١٩٢١ م

حسين

فأسرع النقيب يحيب الملك حسين ببرقية هذا نصها :

لحضرة صاحب الشوكة والعظمة جلالة الملك حسين سلطان الحجاز
أيد الله شوكته • لقد أخذت بيد التكريم والاجلال برقية جلالتك المشعرة
بتوجه سمو الامير ذى القدر الخطير الامير فيصل حفظه الله الى العراق
وقد ابتهجنا سرورا من هذا البشارة ودعونا له بالسلامة وصرنا نتنظر قدومه
ساعة فساعة شوقا للقياء • فبمنه تعالى عند قدوم سموه نبادر الى القياس
بالواجب علينا من خدمته حيث اتحاد النسب والحسب القديمين يقضيان
بدلك على الداعي • وأما الامر السامي الملوكى لهذا الداعي بالسعي جميعا
فيما يستلزم راحة البلاد فهو واجب الامتثال على كل حال لاقتضاء الحس
الوطني ونسأل الله التوفيق •

عن بغداد ١٩ حزيران ١٩٢١ م • التوقيع : نقيب اشهراف
بغداد (٥٩) •

وفد الاستقبال :

أخذت البرقيات توالى الى بغداد عن قرب وصول فيصل ووجوب الاستعداد اليه ، وكان من بين تلك البرقيات واحدة من السيد محمد الصدر الى ابيه السيد حسن ، واخرى من يوسف السويدى الى ابنه ناجى . وقد اهتم ناجى السويدى بالامر فارسل بطاقات الدعوة الى اعيان بغداد وأولي الرأي يدعوهم الى اجتماع يعقد في سينما رويال في صباح الجمعة ١٧ حزيران للنظر في منهاج استقبال الامير فيصل . وعندما تم عقد الاجتماع في الموعد المعين قام ناجى فشكر الحاضرين واخبرهم بوصول البرقيات عن قرب قدوم الامير ، وقال انه سيكون ضيف العراقيين وانهم يجب ان يقوموا بما يجب عليهم في هذا الشأن طبقا لما اشتهر عنهم من الكرم والضيافة . ثم اضاف قائلا : بان الحكومة والبلدية ستقومان بما يجب عليهما ، ولكن هذه الدعوة موجهة اليكم يا ابناء الشعب ، فانتم الداعون وانتم المدعوون ، وان الامير سوف يصل الى البصرة في ٢٣ منه ، ومن اراد منكم الاشتراك في الوفد الشعبي لاستقباله فليسجل اسمه ، وسير عليكم بعض الاصدقاء لتسجيل اسماء الراغبين ، وسيسافر الوفد الى البصرة مساء الاحد القادم . ثم اوضح ناجى السويدى ان كل واحد من اعضاء الوفد سيتكلف نفقات سفره . (٦٠) .

سافر الوفد الشعبي بالقطار مساء الاحد ١٩ حزيران حسب الموعد المقرر . ولوحظ ان اثنين من الوزراء رافقاه في سفرته هما فيليبي وزير الداخلية وجعفر العسكري وزير الدفاع . ومن الممكن القول ان سفر هذين الوزيرين كان جزءا من الخطة التي وضعها كوكس لكي يثبت بها حياده امام الناس . فلقد كان فيليبي يبذل كل جهده في مقاومة ترشيح فيصل كما رأينا ، بينما كان العسكري على العكس منه . وتلك لعبة من

(٦٠) جريدة « العراق » في عددها الصادر في ١٨ حزيران ١٩٢١ .

الاعيب السياسة التي انطلقت على الناس !

ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد ان فيلبي أبدى نشاطا غريبا في جميع المخططات التي مر بها القطار حتى وصوله الى البصرة . ففي كل محطة كان حاكم المنطقة يأتي لاستقباله مع جمهور كبير من الاهالي وهم يسألونه عما يجب عليهم ان يفعلوه في استقبال الامير فيصل ، فكان فيلبي يجيبهم بأن ليس هناك أوامر رسمية في هذا الشأن وان الامير قد جاء مرشحا وليس ملكا ، وأنهم أحرار فيما يفعلون تجاهه . وقد أوصى فيلبي حكام المناطق كلا على حدة بانهم يجب ان يستقبلوا القطار الذي يحمل الامير دون أن ينظموا مظاهرة ، فان ذلك متروك للاهالي أنفسهم ، وان الاستقبال حتى في بغداد والبصرة ينظم بصورة غير رسمية (٦١) .

وصول فيصل :

وصل الطراد الذي يحمل فيصل وحاشيته الى ميناء البصرة في الساعة الخامسة والنصف من عصر ٢٣ حزيران . وكانت البصرة قد استعدت لاستقباله فنصبت له أقواس النصر في الشارع العام ، وخرجت في الشط بعض الزوارق البخارية والبواخر النهرية وهي مزدانة بالاعلام العربية ، كما تجمع على ضفاف الشط عدد كبير من الريفيين وهم يهزجون ترحيبا به (٦٢) .

فوجيء فيصل عند نزوله من الطراد بلوحة مرفوعة على مدخل العشار مكتوب عليها : « لتحى الجامعة العراقية » ، ولوحة اخرى عند مدخل البصرة مكتوب عليها : « لتحى البصرة جزءا من العراق » . وقد تبين له بعدئذ ان عريضة تحمل ٤٥٠٠ توقيع من اهل البصرة كانت قد

(٦١) جون فيلبي (المصدر السابق) - ص ٦٠ .

(٦٢) محمد عبدالحسين (ذكر فيصل الاول) - بغداد ١٩٣٣ - ص

قدمت قبل فترة قصيرة الى المندوب السامي وهي تتضمن طلما بفصل البصرة عن العراق ، ولكنها لم تثل موافقة جميع اهل البصرة اذ قاومها فريق كبير منهم (٦٣) ، كما ان المندوب السامي ردّها بشدة (٦٤) .

نزل فيصل في دار متصرف البصرة أحمد باشا الصانع ، وتوزعت حاشيته في دور بعض وجهاء البصرة . وفي صباح اليوم التالي اقيمت حفلة في دار المتصرف حضرها أعيان البصرة والوفود ، وألقيت الخطب الترحيبية والقصائد من قبل محمد زكي المحامي وعطا امسين وكاظم الدجيلي وعبدالرحمن خضر ومحمد عبدالحسين وعبدالحافظ طه واحمد حمدي ملا حسين ومهران مهونيان ثم ارتجل فيصل في الختام كلمة طويلة تنقل منها النبذة التالية :

« ... واني لأصرح لكم بالنبي وآله ، ليس لي أي طمع شخصي وانما اعمل طمعا في خدمة هذه البلاد ابتغاء لوجه الله تعالى ، واني لأرغب أن أرى في المقامات العالية غيري من تجمع عليه الامة ، واني اقسم بشرفي وتربة اجدادي وبقبر جدنا الرسول (ص) انني اول من يبايع الرجل الذي تتفق عليه الامة جمعاء ، فاذا اردتم أن تولوا عليكم شخصا انصحكم بان تخلصوا في القول واذا قال احدكم كلمة لايجيد عما قال .. » (٦٥) .

لم يبق فيصل في البصرة سوى يوم واحد اذ غادرها بالقطار في مساء اليوم الثاني من وصوله ، متوجها الى الحلة . وكان استقباله في المحطات بين البصرة والحلة فاترا جدا من جراء التعليمات التي اصدرها فيلبي الى الحكام . وقد اغتاض فيصل من ذلك . ويقول فيلبي في مذكراته :

« وقد قضيت انا وكورنواليس معظم الطريق في قاطرته - اي عربة

(٦٣) سليمان فيضي (المصدر السابق) - ص ٢٦٩ - ٢٧٣ .

(٦٤) فيليب آيرلاند (المصدر السابق) - ص ٢٥٦ (حاشية)

(٦٥) فريق مزهر آل فرعون (المصدر السابق) - ص ٥٢٨ .

فصل - نبحت الوضع وتناول الويسكى والصودا • وقد أوضح فيصل انه لم يأت الى العراق الا بدعوة من الحكومة البريطانية ، وانه يتوقع أن يؤازره الموظفون البريطانيون مؤازرة فعالة في ترشيحه للعرش • فكنت صريحا معه صراحة تامة : كما كان واضحا ان الحكومة البريطانية تريد ملكا فى العراق ••• لكن الانتخاب يجب ان يكون انتخابا حرا ، حيث ان التعليمات صدرت بهذا المآل الى جميع الموظفين البريطانيين في البلاد • وقد اضفت الى ذلك انه اذا كان يريد كسب اصوات الاهالي في السلاسل على اساس انه مرشح بريطانيا العظمى فان امله فى النجاح سيكون ضعيفا (٦٦) •

امتعض فيصل من هذا الكلام امتعاضا شديدا ، وتبين له ان الطريق امامه سوف لا يكون سهلا كما كان يتصور سابقا • ولما وصل القطار الى الحلة ازداد فيصل امتعاضا اذ لم يجد في استقباله في محطة الحلة سوى رجلين • وقد وصف علي جودت الايوبى في مذكراته ماجرى حيث قال : « وعند وصولنا الى الحلة لم نجد فى المحطة الا معاون المفتش الادارى برترام توماس ورئيس البلدية عبدالرزاق شريف ، وهناك انفجر المرحوم جعفر العسكري معاتبا رئيس البلدية لعدم اهتمامه باعداد الاستقبال كما يجب ان يكون • فكان اعتذار رئيس البلدية الذى كان يتلقى أوامره من الحاكم السياسى الانكليزي ان جعفر لم يبرق اليه بمقدم فيصل وانما ابرق الى الوطنيين فقط (٦٧) •

ولم تقف الحالة عند هذا الحد ، فان برترام توماس دخل على فيصل بحضور الايوبى والمرافق صبيح نجيب ووجه اليه بكل وقاحة هذا السؤال : « ليش جنابك جيت الى العراق ؟ » فرد عليه فيصل قائلا : « لماذا تسألني ؟ » فقال توماس : « لان الاهالي لا يريدونك » • فرد عليه فيصل : « ولماذا

(٦٦) جون فيلبي (المصدر السابق) - ص ٦٢ •

(٦٧) علي جودت (ذكريات) - بيروت ١٩٦٧ - ص ١٤٤ •

تريد ان تدخل انت بيني وبين الاهالي؟ فقال توماس : « حتى أخبرك » .
فكان رد فيصل الاخير عليه : « لست بحاجة الى خبرك وسوف ترى ما اذا
كانوا يريدونني أم لا » . وعند هذا خرج توماس (٦٨) .

في النجف وكربلاء :

غادر فيصل وحاشيته الرحلة في صباح اليوم التالي حيث ركبوا
السيارات متوجهين الى النجف وقد تمعد فيلبي وكورنواليس الابتعاد عنه
في النجف . وكان منظره وهو بملابسه العربية ويحف به رجال الثورة
موحيا للناس بان الهدف الذي طالبت به الثورة قد تحقق الآن .

اول عمل قام به فيصل في النجف هو زيارته لمرقد الامام علي ، ثم
زار بعض العلماء ، وحل أخيرا في بيت السيد هادي النقيب حيث كان
اجتماع كبير فألقى فيه فيصل كلمة شكر فيها النجفيين ومدح الثورة العراقية
والثورة الحجازية . ثم نهض باقر الشيبسي فألقى كلمة بالنيابة عن الحاضرين
قال فيها : « اننا كنا نتطلع بشوق الى هذه الزيارة الميمونة من ضيف العراق
الكبير الامير فيصل الى موطن الثورة التي نرجو ان تستكمل نتائجها
المطلوبة كما نرجو من الله ان يحقق أهداف جلالة الملك حسين باستقلال
البلاد العربية وجمع شمل العرب وتحقيق أهداف الثورة العربية ثورة
التحرر والانقاذ ... »

وفي المساء اقام السيد عباس الكليدار مأدبة عشاء فخمة فألقى فيها
فيصل كلمة قال فيها انه سيقوم بكل حزم لاصلاح البلاد وتعميرها ، واعقبه
باقر الشيبسي بكلمة حماسية شديدة حيث قال : « ان الثورة العراقية هي
وليدة افكار تحررية قديمة من زمن الاتراك ، واننا قد ضحينا بكل غالبي
ورخيص ، فلا يمكن ان نسلم ثمرة جهودنا الطويلة واتعابنا المريعة الا بيد
امينة مخلصه تحرص على استقلال بلادنا ومصلحتنا واهدافنا القومية »

والوطنية ، • ويقال ان فيصل اعتبر هذه الكلمة موجهة ضده وامتنع منها ... (٦٩) •

وفي صباح ٢٧ حزيران توجه فيصل وحاشيته الى كربلاء وكان المتصرف في كربلاء يومذاك حميد خان • ويقول غريفر : ان استقبال فيصل في كربلاء لم يكن حماسيا لان المتصرف لم يكن راغبا في استقبله ، وقد ذهب هذا المتصرف الى بغداد في اليوم السابق ، وبعد أن قابل المنسوب السامي عاد الى كربلاء مسرعا ، ولهذا كان الاستعداد لاستقبال فيصل مستمجلا (٧٠) •

قضى فيصل في كربلاء يوما واحدا زار فيه مرقدى الحسين والعباس عليهما السلام ، وبات ليلته في ضيافة خليل الاسترابادى • وفي صباح اليوم التالي - ٢٨ حزيران - غادر كربلاء الى طويريج ، فمكث فيها خمس ساعات في ضيافة السيد هادى القزويني (٧١) ، ثم توجه نحو الحلة •

ومما يلفت النظر ان الاستقبال في الحلة كان في هذه المرة بخلاف ماكان عليه في المرة الاولى ، ويبدو ان اهل الحلة شعروا بتقصيرهم تجاه فيصل ومن معه من رجال الثورة ، فخرجوا في هذه المرة لاستقباله بجموع غفيرة اشترك فيها النساء والصبيان وتلامذة المدارس (٧٢) ، واخذوا يهزجون بقولهم : « حي الله الملك فيصل » • وعند وصول فيصل الى الحلة نزل في بيت محمد علي القزويني ، وتهاوت اهل الحلة للسلام عليه هنالك ، وألقى عدد من الشعراء قصائد في مدحه والترحيب به •

(٦٩) عبدالشهيد الياصرى (المصدر السابق) - ص ٣٥٠ •

(70) Graves (op. cit.) - 206.

(٧١) علي جودت (المصدر السابق) - ص ١٤٦ •

(٧٢) ملحق جريدة « دجلة » الصادر في ٢٩ حزيران ١٩٢١ •

وصوله الى بغداد :

أذيع بيان في بغداد بان الامير فيصل سوف يصل بالقطار في الساعة السابعة من صباح ٢٩ حزيران • وكانت بلدية بغداد قد خصصت خمسين ألف روبية لاستقباله فنصبت اقواس النصر في عدة مواضع من المدينة • وزينت الشوارع بالاعلام العربية وسعف النخيل واكتضت ارصفت الشوارع وشرفات المنازل بالمتفرجين ، كما خرج المستقبلون الى محطة القطار في الكرخ وكان في مقدمتهم كوكس والجنرال هالدين واثنين بيل والوزراء • وبينما هم في الانتظار وصلتهم برقية مفادها ان عطلا اصاب سكة الحديد ، وان الامير قادم بالسيارة والمأمول ان يصل في الوقت المحدد • وظلوا ينتظرون حتى الساعة الثامنة • ثم وصلتهم برقية أخرى مفادها ان السكة اصلحت وان الامير قادم بالقطار وسوف يصل بغداد ظهرا • وعند هذا ارتأى كوكس ان الاستقبال في وقت الظهر سيكون شاقا لاشتداد الحر فيه ، وقرر ان يبقى الامير في القطار عند وصوله حتى الساعة السادسة لكي يجرى الاستقبال عند المساء • فعاد المستقبلون الى بيوتهم (٧٣) • وأذاعت البلدية بيانا قالت فيه ان وصول الامير سيكون في الساعة العاشرة حسب التوقيت العربي (٧٤) •

لاندرى هل كان هذا التأخير متعمدا ام انه جرى على رسله • غير أنه على اى حال كان مفيدا للدعاية الشريفة حيث أخذ الناس يقولون بأن التأخير سببه الانكليز لانهم لا يريدون ان يجرى للامير مثل هذا الاستقبال الشعبي العظيم • واخذت الاشاعات المختلفة تروج بين الناس في هذا الشأن مما ادى الى ارتفاع مكانة الامير فيصل في نظر الناس •

جرى الاستقبال في الساعة السادسة حسبما قرره كوكس • وقد

(78) Lady Bell (Letters of Gertrude Bell) - London 1947 - p 489.

(٧٤) ملحق جريدة « دجلة » الصادر في ٢٩ حزيران ١٩٢١ •

قوبل الامير بحماس بالغ حيث هتفت له الجماهير في الشوارع التي مر بها ، وكان هو يحييها بيده مبتسما . حتى وصل الى الدار التي اعدت له فـى داخل القشلة ، وهى الدار التي كانت مقرا للوالي فى العهد العثمانى وتقع على شاطئ دجلة ، وقد اخذت الجرائد البغدادية تسميها بـ « دار الامارة » .

كان الامير مسرورا للاستقبال العظيم الذى جرى له ولكنه كان فى الوقت نفسه مغموما لموقف فيلبى والحكام السياسيين فى الالوية تجاهه . فقد قيل له ان اولئك الحكام كانوا قادرين ان يجمعوا الناس لاستقباله فى المحطات ، ولكنهم لم يفعلوا ، وأخذ يتسأل : هل ان المندوب السامى يقف الى جانبه ، واذا كان الامر كذلك فلماذا اتخذ الحكام السياسيون موقفا مغائرا لموقف رئيسهم؟ (٧٥) .

زارته المس بيل فى الساعة السابعة من صباح اليوم التالى ، فرحب بها وشكر جهودها التى بذلتها فى سبيله ، وقد اكدت هى له اثناء الحديث ان المندوب السامى منحاز الى جانبه انحيازا مطلقا . وعند خروج المس بيل من عند الامير بدأت جموع المهثين يفدون للسلام عليه ، وكان فيهم وفود الالوية . وألقيت بين يديه القصائد الشعرية كانت اولها قصيدة الزهاوى . وتقول المس بيل ان احمد الشيخ داود اتخذ له مقعدا عند الباب وظل كذلك فى الايام التالية ، فكان ينهض كلما جاء وفد للتهنئة ليعلمن مبايعته للامير فيصل بصفته ممثل الشعب . وقد فعل ذلك خمسين مرة . وتعلق المس بيل على ذلك قائلة : ان احمد الشيخ داود أصبح اضحوكة الجميع بما يقوم به من افعال سخيفة ، وان فيصل والاخرين لايعبرونه اقل اهتمام (٧٦) .

حرص فيصل ان يزور الكاظمية فى اليوم التالى لوصوله . ففسى

(75) Lady Ball (op. cit.) - 489

(76) Burgoyne (op. cit.) - vol. 2, p. 223 - 228.

الساعة العاشرة من صباح ذلك اليوم ، بينما كانت الوفود لا تزال تفد للسلام عليه في القشلة ، تحرك موكبها متوجها الى الكاظمية عن طريق الكرخ .
وقد جرى له في الكاظمية استقبال عظيم ، ونحرت تحت قدميه الذبائح .
وبعد ان ادى زيارة المرقد المقدس خرج لزيارة السيد محمد الصدر في داره ، ثم ذهب بعدئذ لزيارة الحاج عبدالحسين الجلي . وقد أقيمت بين يديه القصائد في كلتا الدارين (٧٧) .

وفي صباح اليوم التالي - وكان يوم جمعة - ذهب فيصل لزيارة جامع الامام أبي حنيفة في الاعظمية ، وقد جرى له من الاستقبال فيها مثلما جرى في الكاظمية . ثم ذهب بعدئذ لزيارة جامع الشيخ عبدالقادر في بغداد واداه صلاة الجمعة فيه . وكانت محلة باب الشيخ قد استعدت لاستقباله ، فنحروا الذبائح ، ونشروا الزهور ، ورشوا ماء الورد . وبعد ان ادى صلاة الجمعة توجه لزيارة دار النقيب ، فاستقبله فيها ابن النقيب الاكبر السيد محمود ، وقال يخاطبه : « أن اسرة النقيب ياسمو الامير يدك اليمنى تستعملها اينما شئت في سبيل مصلحة البلاد » . ثم تقدم تلميذ صغير فتلا قصيدة الفرزدق المشهورة : « هذا الذي تعرف البطحاء وطأته » (٧٨)

مصير فيليبي :

عندما كان فيليبي في رفقة الامير فيصل في الطريق بين النجف وكربلا اصيب بنوبة شديدة من الملاريا ، فنقل الى الحلة حيث مكث فيها بضعة ايام تحت المعالجة ، وجاءت اليه زوجته من بغداد لتريضه . وفي مساء ٣ تموز عندما تم شفاؤه عاد الى بغداد . وفي صباح اليوم التالي ذهب فيليبي لمقابلة كوكس فجزت بينهما المحاوراة التالية :

قال كوكس : يبدو انك لم تماش مع فيصل جيدا ، فقد كان متذمرا

(٧٧) جريدة « دجلة » في عددها الصادر في ٢ تموز ١٩٢١ .

(٧٨) جريدة « العراق » في عددها الصادر في ٤ تموز ١٩٢١ .

بمرادة من موقفك خلال السفارة الى هنا ، وقد صرح انه سوف لا يبقى في العراق مالم يطمئن من موقف جميع الموظفين البريطانيين وتأيدهم له تأييدا فعالا .

قال فيلبي : لا يمكنى ان افهم كيف تتوقع ذلك منى بالنظر للاوامر. الرسمة التي هي أوامرك انت ، والتي هي لانتزال قائمة من غير تبديل ، في شأن حرية الانتخاب . وانني كثيرا ماكنت اطمئن النقيب وغيره بأننا عازمون على البر بوعودنا التي وعدناهم بها . وان فيصل قد أدرك بطبيعة الحال ان نجاحه سيكون ضعيفا اذا سار الانتخاب سيرا حرا . وقد أوضحت له ذلك بصراحة .

قال كوكس : انني اعرف انك قلت له ذلك ، لكنك تعلم الآن بصورة أكيدة ما الذي تريده الحكومة البريطانية .

قال فيلبي : انني أعرف ذلك طبعا ، كما انني ادركت ذلك منذ مدة طويلة برغم جميع التأكيدات التي بذلتها لي بخلاف ذلك . غير ان الذي لا اتمكن من فهمه هو ان الحكومة البريطانية اذا كانت تريد وتعزم ان يكون فيصل ملكا فلماذا لاتعنيه بصورة مباشرة لا التواء فيها بدلا مسر اصرارها على مهزلة الانتخاب . وعلى اى حال فانني أشعر بانى صرت متورطا تمام التورط بالتأكيدات التي بذلتها الى الجميع لكي يساهموا في معالجة شؤون الانتخاب .

قال كوكس : انني على علم بذلك ، لكنني لا استطيع أن افهم كيف يمكنك التوفيق بين موقفك هذا وبقائك في منصبك .

قال فيلبي : اذا كان المتوقع مني ان ادير شؤون الانتخاب فاني لست راغبا في ان ابقى في منصبي ، واذا كان في وسعك ان تعين خلفا لي فسأذهب من هنا واسلمه المنصب في الحال .

قال كوكس : شكرا فيلبي ، انني آسف ، سوف لا يسمعك ان تستمر

على التعاون معنا •

أدرك فيلبي ان كوكس يريد منه ان يقدم استقالته • فقدها فعلا •
واختار كوكس رجلا آخر ليحل محله هو طومسون الذي كان يومئذ
مستشارا لوزارة المالية (٧٩) •

وفي عصر ٥ تموز ذهبت المس بيل لزيارة فيلبي في بيته فجرت بينها
وبين زوجة فيلبي محاورة حائقة • وقد قدم لنا كل من فيلبي والمس بيل
وصفا لتلك المحاورة يختلف عن الوصف الآخر من بعض الوجوه • يقول
فيلبي في مذكراته : ان المس بيل دخلت عليه عندما كان يتناول الشاي مع
زوجته ، فقالت له : « جاك ، انني آسفة لسماع النبأ » ، وكانت تقصد من
ذلك سماع نبأ استقالته ، فبادرتها زوجته بفظاظة قائلة وهي تخرج متعدية
اياها الى خارج الغرفة : « كلا ، أنت غير آسفة » • وعند هذا تقدم فيلبي
من المس بيل فقدم لها كوبا من الشاي ، وطيب خاطرهما ، وتحدث اليها عن
سروره لاجتماعه عن هذا الدس القبيح (٨٠) •

اما المس بيل فتروي القصة على النحو التالي حيث قالت : « في يوم
الثلاثاء ذهبت لزيارة فيلبي وزوجته لابداء اسفي عما جرى ، فحدثت محاورة مؤلمة
جدا فان زوجة فيلبي انفجرت بالبكاء واتهمتني بانني انا السبب في عزل
زوجها ، ثم خرجت من الغرفة • وعندها ذكرتني بصداقتنا الطويلة ورجوته ان
يعتقد انني بذلت كل جهدي لاقناعه بان اى موظف حكومي لا يمكن ان
يتفجع من مخالفة أوامر حكومته • فان احتضانه لقضية السيد طالب الماكر
لا يمكن تصديقها ، ولكنه جعل نفسه هو والسيد طالب شيئا واحدا » (٨١) •

(٧٩) جون فيلبي (المصدر السابق) - ص ٦٣ - ٦٥ •

(٨٠) المصدر السابق - ص ٦٥ •

(81) Burgoyne (op cit.) - vol. 2, p. 224.

قضى فيلبي بعد هذا ثلاثة اشهر يتجول في ايران ، وعند عودته الى بغداد عرض عليه كوكس منصب المعتمد البريطاني في شرق الاردن بدلا من لورنس . فقبلها وسافر جوا الى عمان . ولكن فيلبي لم يغير عادته ، حيث رأيناه يختلف في الرأي مع المندوب السامي في فلسطين على منوال ما اختلف مع المندوب السامي في العراق ، وقد ادى ذلك به الى تقديم استقالته نهائيا من خدمة الحكومة البريطانية .

ذهب فيلبي بعدئذ الى جدة وفتح فيها وكالة لاستيراد السيارات وغيرها . وصار صديقا للملك عبدالعزيز بن سعود ومستشارا شخصيا له . وفي ١٩٣٠ اعلن اسلامه واطلق على نفسه اسم « الحاج عبدالله فيلبي » . غير أنه بعد موت الملك عبدالعزيز اختلف مع ابنه سعود ، وخرج من المملكة السعودية شبه مطرود . وفي ١ تشرين الاول ١٩٦٠ مات فيلبي في بيروت وهو منبوذ من الحكومة السعودية والحكومة البريطانية معا .

لم يخلف فيلبي ثروة مع قدرته على كسب الملايين ولكنه خلف كتباً رائعة في وصف رحلاته العظيمة التي قام بها في جزيرة العرب والربع الخالي . ومن الممكن القول انه كان ذا شخصية شاذة لا تخلو من عبقرية . انه أراد أن ينافس لورنس في الشهرة فتفوق عليه من بعض الوجوه !

وليمة النقيب :

في مساء ٧ تموز اقام النقيب وليمة كبرى اعتبرت في حينها بمثابة وليمة صلح بينه وبين الامير فيصل . وقد اقيمت الوليمة في دار آل النقيب المقابلة لجامع الشيخ . وكان الجامع والشوارع المؤدية اليه قد انيرت بالاضوية الزاهية ، كما ازدحم الجمهور فيها للترحيب بالامير والتهنئة له . ولما وصل الامير الى الدار استقبله النقيب في رأس السلم متكئا على ساعد طييه الخاص ، فتعانقا على الطريقة المألوفة يمينا ويسارا ، ثم سارا متمسكين بالأيدي نحو صدر القاعة حيث جلس فيصل بين المندوب السامي والنقيب .

كان اهم ماجرى فى تلك الولىمة قصيدة ألقاها معروف الرصافى
مؤلفة من اربعة مقاطع تشيد باجتماع النقيب والامير ، تنقل فيما يلي المقطع
الرابع منها :

مد النقيب الى الامير يد المعاضد والنصير
فليخز كل مشاغب في القوم يلهمج بالشرور
وليحي مولانا النقيب حياة مولانا الامير

وبعد القاء هذه القصيدة استمر الرصافي يتكلم حيث قال : « أجل
ايها السادة ، ماذا يريد القوم بعد اقتران هذين النيرين الكبيرين حيث طلعا
بالوفاق متعاقبين في سماء العراق ، متصافحين على ضفاف الرافدين . أنا
أيها السادة لا اعلم رجلا اجدر من مولانا النقيب بان يمثل في أفعاله أهل
العراق كافة . كيف لا وهو من قتل الدهر خُبراً بتجاربه ، وارتدى العز
ضافيا بعلمه وأدبه ، وارتقى سماء السؤدد والمجد بنسبه ونسبه . . فيا ايها
الامير يا صاحب السمو الملكي انما تصافحك من مولانا النقيب يد العراقيين
كلهم ، وانما تضمك في هذه الليلة من هذه الدار العامرة بلاد العراق كلها .
وانت ايها النقيب المفخم سوف ترتل لك الايام شكرا جزيلا على ما بذلت في
سبيل مصلحتنا من المساعي الغر لجمع كلمة القوم ولم شعث الامة . فليحي
صاحب السمو الملكي الامير فيصل المعظم ، وليحي مولانا النقيب المفخم ،
وليحي العراقيون ، وليحي العرب ، . وكانت قصيدة الرصافي وكلمته
تقاطع بالتصفيق الحار مرة بعد مرة (٨٢) .

ومن الجدير بالذكر في هذه المناسبة ان الرصافي كان صدر أمر
تعيينه وكيلاً لرئيس لجنة ترقية العلوم في وزارة المعارف قبل الولىمة
بأربعة أيام .

وفي ١١ تموز عندما انعقد مجلس الوزراء قدم النقيب اقتراحاً

(٨٢) جريدة « العراق » في عددها الصادر في ٩ تموز ١٩٢١ .

يطلب فيه المناادة فوراً بفصل ملكاً على العراق بشرط أن تكون حكومته
دستورية نيابية ديمقراطية مقيدة بالقانون • وقد وافق المجلس على هذا
القرار •

وقد كتبت المس بيل فيما بعد تصف التبدل الذي حدث في موقف
النقيب تجاه فيصل ، حيث تحول من موقف المبغض المعادي الى موقف
المحب المناصر ، فذكرت انها زارت النقيب في بيته فوجدته في غاية
الانشراح ومسروراً جداً بموقفه الجديد من فيصل • وقد تحدث اليها
قائلاً : « خاتون ، انت ابنتي ، أريد أن أخبرك بكل ما يجول في خاطري •
فأنا منذ مجيء السر برسي كوكس لم أفعل بخلاف نصيحته أو رغبة
الحكومة البريطانية • واني حين علمت بأن فيصل يصلح لأن يكون ملكاً
وان الحكومة العظيمة تؤيده ، صممت أن أتجنب كل الاقويل والاشاعات
وأقوم بنفسي لأعلن ملكيته في مجلس الوزراء • فقد تساءلت في نفسي :
هل استشير السر برسي كوكس ؟ فأجابني عقلي بانني قد أصدرت قرارى
واذا خالفني السر برسي فيه فاني لا أستطيع تغييره • فاما رجل عجوز ،
وليس مسؤولاً الاً أمام الله • ولهذا لم استشر أحداً » (٨٣) •

والملاحظ ان النقيب لم يكتف بتبديل موقفه من فيصل بل بدل
موقفه من الديمقراطية أيضاً اذ صار يدعو اليها بعدما كان ينفر منها
ويكرها • وقد أشارت المس بيل الى ذلك في رسالة لها مؤرخة في ٢١
آب ، حيث قالت ان النقيب أصبح في هذه الايام يدعو للديمقراطية •
وتبدي المس بيل دهشتها من ذلك وتساءل : كيف ان النقيب الارستقراطي
الاصيل يدعو للديمقراطية ؟ ! ثم تروي المس بيل في هذه المناسبة قصة
طريفة جرت للنقيب في تلك الايام وخلصتها ان شيخاً من شيوخ قبيلة

(83) Burgoyne (op. cit.) - vol. 2, p. 281.

شمر زار النقيب في بيته فسأله النقيب : « هل أنت ديمقراطي ؟ » فكان جواب الشيخ : « لا والله ، أنا مو مغراطي » . ثم تساءل الشيخ عنها ما هي ؟ فقال النقيب : « زين ، أنا شيخ الديمقراطية » . فاستدرك الشيخ ظناً منه انه كان مخطئاً في جوابه حيث قال : « دخیل الله ! اذا أنت شيخ المقاتية فانا واحد منهم ، أنا خادمك ، بس هيه سنهي ؟ » فشرح له النقيب الديمقراطية قائلاً : انها تعني المساواة بين الناس فليس فيها صغير أو كبير . فلم يعجب الشيخ هذا القول اذ أدرك أن الديمقراطية تعني زوال مشيخته القبلية فقال ما معناه : اذا كانت هذه هي المقاتية فالله يشهد اني لست منها (٨٤) .

اهم الحفلات :

ان المدة التي قضاه في العراق قبل تنويجه بلغت شهرين - أي منذ ٢٣ حزيران الى ٢٣ آب - وقد أقيمت له خلالها حفلات تكريمية عديدة لا يسعنا المجال استقصاءها ، انما نذكر شيئاً عن أربع منها لما لها من دلالات اجتماعية وتاريخية .

أولى تلك الحفلات هي التي أقامتها بلدية بغداد في حدائق مود التي كانت تقع في الصالحية بجانب الكرخ ، وقد جرت في مساء ٣٠ حزيران - أي في اليوم التالي لوصول الامير الى بغداد - وحضرها كوكس وزوجته والجنرال هالدين والمس بيل وكثيرون من كبار العراقيين والبريطانيين . ولو حظ ان معظم القصائد والخطب التي القيت فيها تضمنت الاشارة الى الامير فيصل باعتباره ملك العراق ومنقذه .

افتتح الحفلة عبدالمجيد الشاوي بكلمة ترحيبية ثم استأذن من الامير في تقديم ما أعده الادياء لهذه المناسبة من منظوم ومتنور . ثم وقف خليل أمين آل المفتي حيث ألقى قصيدة ختمها بالبيت التالي :

(84) Lady Bell (op. cit.) - j. 499.

قد دعوناك علينا ملكاً ليس نرضى عنك يوماً بدلاً
فصفق الحاضرون لهذا البيت واستعادوه ثلاث مرات ، وارتفعت الاصوات
من بينهم قائلة : « قد بايعناك بالملوكية » (٨٥) . وبعد هذا قام الزهاوي
فألقي قصيدته التي مطلعها :

انا محيوك فاسلم ايها الملك
ومصطفوك لعرش شاءه الفلك

وتلاه الشيخ مطلق القطيفي فالقي قصيدة كان لها تأثير خاص على
المدعويين ، فهو كان من خطباء المنبر الحسيني وله صوت جهوري ونغمة
موسيقية . وقد وصفت المس بيل قصيدته بقولها : انها كانت طويلة جداً
لم أفهم منها كلمة واحدة ولكنها مع ذلك كانت رائعة ، فقد كان الرجل
يتلوها بتنظيم ، ويرفع يده الى الاعلى بين كل فترة واخرى ، وكان الظلام
الخيم بين الاشجار حول الحاضرين يؤثر عليهم بما يشبه تأثير التنويم
المغناطيسي (٨٦) .

ثم ألقى محمد حسن كبة قصيدة وكلمة وصف فيها فيصل بأنه
« نابليون العذائين » و « بسمارك القحطانيين » ، وأعقبه محمد باقر الحلبي
بقصيدة كان مطلعها :

الشعب قاصيه معاً والداني

بقدمك الميمون مبتشران

وفي الختام ارتجل الامير كلمة شكر فيها الشعراء على قصائدهم غير أنه
انتقدهم على غلوهم في مدحه ومدح أبيه باعتبار ان أباه لم يقيم بثورته إلا
من باب القيام بالواجب وقال لهم انه لا يرغب بعد الآن إلا في سماع كلام

(٨٥) جريدة « العراق » في عددها الصادر في ٢ تموز ١٩٢١ .

(٨٦) Lady Bell (op. cit.) - p. 490.

التشجيع على العلم والأدب ونهضة الفنون ، فقوبلت كلمته بالهتاف والتصفيق حسب العادة •

أما الحفلة الثانية التي تلت تلك في الأهمية فهي الحفلة التي أقيمتها المدرسة الجعفرية في صباح ٩ تموز في دارها الواقعة في محلة سوق الغزل، وشارك فيها الزهاوى وكاظم الدجيلي وعبدالحسين الأزرى وبقر الشيبلي وإبراهيم ناجي المحامي • وقد ارتجل الأمير في الحقام كلمة شكر فيها الحاضرين وأعاد فيها ماقاله في مناسبات سابقة حيث قال :

« أقول ، والله ، والله ، والله ، ماقمت بحركة مؤملا غاية دنوية او راجيا شيئا ماديا ، ولا عملت طلبا لفخر او مقام و مركز ، كلا لم اقم أنا ولم يقم والدي ولا اخذ من افراد اسرتي بعمل من اعمال النهضة ولهم مطمع في شيء ، بل انما قمنا بأعمالنا ابتغاء لوجه الله الكريم ليس الا •• أقسم بشرفي وتربة اجدادي لولا الالحاح من اكثر اصدقائي ومجموع الأمة العراقية لما خطر ببالي أن آتي العراق ••• »

وعند هذا قام احمد الشيخ داود فقال يخاطب الأمير : « انت الرئيس المفدى الذى التفت حوله القلوب ، ولا نرضى بغيرك » • ثم التفت نحو الواقفين وخاطبهم : « أتبايعون رجلا بالملوكية غير سمو الأمير فيصل المعظم ؟ » فأجابوه بأصوات عالية : « كلا ثم كلا ، لقد بايعنا فيصل بالملوكية ولا نريد غيره » • وانطلقت عندئذ عشرات الهتافات •• (٨٧) •

ومن الجدير بالذكر انه بعد مرور يومين على هذه الحفلة خرجت جريدة « دجلة » وهى تتهمك على موقف احمد الشيخ داود فيها ، حيث قالت عنه أنه صرخ في الحاضرين يسألهم : هل تريدون غير سمو الأمير ملكا على العراق ، ثم التفت نحو الأمير قائلا : « انهم بايعوك » (٨٨) • وكانت

(٨٧) جريدة « العراق » في عددها الصادر في ١١ تموز ١٩٢١

(٨٨) جريدة « دجلة » في عددها الصادر في ١١ تموز ١٩٢١ •

الجريدة تقصد من ذلك أن الحاضرين لم يجيبوا بشيء على سؤاله بل هو الذى اجاب بالموافقة من تلقاء نفسه • وقد نشر سلمان الشيخ داود في جريدة « العراق » ينتقد جريدة « دجلة » على ذلك ويقول انها خالفت الحقيقة فيما ذكرته عن ابيه ورجا منها ان تكون اكثر تبصرا فيما تنشر • وعلقت جريدة « العراق » على ذلك قائلة : بأن رسائل استياء عديدة وصلتها حول هذا الموضوع (٨٩) •

أما الحفلة الثالثة فهي الحفلة التى اقامها اليهود ببغداد فى صباح ١٨ تموز ، وقد قدم فيها رئيس الحاخامين الى الامير نسخة مذهب من التوراة ومعها لوح ثمين كتبت عليه عبارة من التوراة هى : « بارك يارب قوته ، وارتنسى بعمل يديه ، وحطم متون مقاوميه وبغضيه حتى لايقوموا » • فتسلم الامير النسخة وقبلها وشكر مقدمها • ثم ألقى سليم افندى معاون رئيس الحاخامين كلمة ترحيبية ، وقام بعده فتى اسمه أنور شاؤول فألقى قصيدة • ثم نهض الزهاوي فألقى أبياتا وكلمة فلسفية في ضرورة الاتحاد بين البشر • وبعد هذا أخرجت التوراة الأصلية من موضعها وهى لاتخرج الا للملوك والعظماء • وفى الختام ارتجل الامير كلمة قال فيها : انى لأريد ان اسمع كلمة مسلمين ومسيحيين واسرائيلين ، فالعراق وطن القومية ، وليس فيه سوى أمر واحد هو أن يقال عراقيون فقط (٩٠) •

ولم تسكت جريدة « دجلة » عن هذا القول الذى فاه به فيصل فى وجوب عدم التمييز بين المسلمين وغيرهم ، فقد نشرتها بشكل مثير للرأى العام مما أدى الى استياء بعض القراء على نحو ما حدث حول حفلة الجعفرية • والظاهر ان هذه الجريدة ظلت مثابرة على طريقتها فى الاساءة الى الامير فيصل وانصاره ، فكانت تحين الفرص لها بكل وسيلة ممكنة •

(٨٩) جريدة « العراق » فى عددها الصادر فى ١٣ تموز ١٩٢١ •

(٩٠) جريدة « العراق » فى عددها الصادر فى ١٦ تموز ١٩٢١ •

أما الحفلة الرابعة فهي التي أقامها علي السليمان شيخ مشايخ الدليم في ٢٥ تموز على الشاطئ الايمن من الفرات بين الفلوجة والرمادي . وكانت هذه الحفلة ذات دلالة خاصة لانها كانت ذات طابع بدوي الى حد ما ، ويقال ان الانكليز هم الذين دبروها لكي يشتوا للامير انهم حلقة الوصل بينه وبين القبائل (٩١) .

أعطتنا المس بيل وصفا لتلك الحفلة في احدى رسائلها ، وكانت هي قد حضرتها بصحبة فخرى الجميل ، فقالت ان علي السليمان نصب خيمة كبيرة بلغ طولها نحو مائتي قدم ، وأعد منصة في طرف منها فوقها منضدة وكراسي ، فجلس الامير بملابسه العربية على كرسى وراء المنضدة وجلس فهد الهذال شيخ مشايخ عنزة على يمينه ، بينما جلس مابسين اربعمائة وخمسمائة رجل من افراد القبائل في صفوف متراسة على الارض . وأخذ الامير يخاطب الحاضرين بلهجته الحجازية ، فقال لهم : انه منذ أربع سنوات لم يجد نفسه في مكان مثل هذا المكان أو صحبة مثل هذه الصحبة . ثم تكلم عن مستقبل العراق وكيف انه سينهض بجهودهم تحت رئاسته ، وسألهم : « ايها العربان ، هل اتمتم مسلمون فيما بينكم ؟ » فأجابوه بصوت مرتفع : « نعم ، نعم ، نحن مسلمون » . وعند هذا قال فيصل : « ابتداء من هذا اليوم » وتوقف لحظة ليسأل عن تاريخ اليوم والساعة ولما أجابه أحد الحاضرين به حسب التقويم الهجري والساعة الغروبية استأنف كلامه : « من هذا اليوم ، ١٩ ذي القعدة ، ومن هذه الساعة ، الرابعة صباحا ، ان أي رجل يرفع يده على رجل آخر هو مسؤول أمامي فاني سوف أقضي بينكم في مجالس يحضرها شيوخكم ، وهذا حقّي عليكم أنا ولي أمركم » . وهنا قاطعه رجل منهم كبير السن قائلا « وحقوقنا ، أليس لنا حقوق ؟ » . فأجابه فيصل : « نعم لكم حقوقكم كرعية ومن واجبي أن أحافظ عليها » . وهكذا استمر فيصل في كلامه ، وكان الحاضرون يؤيدونه على مايقول :

« نعم ، نعم ، نوافق ، نعم ، والله ، » وعندما انتهى من كلامه قسام علي
 السلیمان وفهد الهذال كل من جانب وقال له : « نحن نبايعك لان الحكومة
 البريطانية قبلت بك ، ، ففوجيء فيصل بهذا القول ، والتفت نحو المس بيل
 مبتسما ثم قال : « ان علاقتي مع الانكليز معروفة لاشك فيها . ولكننا يجب
 أن نسوي أمورنا فيما بيننا ، . والتفت فيصل نحو المس بيل مرة اخرى ،
 فرفعت هي يديها مضموتين الواحدة على الاخرى دلالة على الاتحاد بين
 العرب والحكومة البريطانية... » (٩٢)

التنافس على الولايم :

أصبح الامير فيصل في تلك المدة التي قضها قبل تنويعه غارقا في
 طوفان عارم من الاماديح والتزلفات التي لانهاية لها . فقد ائثال الناس عليه
 من كل جانب ، كل منهم يطلب الخطوة لديه بما يتفوه به من معسول
 الكلام . وكان للشعراء القدح المعلى في ذلك كما هو شأنهم في مثل هذه
 المناسبات . ولعلمني لا اغالي اذا قلت ان السيد طالب لو كان هو المرشح
 لعرش العراق بدلا من فيصل لاقبل الناس يتزلفون اليه على نحو ما يفعلون
 الآن مع فيصل .

كان من مظاهر هذا الطوفان اقامة الولايم الخاصة من قبل وجهاء
 المدن ورؤساء العشائر ، فكان كل واحد منهم يجب أن ينال الجاه بدعوة
 الامير الى بيته ، وقد صار الامير لهذا في حيرة من أمره لا يدري ماذا
 يفعل ، فاذا قبل دعوة احد منهم غضب الآخرون عليه . وكانت تلك مشكلة
 اتضت مضجعه .

لكي يطلع القارئ على صورة من هذه المشكلة أذكر له قصة وليمة
 من تلك الولايم الكثيرة التي اقيمت لفصيل ، وهي وليمة السيد جعفر عطيفة
 رئيس بلدية الكاظمية . فقد كان هذا الرجل قوي الصلة بالانكليز منذ
 بداية احتلالهم بغداد ، وكان يكثر من الاحتفاء بهم واقامة الولايم لهم

ويقف في خدمتهم كلما جاؤوا الى الكاظمية . . وكانت له في الوقت نفسه منافسة على رئاسة البلدة مع الحاج عبدالحسين الجبلي ، وقد ساءه أن يذهب الامير فيصل الى بيت الجبلي دون ان يأتي الى بيته .

تقول المس بيل في رسالة لها : ان السيد جعفر عطيفة جاء يشكو اليها قائلاً بان شرفه قد أنكسر لأن الامير زار الكاظمية مرتين دون ان يقترب من بيته . وتصف المس بيل في رسالتها السيد جعفر بأنه خدم الانكليز ووقف الى جانبهم بشجاعة حتى صار عرضة لعداء المتصيين ، ولهذا فانها قالت له عندما جاءها شاكية : « ولا يهملك » اذهب الى فيصل وادعه لتناول الشاي في بيتك وانا سوف أدعو المندوب السامي والقائد العام .» (٩٣)

استعد السيد جعفر لإقامة الدعوة بكل مايقدر عليه ، وكان رجلاً واسع الثراء ، وقيل انه اتفق عليها ما يقارب الستين ألف روية وهو مبلغ عظيم في تلك الايام . وقد كلف رجلا ارمينيا مشهورا بصنع الحلوى ببغداد ان يصنع له من الحلويات مالا مثيل له ، وكان مقدار مادفنه للارمني في ذلك ثلاثة آلاف روية . وتصف المس بيل في رسالتها المائدة التي اعدت في ذلك اليوم فقالت : انها لم تشهد في حياتها مائدة تحتوي على مثل هذه الكثرة من الحلويات والفواكه (٩٤) .

جرت الدعوة في عصر الثلاثاء ١٦ آب ، وعند انتهاء المدعوين من تناول الشاي قدم السيد جعفر الى الامير هدايا لا تقدر بثمن كان من بينها سجادتان عليها رسم أحمد شاه ، وساعة أثرية مذهبة ذات اربع عقارب ، وخاتم ذو فص من الزبرجد النادر، وجبتان مبطتان بالفرو الثمين . ولم ينس السيد جعفر ان يقدم الى كوكس وهالدين والمس بيل هدايا ثمينة . وقد اشيع في حينه ان السيد جعفر انما فعل كل ذلك نكاية بالجبلي .

(٩٣) Burgoyne (op. cit.) - vol. 2, p. 286.

(٩٤) Loc. cit.

الفصل الثالث

فيصل ملكاً

قبل وصول فيصل الى العراق كان الانكليز لا يدرون هل سينجح في نيل رضا العراقيين أم لا . انهم كانوا كالوالد الذي يرسل ابنه الى الامتحان وهو يرقبه عن كتب ليرى هل سينجح في الامتحان ام يرسب .

ولم تمض أيام قليلة على وصول فيصل الى العراق حتى تأكد الانكليز من نجاحه . قالت المس بيل في رسالة لها مؤرخة في ٧ تموز : « ان شخصية فيصل اجتازت ثلاثة ارباع الطريق »^(١) . ويذكر غريفز الاسباب التي ساعدت فيصل على النجاح وهي : انه كان حسن الصورة مهذباً وقوراً ، وكانت خطبه تثير الاعجاب في الشكل والمحتوى ، كما كانت انجازاته وسلوكه في الحرب دليلاً على شجاعته وقوة عزمه^(٢) .

والواقع ان فيصل كانت له قدرة على اجتذاب قلوب الناس اليه ، وكانت له لهجة في الحديث حجازية وهي لهجة محبة الى العراقيين . واذا تكلم في اجتماع كان كلامه مباشراً لاذلقه فيه ولا تصنع . أضاف الى ذلك انه كان يحدث كل فئة من الناس بما يلائمها ، وقد ظن الكثير من الشيعة انه منهم لكثرة ما كان يشير في خطبه الى مناقب الائمة من اهل البيت ويصفهم بأنهم أجداده ويقسم بتربتهم . يروي توماس ليل انه سأل عبدالواحد الحاج سكر : كيف جاز له وهو الرجل الشيعي المتدين ان يطلب بفيصل ملكاً مع أنه سني . فأجابه عبدالواحد قائلاً : « ولكنه في أعماق قلبه شيعي »^(٣) . ويحكى ان جماعة من شيوخ الفرات الاوسط

(1) Lady Bell (Letters of Gertrude Bell) - London 1947 - p. 491.

(2) Graves (Sir Percy Cox) - London, Second Impression - p. 200.

(8) Thomas Lyell (Ins And outs of Mesopotamia) London 1928 - p. 206.

كانوا في زيارة لفصل فسأله أحدهم : « يرحم أبوك يامحفوظ ، هل أنت شيعي أم سني ؟ » فأطرق فيصل قليلا وأخذ يتحسس لحيته يده ثم قائلا : « هل يجوز للانسان أن يترك أمه ويلزم زوجة أبيه » .

يقول امين الريحاني : ان فيصل كان يخص كل فريق من الناس وكل وفد من الوفود بكلمة توجيها اليه تعاليدهم ونزعاتهم السياسية والدينية ، فكان يناشد الشيعة بوحدة الاسلام والاخاء الاسلامي ، ويتلو على اهل السنة من صفحات المباسين الذهبية ، ويذكرهم بالرثيد والمأمون ، وما كان للعرب من فضل على الاوربيين ، وكان يصرح ويؤكد للاقليات أنه مقيم على مبدأ المساواة في الحقوق والواجبات بين الرعية على اختلاف المذاهب الدينية... (٤) .

فيصل والخالصي :

أهم نجاح حققه فيصل في هذا السيل حصوله على بيعة المجتهد الكبير الشيخ مهدي الخالصي في الكاظمية . فقد كان الشيخ مهدي الخالصي يعمق العائلة الهاشمية لوقوفها في الحرب الى جانب الانكليز الكفار . وكان ولده الاكبر الشيخ محمد أكثر مقنا للعائلة الهاشمية منه . وحين جاء فيصل الى العراق أخذ يبذل جهده في التقرب الى الشيخ مهدي والتعجب اليه . ولكن الشيخ محمد كان يبذل جهده من جانبه في مقاومة هذا التقرب والتعجب بين فيصل وأبيه . وقد استطاع فيصل أخيرا ان ينال رضا الشيخ مهدي ويحصل على بيعته . ونقل فيما يلي شيئا مما كتبه الشيخ محمد في مذكراته عن هذا الموضوع . وهذا نصه :

« ... كان فيصل قد علم أنه لاتم له بيعة في العراق مالم يبايعه أبيه . ومن يعرف فيصلا يعلم أنه مجسمة الخداع والتزوير غير محسود عليهما

(٤) امين الريحاني (فيصل الاول) - بيروت ١٩٥٨ - ص ٩٠ .

ولا محمود بهاتين الصفتين • فتظاهر بمظهر ديني ملؤه الاخلاص للاسلام والمسلمين وزار والدى مرارا فى مدرستنا فى الكاظمية بزي عرب الحجاز يحمل قطعة من ستار الكعبة مكتوبا عليها آية الكرسي بالذهب ، مظهرًا أنه لا غاية له الا نشر تعاليم القرآن وتأييد الكعبة وتخليص البلاد الاسلامية من تسلط الاجانب ، وأهدى تلك القطعة الى أبي ، وخلا به فى احدى زياراته له وأظهر أنه انما جاء العراق لينقذه من الانكليز وان عمله لا يتم الا بموافقة أبي وببسته له ، فان بايع والا اضطر فيصل الى الرجوع من حيث أتى • فقال له أبي : يمكن ان نبايعك على ان تكون ملكا على العراق مستقلا منقطعا عن أي سلطة اجنية بأي اسم كان بحيث لا يشوب استقلال العراق أي شائبة مهما كانت ، فان تم ذلك بقيت في العراق ملكا والا انصرفت وتركت العراقيين والانكليز حتى يأخذوا حقهم ويبلغوا غايتهم • فقال فيصل لأبي : اني أبايعك على هذا الشرط • فأحضر القرآن الكريم بينهما تيمنا وتبركا ، وبايع فيصل أبي على أن يطيع أمره في انقاذ العراقيين من الانكليز وتحصيل الاستقلال التام الناجز الذى لا تشوبه أي شائبة مهما كان اسمها ورسمها ، فاذا لم يستطع ذلك فارق العراق لاول اشارة تصدر من أبي، وترك العراقيين وشأنهم • بايع فيصل هذه البيعة واشهد الله تعالى على ذلك ، وبايعه أبي على هذا الشرط • هذا ما كان بينهما سرا • ولما أراد الانصراف أخذ بيدي وقال : هلم لنعمل معاً ونسمى متفقين في استنقاذ العراق وحفظ استقلاله واني مستعد لاجراء اى عمل ينفع البلاد فما يمنعك من الموافقة ؟ فلم أجبه بشيء لأنني ماكنت أحب أن أفاجئه بما يكره في دارنا ، وما كنت لأقره بغير الحق • فانصرف وشايته الى باب المدرسة كارها ، وعدت الى والدى وقلت له : ان هذا الرجل أول من شق عصا المسلمين وأعان عليهم اعداءهم ••• فكيف يصح قبوله والبيعة له بالامارة ؟ وما هي وسيلة الاطمئنان من هذا الرجل مع سوابق السوء منه ضد المسلمين وان اشترط ألف شرط في ذلك ،

وبماذا نلزمه بالوفاء اذا تخلف عن هذه الشرائط بعد أن يتسلط على العراق ؟ ولقد أخبرني بعض خاصته (مولود باشا مخلص) انه كان في سوريا يخذل السوريين ويسمى في اخضاعهم للفرنسيين بكل ما يتمكن ، لكن السوريين لم يطيعوه ، فعلم الفرنسيون انه لا يفيدهم شيئاً في سوريا ولا يستطيع التأثير على السوريين واسكاتهم ، فطردوه بعد يأسهم من فائدته ... وان هذا الرجل صنعة الانكليز وعاملهم وأجيرهم ضد المسلمين من أول الحرب العالمية الى هذا اليوم فكيف يصح الاعتماد عليه وتسليم العراق له ؟ فلما سمع أبي ذلك تلا قوله تعالى : (فاتخذ آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزناً) ، وقال يجوز أن يكون الانكليز قد اتخذوا آل الشريف لمصالحهم فيجعل الله من آل الشريف أنصاراً للمسلمين اعداء للانكليز . فقلت في نفسي : (والذي خبت لا يخرج الا نكدا) • ولم أكن أجراً على مكاملة والذي اكثر من ذلك ، ولما انفض الاجتماع دعاني أبي الى الدار وقال: أتحسب أنك تعلم ما لم أعلمه انا ؟ ان فيصلا فوق ماذكرت ولكني خشيت أن يبايعه الناس بيعة مجملة ولا قوة لنا على طرده فيذهب حق العراقيين بامضائهم صك العبودية جهلا ولو باسم فيصل ، فأردت أن اعلم الناس كيف يبايعون ليقى حق العراق محفوظا متى طالب العراقيون به •••••^(٥)

ويضيف الشيخ محمد الى ذلك : ان فهمي المدرس جاء الى والده مراسلا من فيصل يطلب منه أن يكتب بيعته لتنتشر على الناس • وقد عارض الشيخ محمد كتابة البيعة ولكن والده أصر على كتابتها • وبعد الانتهاء منها أخذها فهمي المدرس ، فنشرت في الجرائد في اليوم التالي كما نشرت على حدة في منشور خاص • وفيما يلي نص البيعة نقلا عن جريدة العراق :

بسم الله الرحمن الرحيم وبه ثقني •

الحمد لله الذي نشر لواء الحق على رؤوس الخلق ، فأيدهم بالنصر

(٥) نقلا عن مذكرات الشيخ محمد الخالصي المخطوطة •

برئاسة من حاز الشرف والفخر ، الملك المطاع ، الواجب له علينا الاتباع ،
الملك المبجل ، عظمة مليكتنا فيصل الاول دامت شوكته ، نجل جلالة الملك
حسين الاول دامت دولته ، فاحكموا بيعته ، وأبرموا طاعته ، واهتفوا باسمه ،
مذعنين لحكمه ، ونحن ممن قد اقتفى هذا الأثر ، وبايعه في السر والجهر ،
على ان نكره ملكا على العراق ، مقيدا بمجلس نيابي ، منقطعا عن سلطة
الغير ، مستقلا معه بالامر والنهي ، ولله الأمر .

٧ ذى القعدة ١٩٣٩
الراجي عفو ربه
محمد مهدي الكاظمي
عني عنه (٦)

بيعة أهل الاعظمية :

من الجدير بالذكر ان أول بيعة مسجلة اعلنت في العراق لفيصل هي
بيعة أهل الاعظمية ، وهي جرت في ١١ تموز ، وذلك قبل بيعة الخالصي
يومين . وقد نشرت جريدة العراق تفصيلا عنها نقلا عن مكاتبتها في الاعظمية
بالعنوان التالي : « مبايعة أهل الاعظمية لسمو الامير فيصل بملوكية العراق
- أول بيعة صدرت » .

ذكرت الجريدة ان اجتماعا كبيرا عقد هناك من اجل البيعة في قصر
ناجي الخصري بناء على دعوة من رئيس البلدية علي ظريف الاعظمي
وحضره وجهاء البلدة ورؤساء العشائر المحيطة بها ، وهم بني ركاب
والسواكن والبومفرج وبني عمير وأبو محلة وعشيرة الهيب والجلاعة
والنداوات . وقد افتتح الاجتماع بتلاوة آي من الذكر الحكيم ، ثم قام
عبدالهادي الاعظمي وقال ان سباقا يجري بين الناس لمبايعة الامير فيصل
بالمملوكية ويجب ان يكون أهل الاعظمية السابقين لغيرهم في هذه المبايعة ،
ونختم كلمته بالهتاف بحياة الملك فيصل الاول وحياة الاستقلال ، فردد

(٦) جريدة « العراق » في عددها الصادر في ١٦ تموز ١٩٣٩ .

الحاضرون هتافه • ثم قام رئيس البلدية يسألهم في أمر البيعة فأجابته الحاضرون بالموافقة وأنهم لا يتخلف منهم أحد ، وناداهم : « هل بايعتم ؟ » فأجابوه بصوت واحد : « نعم بايعنا » وناداهم مرة أخرى : « هل فيكم مخالف ؟ » فقالوا : « كلا ثم كلا ثم كلا ! » • وقرر الحاضرون توقيع ثلاث مضابط أنابوا فيها رئيس البلدية للذهاب الى الامير فيصل ومبايعته عنهم • وعند هذا تلا المقرء قوله تعالى : « ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله • يد الله فوق ايديهم • فمن نكث فانما ينكث على نفسه • ومن عاهد الله فسيؤتيه أجراً عظيماً » • وألقى الملا نسمان الاعظمى دعاءاً تضرع فيه الى الله ان يؤيد الأمة بتوقيقاته الصمدانية • وهتف الجميع « فليحيى سلطان العراق فيصل المعظم ، فليعيش الاستقلال » •

وفي مساء اليوم التالي عقد اليهود الساكنون في الاعظمية اجتماعاً خاصاً بهم في قصر يعقوب الجوهري ، وجرى في هذا الاجتماع مثلما جرى بالامس في اجتماع المسلمين ، ونادوا جميعاً بمبايعة الامير فيصل ، ونظموا مضبطة أنابوا فيها يعقوب الجوهري ونسيم يامين للذهاب الى الامير مع رئيس البلدية لاجل مبايعته عنهم (٧) •

الطريقة المضمونة :

كان لدى بعض الوطنيين المتحمسين رغبة في ان يعلنوا الامير فيصل ملكاً في الحال دون حاجة الى استفتاء الشعب • ولكن فيصل لم يكن راغباً في ذلك ، كما كان كوكس غير راغب أيضاً • يقول غريفز : « ان كوكس وفصل كانا مما يعارضان أية محاولة من الوطنيين المتطرفين في استعجال التسوية فقد كان كل منهما يشعر بأن ملك العراق يجب أن لا يكون مديناً في عرشه الى عملية استحواذ غير دستورية من قبل حزب معين ، بل يجب أن يكون تسويجه بارادة من الشعب وبطريقة دستورية • وقد شعر كل

(٧) جريدة العراق في عددها الصادر في ١٣ تموز ١٩٢١ •

منهما أن تويج ملك عن طريق حزب معين يجعله عرضة لان يكون اسيرا سياسيا بين يدي ذلك الحزب الذى ساعده في سرعة الوصول . وكان كوكس يشعر بالاضافة الى ذلك أن الحكومة البريطانية التى سهلت الامور لفصل تستحق ان تمتع ببعض ثمرات نجاحها ، (٨) .

كان الانجاء السائد في ذلك الحين ان يقوم مجلس تأسيسى منتخب بترشيح فيصل وتويجه على منوال ما جرى فى سوريا . ولكن ذلك يستغرق وقتا طويلا ، وهو مع ذلك غير مضمون ، وقد كانت التجربة التى وقعت في سوريا غير مشجعة لما اعتورها من حماس واندفاع شعبي متطرف .

اهتدى كوكس اخيرا الى الطريقة الملائمة وهى طريقة تنظيم « المضابط » وتوقيع الناس عليها . ويقال ان ناجي السويدي هو الذى هداه اليها (٩) . وليس من المستبعد ان يكون السويدي قد استوحى الفكرة من أهل الاعظمية وهم الذين نظموا اول مضبطة في بيعة فيصل على نحو ما ذكرناه آنفا .

وفحوى هذه الطريقة ان يدعى الوجهاء والرؤساء في كل ناحية من نواحي العراق ، او مدينة ، الى اجتماع في مكان معين ، فاذا تم الاجتماع نهض احد المسؤولين ليتكلم عن الغرض من الاجتماع ويذكر مناقب الامير فيصل وأهليته لتولي الملك ، ثم يسأل الحاضرين : هل من معارض ؟ فيجيبونه : لا ، لا . ثم يسألهم : هل توافقون ؟ فيقولون : نعم ، نعم . وعند هذا يعرض عليهم ورقة المضبطة ، وهى مطبوعة ومعدة سلفا ، فيوقعون عليها . وينتهى الاجتماع حسب المرام إذ يعتبر ذلك بيعة من جميع السكان للامير فيصل بالملك .

(8) Graves (op. cit.) - p. 299 - 300.

(٩) خيرى العمري (حكايات سياسية) - القاهرة ١٩٦٩ - ص ٨٥ .

بدأت عملية تنظيم المضابط والتوقيع عليها في أواخر تموز ، وانتهت في ٦ آب . وجرت في الغالب حسبما كان متوقفا لها ، حيث أقبل الرؤساء والوجهاء في معظم مناطق العراق على توقيع المضابط التي قدمت لهم بلا معارضة . ولم يشذ عن ذلك سوى قليل منهم - كما سنأتي اليه .

وتروى في هذا الصدد قصة طريفة لها دلالتها ، هي ان مدير ناحية طلوق من لواء كركوك كان قد تلقى أمراً بتنظيم مضبطة لبيعة فيصل ولكنه سمع بعد قليل ان الانكليز عدلوا عن ترشيح فيصل ، فاحتار المدير في أمره ، ولم تكن وسائل المخبرات البرقية والتلفونية يومئذ ميسورة ، فلجأ الى تنظيم مضبطين احدهما بقبول فيصل ، والثانية برفضه . وقد وقع الاهالي على المضبطين معا ، وذهب بهما المدير الى مستشار اللواء الكابتن مدر . وحين سأله المستشار « اين المضبطة ؟ » أجابه : « ايها تريد ؟ » وعرض عليه المضبطين ، فأخذهما المستشار كتبيهما^(١٠) .

الواقع ان هذه القصة ليست غريبة في عرف تلك الايام بالنظر الى ما اعتاد عليه الوجهاء والرؤساء في العراق من فعل اي شيء يريد الحكام منهم . ومن الطريف أن نقل هنا ما ذكره غريفر عن جماعة من شيوخ العمارة انهم حين سألهم كوكس عقب مؤتمر القاهرة عن نوع الحكم الذي يطلبونه أجابوا قائلين : « الله والينا ، محمد نبينا ، كوكس حاكمنا »^(١١) .

حركة للمعارضة :

جرت عملية تنظيم المضابط في العراق حسب المرام - كما اشترنا اليه آنفا . ولم يقع ما يخالف المرام فيها الا في بغداد . ويقول غريفر ان فتوى الخالصي كان لها بمض الأثر في اثارة روح المعارضة هنالك^(١٢) .

(١٠) عبدالرزاق الحسيني (تاريخ الوزارات العراقية) - صيدا ١٩٦٥

- ج ١ ص ٤٣ .

(11) Graves (op. cit.) - p. 801.

(12) Ibid, p. 800.

كان اجتماع بغداد قد جرى في سينما رويال في ٢٨ تموز • وحين قام متصرف بغداد رشيد الخوجة يطلب من الحاضرين الموافقة على المناذاة بفصل ملكا انبرى له أحدهم قائلا : « اتنا موافقون متفقون على المناذاة بسمو الامير فيصل ملكا على العراق الا اننا نريد أن نضع بعض الشروط » وعند هذا ارتفعت الاصوات من انحاء القاعة : نعم ، نعم • وضجت القاعة بالتصفيق • وبعد المداولة تقرر اضافة بعض العبارات على صيغة المضبطة وهي ان تكون الحكومة « مستقلة مجردة من كل قيد ومنقطعة عن سلطة الغير » ، وأن يكون أول عمل يقوم به الملك فيصل هو « تأليف وجمع المؤتمر العام الذي يسن القوانين والدستور خلال ثلاثة أشهر من حين تسلمه زمام الامور » (١٣) • ويقال ان هذه العبارات أثارت غضب كوكس وجعلته يحقد على رشيد الخوجة ، وقد أدت أخيرا الى اقالته من منصبه (١٤) •

ومن الجدير بالذكر ان السيد محمد الصدر قد حاول القيام بمثل هذه الحركة في الكاظمية ولكن فيصل منعه منها • فقد دعا الصدر الى بيته في احدى الليالي عددا كبيرا من الوجهاء ورجال الدين بغية التوقيع على مضبطة يبايعون فيها فيصل مع النص على رفض الانتداب البريطاني • وبينما كان المدعوون مجتمعين في بيت الصدر ، ذهب رجل معروف من أهل الكاظمية الى فيصل ، فأيقظه من نومه ، وأخبره ان مؤامرة تحاك ضده في الكاظمية • فأرسل الملك أحد مرافقيه الى الصدر يستدعيه اليه • وهنا ترك المس بيل تحدثا عما جرى من حديث بينهما حسبما ذكرته في رسالة لها مؤرخة في ٢٧ تموز ، فهي تقول في ذلك ما نصه :

(١٣) حسين جميل (من التراث الديمقراطي في العراق) - مجلة «الهلال»

- في عددها الصادر في شهر كانون الاول ١٩٦٦ •

(١٤) عبدالرزاق الحسيني (المصدر السابق) - ج ١ ص ٥١ •

• ان جماعة المتطرفين بذلوا جهدا يائسا لاستبدال الصيغة الرسمية للبيعة بصيغة اخرى تتضمن الرفض التام للحكم البريطاني فاستدعى فيصل محمد الصدر الذي كان أساس الحركة وأعطاه انذارا واضحا قائلا له : انه الآن الملك من الناحية العملية وأنه لا يتحمل أي عمل سخيف ، وان كل من يقلق الرأي العام سوف يلقي جزاءه (١٥) .

ان حركة المعارضة هذه التي جرت في بغداد والكاظمية اثارت انزعاج كوكس وجعلته يوعز الى المسؤولين في الالوية بأن يشجعوا الاهالي على اضافة فقرات على المضابط يطلبون فيها الانتداب البريطاني . فقد عثرت من بين وثائق البلاط الملكي على رسالة شخصية مؤرخة في يوم ٢٥ ذي القعدة ١٣٣٩ هـ - وهو يوافق ٣١ تموز ١٩٢١ م - مرسله من الديوانية من رجل اسمه عبدالمجيد فؤاد زادة الى يوسف السويدي ، يقول فيها : ان الوطنيين في الديوانية يريدون الاقتداء ببيعة حجة الاسلام الخالصي ولكن المستشار البريطاني وأعوانه من الوجهاء والرؤساء يبذلون كل جهدهم لتبديل المضابط ومشتراط الوصاية البريطانية فيها . وقد ذكر صاحب الرسالة نص البيعة التي حاول هؤلاء فرضها على الاهالي وهي : « ابايح الامير فيصل بان يكون ملكا على العراق تحت وصاية الانكليز » . ويقول ان هذه الفقرة يجب ان يكتبها كل شخص فوق توقيعه والا طردوه (١٦) .

نتائج المضابط :

في ١٩ آب كانت جميع الالوية قد ارسلت الى بغداد مضابطها التي تم التوقيع عليها ما عدا لواء المنتفك . وفيما يلي خلاصة لما ورد في تلك المضابط حسب الالوية .

لواء بغداد : صدرت منه ١٥٧ مضبطة وهي كلها تبايح الامير فيصل ،

(15) Burgoyne (Gertrude Bell) - London 1961 - vol. 2, p. 280.

(١٦) من وثائق البلاط الملكي - رقم الاضبارة ك/١١ ، رقم الوثيقة ١٦٥ .

ولكن ٦٨ منها تطالب ان يكون منقطعا عن سلطة الغير ، وان يعقد المؤتمر الوطني الذي يمثل الشعب خلال ثلاثة اشهر .

لواء البصرة : صدرت منه ٤٧ مضبطة كلها تباع فيصّل . ولكن معظم الموقعين عليها رفضوا في البداية التوقيع قبل أن يعرفوا مصير فكرة الانفصال التي دعوا اليها من قبل ويتأكدوا من استمرار الانتداب البريطاني .

لواء الموصل : صدرت منه ٦٨ مضبطة حتى الآن وهي كلها مؤيدة لفیصل ، ولكن ٦ منها اصرّت على حماية حقوق الاكراد والاقليات الاخرى ، و ٧ منها اشترطت استمرار الانتداب البريطاني بالاضافة الى حماية حقوق الاقليات ، و ١٠ منها ذكرت شروطا اخرى بخصوص اللغة الكردية وغيرها . ولا تزال هناك مضابط أخرى في الطريق .

لواء كركوك : صدرت منه ٢٠ مضبطة مؤيدة لفیصل ، و ٢١ رافضة له . وان المضابط المؤيدة جاءت كلها من منطقة أربيل التي كانت تابعة للواء كركوك في ذلك الحين . وهناك مضابط أخرى لم تصل بعد .

لواء الديلم : صدرت منه ٢٦ مضبطة كلها تباع فيصّل ، ولكن ١٦ منها تشترط عليه ان يقبل بالاشراف البريطاني .

لواء الحلة : صدرت منه ٤١ مضبطة كلها تباع فيصّل ، ولكن ١٣ منها تعلن بصراحة انه مقبول على شرط استمرار الانتداب البريطاني .

لواء كربلاء : صدرت منه ٢٨ مضبطة وهي كلها تباع فيصّل وخالية من أي شرط .

لواء ديالى : صدرت منه ٤١ مضبطة وهي كلها تباع فيصّل وخالية من أي شرط^(١٧) .

التتويج :

في أواسط شهر آب بعد ان اطمأن فیصل من نتائج المضابط وایقن ان تتويجه سيتم قريبا عمد الى استئجار دار لسكناء خاصة به . وقد وجد

(17) Atiyyah (IRAQ) — Beirut 1973 - p. 892.

دارا مناسبة تعود لرجل يهودى اسمه شعشوع ، وتقع على شاطئ النهر في منتصف الطريق بين بغداد والاعظمية ، وهى التى عرفت بين الناس باسم « قصر شعشوع » . فانتقل اليها فيصل مع الاحتفاظ بمقره الرسمى في القسلة (١٨) .

تقول المس بيل : انها زارت فيصل في داره الجديدة عند الغروب في ١٥ آب ، فكان هو ومرافقوه جالسين على سطح الدار ، وكان منظر النهر والبساتين خلفه رائعا فتسلط الملك معها وقال لها : « انت عراقية ، انت بدوية .. » (١٩) .

لم يستمر انشراح فيصل واطمئنانه ، فبعد فترة قصيرة جدا وردت برقية من تشرتشيل يقول فيها ان فيصل يجب ان يعلن فى خطبة التبويج ان السلطة النهائية هى بيد المندوب السامى . فاحتج فيصل مصرحا بان الاتفاق الذى تم معه في لندن لا يتضمن ذلك ، وان من الواجب أن تصان كرامته ويظهر أمام الناس بمظهر الملك المستقل ، والا فإنه لا يستطيع ان يكسب الى جانبه الوطنيين المتطرفين (٢٠) . وقد أظهر كوكس شيئا من التردد تجاه هذا الموقف ولكن المس بيل اقنعه قائلة ان ليس من الاهمية طلب سلطة لايمكن فرضها بالقوة (٢١) . فابرق كوكس الى تشرتشيل يذكر له الأثر السيئ الذى سيجدته البيان المطلوب عند التبويج ، وقال ان سلطة كافية يمكن فرضها على البلاد بأساليب أقل وضوحا (٢٢) . فوافق تشرتشيل على هذا الرأي فى اللحظة الاخيرة .

(١٨) انهار هذا المقر في السنة التالية حيث جرفته تيار النهر ، فشيّد للملك بلاط جديد في بستان تعود للاوقاف في منتصف الطريق بين بغداد والاعظمية بالقرب من قصر شعشوع ، وهو لا يزال قائما .

(19) Lady Bell (op. cit.) - p. 499 - 500.

(٢٠) فيليب آيرلاند (العراق) - بيروت ١٩٤٩ - ص ٢٦٢ .
(21) Burgoyne (op. cit.) - vol. 2, p. 288.

(٢٢) فيليب آيرلاند (المصدر السابق) - ص ٢٦٢ .

مقرر أن يكون التسويج في يوم ٢٣ آب ، وقد اختار فيصل بنفسه هذا اليوم لانه يوافق يوم ١٨ ذي الحجة حسب التقويم الهجري ، وهو اليوم الذي يعتبره الشيعة عيداً لهم يسمونه « عيد الفدير » ويتمقدون ان النبي نصب فيه علياً للخلافة من بعده . وقد أراد فيصل بأختياره هذا اليوم تذكير الشيعة بأنه من سلالة الامام علي وأن تسويجه يجرى في نفس اليوم الذي نصب فيه جده للخلافة .

وقد جرى التسويج في ساحة القشلة قرب برج الساعة حيث نصبت منصة لجلوس الملك وحاشيته ، وخصص للملك كرسي متميز له ظهر مرتفع ، كما صفت الكراسي تجاه المنصة لجلوس المدعويين ، وأحضر عدد من الجنود البريطانيين لأداء التحية باعتبارهم حرس الشرف ، وجوق موسيقى لعزف النشيد الملكي . وفي الساعة السادسة صباحاً خرج فيصل من مقره الرسمي على النهر ، يحف به السر برسي كوكس والجنرال هالدين ويتبعه كورنواليس وحسين افنان واثان من المرافقين هما تحسين قدرى وأمين الكسباني . واتجهوا جميعاً نحو المنصة على طريق مفروش بالسجاد . فجلس فيصل على كرسيه الخاص بينما جلس كوكس عن يمينه وهالدين عن يساره . وجلس السيد محمود النقيب الى يسار هالدين . وتقول المس ييل : « ان فيهل كان وقوراً ولكنه متوتر جداً ، فهي كانت لحظة مثيرة ، وأخذ ينظر الى الصف الامامي فوقع نظرم علي ، فأعطيته تحية صغيرة (٢٣) للتشجيع ، (٢٤) .

بدأ كوكس الحفلة بأن ناول حسين افنان بلاغا لقراءته ، فقرأه حسين وفجواه : ان الامير فيصل قد تم انتخابه ملكاً على العراق بأكثرية ٩٦ بالمائة من السكان ، ثم هتف قائلاً « يحيي الملك » . ونهض محمود النقيب فالتقى دعاءً بالمناسبة ، وعند هذا رفع العلم العراقي ، وعزف الجوق الموسيقي

(23) Lady Bell (op. cit.) - p.500.

(24) Burgoyne (op. cit.) - vol. 2, p. 289.

النشيد الملكي البريطاني لعدم وجود نشيد عراقي • ثم أطلقت المدافع احدى وعشرين طلقة •

ثم نهض الملك فألقى خطبة طويلة تنقل منها بعض الفقرات فيما يلي:

« أتقدم الى الشعب العراقي الكريم بالشكر الخالص على مبايعته أيادي مبايعة حرة دلت على محبته لي وثقته بي •• وهنا واجب آخر يدعوني لان أرتل آيات الشكر للامة البريطانية اذ أخذت بناصر العرب في أوقات الحرب الحرجة ، فجادت بأموالها ، وضحت بأبنائها ، في سبيل تحريرهم واستقلالهم ••• وقد صرحت مرارا بأن ما نحتاج اليه لترقية هذه البلاد يتوقف على معاونة أمة تمدنا بأموالها ورجالها ، وبما أن الامة البريطانية أقرب الامم لنا ، وأكثرها غيرة على مصالحنا ، فاننا سنستمد منها ونستعين بها وحدها على الوصول الى غايتنا المنشودة في اسرع وقت • ولا يغرب عن الاذهان انه اذا كان الناس على دين ملوكهم فالملوك على دين شعوبهم ، فعلى قدر التضامن يكون النهوض ••• واني لآلؤ جهداً بأن استعين برجال الامة على اختلاف مواهبهم وتباين طبقاتهم وتفاوت معتقداتهم فالكل عندي سواء ••• والامة بمجموعها هي حزبي ، لالحزب لي سواها ••• وان اول عمل أقوم به هو مباشرة الانتخابات وجمع المجلس التأسيسي ••• فالى الاتحاد والتضامن ، الى الروية والتبصر ، الى العلم والعمل ، أدعو أمتي ، والله الموفق والمعين » (٢٥) •

لم تستغرق الحفلة وقتا طويلا ، وتقول المس ييل انها عند انتهاء الحفلة ذهبت الى دائرتها ، وأخذ الزوار يتقاطرون اليها وهم في الغالب من المدعوين الذين حضروا الحفلة ، وكان علي السليمان أحدهم فصار يحدثها عن انطباعاته في الحفلة ، وقال لها : « والله ، لقد كان السر برسي كوكس

(٢٥) عبدالرزاق الحسنى (المصدر السابق) - ج ١ ص ٤٧ •

كالقمر بينهم ، وكان وجهه كالجنة... (٢٦) .

كان السيد محمد الصدر قد أرسل الى الملك رسالة يهنؤه فيها بتسليم العرش ويقترح عليه أن يزور الكاظمية بغية التيسر بمشاهدة الامام الكاظم (٢٧) . وقد استجاب الملك لهذا الاقتراح وحضر الى الكاظمية في صباح ٢٥ آب ، حيث اقيمت له حفلة في الصحن الشريف . وقد افتتح الحفلة محمد عبد الحسين ، ثم قام السيد محمد الصدر وقدم للملك سيفاً ذا غمد مذهب وارتجل كلمة طلب فيها تحقيق أماني الشعب ، فأجاب به الملك بأنه سيذل جهده في هذا السبيل . وعند هذا حدثت مفاجأة لم يكن أصحاب الحفلة على علم مسبق بها ، وهي ان الشاعر رشيد الهاشمي نهض وألقى قصيدة ثائرة لا تخلو من غمز بالملك . وفيما يلي بعض ابياتها :

يا لابس التاج فسي بغداد هُنَيْتَا
به اذا كنت لاسـتـقـلـاله جيتَا

فزنه بالعلم والعدل الأعم ولا
ترصع لزيئته درآ وياقوتا
واستعمل الحزم وانقذ أمة نصبت
من بمد نهضتها للذل طاعوتا
يا قائد الشعب لانفسد قيادته
ولا يرى لك جبل العهد مبتوتا
واهجم على الشام واركز عند هامته
رمح العراق وجاورها بتكريتا
ماذا أقول لقوم بننا نقضوا
عهداً رأيناه عند الضيق مشبوتا

(26) Burgoyne (op. cit.) - vol. 2, p. 289.

(٢٧) عن وثائق البلاط الملكي - رقم الاضبارة ك/ ١١ ، رقم الوثيقة ٣٠٨ .

يا أمة نقضت بالشام حلفتنا

لقد عطست فهل أسيبت تسميتاً^(٢٨)

حدثني سامي خونددة. وكان حاضرا في الحفلة : انه لاحظ امتعاضا بدا على الملك من هذه القصيدة ، فخشى على رشيد الهاشمي ان تعقله الشرطة من جرائمها ، فخرج معه قبل انتهاء الحفلة وذهب به الى بيت السيد محمد الصدر للاحتماء به من الاعتقال .

والغريب ان جريدة « دجلة » حين وصفت الحفلة في اليوم التالي لم تذكر هذه القصيدة بل ذكرت قصيدة أخرى فيها مدح للملك عظيم^(٢٩) . ويبدو ان الشاعر كان قد أعد في تلك المناسبة قصيدتين فأنشد احدهما في الحفلة وأعطى الثانية الى الجريدة .

الوزارة الجديدة :

لم يكد الملك ينتهي من مشاكل التوزيع حتى بدأ يواجه مشاكل الدولة ، وكانت اولى تلك المشاكل حول تشكيل الوزارة الجديدة . فقد استقالت الوزارة النقيية حسب الاصول ، وكان كوكس يريد اسناد رئاسة الوزارة الى النقيب مرة أخرى بينما كان الملك يريد اسنادها الى رجل غير متهم بالتعاون مع الانكليز .

أرسل الملك عبدالواحد الحاج سكر الى النجف ليطلب من رجال الدين فيها التعاون معه في تشكيل الوزارة . وقد ذهب عبدالواحد الى النجف ، وبعد المداولة مع بعض رجال الدين فيها أرسل الى الملك رسالة هذا نصها :

(٢٨) عبدالله الجبوري (ديوان رشيد الهاشمي) - بغداد ١٩٦٤ - ص

٦٩ - ٧٠ .

(٢٩) جريدة « دجلة » - في عددها الصادر في ٢٦ آب ١٩٢١ .

بسمه تعالى

لاعتاب جلالة حضرة مليكنا المعظم

لا يخفى على جلالته أني اجتمعت في النجف بخدمة حضرات العلماء الاعلام حجتى الاسلام حضرة الشيخ شيخ جواد صاحب الجواهر وحضرة الشيخ شيخ عبدالكريم الجزائري وبقية العلماء العظام . وبينت لهم حسن نواياك الاسلامية . وكثير ظهر منهم التشكر التام لجلالتك . وقد أمروني أن أكتب لجلالتك عنهم مزيد امتنانهم منك وتبريكم لحضرتك بنبوء عرش العراق الذى هو من أهم الثغور الاسلامية ويدعون للموكتك بالتسديد ولشخصك بالتوفيق للخدمات الاسلامية وطول البقاء . وقد أمروني أيضا أن أعرض لحضرتك أنهم بعد أن ائتمنوك على ملوكة العراق فهم ياتمنونك أيضا على تعيين الوزراء بنظر الكمال . ولا يقبل كل فرد منهم أن يكون شاغلا لأحد هذه المناصب قطعيا . ولا يمكن ذلك . سوى أنهم يأملون من جلالته أن لاتجعل فى هذه المناصب الا المتدين المسلم الوطني خصوصا رئاسة الوزارة وأخص منها وزارة الداخلية فان عليها المعول بعد الله حيث يترتب عليها أمور مهمة تخص تشكيل المؤتمر المطلوب من حضرتكم تشكيله بالوقت العاجل على الوجه الكمال . ويتظرون من جلالته سرعة التلبس بما يزوجونه من جلالته . وفي هذه المدة يراقبون ويترقبون من جلالته وعدك لهم بحسن الاحوال وتحصيل الامانى . وأهم ما عندهم فعلا سرعة اقدامك في تعيين وزير للداخلية متدين عارف بتعين الأمور الذين بسببهم يصلح تشكيل المؤتمر أو يهسد والله الموفق والمعين .

عبدالواحد حاج سكر (٣٠)

٢٥ ذى الحجة ١٩٣٩

(٣٠) عن وثائق البلاط الملكى - رقم الاضبارة ك/ ١١ ، رقم الوثيقة

٠ ٣٦٤

رضخ الملك أخيراً لمشيشة كوكس في اسناد رئاسة الوزارة الى النقيب، ولكن مشكلة أخرى واجهته حول من يتولى وزارة الداخلية • تقول المس بيل في رسالة مؤرخة في ٤ ايلول : ان الاسبوع الماضي كان كله مشغولاً بمشكلة تشكيل الوزارة الجديدة ، وقد أرسل الملك يستدعيني في يوم الاربعاء ، ولما ذهبت اليه أخذ يحدثني بجدية حول الوزارة ، وكانت بؤرة المشكلة وزارة الداخلية التي ظلت شاغرة منذ ابعاد السيد طالب • فالملك يعتقد ان هذه الوزارة هي المقياس الذي سيقبسه الناس بها ، فاذا عين فيها رجلاً إمامة معروفاً بخضوعه للانكليز حكم الناس على الوزارة كلها بأنها مهزلة ، وحكموا على الملك بأنه ألغوبة بيد الانكليز (٣١) .

صار الاتجاه أخيراً الى تعيين ناجي السويدي لوزارة الداخلية ، ولكن كوكس لم يوافق على هذا التعيين • وتعلق المس بيل على ذلك قائلة : ان كوكس مصيب لأن ناجي السويدي على الرغم من أنه ذكي وحسن النية لكنه لا يوثق به ، فاذا تولي وزارة الداخلية كان من الواجب علينا مراقبته مراقبة دقيقة لكي لا ينحرف عن الطريق المرسوم • وتضيف المس بيل الى ذلك قائلة : انها ذهبت هي وكورنواليس الى كوكس لاقاعه بالموافقة على تعيين السويدي غير أنه أصر على رفضه (٣٢) .

وقع اختيار كوكس على توفيق الخالدي غير ان الملك لم يوافق على ذلك • فقد كان الملك يتهم الخالدي بميله الى الاتراك • وكان الاتسراك يومذاك يشون دعايتهم في العراق ضد فيصل والانكليز ، وقد جاءوا بالسيد أحمد السنوسي الى مقربة من حدود العراق الشمالية لاعلان الجهاد ، واتسيع ان الفرنسيين في سوريا ارسلوا الى السنوسي مبلغاً قدره عشرون ألف باون لمساعدته في الجهاد •

(31) Burgoyne (op. cit.) - vol. 2, p. 242.

(32) Loc. cit.

ذهب جعفر العسكري الى المس بيل وقال لها : ان تعيين الخالدي في مثل هذه الظروف أمر مهلك لانه يدعم الميالين للاتراك في العراق ويعرقل عمله في وزارة الدفاع . وهو لذلك يرغب في الاستقالة . وذهب نوري السعيد بعدئذ الى المس بيل وقال لها مثل ذلك وأخذ يحذرهما من الميالين للاتراك الموجودين في العراق . وقد اعترضت المس بيل على نوري السعيد قائلة له : ان الخطر لا يكمن في هؤلاء المؤيدين للاتراك وحدهم بل هو يكمن أيضا في جنون أصحابه المتطرفين . فرد عليها نوري قائلا : ان المتطرفين ليسوا خطرين الى هذا الحد ماداموا يحملون الشعور العربي ، وان سيدي فيصل يعرف كيف يتعامل معهم ، وهم سوف يختفون (٣٣) .

استمر الخلاف والجدال في هذا الشأن ثلاثة أسابيع تقريبا ، وأخذ الملك يهدد بأنه يريد الذهاب الى لندن ليضع القضية بين يدي المسؤولين هناك . وذهب كورنواليس اليه بصحبة الكولونيل جويس ، كما ذهبت اليه المس بيل ، وصاروا يحاولون اقناعه بعدم الذهاب الى لندن في الوقت الحاضر ، حيث قالوا له بأن الناس سيفسرون ذهابه بأنه نتيجة نزاعه مع كوكس حول تشكيل الوزارة ، وهذا أمر مضر بهما معا . وتقول المس بيل : « أعتقد أننا استطعنا أن نقنعه ، ولكننا لم نتقدم أية خطوة في طريق تشكيل الوزارة » (٣٤) .

تم الاتفاق أخيرا على اسناد وزارة الداخلية الى ضابط غير معروف كان رئيسا للتجنيد اسمه الحاج رمزي ، اما ناحي السويدي فقد عين وزيرا للعدلية . وقد اجري تغيير على وزارة المعارف والصحة حيث جعلت وزارتين منفصلتين فأُسندت وزارة المعارف الى الشيخ عبدالكريم الجزائري ، أما وزارة الصحة فأُسندت الى طيب مسيحي من الموصل اسمه حنا خياط .

(٣٣) Ibid. vol. 2, p. 242 - 245.

(٣٤) Ibid. vol. 2, p. 242.

وتقول المس بيل : انها هي التي عينت حنا خياط في الوزارة اذ قدمته الى كوكس واقرحت عليه فصل وزارة الصحة عن وزارة المعارف ، فكان لها ما أرادت (٣٥) .

وأعلن تشكيل الوزارة الجديدة في ١٢ ايلول ١٩٢١ ، فكان فيها النقيب رئيسا للوزراء ، والحاج رمزي وزيرا للداخلية ، وناجي السويدي للمعدية ، وجعفر العسكري للدفاع ، وعزت الكركوكلي للاسفال والمواصلات ، وعبداللطيف المنديل للتجارة ، ومحمد علي فاضل للاوقاف ، وحنا خياط للصحة ، وعبدالكريم الجزائري للمعارف .

ولم يكد يعلن تشكيل الوزارة حتى ارسل عبدالكريم الجزائري من النجف اعتذاره عن الاشتراك فيها . وهنا بدأ التداول والجدال من جديد حول من يتولى وزارة المعارف على شرط أن يكون شيعيا . وتم الاتفاق أخيرا على اختيار السيد هبة الدين الشهرستاني من كربلاء وجاء الى بغداد لتولى الوزارة .

الشيعة ومدرسة الحقوق :

بعد انتهاء الملك من مشكلة الوزارة الجديدة ، بدأ يواجه مشكلة أخرى هي ضرورة ادخال شبان من الشيعة في الوظائف الحكومية ، غير انه لم يجد بين الشيعة عددا كافيا من ذوى التعليم الحديث الذين يصلحون لاشغال تلك الوظائف . وبعد المداولة مع مستشاريه ، ولا سيما سكرتيره رستم حيدر ، استقر رأيه على تشجيع الاذكياء من شبان الشيعة من ذوى التعليم القديم على الدخول فى مدرسة الحقوق التى كانت قد أعيد فتحها في خريف السنة الماضية .

كان توفيق السويدي قد عين مديرا لمدرسة الحقوق في تشرين الثاني

(35) Ibid vol. 2, p. 244.

١٩٢١ خلفا لمديرها السابق الكولونيل بيل . وقد أثار السويدي فسي
مذكراته الى المشكلة التي حدثت آنذاك حول قبول الشبان الشيعة في المدرسة
فقال مانصه :

• وما أذكر انه حدث في يوم من الايام ان أتاني البعض من طلاب
الدخول • أيديهم أوراق ممضاة من قبل الشيخ شكر مدير المدرسة
الجعفرية يشهد فيها ان الطالب حاملها هو من خريجي الثانوية ، مع علمي
بان المدرسة لم تصل الى الدرجة الثانوية لا في عهد الاتراك ولا في عهد
الاحتلال • فأفهمت الطالب المتقدم بأن عليه ان يصدق شهادته من وزارة
المعارف أو يدخل امتحان الفحص لاثبات كفاءته الثانوية • ثم اعقبه عدة
شبان يدعون أنهم متخرجون من المدرسة الجعفرية ويحملون مثل هذه
الورقة الغريبة • ويحضرني من أسمائهم : عبدالرزاق الازري ، وعباس
مهدى ، ومحمد حسن كبة ، وأحمد زكي الخياط ، ومحمد الشماع ،
وعبدالحميد مهدي ، وعبدالهادي الظاهر ، وسعد صالح ، وجعفر حمندى ،
وغيرهم • فرفضت قبولهم والاعتماد على الاوراق التي في ايديهم • عندئذ
راجعوا الحكومة وراجعوا البلاط • وفي ذات يوم أتاني المرحوم محمد رستم
حيدر قائلاً لي : ان جلالة الملك يرغب في مساعدة هؤلاء وقبولهم في الكلية!
فأفهمته وضمهم القانوني ••• ولما أصر علي رستم بأن أبذل جهدي لمساعدتهم
قائلاً : ان جلالة الملك يرغب أكيدا بان يقبل هؤلاء في الكلية ، أجبته : بأن
دخول الطلاب للمدارس العالية بارادات ملكية قد مضى دوره ، وهذه
أمر كانت تقع في زمان السلطان عبدالحميد ••• ولهذا فاني آسف لعدم
تمكني من أن أعمل شيئاً لهم اذا لم يحققوا ماطلسته منهم • فذهب غاضباً ولم
يرجع ثانية ••• (٣٦) •

لم تنته المشكلة عند هذا الحد ، فقد كان الملك مصراً على ادخال

اولئك الشبان في مدرسة الحقوق ، وقد اضطر توفيق السويدي أخيرا الى قبولهم • ويدعي السويدي ان الملك أرغم ساطع الحصرى الذى كان مديرا عاما للمعارف آنذاك على المصادقة على شهاداتهم ، ثم أتوا اليه بعدئذ فقبلهم في المدرسة • وأمره الى الله ، (٣٧) .

مما يجدر ذكره ان هذا الذي ذكره توفيق السويدي في مذكراته لم يؤيده ساطع الحصرى عليه • فقد ذكر الحصرى في مذكراته انه لم يصادق على شهادات الشبان الشيعة ولكن السويدي هو الذى تساهل فى قبولها • ويعطينا الحصرى تفاصيل كثيرة في هذا الموضوع تسيء الى مكانة السويدي إذ يقول بأن السويدي انتهز الفرصة وأخذ يتساهل في قبول شهادات الارمن واليهود بالاضافة الى شهادات الشيعة ، حتى بلغ الأمر بمدير مدرسة الاليانس أنه أخذ يعطي الشهادة المزورة لمن يرغب فيها لقاء خمسين روبية ، وكذلك فعل آرتين كيدوريان مدير مدرسة الأرمن لقاء ثلاثين روبية • أما الشيخ شكر فكان يعطي الشهادة مجانا « لوجه الله » • ويقول الحصرى : انه لما واجه السويدي بهذه الحقيقة أجابه السويدي قائلا : « مولانا ، هل تظن أنا ماكنت أعرف الحقيقة ، ان الملك طلب أن تساهل في قبول الجعفرية ، وأنا تساهلت في قبول الجعفرية وغير الجعفرية » ، (٣٨) .

ويضيف الحصرى الى ذلك قائلا : انه راجع الملك في هذه القضية وبين له الاضرار التى تنتج عنها فأجابه الملك : « أما ماقلت لهم أن يقبلوا أيا كان ، ولا أن يقبلوا شهادات مزورة • كل ما فى الامر أنني خلال حديثي مع الوزراء قلت لهم نحن امام مشكلة • الجعفرية يشكون من قلة الموظفين من مذهبهم • وتعرف ان السبب الاصلي في ذلك هو قلة حملة الشهادات

(٣٧) المصدر السابق - ص ٧٧

(٣٨) ساطع الحصرى (مذكراتى في العراق) - بيروت ١٩٦٧ - ج ١

ص ٤٠٨ •

منهم • والحكومة تضطر الى تعيين أشخاص ناقصى الدراسة ، الا يمكن أن يجدوا طريقة لحل هذا الاشكال ، وضمان دراسة الشبان الجعفرية الذين فات عليهم وقت الدراسة سابقا ، • وقد اقترح الحصري على الملك لحل المشكلة أن يفتح ثانوية مسائية يستطيع الكسبة والموظفون ان يدرسوا فيها لكي يتسكنوا بعدها من دخول المعاهد العالية • وقد أعجب الملك به—هذا الاقتراح وأست الثانوية المسائية على الفور (٣٩) •

الملك في محرم :

حل شهر محرم عامذاك في ٤ ايلول ، وهو الشهر الذى يعلن الشيعة فيه حدادهم على مقتل الحسين بن علي • وقد اهتم الملك فيصل بهذا الشهر على نحو ما فعل الانكليز عقب احتلالهم بغداد ، حيث ساعد المواكب الحسينية بمبالغ من المال وأهدى صفائح النفط لمشاعل المواكب الليلة ، كما اوعز ان يقام باسمه وعلى نفقته الخاصة مجلس تعزية في صحن الكاظمية فسي العشرة الثانية من محرم • وحضر الملك بنفسه مجلس التعزية غير مرة ، وجلس في أحد او اوين الصحن بين رجال الدين • وفي اليوم العاشر من محرم وهو اليوم الذي تقام فيه تمثيلية مقتل الحسين في صحن الكاظمية ، حضر الملك الى الصحن مع حاشيته ، وكانت قد أعدت له المتصورة الكبيرة التى تقع فوق باب القبلة ، فجلس فيها وأخذت المواكب تمر من أمامه ، وأمر باهداء الخلع الى النواحين في المواكب والى القائمين بتمثيل المقتل •

ومما لفت الانظار في ذلك اليوم وجود العلم العراقي الجديد ذى الالوان الاربعة بين اعلام المواكب ، وكانت تلك اول مرة يرفع فيها العلم العراقي في المواكب الحسينية • والظاهر ان بعض القائمين بشؤون المواكب امتنعوا من وجود هذا العلم بين الاعلام في ذلك اليوم ، فهو في نظرهم

(٣٩) المصدر السابق - ج ١ ص ٤٠٩ •

العلم الذي رفعه الشريف حسين عند تحالفه مع الانكليز الكفار ضد الدولة العثمانية المسلمة بينما كان المجتهدون في العراق يرفعون علم الجهاد لنصر الدولة العثمانية . ولهذا رأينا حامل العلم يسير في أثناء التمثيل الى جانب ممثل عمر بن سعد وليس الى جانب ممثل الحسين أو أخيه العباس أو غيرها من أهل البيت .

كان ساطع الحصرى حينذاك جالسا في المقصورة الصغيرة المجاورة لمقصورة الملك . وقد لفت نظره هذا المنظر ، كما أشار الى ذلك في مذكراته . فهو يقول فيها : انه لاحظ العلم العراقي محمولا الى جانب ممثل عمر بن سعد وهو قائد الجيش الاموي المعادي للحسين ، فكان العلم يسير معه اينما سار ، وكانت اللعنات تطلق من حناجر الناس - ومن النساء بوجه خاص - كلما ظهر ممثل عمر بن سعد . ومعنى هذا ان العلم العراقي كان يسير في موكب القائد الذي يلعنه الناس .

أخذ الحصرى يفكر بالمحاذير العظيمة التي تنجم عن ذلك ، فالتفت الى الخلف فرأى بين المرافقين صبيح نجيب ، وهو يعرفه من ايام دمشق لانه كان مرافقا للامير زيد ، فقال له : ان حامل العلم يجب ان يسير الى جانب ممثل الحسين وليس الى جانب ممثل عمر بن سعد . فنزل صبيح نجيب من المقصورة ليعطي التعليمات للمسؤولين عن تنظيم الاحتفال . وقد أطلع حامل العلم ما أمر به فصار يتباعد عن ممثل عمر ، ويتوجه نحو ممثل الحسين . ولكنه لم يكذب يقرب من ممثل الحسين حتى أخذ الممثل يدفعه بشدة ، وكلما حاول حامل العلم السير بجانبه كان هو يكرر الدفع له ، ويظهر علائم الغضب والتأنيب . وجاء صبيح نجيب الى الحصرى يسأله : « ما العمل ؟ » فقال الحصرى : « أحسن طريقة ، الآن ، أن ينسحب حامل العلم من الميدان بهدوء ، دون أن يلفت أنظار الناس . والمهم أن لا يسير بجانب الفارس الذي يمثل عمر » . وهكذا تم انسحاب حامل العلم من الصحن الشريف .

ويقول الحصري : انه بعد العودة الى بغداد روى القصة الى الملك ، فاستغرب الملك منها وقال « ان ذهني كان مشغولاً بسماع بعض الشروح وتتبع حركات المواكب وأصوات الجماهير ، فلم انتبه الى اوضاع العلم » وقد استصوب الملك الطريقة التي عالج الحصري بها ذلك الامر (٤٠) .

قائم مقام سامراء :

كان الشيخ مهدي الخالصي يريد ان يكون لسامراء قائممقام يداري زوار الشيعة ويدراً الأذى عنهم ، وقد وقع اختياره على رجل من أهل الكاظمية يحمل الجنسية الهندية اسمه أغا محمد . وكتب بذلك كتاباً أرسله الى الملك فيصل . وحين تلقى الملك رسالة الخالصي صادف أن دخل عليه علي البازركان فأخذ يشكو اليه من هذا الطلب الذي يريده الخالصي ومن صعوبة تحقيقه . يقول علي البازركان في ذلك مانصه :

« ... ذهبت في ذات يوم لزيارة جلالة الملك فيصل الاول في قصر شعشوع ، وكنت أدخل عليه بلا استئذان ، فشاهدته في غرفته وهو يتناول الشاي فلما رأيته قال لي : أنظر يا علي ، وأعطاني رسالة واذا بها من الامام الشيخ مهدي الخالصي الى الملك فيصل يطلب فيها أن يعين المرزا محمد الهندي معاون حاكم الكاظمية السياسي قائممقاماً لقضاء سامراء لخدماته التي قدمها للمسلمين . ثم علق جلالتة على تلك الرسالة : ماذا سيقول الناس عني اذا عينت هندياً في هذا المنصب ، ولماذا قمتم انتم بثورتكم ضد الانكليز لأجل ان اعين لكم الهنود في مناصب الدولة ، وهل ليس في العراق من يصلح لهذه المناصب ؟ فقلت له : سيدي ، انني سأعمل لك عملاً يرضيك في هذه المشكلة . فأبسم جلالتة وقال لي : إن استطعت ان تعدل الشيخ مهدي الخالصي عن تعيين هذا الهندي فستجعلني ممنوناً لك ، (٤١) .

(٤٠) المصدر السابق - ج ١ ص ٨٨ - ٨٩ .

(٤١) علي البازركان (الوقائع الحقيقية) - بغداد ١٩٥٤ - ص ١٧٧ .

وأخذ البازركان من جانبه يعمل لاقناع الخالصي بالعدول عن رأيه . فذهب اولاً لمقابلة الحاج كاظم ابو التمن في محله في السوق ، ثم ذهباً معاً الى الكاظمية لمقابلة الشيخ مهدي الخالصي . ولما تحدثا الى الخالصي في الموضوع قال لهما : « نعم أنا الذي طلبت تعيين المرزا محمد من الملك فيصل الاول لانه من الاخيار » . فقال له البازركان : « وهل خلا العراق من الاخيار والمخلصين حتى نطلب تعيين الهنود ؟ » فقال الخالصي : « انني لا أعرف رجلاً يصلح لهذا المنصب غيره » ، فقال البازركان : « أنا اعرف شخصاً وأظنه سيكون عند حسن ظنكم » ، ولما تساءل الخالصي عن هذا الرجل من هو ، أجابه البازركان بأنه جلال بابان .

وفي اليوم التالي جاء علي البازركان الى الخالصي وبصحبه جلال بابان لتقديمه اليه فأمر الخالصي ابنه الشيخ محمد بأن يحضر كتاباً الى الملك يطلب فيه تعيين جلال بابان بدلاً من أغا محمد . وأسرع البازركان فأخذ الكتاب وذهب به الى الملك . وحين تسلم الملك الكتاب قال مخاطب البازركان : « بارك الله فيك يا علي انقذتني » . ثم تناول الملك قلماً وأحال الكتاب الى وزير الداخلية حيث كتب عليه : « انني منتظر القرار كما جاء في هذا الكتاب » . وقد حمل البازركان الكتاب الى وزير الداخلية ، فلما قرأه الوزير قال : « يا علي انك لم تنقذ جلاله الملك من هذه المشكلة فقط بل أنقذتنا جميعاً » (٤٢) .

وفي ٤ كانون الاول ١٩٢١ باشر جلال بابان بوظيفته في سامراء (٤٣) ، وأخذ يبذل جهده في مداراة الزوار ودرأ الاذى عنهم .

(٤٢) المصدر السابق - ص ١٧٧ - ١٧٩ .

(٤٣) يونس ابراهيم السامرائي (تاريخ مدينة سامراء) - بغداد ١٩٧٣ - ج ٣ ص ٨٢ .

غارة « الاخوان » :

بينما كان الملك فيصل يتقرب الى الشيعة ويتجنب اليهم على النحو الذى ذكرناه وقعت حادثة كانت بمثابة القنبلة هزت المجتمع العراقى وكانت سبباً في ازدياد التقرب بين الملك والشيعة .

ففي ١١ آذار ١٩٢٢ بينما كانت بعض العشائر العراقية ترعى مواشيتها في موقع جنوب الناصرية على بعد ثلاثين ميلا من سكة الحديد أغارت عليها قوة كبيرة من « الاخوان » الوهايين التابعين لابن سعود بقيادة فيصل الدويش ، فأوغلت فيها نهبا وتقتيلا . وقد قدرت المصادر العراقية عدد القتلى بما يقارب السبعمئة ، كما قدرت المنهوبات بـ ١٣٠ فرسا ، و ٢٥٣٠ بعيرا ، و ٣٨١١ خمارا ، ٤٣٠١٠ شاة ، و ٧٨١ بيتا (٤٤) .

أثارت الحادثة رعبا شديدا فى العراق ولا سيما بين عشائر الفرات الاسفل والايوسط ، وظن الكثيرون أنها مقدمة لهجوم وهايى عام على العراق وان الاخوان سيذبحون البشر كما يذبحون الغنم وسيهدمون القبسات المقدسة ويتهكون حرمان النساء ويهلكون الحرث والنسل . ومما يجدر ذكره ان العراق كان قد عانى في الماضي من غارات الوهايين وشهد مافى تلك الغارات من نهب وسفك . أضف الى ذلك ان العشائر العراقية وصلتها أخبار مبالغ فيها عن ضراوة « الاخوان » وشدة ميلهم الى النهب وسفك الدماء . فأدى ذلك الى انتشار موجة من الذعر بين الناس وساد الهلع .

يجب أن لانسى ماكان بين العائلتين الهاشمية والسعودية من عدااء قديم ، وعندما حدثت غارة « الاخوان » تألم الملك فيصل منها ألما شديدا ، وقد زاد في ألمه ما وجد لدى كوكس من فتور وتردد في اتخاذ التدابير الرادعة ضد « الاخوان » .

(٤٤) عبدالرزاق الحسيني (المصدر السابق) - ج ١ ص ٥٩ .

الواقع ان الانكليز كانوا قد أرسلوا طائرة استطلاع الى موضع الغارة حال سماعهم بها ، فأطلق « الاخوان » الرصاص عليها وأصابوها مما ادى بالانكليز الى توجيه أربع طائرات أخرى اليهم ، فقدفتم تلك الطائرات بعدد من القنابل ووجهت عليهم رصاص الرشاشات . وقد أصيبت إحدى الطائرات أثناء ذلك وسقطت على الارض غير ان الطيار ومساعدته نجيا وتمكنا من الوصول الى سكة الحديد بعد سير على الاقدام لمسافة خمسة وعشرين ميلا . وفى صباح اليوم التالي أرسل الانكليز أربع طائرات أخرى ، فلاحقت « الاخوان » وأمطرتهم بالقنابل والرصاص ، وقد أصيبت طائرتان منها ، ولكنها عادتتا سالمتين .

كان الشائع في العراق آنذاك ان غارة « الاخوان » جرت بإيعاز من الانكليز ، او برضا منهم على الاقل ، على أساس ان الصداقة التى تربط بين كوكس وابن سعود وثيقة جدا وليس من المعقول أن يفعل ابن سعود ما يفضب صديقه كوكس . وقد حاول كوكس ان يدرك هذه التهمة عنه فكتب الى الملك رسالة يخبره فيها بما اتخذته القوة الجوية البريطانية من اجراءات ضد « الاخوان » . فأرسل الملك اليه جوابا يبدى فيه شكره على ما فعلت الطائرات البريطانية ولكنه أعلن عن رأيه في ضرورة اتخاذ اجراءات أشد ، وأشار الى ان الحكومة العراقية لاتملك السلطة او الصلاحية الكافية للدفاع عن حدود البلاد وان العشائر أصبحت غير واثقة من مقدرة الحكومة على حمايتها وهذا يؤدي الى افدح الضرر بالدولة العسراقية الناشئة (٤٥) .

كان الملك يريد من كوكس أن يكون مثله متحمسا في تأديب « الاخوان » ، غير أن كوكس كان ينظر في الامر نظرة أخرى ، وأخذ يعتذر بأنه ينتظر وصول التعليمات اليه من لندن كما ينتظر جواب ابن

(٤٥) عن وثائق البلاط الملكى - رقم الاضبارة ٤/٢٥ ، رقم الوثيقة ٤٥ ،

سعود على برقيته التي ارسلها اليه • وتقول المس بيل ان جواب ابن سعود تأخر عدة ايام لان ابن سعود يرسل برقياتة عادة على بعير الى البحرين لتبرق من هناك الى بغداد ، وهذا يحتاج الى وقت (٤٦) •

ازمة وزارية :

عندما استأس الملك من مساعدة كوكس له في أمر الدفاع عن العراق تجاه « الاخوان » ، أخذ يفكر في خطة أخرى هي استفار العشائر العراقية وتجهيزها بالسلاح من جهة ، وتقوية الجيش العراقي من الجهة الاخرى • ولكن هذه الخطة لم تل قبولاً من كوكس ، ولعله خاف منها إذ كان يعتقد ان تجهيز العشائر بالسلاح - ولا سيما تلك العشائر التي قامت بثورة العشرين - يعني تشجيعها على القيام بثورة أخرى •

ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد ان الملك كان في ذلك الحين يحف به عدد من رؤساء العشائر الذين شاركوا في ثورة العشرين من أمثال عبدالواحد الحاج سكر وشعلان أبو الجون ومحسن ابو طيخ وعلوان الياسري وقاطع العوادي • وكان هؤلاء يؤكدون للملك ان العشائر العراقية قادرة على محاربة «الاخوان» وكسرهم لو كان لديها السلاح الكافي ، وكانوا يشجعون الملك على الصمود تجاه كوكس وعلى اعلان الجهاد على « الاخوان » •

أرسل الملك في ٢٧ آذار الى مجلس الوزراء يطلب منه الموافقة على زيادة حصة وزارة الدفاع من الميزانية لتقوية وسائل الدفاع عن العراق تجاه تجاوزات اتباع ابن سعود • ولما عرض هذا الطلب على المجلس اتبرى له ناجي السويدي يعارضه ، حيث أشار الى أن غارة « الاخوان » هي نتاج العداء التقليدي بين العائلتين الهاشمية والسعودية ، وان الدفاع عن العراق

(46) Burgoyne (op. cit.) - vol. 2, p. 260.

موكول الى بريطانيا إذ هي التي أخذت على عاتقها صيانة الامن الداخلي في العراق مع درء الاخطار التي تهدده من الخارج • وقد رد جعفر العسكري على السويدي قائلاً : بأن الاتفاق قد حصل سابقا بين الملك والمندوب السامي على ان تكون الحكومة البريطانية مسؤولة عن الدفاع عن جانب دجلة الأيسر وعن العمارة والبصرة ، أما الحكومة العراقية فتكون مسؤولة عن جانب دجلة الايمن وعن جانبي الفرات الايمن والايسر ، بشرط أن تؤازرها قوة الطيران الانكليزية ، وعلى هذا فان الدفاع عن حدود العراق تجاه « الاخوان » يقع على عاتق الحكومة العراقية •

كانت معارضة ناجي السويدي مفاجأة غير سارة للملك ، إذ كان ناجي معدودا من انصار الملك ومؤيديه ، فما هو السبب الذي جعله يغير موقفه الآن • ومما زاد في استياء الملك ان أربعة وزراء أيدوا ناجي السويدي في معارضته هم : عزت الكركوكلي وحنّا خياط وعبد اللطيف المنديل والحاج سري • وكان رئيس الوزراء يؤيدهم من طرف خفي كما ان ساسون حسيقل تفوه بما يشبه التأييد لهم (٤٧) •

أرسل الملك يستدعي اليه الوزراء المعارضين وأعلن لهم أنه فقد ثقته فيهم وأنهم يجب أن يستقيلوا • وقد ذهب كوكس وكورنواليس الى الملك في محاولة لتهدئة غضبه دون جدوى (٤٨) • وبعد هذا أرسل سكرتير الملك الى رئيس الوزراء كتابا شديد اللهجة ننقل منه ما يلي :

« كان أمل صاحب الجلالة ان يتخذ المجلس الموقر في جلسته المنعقدة في ٢٧ آذار ١٩٢٢ قرارا جليا يكفل العمل به صيانة حدود العراق ورعاياه من تجاوزات قبائل البادية • ولقد آسفني رأي وزير العدلية ومن أخذ مأخذه من حضرات الوزراء بعد أن أوضح لهم وزير الدفاع حرجة الموقف في

(٤٧) عبدالرزاق الحسني (المصدر السابق) - ج ١ ص ٦٤-٦١ •
(48) Burgoyne (op. cit.) - vol. 2, p. 286.

وادی الفرات وان مسؤولية الدفاع عنه واقعة على الحكومة العراقية ،
ولاجل ذلك ينبغي أن تقام مخافر ومحارس في مواضع معينة لمراقبة القبائل
الناوثة وحسد اعتداءاتها من أية جهة جاءت . . . فبناء على ما تقدم أُمرت أن
أعبر لفخامتكم عن أسف صاحب الجلالة على ما ارتآه وزير العدلية وبعض
زملائه ، (٤٩) .

وصل جواب ابن سعود الى كوكس في ٢٩ آذار ، وقد أعرب فيه
ابن سعود عن أسفه لما حدث وقال ان فيصل الدويش فعل ما فعل بغير
اذن منه ، وسوف ينال المذنب عقابه . فعرض كوكس الجواب على الملك
وعلى رئيس الوزراء كما اوعز بنشره في الجرائد بنية تهدئة الرأي العام ،
ولكن الرأي العام لم يهدأ بل ازداد هياجاً . يقول غريغز : « وعلى الرغم
من ابداء ابن سعود لأسفه فان البلاد كانت غاضبة وفي هياج ، وكانت
الاشاعة القائلة بأن الانكليز هم المسؤولون عن الحادثة قد نالت رواجا بين
السكان الجبلة ، فاستخدمها المهيجون لاثارة المشاعر ضد الانكليز . واتهمز
علماء الشيعة الفرصة للمزايدة من أجل السلطة السياسية تحت دعوى
الوطنية . . . » (٥٠) .

استفحال الازمة :

كان مجلس الوزراء قد قرر في ١٨ آذار ارسال لجنة الى الناصرية
للتحقيق في غارة « الاخوان » مؤلفة من نوري السعيد ممثلا عن وزارة
الداخلية ، وداود الحيدري ممثلا عن وزارة العدلية ، والرئيس الاول
الحاج رمضان ممثلا عن وزارة الدفاع ، على أن ينضم اليهم الميجر ييتس

(٤٩) عن وثائق البلاط الملكي - رقم الاضبارة ٥/٤ / آ ، رقم الوثيقة

٦٠ .

(50) Graves (op. cit.) - p. 810.

مستشار لواء المتفق • وفي ٢٩ منه عادت اللجنة الى بغداد وقدمت تقريرها الى مجلس الوزراء ، وقد تضمن التقرير تقديرا للخسائر « الفظيعة » التي تكبدتها العشائر العراقية من جراء غارة « الاخوان » ، كما اشار التقرير الى ان الحكومة العراقية مسؤولة عن وقوع الحادثة لان متصرفية المتفق كانت قد شعرت بقرب وقوع الخطر في حينه وطلبت النجدة من الحكومة غير أن الحكومة لم تنجدها (٥١) •

وفي صباح اليوم التالي - أي ٣٠ آذار - طلعت جريدة « العراق » وفي صدرها مقالة افتتاحية بعنوان « حول اعتداء الاخوان على عشائر المتفق » أشارت فيها الى ان صاحب الجريدة قابل نوري السعيد على أثر عودته مع زملائه اعضاء اللجنة من الناصرية ووجه اليه عدة أسئلة • وقد نشرت الجريدة أجوبة نوري وكان فيها تهجم شديد على الوهابيين مع انتقاد لاذع للوزراء الذين لم يوافقوا على تقوية الجيش العراقي • وقد ذكر نوري السعيد بصراحة انه عند عودته وجد بعض كبار الموظفين لايميلون الى توسيع الجيش بحجة قلة الموارد المالية ، وأعلن ان ذلك أمر مؤسف ، وسببه أنهم لم يطلعوا على حراجة الوضع ولو انهم اطلعوا عليه حقا لغيروا رأيهم (٥٢) •

وفي اليوم نفسه صدرت جريدة « الاستقلال » وفي صدرها مقالة افتتاحية عنيفة جدا مذيلة بتوقيع « العلوى » وعنوانها : « الدفاع ! الدفاع ! » وتحت البيت التالي :

ومن لم يزد عن حوضه بسلاحه

يهدم ومن لايتقى الشتم يشتم

(٥١) عبدالرزاق الحسنى (المصدر السابق) - ج ١ ص ٦٠-٦١ •

(٥٢) جريدة «العراق» - في عددها الصادر في ٣٠ آذار ١٩٢٢ •

وقد حملت المقالة حملة شعواء على ابن سعود واتباعه وعلى الذين يؤيدونه في العراق ، وأطلقت على ابن سعود لقب « زعيم بلشفيك الجزيرة » و « لنين نجد !!! » ، وقالت ان هناك أشخاصا لاعتلاقة لهم بهذا القطر يشنون اشاعات مؤداها ان غارة « الاخوان » بسيطة وذلك لكي تبقى الامة غافلة فتؤخذ على حين غرة مع العلم ان الغارة كانت هجوما كبيرا سفكت فيه الدماء الجزيرة وترملت النساء وتشرد الاطفال ، فهل تقبل ذلك أمة كالأمة العراقية المعروفة بشدة اباؤها وأفتها ... (٥٣) .

ان هاتين المقالتين وما فيهما من تهجم ضمني على الوزراء المعارضين كان لهما أثر شديد على مجلس الوزراء الذي انعقد في ذلك اليوم . فلما انتهى سكرتير المجلس من تلاوة تقرير اللجنة اسرع ناجي السويدي فقدم استقالته ، وتبعه في ذلك الحاج رمزي وعبداللطيف المنديل وعسزت الكركوكلي وحنا خياط . وأسرع الملك فأصدر ارادته في اليوم التالي بقبول استقالتهم ، وبتعيين توفيق الخالدي وزيرا للداخلية ، وصيبح نشأت وزيرا للاشغال والمواصلات . وكان ساسون حسقيل قد قدم استقالته أيضا تضامنا مع الوزراء الخمسة الذين استقالوا غير أن رئيس الوزراء رفض استقالته بايعاز من كوكس .

غضب كوكس على الملك لانه لم يستشره في قبول استقالة الوزراء الخمسة ، كما غضب على نوري السعيد وعلى جريدة « الاستقلال » . أرسل كوكس الى رئيس الوزراء كتابا يلفت نظره فيه الى تصريحات نوري السعيد في جريدة « العراق » ويعتبرها خرقا خطيرا للأداب الرسمية إذ كيف يمكن ان يتصدى موظف في الحكومة لانتقاد الوزراء بتلك الصورة . وطلب كوكس من رئيس الوزراء وضع قوانين تمنع من ذلك في

(٥٣) جريدة « الاستقلال » - في عددها الصادر في ٣٠ آذار ١٩٣٢ .

المستقبل^(٥٤) . وكذلك أرسل كوكس كتابا آخر الى رئيس الوزراء يقول فيه عن مقالة « الاستقلال » بأنها في غاية الخطورة وانها تؤدي الى ارباك الحكومة وعرقلة أعمالها بالنظر الى ما ورد في جواب ابن سعود من لهجة معتدلة . وطلب كوكس تبليغ جريدة « الاستقلال » بوجوب نشر مقالة تعلن فيها عن اسفها عن مقالاتها السابقة وتشير الى موقف ابن سعود السلمي تجاه العراق . وأرسل كوكس نسخة الى الملك من كل من الكتابين^(٥٥) .

وفي ١ نيسان أرسل كوكس الى تشرشل في لندن برقية يشكو فيها من تصرفات الملك فيصل وقال فيها ما يلي :

« ان هذا الاجراء المتهور الذي اتخذه في سورة من التهيج ، دون استشارتي أنا أو أي شخص آخر ، كان مؤسفاً جداً ، ولا سيما بالنسبة للمنديل حيث سيتأثر رأي البصرة بشكل سلبي باستقالته الاجبارية ... وفي الوقت الذي أسفت بشدة لتصرف الملك المتهور فقد نصحت عند سماع ماحدث بأنه سيكون من الاكثر ملائمة في الظروف الراهنة أن يقدم النقيب استقالة الوزارة كلها وان يدعى فوراً الى تشكيل وزارة جديدة . الا ان الملك فضل المطالبة باستقالة خمسة وزراء في القضية ، ومن سوء الطالع ان يتبع هذا استقالة ساسون التي لم تقبل على أية حال » .

رد تشرشل على كوكس قائلاً : « ... انني مندهش من أن يكون فيصل قد طرد أربعة وزراء دون استشارتك ، ومن المؤكد ان هذا التصرف لم يكن منطبقاً مع روح تعهداته الشخصية بأخذ نصيحتك في المسائل الهامة . وسأكون أنسفاً جداً اذا أصر ساسون أفندي على الاستقالة . ان بإمكانك اذا شئت أن تخبره بأنني أبرقت شخصياً بشأنه » .

(٥٤) عن وثائق البلاط الملكي - رقم الاضبارة ٤/٥٠٥ ، رقم الوثيقة ٦٦ .

(٥٥) عن وثائق البلاط الملكي - رقم الاضبارة ٥/٥٠٥ ، رقم الوثيقة ٦٣ .

الظاهر أن الملك أحس بضرورة الاعتدال في موقفه تجاه كوكس ،
فأخذ يخفف من شدته • نلاحظ ذلك في البرقية التي ابرقها كوكس الى
تشرشل جواباً على برقيته السابقة • حيث قال مانصه :

« ... يبدو الآن ان فيصل يدرك أنه كان متهوراً جداً ، ويميل الى
السمي وراء ايجاد وسائل لتمكين واحد أو اثنين من العودة بعد فترة قصيرة
إذا كان يستطيع ذلك دون ان يفقد كرامته • واعتقد ان من الأفضل
ان تكون رسالتك اليه بصدد تلك المسألة رسالة شخصية معبرة عن خيبة
ظنك من انه قد سلك هذا الطريق المقلق دون تشاوره معي أو مع مستشاريه
الطبيين •• ان وجهة نظري هي أنه ليس من سياسة حكومة صاحب
الجلالة البريطانية ولا اتجاهي الشخصي أن تدمر مكائمه كملك وأن يُجبر
على التنازل عن طريق اضطراؤه الى ابطال تصرفات متهورة او منسوح
بها على نحو سيء • كان قد اقدم عليها دون تشاور •• ولكن اذا أظهر ميلاً
مفرطاً في ذلك الاتجاه فان علاجي هو طلب اعفائه وان يعلن سبب
ذلك » (٥٦) •

الدعوة الى مؤتمر كربلاء :

بينما كانت الازمة في بغداد على اشدها كان الفرات الاوسط يتمخض
عن حركة قوية أريد بها جمع العشائر واثارتها للدفاع عن العراق تجاه
هجمات « الاخوان » • وكان وراء هذه الحركة بعض رؤساء العشائر كمعبد
الواحد الحاج سكر وعلوان الياسري وقاطع الموادي •

وقد عقد علماء النجف عدة اجتماعات للتداول في هذا الموضوع كان
على رأسهم السيد أبو الحسن الاصفهانى والمرزا حسين النائيني • وقرروا
أخيراً عقد مؤتمر في كربلاء يحضره رؤساء العشائر ووجهاء المدن للمباحثة في

(٥٦) صالح جواد كاظم (محاولة استجلاء جديدة) - مجلة «الثقاف العربي»

- في عددها الصادر في شهر حزيران ١٩٧٤ •

وضع خطة للدفاع عن البلاد • ثم ارسلوا الى الشيخ مهدي الخالصي في الكاظمية البرقية التالية وهي مذيلة بتوقيع السيد أبو الحسن والمرزا حسين :

« جناب حجة الاسلام محمد مهدي الخالصي دامت بركاته • انه لا ينبغي الاتكال على وعد السلطة البريطانية في دفع شر الخوارج الاخوان عن المسلمين فبناء عليه نأمل حضوركم في كربلاء قبل الزيارة بأيام وتأمرون رؤساء العشائر كالسيد نور وأمير ربيعة وسائر الرؤساء بعد ابلاغهم سلامنا بالحضور كما اننا نحضر مع من في طرفنا من الرؤساء لاجل المذاكرة في شأنهم ان شاء الله » (٥٧) •

تقرر أن يكون عقد المؤتمر من ١٠ الى ١٥ شعبان ، ويوافق ذلك من ٨ الى ١٣ نيسان • وقد اختير هذا الوقت بمناسبة زيارة « المحية » التي تقع في منتصف شعبان • وأرسل الشيخ مهدي الخالصي ولده الشيخ محمد الى الملك يدعوه لحضور المؤتمر فلبى الملك الدعوة وقال انه سيحضر الى كربلاء في يوم ١٤ شعبان • وكذلك أرسل الخالصي الى مائة وخمسين رئيسا من رؤساء العشائر برقية هذا نصها :

« بمناسبة تجاوز الاخوان على حدود العراق تقرر ان يجضر العلماء وجميع رؤساء القبائل في اليوم العاشر من شهر شعبان المعظم فيلزم حضوركم في اليوم المذكور الى كربلاء » •

وفي أوائل نيسان تألفت في الكاظمية بايعاز من الشيخ مهدي الخالصي لجنة للإشراف على المؤتمر وتنظيم السفر اليه ، وكان أعضاؤها : نور الياسري وكاظم ابو التمن وقاطع العوادي وعلوان الياسري وباقر الشيبسي

(٥٧) محمد مهدي البصير (تاريخ القضية العراقية) - بغداد ١٩٢٣ -

وعبدالحسين الجلبى • وقد اجتمعت اللجنة ووضعت منهاجا من ثلاث عشرة مادة طبعته في احدى مطابع بغداد ، وكان أهم ماورد فى المنهاج اختيار أربع لجان فرعية هى كما يلي :

اللجنة الاولى تؤلف من محمد الخالصى وعبدالحسين الجلبى وأبو طالب الاصفهانى ومهمتها بث النصح في وجوب المحافظة على الراحة التامة والسكينة فى الاجتماعات • وتسافر اللجنة الى كربلاء عن طريق الحلة والنجف •

اللجنة الثانية تؤلف من صادق الاسترابادى وحسدى الباججى وعبدالرسول كبة وادريس الكاظمى وعبدالهاده الجلبى ، ويكون كاظم ابو التمن المسئول عنها والموكل بادارة شؤونها ، ومهمتها اعداد العدة لسفر الشيخ مهدى الخالصي ومن معه من أهل الكاظمية وبغداد الى الحلة فكر بلاء •

اللجنة الثالثة تؤلف في كربلاء من محمد حسن ابو المحاسن وعيسى البراز و خليل الاسترابادى وهاشم شاه ومحمد الكشميرى ومحمد رضا نصر الله وعمر العلوان وعبدالكريم عواد ومهمتها تنظيم الاجتماعات في كربلاء •

اللجنة الرابعة تؤلف من رؤساء وخدام العتبات المقدسة في كربلاء ، ومهمتها التعرف على القادمين وتعيين محل سكناهم وتمهيد طريق ايصالهم الى الاجتماعات •

وفي صباح ٥ نيسان غادر الكاظمية حسب الموعد المعين أعضاء اللجنة الاولى وهم محمد الخالصي وعبدالحسين الجلبى وأبو طالب الاصفهانى فذهبوا الى النجف حيث اتصلوا بالسيد أبو الحسن الاصفهانى والمرزا حسين التائينى من أجل تمجيل سفرهما الى كربلاء • وقد استجاب الاصفهانى لطلبهم حالا ، أما التائينى فقد امتنع عن السفر • ويحدثنا الشيخ محمد الخالصي في مذكراته عن امتناع التائينى فيقول مانعه :

• • • • • ولأقبت المرزا النابيني فامتنع من الحضور معتذرا بأنه بلغه أننا رتبنا منهاجا لهذا الاجتماع • وهو لا يوافق على ذلك لان المنهاج من أعمال دعاة المشروطية على ما يقول ، فعجبت من ذلك اشد العجب لان المرزا النابيني كان من أصلب دعاة المشروطية وهو الذي كتب كتاب تبيين الامة يدعو فيه الى المشروطية والقانون الاساسي والتجدد ، في حين أننا كنا ننكره عليه ولم نزل ننكر ذلك بالمعنى الذي كان النابيني يقصده منه ، على ان المنهاج لا يربط له بالمشروطية بوجه • وكان ذلك الرجل الحازم يتجاهل ويتبلسه ، فلم أزل أناظره ويصر على امتناعه حتى قلت له انك أنت الذي أبرقت بذلك فما وجه امتناعك وكيف نجيب الناس اذا سألوا عن سبب عدم حضورك وما هو العذر عنه ، فلم يؤثر عليه ذلك ولم يزل يزداد اصرارا على عدم الاشتراك في الاجتماع وعدم المضي الى كربلاء • فلما يشتت منه فارقه منكرًا عليه أخلاقه وأعماله • • • • • وأخذ الشيخ محمد بعد ذلك يذم المرزا النابيني ذمًا قبيحًا لامجال لذكره هنا (٥٨) .

وفي ضحى الجمعة ٧ نيسان تحرك موكب الشيخ مهدي الخالصي من الكاظمية • وخرج أهل الكاظمية لتوديعه ، فامتألت ساحة باب الدروازة بالناس وهم يهتفون بالصلاة على محمد وآل محمد • فاتجه الموكب نحو جانب الكرخ حيث التحق به الكثيرون من أهل بغداد ، وعند وصوله الى الحلة جرى له فيها استقبال عظيم ، وأغلقت الاسواق له • وبات الخالصي في الحلة في بيت الشيخ محمد سماكه ، ثم غادرها صباحا متوجها الى كربلاء • وكان رؤساء كربلاء قد خرجوا لاستقباله الى طويريج في أربعة عشر سيارة ، وكان معهم من النجفيين الشيخ عبدالكريم الجزائري والشيخ عبدالرضا الشيخ راضي والشيخ باقر الشيباني • كما خرج لاستقباله أربعمائة فارس من عشيرة المسعود وغيرهم • وعند وصوله الى كربلاء أدى الزيارة ثم نزل في دار المرحوم المرزا محمد تقى الشيرازي (٥٩) .

(٥٨) نقلا عن مذكرات الشيخ محمد الخالصي المخطوطة .

(٥٩) جريدة « الرافدان » - في عددها الصادر في ١٢ نيسان ١٩٢٢ •

مشاركة اهل السنة :

كان الشيخ عبدالوهاب النائب قد وجه الدعوة الى عدد من علماء السنة بيشاد لحضور اجتماع يعقد في تكية الخالدية للتداول في أمسر « الاخوان » وهل يجوز حربهم • وفي صباح ٥ نيسان تم عقد الاجتماع وحضره اكثر المدعويين بينما تخلف البعض منهم ، وكان من بين المتخلفين محمود شكرى الألوسي وعبدالحليم الحافاني ويوسف العطا وحمدى الاعظمي وسليمان السنوى وقاسم المفتى •

افتتح عبدالوهاب النائب الاجتماع ، وأخذ يذكر الفطام التي اقترعها الوهابيون في المسلمين المراقين ، ثم تساءل قائلاً « ما تقولون في هذه الطائفة المسماة بالاخوان ، هل ترون وجوب قتالهم وردعهم عن امثال هذه التجاوزات نظرا لكونهم متكروا حرمان المسلمين واستباحوا دماءهم وأموالهم بشير ذنب وتأويل ؟ » ثم استشهد بما فعل أبو بكر بأهل الردة ، وما فعله الامام علي بالخوارج الذين كانوا اكثر من هؤلاء صلاة وصياما • واقترح ان يُقرأ الفصل الخاص بالوهابية في كتاب ابن عابدين • فقرأ أحد الحاضرين فقرة من الكتاب مفادها ان من يستيحي دماء المسلمين كافر تجب مقاتلته ، فوافق الحاضرون على ذلك واجمعوا رأيهم على وجوب الدفاع العام • ثم نهض احمد الشيخ داود فتكلم بما يؤيد ذلك • وحصلت محاوره فقهية بين عبدالوهاب النائب وأحمد الشيخ داود في هذا الشأن ، إذ سأل النائب : « ماذا نسمي هؤلاء أبغاة أم خوارج ؟ » فقال أحمد : « انهم الخوارج بينهم » • وأشار النائب الى ما فعل الامام علي بالخوارج وهو ابن عم المصطفى • فقال الحاضرون : « وأنعم به قدوة » • وذكر أحمد كيف انهم سبوا النساء ووطأوهن مع أنهن من نساء المسلمين • فقال أمجد الزهاوى : « يجب تأديبهم بكل صورة » • وعند هذا قال النائب : « ان اخواننا الجعفرية قد صمموا على الاجتماع واعطاء القرار بهذا الخصوص ولما لم يكن بيننا وبينهم خلاف في أي شيء فكلمتنا واحدة » • فقال الحاضرون : « لاشك في ذلك » •

استقر رأي الحاضرين على انتخاب وفد منهم لحضور مؤتمر كربلاء
فأختير النائب رئيساً للوفد ، واختير احمد الشيخ داود و ابراهيم الراوى
وعبدالجليل الجميل اعضاء . وباشروا بكتابة الفتوى ، وهذا نصها « ماقول
علماء المسلمين الاعلام فيمن يدعى الاسلام ويحكم بشرى من خالف
معتقدهم من جماعات المسلمين مستحلين قتالهم ودماءهم وأموالهم وسببي
ذرائعهم بغير سبب وقد هجموا على بلاد المسلمين عداً وبداءاً فهل يجب
قتالهم ودفاعهم أم لا ؟ افتونا مأجورين ! الجواب والله سبحانه وتعالى أعلم :
نعم يجب قتالهم والحالة هذه ، * وقد وقع على هذه الفتوى عبدالوهاب
النائب وعبدالملك الشواف و ابراهيم الراوى وخضر القاضي ومنير القاضي
وعبدالجليل الجميل وطه الراوى ونعمان الاعظمى وعلي القرداغى وأمجد
الزهاوى ومحمد رشيد الشيخ داود و خليل حسن النقي وبهاء الدين
النقشبندى وأحمد الراوى ومحمد رؤوف (٦٠) .

وفى الساعة الثامنة من صباح ١٠ نيسان خرج موكب علماء السنة
من جامع الفضل ببغداد يتقدمهم عبدالوهاب النائب و ابراهيم الراوى وأحمد
الشيخ داود وعبدالجليل الجميل ، ومعهم عدد من الشباب المثقف * وخرج
الجمهور لتوديعهم بأعلامهم وطبولهم * وساروا حتى وصلوا الجسر فعبروه
متوجهين الى مقربة من محطة القطار في الكرخ ، ومن هناك ركبوا السيارات
متوجهين الى كربلاء حيث وصلوها فى الساعة الرابعة بعد الظهر * وبعد
أن اجتمعوا بالخالصي فى دار الشيرازي توجهوا الى دار قاسم الرشيدى
فنزلوا عليه ضيوفاً .

وفى مساء ذلك اليوم نفسه وصل الى كربلاء وفد من الموصل مؤلف
من مولود مخلص وسعيد الحاج ثابت وأيوب عبدالواحد وعبدالله النعمة
وثابت عبدالنور وعبدالله آل رئيس العلماء وعجيل الياور ومحمد أغا رئيس

(٦٠) جريدة « الاستقلال » - فى عددها الصادر فى ٦ نيسان ١٩٢٢ .

الكرگرية • ونزلوا في دار عمر العلوان •

ووصلت الى الخالصي برقية من أهل تكریت وشرقاط يذكرون فيها انهم انتدبوا مولود مخلص ليمثلهم في المؤتمر وأنهم مستعدون لتنفيذ أى قرار يصدر منه بأموالهم وأنفسهم^(٦١) • ثم وصلت الى الخالصي من تكریت مضبطة بهذا المعنى وهى تحمل التواقيع التالية : النقيب السيد أحمد، رئيس عشيرة تكریت محمد عرب ، رئيس عشيرة تكریت مصطفى الحاج حسن ، رئيس عشيرة البيكات أحمد الخطاب ، رئيس عشيرة البيكات ندا الحسين ، رئيس عشيرة تكریت زيدان الخلف ، رئيس عشيرة الحديشين مقيم ، رئيس عشيرة الحديشين سلمان الحاج حميد^(٦٢) •

لم يهن على البعض قيام هذا التضامن الطائفي فى كربلاء فأخذوا يقولون عليه وينشرون عنه اشاعات غير حسنة • وقد أشارت الى ذلك جريدة « الاستقلال » حيث قالت : ان بعض المفرضين هالهم مارأوا من تضامن الأمة ووقوفها صفا واحدا تجاه الوهابيين فأخذوا ينفثون سموهم ، وقد انتهزوا فرصة اتفاق الزعماء على الاجتماع في كربلاء فأخذوا ينشرون الاشاعات الباطلة ويختلقون الاحتمالات التى لاخطر ببال عاقل^(٦٣) • ولم تتحمل وزارة الداخلية هذا الكلام فأصدرت أمرها باغسلاق جريدة «الاستقلال» ثلاثة أسابيع بتهمة أنها تنشر أخبارا مشوشة للاذهان^(٦٤) •

انعقاد المؤتمر :

اعتذر الملك عن حضور المؤتمر تحت ضغط من كوكس ، ووافق على أن يمثله في المؤتمر وزير الداخلية توفيق الخالدي^(٦٥) • ولم يكن

-
- (٦١) جريدة « دجلة » - في عددها الصادر في ١٣ نيسان ١٩٢٢ •
 - (٦٢) جريدة « الرافدان » - في عددها الصادر في ١١ نيسان ١٩٢٢ •
 - (٦٣) جريدة « الاستقلال » - في عددها الصادر في ٦ نيسان ١٩٢٢ •
 - (٦٤) جريدة « الاستقلال » - في عددها الصادر في ٥ أيار ١٩٢٢ •
 - (٦٥) عن وثائق دائرة الوثائق العامة بلندن - رقم (أف . او . ٣٧١ - ٧٧٧٠) •

الملك يطمئن الى الخالدي ، كما رأينا ، ولهذا أرسل الى كربلاء نوري السعيد لكي يمثل بصفة شخصية . وحين وصل نوري الى كربلاء خلع لباسه الرسمي ولبس النعال وأخذ يتصل بالوطنيين من أمثال عثمان العلوان واخيه عمر وقاطع العوادي وقاسم الرشدي . وكان يعاونه في ذلك مدير شرطة كربلاء هاشم العلوي (٦٦) .

بلغ زوار كربلاء حينذاك زهاء مائتي ألف ، ولم يسبق أن شهدت كربلاء مثل هذا الازدحام في زيارة « المحية » . وقد ارسلت الحكومة الى كربلاء قوة من الجند للمحافظة على الامن مؤلفة من ٢٠٠ جندي من المشاة و ٣٠٠ من الخيالة ، بقيادة محي الدين السهروردي . وذهب الشيخ محمد الخالصي لزيارة الجنود في مقرهم بصحبة محمد حسن أبو المحاسن ، وألقى عليهم كلمة أشار فيها الى مطالب العراق وحذرهم من أن يخدعهم الانكليز فيستعملوا السلاح ضد اخوانهم المسلمين . وقد رد أحد الضباط عليه بكلمة حماسية أشعرته بان الجيش سيقف الى جانب الوطنيين اذا قامت الحرب بينهم وبين الانكليز (٦٧) .

وفي صباح ٩ نيسان افتتح المؤتمر باجتماع تمهيدي حضره الشيخ مهدي الخالصي والسيد أبو الحسن الاصفهاني وتوفيق الخالدي وكبار المدعويين . وقد تقرر في ذلك الاجتماع تنظيم مضابط يوقعها الرؤساء والوجهاء وتتضمن مبادئ الشعب ومقاصده الاساسية المتعلقة بقضية « الاخوان » . وفي الاجتماعات التي عقدت في الايام التالية جرى تنظيم المضابط والتوقيع عليها . وهذه صورة لواحدة منها :

بسم الله الرحمن الرحيم

نحن الموقعين ادناه سادات وزعماء ورؤساء قبائل العراق أصالة عن

(٦٦) صالح جواد كاظم (المصدر السابق) - ص ١٧٨ .

(٦٧) نقلا عن مذكرات الشيخ محمد الخالصي المخطوطة .

انفسنا وتميلاً عن افراد قبائلنا تلبية لدعوة حجاج الاسلام دامت بركاتهم الذين يجب علينا اطاعتهم وهى فرض دياتنا اللازمة في اعناقنا كل وقت وحين ، قد حضرنا كربلاء المشرفة فى اليوم الثانى عشر من شهر شعبان ١٣٤٠ وبارشاد رؤساء الدين العلماء وبناءاً على ما أوقعه الخوارج الاخوان بأخواننا المسلمين من الافعال الوحشية من القتل والسلب والنهب ، فقد تماهدنا وتعاهدنا واتفقت كلمتنا بحيث لا يخالف بعضنا بعضاً فيما تقتضيه مصلحة بلادنا وحفظ المشاهد المقدسة وقبور الاولياء فقررنا مدافعة الخوارج الاخوان ومقاتلتهم بمعاودة جيش مليكنا النظامى بكل ما فى وسعنا واستطاعتنا واتخاذ التدابير اللازمة ، وبناءاً على تعلقنا بعرش جلالة مليكنا المعظم فيصل الاول دامت شوكته فأمر كيفية دفاع الخوارج الاخوان ومقاتلتهم وعدد المدافعين من القبائل وسلاحهم واعاشتهم ومكانهم وزمانهم وتنظيمهم عائد لارادة صاحب الجلالة مليكنا وتديره الصائب غير أننا نطلب استرداد الاموال المنهوبة وتأدية ديات قتلانا التى سفكت دمائها ظلماً وعدواناً . وقد نظمنا بذلك نسختين قدمنا واحدة لعرضها لاعتاب صاحب الجلالة والثانية تبقى تحت اشراف العلماء الاعلام والله المستعان (٦٨) .

وفي صباح ١٣ نيسان ، وهو يوافق منتصف شعبان ، انعقد الاجتماع النهائى في دار الشيرازي ، وكان اجتماعاً عاماً كبيراً . فأفتحه جعفر أبو التمن حيث قرأ برقية وصلت من الملك في شكر القائمين بالمؤتمر ، فوقف الحاضرون احتراماً لها . ثم ألقى أبو التمن خطاباً أثنى فيه على علماء الدين لعنايتهم بأمر سلامة البلاد وبسط فيه الفظائع التى اقترفها الاخوان فسي الحجاز والعراق ، وختم خطابه بالدعاء للملك ولعلماء الدين والثناء على أعضاء المؤتمر . ثم انفض المؤتمر قبيل الظهر (٦٩) .

(٦٨) جريدة « العراق » - في عددها الصادر في ١٥ نيسان ١٩٢٢ .

(٦٩) محمد المهدي البصير (المصدر السابق) - ج ٢ ص ٣٩٦ - ٣٩٨ .

ومما يلفت النظر انه في الوقت الذي كان فيه المؤتمر منعقدا خرجت جريدة « العراق » وفيها خبر مفاده ان جعفر أبو التمن مرشح لوزارة التجارة^(٧٠) . وفي ١٥ نيسان صدرت الارادة الملكية باسناد الوزارة الى أبو التمن فعلا . ويعلق غريفرز على ذلك قائلا : ان تعيين أبو التمن كان بمثابة ترضية من النقيب للمتطرفين^(٧١) .

ولكننا يجب ان لانسى في هذا الصدد ان دخوله أبو التمن في الوزارة أعقبه بعد تسعة ايام دخول رجل آخر يعد مناقضا له في موقفه السياسي ، هو عبدالمحسن السعدون . فقد أسندت الى السعدون وزارة الصلابة . وقد لعب هذا الرجل فيما بعد دورا مهما جدا في السياسة العراقية المؤيدة للانكليز . كما سنأتي اليه بتفصيل في الفصل القادم .

الرؤساء المنشقون :

كان مؤتمر كربلاء في ظاهره هادئا غير أنه في الحقيقة لم يكن كما يبدو في الظاهر ، فقد حصل انشقاق بين رؤساء العشائر في أثناء المؤتمر حيث امتنع بعضهم عن توقيع المضابط وكان على رأسهم عدائي الجريان رئيس أبو سلطان ، ورشيد العيزان رئيس عشيرة اليسار ، وعميران الزنبور رئيس بني عجيل ، وشمران الجلوب رئيس آل فتلة الهندية ، ومراد الخليل رئيس الجبور^(٧٢) .

وقد اجتمع هؤلاء المنشقون في الحلة عقب انفضاض مؤتمر كربلاء ، وقرروا تنظيم مضبطة مضطربة للمضابط المؤتمر يحتجون فيها على تدخل علماء الدين في أمور السياسية ويعلنون تمسكهم بالانتداب البريطاني . وقد اتصل ثلاثة منهم بعلي السليمان رئيس الدليم ، فقال لهم انه سوف يذهب

(٧٠) جريدة « العراق » - في عددها الصادر في ١٢ نيسان ١٩٢٢ .
(71) Graves (op. cit.) - p. 810.

(٧٢) جريدة « العراق » - في عددها الصادر في ١٧ نيسان ١٩٢٢ .

الى بغداد لمقابلة كوكس والحصول على رأيه في هذا الموضوع وطلب منهم ملاقاته في بغداد .

وفي ١٩ نيسان وصل علي السليمان الى بغداد وقابل كوكس ليسأله عن رأيه في أمر تنظيم العريضة المضادة ، فنصح كوكس بأن لا يفعلوا ذلك حيث قال ان أية مضبطة تصدر منهم بعد التشاور معه سيغتها الناس دسيسة بريطانية وتكون اذن بلا فائدة . وأرتأى كوكس أن من الافضل لهم أن يذهبوا لمقابلة الملك ويوضحوا له الاخطار التي يقودها المتطرفون اليها ويقودون البلاد معه .

وفي ٢٣ نيسان ذهب علي السليمان ومعه أربعون من رؤساء العشائر لمقابلة الملك . وأخذوا يتحدثون اليه بما أوصاهم به كوكس فذكروا له ببارات واضحة انهم لم يقسموا بالولاء له الا بشرط أن يصفي للنصائح البريطانية . وفي اليوم التالي ذهبوا جميعا لمقابلة النقيب ، وقد جذب لهم النقيب تنظيم المضبطة المضادة وشجعهم عليها . فقرروا الأخذ برأيه ، ونظموا مضبطة طويلة ملأوها بالشتائم على المؤتمر وعلى القائمين به . وهذا نصها :

« كنا قد دعينا الى الاجتماع في كربلا المشرفة الذي كان ميعاده من يوم ١١ الى ١٤ شعبان ١٣٤٠ فلينا الدعوة . وبعد أن اجتمعنا بحجة الاسلام الشيخ مهدي الخالصي واطلعنا على الورقة التي يراد توقيعها فوجدنا ان تلك المطالب المدرجة فيها لا فائدة منها للحكومة والبلاد ولمحنا من وراء الستار أن نوايا الذين وقعوا تلك الورقة هي نوايا مضره بمصالح الحكومة العراقية وجالبة للويلات والمصائب على هذه البلاد كما جربنا ذلك من قبل . ومن حيث اتنا في بادىء الأمر كنا بايعنا سيدنا المفدى جلالة الملك فيصل الاول بصورة معروفة وشرائط معلومة مما لا يتزلزل أبديا لذلك رفضنا الاشتراك بتوقيع تلك الورقة حفظا لهذه البلاد وشرف

الحكومة العراقية من القلاقل والمشاغبات التي تؤول الى الخراب والدمار •
ولقد اجتمعنا نحن الموقعين أدناه رؤساء قبائل العراق وبحثنا فيما يسعد
هذا الوطن ويدعم أركان حكومته ويجلب الخير والرفاء والاطمئنان لاهل
البلاد والبادية من سكانه فرأينا ذلك منحصر في المواد الآتية :

(١) من حيث ان حكومتنا العراقية هي الان في الدور الابتدائي
ومحتاجة الى من يمد اليها يد المساعدة ماديا وأديبا فالى أن تبلغ درجة
الكمال والاستفناء عن الغير يجب أن يطلب من حكومة بريطانيا المتدبة
من قبل عصبة الأمم على العراق كل المساعدات المطلوبة والتي يتوقف عليها
توطيد أركان حكومة العراق كحفظ النظام وتوطيد الامن واعمار البلاد
ويجب أن يعتمد عليها كصديق مخلص للبلاد وأهل البلاد •

(٢) من حيث أن أغلب رجال هيئة الحكومة الحاضرة ليسوا من
العرب الخالص الذين تشكل منهم اكثرية العراق الساحقة وليس لهم
تجربة ولا علم في شؤون البلاد وأحوال العباد بل هم لفيف من عناصر
مختلفة لا يمكن أن تثق العشائر بهم أو تضع اعتمادها فيهم يجب أن
يستبدلوا برجال البلاد المعروفين الذين يمكن أن يوثق بهم ويعتمد عليهم
وتخولهم في هذه البلاد مراكز اجتماعية خاصة بين العشائر •

(٣) اذا تم تشكيل هيئة الحكومة العراقية من الذين مر وصفهم في
المادة الثانية يجب تشكيل مؤتمر عراقي يبت شكل الحكومة ونوع الادارة
في هذه البلاد •

بناء عليه نسترحم الاسراع في تطبيق هذه المواد الثلاثة لتهدأ الافكار
وتطمئن القلوب والله الموفق للاصلاح (٧٣) •

(٧٣) عثرت على هذه الوثيقة من بين وثائق البلاط الملكي وهي مكتوبة
على ورقة مفردة خالية من التاريخ والتواقيع • ومن الواضح انها
ليست المضبطة الاصلية بل هي نسخة عنها كتبت لتحتفظ في وثائق
البلاط في حينه •

وبعد تنظيم هذه المضبطة عرضوها على كوكس فنصحهم بعدم تقديمها على أساس ان موقفهم معروف وقد حقق الاثر المطلوب . وكان كوكس يخشى أن يؤدي تقديم هذه المضبطة الى تنظيم مضابط مضادة من قبل خصومهم . والواقع ان ما كان يخشاه كوكس قد حصل فعلا . فان أفراد بعض العشائر التابعين لاصحاب المضبطة بدأوا ينظمون مضابط يعلنون فيها أنهم لا يعترفون برؤسائهم الحاليين وانهم يريدون اختيار رؤساء غيرهم . وأرسل هؤلاء الافراد مضابطهم الى الخالصي بنسختين لكي يحتفظ الخالصي بنسخة منها ويقدم الاخرى الى الحكومة (٧٤) .

وفي الوقت نفسه وصل الى الحلة السيد جعفر أبو طيخ ومعه عدد من رؤساء الخزاعل للتوقيع على المضبطة الاولى المعادية للمؤتمر . وصرح السيد جعفر ان جميع عشائر الشامية يقفون وراءهم باستثناء السيد نور الباسري وابن عمه السيد علوان وعبدالواحد الحاج سكر ، وان سالسم الخيون وخبون العميد وبعض رؤساء المنتفق يؤيدونهم أيضا . ثم عقدوا اجتماعا كبيرا في الحلة حصره مستشار اللواء حيث أبلغوه ان الفرات كله متكامل يحزم لمقاومة أي تدخل ضد الانتداب البريطاني (٧٥) .

بين كوكس وفيصل :

ان الوثائق السرية التي أمكن الحصول عليها مؤخرا تدل دلالة واضحة على ان صراعا شديدا حدث بين كوكس والملك فيصل حول مؤتمر كربلاء ، فقد كان الملك يؤيد المؤتمر كما لاحظناه بينما كان كوكس يرتاب من المؤتمر ويخشى من عواقبه ويعتبره دسيسة من البلاشفة والأتراك لاثارة العراقيين ضد الانكليز . ففي ٤ نيسان - أي قبل انعقاد المؤتمر بخمسة ايام - كتب كوكس الى سكرتير الملك رسالة مكتومة طويلة قال فيها ما يلي :

(٧٤) محمد المهدي البصير (المصدر السابق) - ج ٢ ص ٣٩٨ .

(٧٥) صالح جواد كاظم (المصدر السابق) - ص ١٨٣ .

« ان السلطات العسكرية لديها معلومات محددة مفادها ان البلاشفة والكمالين ينسقون الخطط لخلق المصاعب للحكومة العراقية وللسياسة البريطانية في العراق ... وقد تسلمت قبل أيام قليلة من الوزير المفوض البريطاني في طهران نسخة من نداء موجه من النجف في ١٥ ربيع الاول - تشرين الثاني ١٩٢١ - الى الوزير المفوض الروسي وهو يتضمن تهجما على السياسة البريطانية في العراق وعلى الملك فيصل ... ان الخطط التركية البلشفية كما يعلم جلالة الملك لا تزال مستمرة وهي تجري في نفس الوقت الذي ظهرت فيه الحركة المنبثقة من النجف بسبب غارة الاخوان على العشائر العراقية والتي استغلت التذمر العام الناتج عن تلك الغارة ... وقد وصلتني أخبار من مصدر أعتقد أنه حسن الاطلاع مفادها أن الدفاع ضد هجمات الاخوان ليس سوى حجة ظاهرية وأنه ليس السبب الحقيقي للاجتماع الذي سيحضره الشيوخ والعلماء في كربلاء ، والمظنون ان هذه الحركة هي في الواقع نتيجة ما دار في الاوساط المطلعة عن وجود تعثر في مفاوضات المعاهدة حول موضوع الانتداب ، وان في النية ترغيب الملك لحضور الاجتماع في كربلاء لكي يجبروه على طلب الاستقلال التام فورا من الحكومة البريطانية . وفي حالة عدم اجابة الطلب فان المتطرفين في بغداد يؤيدهم شيوخ الفرغت الذين شاركوا في ثورة العشرين سوف يقومون بتجمع وطني لارغام الحكومة البريطانية على ما يريدون . ومن أجل الوصول الى اهدافهم فانهم سيحاولون في البداية الحصول على الاسلحة من السلطات البريطانية بحجة الدفاع ضد الاخوان ... ، ويختم كوكس رسالته بقوله : « ان المعلومات التي تضمنتها هذه الرسالة بالاضافة الى الاتجاه العام للاستخبارات العسكرية ربما أعطت جلالة الملك وحكومته مادة للتأمل الجدي النشيط ، وخاصة بالنظر لما ذكرته الجرائد من ان ضطحا سيطر على جلالة الملك لدفعه الى حضور المؤتمر الذي سيعقد في كربلاء تحت رعاية الشيخ هادي

الخالصي » . ثم يقول كوكس : « ان مقصد هذه الرسالة ومحتوياتها من الضروري ان تعامل بسرية ، ولكنني مع ذلك لا أمانع من ايصالها بصورة مكتومة الى الوزارة والى صاحب الفخامة رئيس الوزراء » .

وبعد يومين من كتابة هذه الرسالة أرسل كوكس برقية الى لندن كرر فيها ما ذكره في تلك الرسالة من كون المؤتمر من تدبير البلاشفة والاتراك ، ولكنه أضاف الى ذلك ما يدل على أنه متذمر من سلوك الملك حيث قال ما نصه :

« ان كل المعلومات التي في حوزتي وحوزة المقر العام في هذا الشأن قد قدمتها الى الملك والى النقيب ، غير أن الملك ظل متمسكا برأيه في أن اهداف المؤتمر غير مضره وانه قادر على السيطرة على المؤتمر . أما النقيب فهو مضطرب بشكل لا يقل جدية عما أنا عليه من احتمال سقوط الملك في أيدي المتطرفين والشيعة . وقد بذلنا أنا وكورنواليس جهدنا لاقناع الملك بأن حضور المؤتمر سيكون خطأ كبيرا منه ، فوعد بأنه سيراقب التطورات في الايام القليلة القادمة قبل أن يتخذ قراره النهائي . ان خوفا حقيقيا من التطورات يوجد لدى المعتدلين . ويعزو الكثيرون الحركة كلها الى الملك نفسه باعتبار أنه ينتهز الذعر من الاخوان (وهو الذعر الذي يجري استغلاله الى أقصى حد) للحصول أولا على دعم شعبي له في موقفه من الانتداب ، وثانيا لارغام وزرائه على الموافقة على توسيع الجيش وتوفير ما يلزم لذلك من أموال . ان الملك يعترف بقيام المجتهدين بتوجيه دعوات الى شيوخ العراق . وهو لم يستشرنى أو يستشر كورنوالس ناهيك عن النقيب قبل أن يساعد الحركة . واعتقادي انه فعل ذلك من نهم ان يدرك نذر الحركة او احتمالاتها الكاملة » .

وفي ١٩ نيسان أرسل كوكس الى لندن برقية أخرى هذا نصها :

« ان الاجتماع في كربلاء قد انفض والزوار غادروا البلدة . وقد اخبرتمكم

قبل هذا بالتائج السياسية للمؤتمر ، ولكن من الواضح ان المؤتمر تضمن بالإضافة الى اجتماعاته الشكلية شيئا كثيرا من النقاش الحاد . وعسدى معلومات وافية عن هذا النقاش بالنسبة الى طبيعة الحزبين اللذين حصل بينهما النقاش . ان المتطرفين والعلماء قد شعروا بالخيبة والحقق لفشلهم في انتاج الهياج الذى أرادوه من جراء ما أبداه الشيوخ من تعقل وما فرضته السلطة من قيود رسمية . ومن الناحية الاخرى كان هناك تجمع يمثل الشيوخ اللذين كرهوا أن يجبرهم العلماء الى السياسة مرة أخرى . يضاف الى ذلك أن هناك كثيرا من الشيوخ كانوا أقوياء بدرجة استطاعوا بها أن يعربوا عن رأيهم بقوة في هذا الموضوع ويمتنعوا عن المشاركة فيه . إن جزءا كبيرا من «الهواء الساخن» يصل إلينا الآن من كلا الحزبين وسوف لا يزول الا بعد مضي بعض الوقت . وتدعي جرائد المتطرفين ان المؤتمر قد دعم موقف الملك كثيرا في مفاوضاته مع الانكليز حول المعاهدة على أساس رفض الانتداب والحماية والحصول على الاستقلال التام . وفي الحقيقة ان هذا هو ما كان يأمله المتطرفون ، ولكنهم لم يحصلوا عليه . ومن الناحية الاخرى هناك علامات تدل على ان من نتائج مؤتمر كربلا هبوط سمعة الملك وأعوانه في نظر اولئك الذين يريدون ابقاء الانتداب . . وينهي كوكس برقيته بقوله : « ظهرت عدة نظريات لتعليل هدف مؤتمر كربلا وكيف انبثت فكرته تمليلًا دقيقًا ، حيث عزيت دوافعه الى البلاشفة او الملك حسين أو مصطفى كمال أو غيرهم . » غير أنه ليس من الصواب الاطمئنان الى أية نظرية من هذه النظريات الا بعد أن يهدأ الوضع ويستقر . »

يبدو ان الملك لم يشأ ان يستمر في صراعه مع كوكس ، ولعله خاف من العواقب ، فأخذ يظهر شيئا من التراجع تجاه كوكس . فقد كتب كوكس في ٢٥ نيسان برقية الى لندن هذا نصها :

• ان فيصل قد تأثر كما اعتقد باتجاه الرأي العام الذي ظهر منذ مؤتمر كربلا وبموقف عدد من الشيوخ الذين تجمعوا هنا ، فاستدعاني اليوم بصورة مستعجلة لبحث الوضع العام ، وكان كورنواليس حاضرا ، وتحدث بأسهاب كبير قائلا انه يشعر بان علاقاته معنا في الشهر الماضي كانت تخللها الشكوك ، وبأن الوضع الناجم مقلق وليس مرضيا ، وأنه يشعر بأن من الضروري تصفية الجو وأكد تعلقه ببريطانيا الذي لايفصم . وأضاف قائلا انه يدرك انه ربما ارتكب بعض الاخطاء غير أنه لم يفعل ما فعل الا وهو ممتد بأنه يسعى لانجاح السياسة التي جاء من أجلها الى العراق بدعوة منا . وقال ان عليه ان يتذكر دائما بأننا أعربنا عن عجزنا عن مساعدته بالأموال والقوات خارج نطاق برنامج التخفيض ، وان عليه أن يعتمد على جهوده الخاصة قدر الامكان ، •

وفي ٢٩ نيسان أبرق كوكس الى لندن مرة أخرى يقول : «لاشك أن الاحداث الأخيرة كان لها تأثير ممتاز في المعتدلين وفي تأديب فيصل معاه فقد جاء الملك اليوم لرؤيتي راجيا ان لا يحصل لدى حكومة ص صاحب الجلالة البريطانية انطباع بأنه يعمل ضدها أو يعارض سياستها في أي حال من الاحوال ، واذا وجد أنه قد أخذ على عاتقه مهمة ليس في مقدوره انجاحها فانه سيعتزل الحياة في بريطانيا ، غير أنه لن يخسر صداقتنا ... انه أخذ يدرك الآن قوة العناصر المعتدلة ... وان هذا تقدم كبير ، واعتقد انه جدير بأن أبلغك به بلا تأخير ، (٧٦) »

الاتفاق مع ابن سعود :

يعتبر مؤتمر كربلا فاشلا بوجه عام ولكنه مع ذلك لم يكن خاليا من بعض الفوائد للعراق • ومن هذه الفوائد أنه جعل كوكس يبذل جهده

(٧٦) نقلنا هذه البرقية وما قبلها عن وثائق دائرة الوثائق العامة بلندن - رقم (اف ٠ او ٠ ٣٧١ - ٧٧٧)

لنسوية النزاع بين العراق وابن سعود بشكل ينسجم مع مصلحة العراق الى حد غير قليل .

في أيار ١٩٢٢ - أي بعد مرور نصف شهر على مؤتمر كربلا - عقد في المحمرة مؤتمر بتدبير من كوكس حضره وزير المواصلات والاشغال صبيح نشأت مندوبا عن العراق ، وأحمد بن ثيان مندوبا عن ابن سعود ، كما حضره الميجر بورديلون سكرتير كوكس مندوبا عنه . وفي ٥ أيار تم التوقيع على معاهدة لتحديد الحدود بين الدولتين السعودية والعراقية ، وهي المعاهدة التي عرفت باسم «معاهدة المحمرة» .

لم يكذ ابن سعود يطلع على معاهدة المحمرة حتى ثار به الغضب وأعلن أنه يرفض توقيع المعاهدة بحجة أن مندوبه في مؤتمر المحمرة كان متساهلا وأنه خرج عن نطاق توصياته التي أوصاه بها . وأخذ ابن سعود يعلن تدمره من الانكليز بدعوى أنهم صاروا يميلون الى العائلة الهاشمية ضدا له .

كان الكاتب اللبناني المعروف أمين الريحاني في زيارة لابن سعود في تلك الايام ، وأخذ ابن سعود يتحدث له عن الانكليز وعلاقته بهم حيث قال : « يظن الناس أننا نقبض من الانكليز مبالغ كبيرة من المال . والحقيقة أنهم لم يدفعوا لنا الا اليسير مما تستحقه الاعمال التي قمنا بها أثناء الحرب وبعدها . ونحن لا نخلف معهم قبل أن يخلفوا معنا . بيتنا وبينهم عهد نحافظ عليه ولو تضررنا في أنفسنا ومصالحنا . » الانكليز مديونون لنا ، ترى الصحيح يا استاذ ، ونحن لا نطالبهم ، من المار أن نطالبهم . ولكن ما هي سياستهم الآن ، تراهم يغزلون ويغزلون . تراهم يدسون الدسائس علي - علي أنا صديقهم ابن سعود - أحاطوني بالاعداء . أقاموا دويلات حولي ، ونصبوا من أعدائي ملوكا ، وهم يمدونهم دائما بالمساعدات المالية والسياسية . الشريف في الحجاز ، وابنه عبدالله في شرق

الاردن ، وابنه فيصل في العراق . . ما القصد من هذه الاعمال ؟ وما الداعي اليها ؟ أنا ابن سعود صديق الانكليز وهم في سياستهم الشريفة يعاملوني معاملة العدو . . . من هو ابن سعود في نظر الشريف وأولاده هو الجلف الكافر الخارجي . ترى الصحيح يا حضرة الاستاذ . قد قالوا ذلك . بل قالوا اكثر من ذلك . وهم مع ذلك يطلبون مني أن أحمل على الفرنسيين في سوريا لاخرجهم منها . ترى الصحيح ، . وعند وصول ابن سعود في كلامه الى هذه النقطة نادى أحد كتابه وأمره أن يحضر بعض أعداد جريدة «القبلة» التي كان الملك حسين يصدرها في مكة يومذاك ، وكانت تحتوي على مقالات كلها مطاعن في ابن سعود وتطلق عليه لقب بـ «الجلف الخارجي» . . ثم عاد ابن سعود الى الكلام فقال : « لا نسلم بذرة من حقوقنا ، ولكننا لا نقول في أعدائنا ما يقولون فينا ، ولا نطلب غير ماكان لآبائنا واجدادنا من قبلنا . ليعلم ذلك الانكليز . . . و ليعلم ذلك الشريف واولاده . . . » (٧٧) .

طلب كوكس من ابن سعود الاجتماع للنظر من جديد في معاهدة المحمرة ، وتقرر أن يكون الاجتماع في «المقير» وهو موضع للكمرك على ساحل الخليج العربي مقابل البحرين . وقد وصل كوكس الى هناك في ٢٧ تشرين الثاني ١٩٢٢ ومعه حاشية مؤلفة من صيح نشأت وزيبر الموصلات والاشغال ، وفهد الهذال رئيس عشيرة عنزة ، والميجر مور القنصل البريطاني في الكويت ، والميجر ديكسون الوكيل السياسي البريطاني في البحرين .

بدأت المفاوضات بين الفريقين في اليوم التالي ، واستمرت ستة أيام ، وكان ابن سعود يصر على أن تكون حدوده عند نهر الفرات ، بينما كان صيح نشأت يريد أن يجعل الحدود على بعد مائتي ميل الى الجنوب

من الفرات • وحاول كوكس ان يوفق بين المطالبين غير أن ابن سعود كان متصلبا في موقفه لا يتزحزح • وفي اليوم الاخير من المفاوضات نفد صبر كوكس من تصلب ابن سعود وظهر الغضب عليه ، وحين رأى ابن سعود ذلك غير موقفه فجأة ووافق على ما كان يريد كوكس منه • يروي الميجر ديكسون ما جرى في اليوم الاخير من المفاوضات فقال ما نصه :

« وفي النتيجة عندما حصل الاجتماع الاخير لم يكن حاضرا سوى كوكس وابن سعود والميجر مور وأنا • وقد اشتد غضب كوكس على ابن سعود واصفا موقفه بالطفولي ، فشاهدنا منظرا عجيبا من ابن سعود حين وبخه كوكس • ان ابن سعود كاد ينهار وأخذ يتكلم بشكل مثير للشفقة قائلا : ان كوكس هو الذي خلقه ورفعته الى هذه المكانة التي هو فيها ، وانه سوف يتنازل عن نصف مملكته اذا أمر كوكس بذلك • وعند هذا تم الاتفاق على الحدود الموجودة حاليا • انها الحدود التي قام برسمها فعلا السر برسي كوكس نفسه ٠٠٠ » (٧٨) .

كانت الحدود التي اتفقوا عليها تتضمن بقعة حددت بشكل معين ، كأنها قطعة لوزينج أو بقلاوله ، وتبلغ مساحتها ما يزيد على سبعة الاف كيلومتر مربع قليلا ، وقد عرفت فيما بعد دوليا باسم «البقلاوله» ويقال ان صيغ نشأت هو الذي أطلق عليها هذا الاسم • وهي بقعة ذات أهمية كبيرة للقبائل العراقية والنجدية لأنها تضم آبارا جيدة ، فكان الاتفاق عليها أن تكون محايدة حيث يجوز للقبائل من كلا الجانبين اريادها (٧٩) • فأصبحت بذلك «قطعة بقلاوله للجميع» - على حد تعبير أمين الريحاني (٨٠) .

(78) Graves (op. cit.) - p. 822 - 828.

(٧٩) صادق حسن السوداني (العلاقات العراقية السعودية) - رسالة جامعية غير مطبوعة - ص ١٢٥ •

(٨٠) أمين الريحاني (نجد الحديث وملحقاته) - بيروت ١٩٥٤ - ص ٣١٣ •

وبهذا حُلّت مشكلة كانت تعتبر من أهم الاسباب التي تثير النزاع على الحدود بين الدولتين •

ويروى ان تحديد الحدود بتلك الصورة ترك شعورا مريرا في قلب ابن سعود ، فطلب مقابلة كوكس على انفراد ، فجاء كوكس اليه ومعه ديكسون ، وأخذ ابن سعود يخاطبه بصوت كئيب قائلا : « لقد وثقت بك ولكنك حرمتني من نصف مملكتي ، والافضل أن تأخذها كلها وتدعني أذهب الى المنفى » • وحين كان ابن سعود يتكلم كان الدعم يكاد ينفجر من عينيه • فثأثر كوكس من هذا المنظر وأمسك بيد ابن سعود وقال له : « اني أدرك مدى تأثرك ، ولهذا السبب أعطيتك ثلثي مساحة الكويت ، ولست أدري كيف سيتلقى ابن صباح هذه الصدمة » (٨١) ...

معنى هذا ان كوكس أخذ من ابن سعود ليعطي العراق ، ثم أخذ من الكويت ليعطي ابن سعود • ويقال أن امير الكويت عاتب كوكس بعدئذ على ما فعل معه ، فأجابه كوكس : « انه في تلك المناسبة السيئة كان السيف أقوى من القلم وأنه لو لم يسلم تلك الاراضي لابن سعود لكان بكل تأكيد أخذها وربما أخذ أكثر منها بقوة السلاح ، واني قد ارضيت جارك القوي وزرعت في نفسه شعورا وديا تجاه الكويت » • فقال له أمير الكويت : « اذا كان الامر كذلك فاذا توفي ابن سعود في يوم من الايام وأصبحت انا قويا كجدي مبارك فهل تمنع الحكومة البريطانية اذا رفضت خط الحدود هذا غير العادل واستعدت الاراضي التي فقدتها ؟ » فضحك كوكس وقال : « كلا وليبارك الله جهودك » (٨٢) •

(٨١) حسين خلف الشيخ خزعل (تاريخ الكويت السياسي) - بيروت ١٩٧٠ - ج ٥ - ص ١٤٤ •

(٨٢) المصدر السابق - ج ٥ ص ١٤٦ •

الفصل الرابع

الصراع بين كوكس وفينصل

رأينا في الفصل الماضي بعض مظاهر الصراع بين كوكس والملك
فصل حول تشكيل الوزارة وحول غارة «الاخوان» ومؤتمر كريبلا
والواقع ان الصراع بين الرجلين لم يقف عند حد معين بل كان مستمرا
يخمد تارة ويلتهب تارة أخرى . وكانت هناك اسباب متعددة تعمل على
اثارته من جديد كلما مال الى الخمود .

لوخط هذا الصراع بوضوح في منطقة الفرات الاوسط ، فقد كانت
هذه المنطقة ذات أهمية خاصة بالنسبة للملك وللانكليز في آن واحد . فهي
موطن ثورة العشرين وكانت عشائرها منقسمة الى فريقين متعادين : موالية
للانكليز ومعارضة لهم . وكان الملك يتجنب للعشائر المعارضة ويقرب
رؤساءها اليه ويجعلهم من مستشاريه وأعوانه . فكان ذلك يغيظ كوكس
ويجعله دائم التذمر من الملك .

كان الملك حريصا على تعيين موظفين في الفرات الاوسط يسرون على
خطته في تقريب العشائر المعارضة ومساعدتهم . ففي منتصف تشرين الاول
١٩٢١ تمكن من تعيين علي جودت الايوبي متصرفا للواء الحلة ، وكان هذا
الرجل من الضباط الذين حاربوا مع فيصل في الحجاز وسوريا ، وحين
تسلم وظيفته في الحلة أخذ يسير في ادارة اللواء سيرة ترضى الملك وتغضب
الانكليز^(١) ، حيث أخذ يخاطب الرؤساء الذين شاركوا في ثورة العشرين
كما عين في الاقضية التابعة له قائممقامين يسرون على خطته . وذكر الايوبي
في مذكراته ان الشيخ مهدي الخالصي كان راضيا عنه وعن سلوكه في

(١) يوسف كركوش الحلي (تاريخ الحلة) - النجف - ١٩٦٥ - ج ١
ص ١٨٠ .

ادارة اللواء حتى أنه كتب له كتابا يشكره فيه . وقد نشر الايوبي فسي
مذكراته صورة زنگرافية لكتاب الخالصي للتدليل على أنه كان في ذلك
الوقت من الوطنيين . (٢)

وقد حاول الملك أن يعين اللواء كربلا متصرفا من طراز الايوبي ولكنه
لم يوفق . فقد كان حميد خان يومذاك متصرفا في كربلا ، وهو رجل
يحب الانكليز ، فعزله الملك وعين في مكانه رجلا من أعوانه اسمه الحاج
سليم . ولكن هذا الرجل لم يكد يصل الى كربلاء حتى لحق
به رجل مرسل من كوكس وأعادته الى بغداد . فأحدث
ذلك توترا شديدا بين الملك وكوكس . وقد توسط النقيب بينهما فاقترح
حلا وسطا هو تعيين عبدالعزيز القصاب في كربلا بدلا من حميد خان أو
الحاج سليم (٣) . وكان القصاب حينذاك متصرفا في الكوت فانتقل الى كربلا
ووصلها في أوائل شباط ١٩٢٢ وسار فيها سيرة حيادية قبل عنها انها لا
ترضي الملك ولا تقضب المندوب السامي .

مشكلة المعاهدة :

كانت المعاهدة اكبر سبب للصراع بين فيصل وكوكس ، ومن الممكن
القول انها كانت وراء جميع مظاهر الصراع بين الرجلين على وجه من
الوجوه .

أشار كوكس في مذكورة له نشرت فيما بعد الى مشكلة المعاهدة وكيف
بدأ الخلاف حولها بينه وبين الملك ، فهو يقول انه هو الذي اقترح على
الحكومة البريطانية ان تقوم العلاقة بينها وبين العراق على أساس معاهدة بدلا
من الانتداب ، وذكر ان السبب الذي دعاه الى ذلك هو أنه وجد العراقيين
ينفرون من فكرة «الانتداب» ويفسرونها بمعنى « الانقياد للسلطة المتدبة » ،

(٢) على جودت (ذكريات) - بيروت ١٩٦٧ - ص ١٥٥ .

(٣) عبدالعزيز القصاب (من ذكرياتي) - بيروت ١٩٦٢ - ص ٢١٧ .

وقد وافقت الحكومة البريطانية على رأيه غير أنها كانت تريد معاهدة فسي
حدود المقصود من الانتداب ، بينما كان الملك فيصل يريد إلغاء الانتداب
إلغاء تاما والتعويض عنه بمعاهدة تحالف بسيطة (٤) .

أما الملك فقد أوضح موقفه من المعاهدة في حديث له مع أمين الريحاني
في وقت لاحق اذ قال له ما نصه :

• وعدني المستر تشرشل وعديين : أن يلغي الانتداب ، وان يعترف
بأستقلال العراق • وقد جاءنا الآن بمعاهدة طافحة بذكر الانتداب وعصبة
الامم • فإذا كان الانتداب فما الفائدة من المعاهدة وما الغرض منها ؟ وإذا
كانت المعاهدة فما الحاجة الى الانتداب ؟ غني عن البيان أن أحد الصكين
غير لازم وغير مفيد • انا مصرون على ما وعدنا به المستر تشرشل ، وهو
ما يطلبه العراقيون ، المعتدلون منهم والمتطرفون • واني لازال أعتقد وآمل
أنه يبر بوعده • والا فالموقف حرج ، يا أخي ، حرج جدا ، (٥) .

بدأت المفاوضات حول المعاهدة في ٢٩ ايلول ١٩٢١ - أي بعد مرور
٣٨ يوما على تنويع الملك - وذلك حين قدم كوكس الى الملك مسودة
معاهدة وصفها بأنها مسودة ليست نهائية بل هي مجرد محاولة تجريبية من
أجل البدء بالمفاوضة • وفي ١٥ تشرين الاول وصل الى بغداد الميجر يونغ -
وهو الذي عرف فيما بعد باسم السر هربرت يونغ - وكان مرسلا من قبل
الحكومة البريطانية لكي يساعد كوكس في المفاوضات • وأخذت مسودة
المعاهدة منذ ذلك الحين تتقل مرة بعد مرة بين دار الاعتماد البريطاني
ومجلس الوزراء والبلاط ، وكان الملك يحاول في كل مرة أن يجسري
تعديلا على المسودة فيرجعها الى مجلس الوزراء لترجع من جديد الى دار
الاعتماد •

(٤) كوكس ودوبس (تكوين الحكم الوطني في العراق) - ترجمة بشير

فرجو - الموصل - ص ٥٦ - ٥٨ •

(٥) أمين الريحاني (فيصل الاول) - بيروت ١٩٥٨ - ص ١٢٦ •

خلت المفاوضات تجري في الخفاء دون ان يعلم الرأي العام عنها شيئا حتى أواخر أيار ١٩٢٢ • ففي ٢٣ منه أعلن تشرشل في مجلس العموم البريطاني جوابا على سؤال وجه اليه اذ قال : « ان الملك فيصل وحكومته لم يخبرا بريطانيا عن رفض الشعب العراقي للانتداب » • وحين نشر هذا التصريح في جرائد بغداد حدثت ضجة كبرى في الرأي العام ، وأخذت المعارضة تتحفز للعمل •

كان الوقت آنذاك في أواخر شهر رمضان ، وقد انتظرت المعارضة حلول العيد • وفي صباح ٢٨ أيار ، وهو اليوم الاول من عيد الفطر ، عقد اجتماع عام في جامع الوزير المقابل للقشلة ، فألقيت فيه الخطب الحماسية للاحتجاج على تصريح تشرشل • ثم تقرر عقد اجتماع آخر كبير في جامع الحيدرخانة عصرا • وأصدرت جريدة «الاستقلال» منشورا تدعو الجماهير فيه الى حضور الاجتماع • وفي الوقت المعين من عصر ذلك اليوم تم عقد الاجتماع ، وخطب فيه محمد باقر الحلبي وأحمد الشيخ داود ومهدي البصير • وعند انتهاء الخطباء من القاء كلماتهم جرى انتداب ستة أشخاص لينوبوا عن الشعب في الاحتجاج ضد تصريح تشرشل وهم : محمد الصدر ومحمد الخالصي وأحمد الشيخ داود ومهدي البصير وحدي الباججي وياسين الهاشمي •

خرج المندوبون الستة من جامع الحيدرخانة وساروا متجهين نحو القشلة بغية مقابلة الملك ، وكانت الجماهير تسير خلفهم • وحين وصلوا الى القشلة لم يجدوا الملك في مقره الرسمي • فحضر اليهم وزير الداخلية وقابلهم بلطف وبشاشة ، ثم اتصل بالملك في قصر شعشوع طالبا تعيين موعد لمقابلة المندوبين ، فاجابه سكرتير الملك بان الملك مستعد لمقابلتهم في قصره غدا (٦) ...

(٦) منشور جريدة «الاستقلال» الصادر في ٤ شوال ١٩٤٠ •

عقد المندوبون اجتماعاً تمهيدياً في صباح اليوم التالي في بيت أحمد الشيخ داود ، ولم يتخلف عنهم سوى ياسين الهاشمي إذ أرسل اليهم مذكرة صغيرة قال فيها : انه مضطر بكل أسف لاخبار زملائه بأنه لا يستطيع الاشتراك معهم في مذكراتهم وسائر مساعيهم الا انه غير مخالف لهم برأيه ومقتده^(٧) . ومن الجدير بالذكر ان الهاشمي كان يومذاك قريب العهد بالعودة من سوريا اذ كان وصوله الى بغداد في اليوم التاسع من الشهر نفسه ، وكان قبل ذلك ممنوعاً من العودة ولم يسمح له بها الا بعد أن ضمنت القنصلية البريطانية بدمشق بأنه سيكون أميناً مخلصاً^(٨) . ولهذا فهو لم يحب أن يورط نفسه في مشكلة مع الانكليز ، ولعله آثر الابتعاد عن النشاط السياسي موقفاً حتى ينجلي الموقف .

وفي الموعد المحدد ذهب المندوبون - بعد أن أصبح عددهم خمسة - لمقابلة الملك فجرى بينهم حديث طويل لا نعرف عنه سوى ما ذكره اثنان من المندوبين هما مهدي البصير ومحمد الخالصي . وقد أعطانا كل منها صورة عن المقابلة تختلف عما أعطاه الآخر . ففي رواية البصير : ان الملك قال انه يود أن يعلم الشعب بأنه لم يحدث حتى الآن شيء يضر بمصالح العراق وانه ساهر كل السهر على صيانة منافع البلاد ومصالحها ، وعليه فانه يود أن يطمئن بال الشعب^(٩) . أما محمد الخالصي فيقول : اننا طلبنا من الملك التصريح بان العراق مستقل لا يشوبه أي تدخل أجنبي بأي اسم كان ، فأخذ يخادعنا على عادته بمهارة تفوق الحد ولكنها لم تؤثر علينا لمعرفتنا بأساليب خداعه ، وقد وافق بعد الالاحاح على أن نعلن رفض

(٧) محمد المهدي البصير (تاريخ القضية العراقية) - بغداد ١٩٢٣ - ص ٤٦٢ .

(٨) سامي عبدالحافظ القيسي (ياسين الهاشمي) - رسالة جامعية غير مطبوعة - ص ٨٧ - ٩١ .

(٩) محمد المهدي البصير (المصدر السابق) - ج ٢ ص ٤٦٣ .

الانتداب ونعلم عصبة الامم بذلك برقياً (١٠) . . .

وعند خروج المندوبين من عند الملك أذاعوا بياناً نشرته جريدة «الاستقلال» قالوا فيه ان الملك لم يعمل ضد رغائب الشعب وانه ساهر على مصلحة البلاد وان الامور جارية على أحسن ما يرام ، وانهم سيأثرون بارسال البرقيات في رفض الانتداب الى المراكز الحرة في العالم المتمدن (١١) . ثم كتب المندوبون صورة البرقية ، وهذا نصها :

« لقد أثبت العراقيون رغبتهم الاكيدة في الاستقلال التام ورفضهم أى انتداب كان رفضاً باتاً . وحركتهم الخطيرة سنة ١٩٢٠ أعظم شاهد على ذلك . وبمناسبة تصريح المستر تشرشل في البرلمان الانكليزي بشأن مسألة الانتداب في العراق أقام الشعب العراقي مظاهرة سلمية فوضنا فيها أن نعلن أمام مجلسكم الموقر ولدى البرلمانات الاخرى عن رأي في رفض الانتداب . وعليه فالتنا نرفض كل انتداب ونحتج على كل قرار يعارض الاستقلال التام للعراق .
التوقيع : محمد الخالصي ، السيد أحمد الداود ، السيد محمد الصدر ، حمدي بك الباججي ، محمد المهدي البصير ، (١٢) .

حمل المندوبون هذه البرقية وذهبوا بها الى دائرة البرق لابقاها الى عصبة الامم والمجالس النيابية في امريكا وبريطانيا وفرنسا وايطاليا ، ودفعوا ١٥٠٠ روبية اجرة لابقاها ، ولكن الرقابة أخرت ابقاها واتصلت بالملك تسأله هل يأذن بابقاها أم لا . وهنا شعر الملك بأنه أصبح في موقف حرج لا يدري كيف يخرج منه ، فهل يسمح بابراق البرقية وفي ذلك اغضاب للانكليز ، أو يمنعها وفي ذلك اغضاب للوطنيين .

كبت المس بيل في ٦ حزيران تقول : ان البرقيات لا تزال نائمة

(١٠) نقلا عن مذكرات الشيخ محمد الخالصي المخطوطة .

(١١) منشور جريدة «الاستقلال» الصادر في ٤ شوال ١٩٤٠ .

(١٢) محمد المهدي البصير (المصدر السابق) - ج ٢ ص ٤٦٤ .

في صندوق دائرة البرق ، والملك يحاول محاوره المندوبين حولها . ثم تعلق على ذلك قائلة : « آه من الملك ، الملك ! ياليتك كان اكثر حزمًا وصلاية ! انه يضيع الآن فرصة العمر - ولكن ماذا في وسع الانسان أن يصنع ؟ » . ثم كتبت بعد يومين تقول : « اني أشعر الآن بكثير من السرور ، فلقد وافق الملك على منع البرقيات المذكورة نهائيا . ولما استأجر الحمير الخمسة - تقصد المندوبين - سياره لارسال البرقيات الى ايران بغية ابراقها من هناك أخبرهم الملك أن عملهم هذا سيؤدي الى أفـسـح الضرر . فتوقفوا ، (١٣) » .

مشكلة المتفق :

في الوقت الذي كان فيه الصراع يشتد حول المعاهدة كان لسواء المتفق - الذي يسمى الآن بمحافضة ذي قار - في حالة شديدة من الاضطراب والفوضى ، وقد كان ذلك عاملا اضافيا في استفحال الخلاف بين فيصل وكوكس .

وصف التقرير البريطاني المرفوع الى عصبة الامم حالة لواء المتفق بقوله : « كانت قبائله تحتفظ بالسلاح الذي كان لديها ، وأخذت علاوة على ذلك تبذل جهدها للحصول على المزيد منه ، بحيث أصبح هذا اللواء اليوم ربما من اكثر مناطق العراق تسليحا . ولهذا أخذت القبائل تشمر بأن في مقدورها تحدي الحكومة وهو الامر الذي كانت هذه القبائل مشهورة به في العهد العثماني ، وكذلك اقتنعت القبائل ان الحكومة العربية الجديدة من الممكن تحديها دون أن ينتج عن ذلك أي خطر . ان الحكومة في عهد الاحتلال كانت قد اتبعت طريقة في الادارة المدنية لقمع الفوضى الموروثة من العهد العثماني هي في إعادة السلطة الى شيوخ العشائر وتدعيمها بالنفوذ البريطاني من أجل تنفيذ أوامر السلطة العليا . ولكن ثورة

(18) Burgoyne (Gertrude Bell) - London 1961 - vil. 2, p 278-274.

ملكنا المفدى بارسال البطل الضرغام السيد ياسين باشا الهاشمي متصرفا لنا
لهلكنا عن آخرنا • فנסأل الله ان يوفقنا لرضائه ورضاء العلماء وطاعة ملكنا
وسيدنا. دامت شوكته ... الاحقر محمد حسن الشيخ حيدر (١٨)

لم يستطع الهاشمي البقاء في لواء المنتفق طويلا ، فقد اخذت العشائر
الموالية للانكليز لاسيما الازيرج والغزي والحسينيات يشتمونه سرا وعلنا
ويطلبون اليه ترك اللواء والعودة الى بغداد • فاضطر الهاشمي ان يغادر
الناصرية ليلا بعد ان أوكل امور اللواء الى قائممقام سوق الشيوخ رؤوف
الكيسي (١٩) •

وعلى أثر مغادرة الهاشمي لواء المنتفق أرسل الميجر يتس الطائرات
لقصف بعض العشائر المعارضة ، كما أمر ببقاء القبض على عبدالمهدي
المتفقي وباقر الشيبسي متهما اياهما بتدبير المظاهرات ضد سياسته • ومكث
هذا الرجلان في السجن بضعة أيام أرسلوا خلالها عدة برقيات الى جرائد
بغداد يحتجان فيها على اعتقالهما ، فأصدرت وزارة الداخلية أمرها بالافراج
عنهما (٢٠) •

لم يقف الامر عند هذا الحد ، بل اشتد النزاع من جديد بين الميجر
يتس ورؤوف الكيسي مما أدى بالحكومة الى استدعاء الكيسي الى بغداد
وعزله عن وظيفته (٢١) وقد نفذ صبر الملك مما وصلت اليه الاحوال في
المنتفق فأرسل الى لندن جبرائيل حداد باشا ليبلغ الحكومة البريطانية شكواه
بشأن الميجر يتس وبشأن القضية الكردية ايضا (٢٢) •

(١٨) عن وثائق البلاط الملكي - رقم الاضبارة ك/ ١١ ، رقم الوثيقة ١٦٧ •

(١٩) عبدالعزيز القصاب (المصدر السابق) - ص ٢٣١ - ٢٣٢ •

(٢٠) محمد المهدي البصير (المصدر السابق) - ج ٢ ص ٤٦٦ - ٤٦٧ •

(٢١) المصدر السابق - ج ٢ ص ٤٦٧ •

(22) Graves (Sir Percy Cox) - London , second impression - p. 312

المس بيل تتكلم :

في اوائل حزيران ١٩٢٢ كتبت المس بيل رسالة طويلة بثمانى عشرة صفحة الى والدها تخبره عن الوضع في العراق وموقف الملك منه . وهذه الرسالة ذات اهمية تاريخية غير قليلة لانها تمثل رأي الانكليز في الملك فيصل آنذاك . فقد كشفت الرسالة عن مبلغ الالم الشديد الذي كانت تشعر به المس بيل تجاه الملك فيصل ، فهى بعدما احبته وساعدته على تبوؤ عرش العراق وجدته أخيراً يؤيد زعماء المعارضة الذين هم على حد تعبيرها أشد المتطرفين دناءة . وقد شبّهت المس بيل فى رسالتها الملك فيصل بالتمثال الرائع من الثلج يذوب امام بصرها . ننقل فيما يلي جزءاً من تلك الرسالة المهمة ، فهى تقول :

• في الساعة الرابعة والنصف ذهبت لتناول الشاي عند الملك ، وصممت ان أفصح له للمرة الاخيرة عن كل ما يجول بخاطري تجاهه وقد بدأت الحديث معه بسؤالى له عما اذا كان هو واثقا من اخلاصى وجبى الشديد له ، فكان جوابه أنه ليس لديه شك فى ذلك لانه يعرف ماذا فعلت من أجله فى السنة الماضية . فقلت له اني اذن استطيع ان اتكلم معه بحرية تامة وانى في غاية التعاسة ، فقد كنت قد كونت تمثالا من الثلج جميلا فاتنا ومنحته ولائى ثم رأيت التمثال يذوب امام عيني ، وقبل أن تختفي ملامحه النسيبة فضلت أن أذهب . فأنى بالرغم من حبي للامة العربية وشعورى بالمسؤولية عن مستقبلها لا استطيع ان أتحمل رؤية احلامي تبخر وهى الاحلام التى كنت اهدى بها يوما بعد يوم . فقد كنت أعتقد انه لايسير الا في هدى أسمى المبادئ ولكنى رأيته أصبح ضحية لانواع شتى من الاشاعات الخبيثة ، فهو يصنفي لاقوال أناس كانوا خلال الحرب قد خانوا العرب الذين تعاونوا مع الانكليز وهم غدا عندما يعود الاتراك الى العراق سيخونون الذين تعاونوا مع فيصل . وجئت له بمسألة الناصرية كمثال على ذلك وقلت له انه على خطأ في حكمه على تلك المسألة من اولها

ملكنا المفدى بارسال البطل الضرغام السيد ياسين باشا الهاشمي متصرفا لنا
لهلكنا عن آخرنا . فنسأل الله ان يوفقنا لرضائه ورضاء العلماء وطاعة ملكنا
وسيدنا. دامت شوكته ... الاحقر محمد حسن الشيخ حيدر (١٨)

لم يستطع الهاشمي البقاء في لواء المتفق طويلا ، فقد اخذت العشائر
الموالية للانكليز لاسيما الازيرج والغزي والحسينيات يشتمونه سرا وعلنا
ويطلبون اليه ترك اللواء والعودة الى بغداد . فاضطر الهاشمي ان يغادر
الناصرية ليلا بعد ان أوكل امور اللواء الى قائممقام سوق الشيوخ رؤوف
الكيسي (١٩) .

وعلى أثر مغادرة الهاشمي لواء المتفق أرسل الميجر يتس الطائرات
لقصف بعض العشائر المعارضة ، كما أمر بالقاء القبض على عبدالمهدي
المتفقي وباقر الشيبسي .تتهما اياهما بتدبير المظاهرات ضد سياسته . ومكث
هذا الرجلان في السجن بضعة أيام أرسلا خلالها عدة برقيات الى جرائد
بغداد يحتجان فيها على اعتقالهما ، فأصدرت وزارة الداخلية أمرها بالافراج
عنهما (٢٠) .

لم يقف الامر عند هذا الحد ، بل اشتد النزاع من جديد بين الميجر
يتس ورؤوف الكيسي مما أدى بالحكومة الى استدعاء الكيسي الى بغداد
وعزله عن وظيفته (٢١) وقد نفذ صبر الملك مما وصلت اليه الاحوال في
المتفق فأرسل الى لندن جبرائيل حداد باشا ليبلغ الحكومة البريطانية شكواه
بشأن الميجر يتس وبشأن القضية الكردية ايضا (٢٢) .

(١٨) عن وثائق البلاط الملكي - رقم الاضبارة ك/ ١١ ، رقم الوثيقة ١٦٧ .

(١٩) عبدالعزيز القصاب (المصدر السابق) - ص ٢٣١ - ٢٣٢ .

(٢٠) محمد المهدي البصير (المصدر السابق) - ج ٢ ص ٤٦٦ - ٤٦٧ .

(٢١) المصدر السابق - ج ٢ ص ٤٦٧ .

(22) Graves (Sir Percy Cox) - London , second impression - p. 812

المس بيل تتكلم :

في اوائل حزيران ١٩٢٢ كتبت المس بيل رسالة طويلة بثمانى عشرة صفحة الى والدها تخبره عن الوضع في العراق وموقف الملك منه . وهذه الرسالة ذات اهمية تاريخية غير قليلة لانها تمثل رأي الانكليز في الملك فيصل آنذاك . فقد كشفت الرسالة عن مبلغ الالم الشديد الذي كانت تشعر به المس بيل تجاه الملك فيصل ، فهى بعدما احبته وساعدته على تبوء عرش العراق وجدته أخيراً يؤيد زعماء المعارضة الذين هم على حد تميرها أشد المتطرفين دناءة . وقد شبهت المس بيل فى رسالتها الملك فيصل بالتمثال الرائع من الثلج يذوب امام بصرها . ننقل فيما يلي جزءاً من تلك الرسالة المهمة ، فهى تقول :

« في الساعة الرابعة والنصف ذهبت لتناول الشاي عند الملك ، وصممت ان أفصح له للمرة الاخيرة عن كل ما يجول بخاطري تجاهه وقد بدأت الحديث معه بسؤالى له عما اذا كان هو واثقا من اخلاصى وحبي الشديد له ، فكان جوابه أنه ليس لديه شك فى ذلك لانه يعرف ماذا فعلت من أجله فى السنة الماضية . فقلت له اني اذن استطيع ان اتكلم معه بحرية تامة واني في غاية التعاسة ، فقد كنت قد كونت تمثالا من الثلج جميلا فاتنا ومنحته ولائى ثم رأيت التمثال يذوب امام عيني ، وقبل أن تحتفي ملامحه النيلة فضلت أن أذهب . فأنى بالرغم من حبي للامة العربية وشعورى بالمسؤولية عن مستقبلها لا استطيع ان اتحمل رؤية احلامي تبخر وهى الاحلام التى كنت اهدى بها يوما بعد يوم . فقد كنت أعتقد انسه لايسير الا في هدى أسمى المبادئ ولكني رأيت أنه أصبح ضحية لانواع شتى من الاشاعات الخبيثة ، فهو يصنفي لاقوال أناس كانوا خلال الحرب قد خانوا العرب الذين تعاونوا مع الانكليز وهم غدا عندما يعود الاثراك الى العراق سيخونون الذين تعاونوا مع فيصل . وجئت له بمسألة الناصرية كمثال على ذلك وقلت له انه على خطأ في حكمه على تلك المسألة من أواها

الى آخرها • فالميجر يتس كان أحد الرجال الثلاثة الذين وقفوا الى جانبي ضد ويلسون أثناء تأييدى للقضية العربية ••• وقد تبأت للملك بأن الميجر يتس سوف يستقيل من وظيفته من جراء الشكوك السيئة التى يحيطه الملك بها ، وانى سوف استقيل فى اليوم نفسه لانى سوف لاأنتظر ان يقوم الاندال الذين وضع الملك ثقته فيهم بتسويد سمعتى فى عينه • وقد احتدت المحاورة بيني وبينه حول هذه المسألة ، وأخذ هو يقبل يدي مرة بعد أخرى مما أدى الى ارتباكى الشديد • ثم قال ان واجبه يقضى عليه أن يطمئن الوطنيين المتطرفين الذين رفضتم اتم الاعتراف بهم مرة بعد مرة • فأجبتة ان هذا ليس بصحيح فنحن لم نرفض سوى أولئك الذين يعملون لخدمة أنفسهم ، اما الذى يعمل منهم بأخلاص في سبيل الحكومة الوطنية فنحن قبلناه ورحبنا به أيضا ••• خذ مثلاً جعفر ابو التمن الذى كان من زعماء ثورة العشرين هو اليوم وزير ، ونحن بوجه عام ، وأنا بوجه خاص ، على صلة ودية معه • وليس من المعقول اننا سوف لانجد طريقة للعمل معهم بشرط ان الملك فيصل يؤيدنا فى ذلك • وفى نهاية المقابلة حصلت على اذن منه لنشر تكذيب رسمى لما كانت الجرائد تنشره من تقارير ••• ولما أردت الخروج حاولت تقيل يده فاحتضنتي هو بحرارة •••• •

وتختم المس بيل رسالتها قائلة : ان الملك فيصل هو من أحب الناس الى القلب انما تعوزه قوة الخلق بشكل يدعو الى الدهشة • فهو فى أعماق نفسه يثق بنا على الرغم من كثرة الانحرافات التى تحرفه عن الطريق (٢٣) •

ومما يلفت النظر أنه فى الوقت الذى كانت فيه المس بيل تشعر بخيبة أمل فى الملك فيصل كان الكثير من زعماء المعارضة الوطنيين يشعرون بخيبة أمل فيه كذلك • يقول أمين الريحاني فى ذلك : لقد أساء الناس فهم موقف

الملك فيصل في تلك الايام ، فلم ينصفه الانكليز ولا أنصفه العراقيون ، إذ قال الانكليز عنه انه انقلب عليهم بعد التوقيع ، وقيل المتطرفون من الوطنيين انه يخدم مصالح الانكليز ويعمل بأمرهم . وفي الحقيقة ان الملك فيصل لاهذا ولا ذلك ، فقد كان يريد ان يحفظ عرشه من جهة ويريد ان يحمل الانكليز على الوفاء بوعدهم دون ان يعاديهم من الجهة الاخرى (٢٤) .

الوزراء والمعاهدة :

في مساء ٢٢ حزيران قدمت الصيغة النهائية للمعاهدة الى مجلس الوزراء للمصادقة عليها ، فحدثت حولها مناقشة وجدال حاد . وانهت الجلسة قبل الساعة الثامنة مساءً دون الوصول الى قرار فيها . واسرع سكرتير المجلس حسين أفنان الى المس بيل في دارها في محلة السنك ليخبرها بما جرى في الجلسة . وقد سجلت المس بيل في رسالة لها مذكره حسين أفنان لها . وفيما يلي نذكر ماورد في الرسالة حول تلك الجلسة .

كان أول المتكلمين في الجلسة عبدالمحسن السعدون ، وقد حض على قبول المعاهدة ، فانبرى توفيق الخالدي يقول ان ٩٥ بالمائة من الشعب العراقي لايقبل بمعاهدة تتضمن مبدأ الانتداب . فوجه رئيس الوزراء الى جعفر العسكري سؤالاً عن الجيش هل هو قادر على قمع الاضطرابات في البلاد في حالة حدوثها ، فأجاب العسكري ان ليس هناك عربي يحارب عربياً آخر . وكان جعفر ابو التمن أثناء ذلك ساكناً وكأنه كان رقيباً على زملائه الوزراء لكي ينقل اخبارهم الى رؤسائه علماء الشيعة ولهذا كان كل واحد من الوزراء ينظر اليه بطرف عينه خوفاً منه ماعدا عبدالمحسن السعدون وساسون حسيق . وقد تكلم أبو التمن أخيراً فقال ان مجلس الوزراء لايمكنه النظر في المعاهدة إذ هي قضية يجب ان ينظر فيها المجلس التأسيسي ، وان السادة المقدسين وأقطاب الاسلام كلهم يعارضون المعاهدة

(٢٤) أمين الريحاني (المصدر السابق) - ص ١٢٥ .

فخالفه في ذلك ساسون حسيقل قائلاً ان انتخاب المجلس التأسيسي يحتاج الى عدة اشهر ، واقترح ان يوافق مجلس الوزراء على المعاهدة ثم ترفع بعدئذ الى المجلس التأسيسي للمصادقة عليها . ودامت المناقشة حول هذه النقطة ساعتين ، ثم تقرر تأجيل الجلسة الى يوم ٢٤ حزيران . ويقول السيد حسين افنان ان رئيس الوزراء النقيب لم يكن قادرا على اتخاذ أي قرار ، فقد كان مصابا بشلل ذهني . . . (٢٥) .

كان يوم ٢٤ حزيران يوما صاخبا في بغداد ، فقد شاع بين الناس ان المعاهدة على وشك التصديق دون ان يكون فيها ذكر لالغاء الانتداب ، ولهذا أغلقت الاسواق وتشكلت وفود تمثل المهن المختلفة كالبزازين والحدادين والنحاسين والبقالين وغيرهم (٢٦) ، وساروا بمظاهرة في شارع الرشيد متجهين نحو دار النقيب الواقعة على النهر قرب الباب الشرقي ، وقد أشار التقرير البريطاني الى ان المظاهرة كلها كانت من تدير النهيخ مهدي الخالصي (٢٧) .

وعند وصول الوفود المهنية الى دار النقيب طلب بعضهم مقابلته ، فاذن لهم بذلك واخذوا يتكلمون امامه مظهرين احتجاجهم على المعاهدة . والظاهر انه لم يتحمل رؤية جماعة من العوام يتدخلون في شؤون السياسة والحكم ، فهذا أمر لم يعود عليه ولم يكن يتصور انه سيقع في يوم من الايام ، فسألهم : « باسم من تحتجون ؟ » فأجابوه « باسم البلاد » . وعند هذا لم ينطق النقيب صبرا فنهض من على مقعده وهز عصاه في وجوههم غاضبا متتهرا حيث قال لهم : « ومن أنتم لتحتجوا باسم البلاد ؟ أنا صاحب البلاد ، وأنا أعلم منكم بحاجات البلاد وأغراضها . عودوا الى بيوتكم

(25) Burgoyne (op. cit.) - vol. 2, p. 276.

(٢٦) جريدة «الاستقلال» - في عددها الصادر في ٢٥ حزيران ١٩٢٢ .

(27) Report on The Administration of Iraq - 1922 - 1928 - p. 18.

واشغالكم ، فخرجوا من عنده ساكتين (٢٨) .

وعند الظهر وصل الى دار النقيب وفد خاص مرسل من الشيخ مهدي الخالصي ويتألف من محمد الخالصي وعبدالحسين الجلي ورجلين آخرين . فدعاهم النقيب الى الجلوس وصار يتبسط معهم في الحديث . وانبرى محمد الخالصي يتكلم معه حول المعاهدة وأخذ يحذره من سوء عاقبتها كما حذره من عذاب يوم القيامة ، فأجابه النقيب قائلاً : « ان رجلي قد تدلنا الى قبري ، واني على وشك الموت ، ولم يبق لي من بدني عضو يلتذ بلذة من شدة الضعف ، وميهاة أن أضيع آخرتي لايام قلائل أعيشها في الدنيا غير ملتذ بشيء ، فليشئ الشيخ أبوك وليعلم كل احد اني لا أمكر للاسلام ولا اكيد له » . وبعد ذلك دعاهم الى تناول طعام الغداء معه .

يقول محمد الخالصي في مذكراته : انهم حين تناولوا الطعام على مائدة النقيب لاحظوا ان النقيب أكل برغم شيخوخته اكثر مما أكلوا هم الاربعة ، وانه عندما أحضر له التفاح بعد انتهاء الطعام أكل منه أكلا ذريعا يفوق مايمكن ان يأكله الاربعة في حالة الجوع . ويعلق محمد الخالصي على ذلك قائلاً : « علمت ان الرجل يكذب في أقواله إذ ان من كان هذا أكله فهو في شغل شاغل عن الاسلام وخدمته » (٢٩) .

وعلى أي حال فقد صادق مجلس الوزراء على المعاهدة في جلسته المنعقدة في ٢٥ حزيران . ومن الانصاف ان نذكر ان النقيب ادرج في صلب المعاهدة عبارة تقضي بوجوب تصديقها من قبل المجلس التأسيسي . وقد حاول كوكس صرف النقيب عن ادراج هذه العبارة في المعاهدة غير ان أن اللقيب اصر عليها وقال يخاطب كوكس : « هذا رأيي ورأي بلدي في

(٢٨) أمين الريحاني (المصدر السابق) - ص ١٣٨ .

أمين الريحاني (ملوك العرب) - بيروت ١٩٥١ - ج ٢ ص ٣٨٥ .

(٢٩) نقلا عن مذكرات الشيخ محمد الخالصي المخطوطة .

المسألة ، فليس بيني وبينكم الا الصداقة فى سبيل الواجب ، ولقد قبلت ان أتحمل المسؤولية فى سني هذه ، فأذا أصررت على وجهة نظركم فسأترك المقام وأدخل الى هنا - وأشار الى غرفة خاصة تؤدى بابها الى المكتبة - ولا يراني أحد بعد ، (٣٠) .

كان جعفر أبو التمن غائبا عن الجلسة التي صودق فيها على المعاهدة ، ثم حضر فى اليوم التالي فأبدى اعتراضا على مقدمة المعاهدة وبعض موادها لاحتوائها على ما يتضمن مبدأ الانتداب . ثم قدم استقالته وخرج . وقد حاول الملك بعدئذ اقناع النقيب بتأجيل قبول الاستقالة . ولكن النقيب اصر على قبولها . وفى ٢٩ حزيران أرسل النقيب حسين افنان الى أبو التمن وهو يحمل اليه رسالة مقتضبة يقول فيها انه قبل استقالته .

اشتداد التوتر :

فى يوم ٢٦ حزيران - وهو اليوم الذى قدم أبو التمن استقالته فيه - اجتمع عدد كبير من رؤساء العشائر وزعماء المعارضة عند الشيخ مهدي الخالصي فى الكاظمية . وقد أعلن الخالصي فى اثناء الاجتماع - حسبما روته المسيل فى احدى رسائلها - قائلا : ان بيعتهم للملك فيصل اصححت لاية لانه أخل بالشروط التى تعهد بها اثناء البيعة والتى تنص على المحافظة على استقلال البلاد (٣١) .

وفى اليوم التالي توتر الوضع فى بغداد والكاظمية ، وبلغ كوكس ان زعماء المعارضة عازمين على القيام بمظاهرة كبيرة ، ودعا ذلك الى ارسال برقية الى بو شهر يسأل فيها عن بناية السجن فى جزيرة هنجام وهل هى فى حالة استعداد لايواء معتقلين . وقد تعمد كوكس أن يجعل خبر البرقية معروفا لكي يسمع بها الناس فتبثت الخوف فى قلوبهم . (٣٢) .

(٣٠) خيرى أمين العمري (شخصيات عراقية) - بغداد ١٩٥٥ - ج ١ ص ٢٠.

(81) Burgoyne (op. cit.) - vol. 2, 275 - 277.

(82) Ibid - vol. 2, p. 277.

لم تقع في ذلك اليوم اية مظاهرة مما جعل كوكس يظن ان برقيته أخافت الناس ، غير ان صحب المعارضة اشتدت فى حملاتها واخذت تنشر العرائض المعادية للانتداب . وقد بلغ الانكليز ان الملك فيصل كان يدعم تلك الصحف وان اربعة من أعوانه ذهبوا الى النجف لجمع التواقيع ضد الانتداب . يضاف الى ذلك ان الملك امتنع عن تصديق المعاهدة وطالب بعض التعديل في صيغتها العربية ، وأخذ يتصل بالوزراء سرا يحثهم على التعديل .

تقول المس بيل في رسائلها التى كتبها في تلك الآونة : ان دمها صار يغلي من جراء هذا السلوك المزدوج الذى يسير عليه الملك فيصل ، وان كوكس كان متمعضا كذلك ويشعر بالخيبة الشديدة من الملك . ولم تطق المس بيل صبرا فقررت قطع علاقتها بالملك نهائيا ، وأخبرت نورى السعيد بذلك ، فذهب نورى بالخبر الى الملك ، فارسل الملك اليها يدعوها لتناول الشاي معه ، ولكن المس بيل رفضت دعوته ، ثم قبلتها أخيرا بعد الحاج شديد من كورنواليس . وحين وصلت اليه استقبلها بحماس وأخذ يتحدث اليها محاولا اقناعها بحراجه موقفه ، ولكنها جابته بقولها انها لاتصدق كلمة واحدة مما يقول . وقد استمرت المحادثة بينهما ساعتين أنهاها الملك بان احتضنها بحرارة شديدة - على حد تعبيرها . وهى تقول انها خرجت من عنده وهى متفقة معه عاطفيا ومختلفة سياسيا . ثم تقول أخيرا : انه اذا لم يسلك الطريق الصحيح في المستقبل فسيفقد عرشه للمرة الثانية ، ولست أدري اين يجد له عرشا ثالثا (٣٣) .

هدأ الوضع نسبيا خلال شهر تموز ، ولكنه عاد الى التوتر من جديد في أواخر ذلك الشهر . ففي ٣٠ منه كتبت المس بيل تقول ما نصه :

« كان الملك في هذا الاسبوع متعبا لنا جدا ، فان الدعاية المضادة

للاتداب التي تجري في لواء الحلة بموافقة ضمنية من الملك جعلت الفرات الاوسط قريبا من آذاننا الى أقصى حد . وقد قتل احد الشيوخ المواليين لنا هناك لاسباب سياسية ، ولما اراد المستر كورنواليس اتخاذ الاجراءات اللازمة للقبض على القاتل اتهمه الملك بحضور السري برسي كوكس بأنه يقف دائماً الى جانب اعدائه . وقد ابدى السري برسي دهشته من هذا القول إذ كيف يجوز لفصيل وهو ملك دستوري ان يتدخل في امور ادارية كالقبض على قتله . فأفحم الملك وأجاب بفضب انه سترك الديوان ويذهب الى بيته . ولكنه لم يفعل ، بل بقي في الديوان مستمرا على استقبال كل الاوغاد والمسيئين ، وقد أنتج سلوكه هذا رد فعل لدى الشيوخ المؤيدين للاتداب ، حيث جاؤوا الى دائرتي وملاؤوها ، وكان علي السليمان أحدهم ، وصاروا يحلفون على ان الملك يعمل على اسقاطهم . وكان الملك يتدخل أيضا في تعيينات الشرطة الى درجة كادت تؤدي الى استقالة الضباط الكبار منهم - العرب والانكليز معا - وجاء هؤلاء الى دائرتي لينضموا الى الشيوخ المتذمرين .

وتضيف المس بيل الى ذلك شيئا يتعلق بنوري السعيد فتقول : « يبدو أن نوري السعيد كان وراء تعيينات الشرطة الاخيرة ، ولهذا دعوته لتناول طعام الغداء معي وطلبت منه توضيحا لما جرى . وقد استطاع نوري أن يبرئ نفسه من الامر ، فأخبرته عن سلوك الملك المتعب وقلت له ان الملك اذا ظل على سلوكه هذا فليس هناك أي ضابط بريطاني يقبل أن يخدم تحت امرته . وقال نوري انه مستعد أن يغادر العراق غدا اذا كان ذلك نافعا . ان نوري يعلم بأن العراق لا يمكن ان يكون دولة بغير مساعدتنا ، واذا لم يكن هو مستحقا لذلك فان ابنه او ابن ابنه سوف يرى العمل منجزا . وهذا هو الامل الذي يجعله مطمئناً ، ثم تقول المس بيل : « اني لأحب أحدا من بين جميع العراقيين - من الملك فنازلا - مثلما أحب نوري . انه

ابن موظف عراقي فكيف استطاع ان يكتسب هذه البصيرة المدهشة ؟
فهو قادر أن يفهم من نصف كلمة • انه ادرك وجهة نظرنا ومشاعرنا حول
الحقيقة والشرف ، وجعلها أمام نظره هدفا ومثالا نهائيا ، وهو أمر ربما
كان من المستحيل تحقيقه في الشرق ان نقته المطلقة باستقامتنا وحكمتنا
تجملني أحمر خجلا على الدوام (٣٤) •

اجتماع في النجف :

كانت منطقة الفرات الاوسط شديدة الحساسية لما يجري في بغداد
من صراع بين الانكليز والمعارضة • فكان كل حدث يقع في بغداد يجد له
صدى في تلك المنطقة على وجه من الوجوه •

وفي شهر آب عندما بلغ الصراع اشده أخذ رؤساء الفرات الاوسط
الذين شاركوا في ثورة العشرين يتحفزون للقيام بثورة أخرى • يقول
كوكس : « ان منطقة الفرات على وشك القيام بثورة كانت معالمها تدل على
أنها لن تكون أقل خطورة من تلك التي كانت هذه العناصر المتطرفة نفسها
قد أثارها سنة ١٩٢٠ ، (٣٥) •

وفي ١٢ آب حلت زيارة عيد الغدير في النجف ، والظاهر ان رؤساء
العشائر ارادوا استغلال تلك الزيارة ، وقد لوحظ ان ازدحام الزوار في
النجف آنذاك بلغ حدا لم تشهد البلدة مثيلا له من قبل ، حتى اضطر
الكثير من الزوار الى النوم في الصحن الشريف ، وفي الطرقات والساحات
العامة ، وقيل ان عدد الزوار آنذاك بلغ الثلاثمائة ألف (٣٦) •

وكانت وزارة الداخلية قد أحست بخطورة الامر فحشدت فسي
النجف قوة كبيرة من الشرطة ، كما أوعزت الى عبدالعزيز القصاب متصرف

(84) Ibid - vol. 2, p. 285 - 286.

(٣٥) كوكس ودوبس (المصدر السابق) - ص ٥٩ •

(٣٦) عبدالعزيز القصاب (المصدر السابق) - ص ٢٢١ •

كربلاء بالذهاب بنفسه الى النجف لمراقبة الحالة • وقد ذهب المتصرف الى النجف قبل الزيارة بثلاثة ايام ، ونزل في دار البلدية الواقعة عند مدخل البلدة • وفي اليوم التالي وصل النجف متصرف الحلة علي جودت الايوبي ومعه قائممقام الشامية وقائمقام أبو صخير وبعض موظفي لواء الحلة ورؤساء عشائرها • وتبين فيما بعد أن الملك أوعز له بذلك • وقد نزل الايوبي في دار عبدالمحسن شلاش ••

ولم يكد أهل النجف يسمعون بوصول الايوبي حتى هبوا للترحيب به ، وقررت هيئة مدرسة الغري أن تقيم له حفلة تكريمية في المدرسة ، وقد عارض متصرف كربلاء اقامة تلك الحفلة خشية حدوث تجمع يهدد الامن، ثم وافق أخيرا • وأقيمت الحفلة في وقتها المعين وألقيت فيها خطيب وقصائد حماسية ضد الانتداب وفي المطالبة بالاستقلال التام الناجز • وفي ختام الحفلة ألقى الايوبي خطابا حماسيا • وبعد مرور بضع ساعات على انتهاء الحفلة وصلت الى الايوبي برقية من وزارة الداخلية تأمره بالعودة الى الحلة فوراً ••• (٣٧) •

وفي ليلة يوم الغدير - أي في مساء ١١ آب - اجتمع في دار السيد أبو الحسن الاصفهاني عدد كبير من رؤساء العشائر كان منهم عبدالواحد الحاج سكر ومحسن أبو طيخ وعبادي الحسين وعلوان الياسري وشعلان ابو الجون وقاطع العوادي • وأرسل الاصفهاني الى متصرف كربلاء يرجو منه الحضور الى داره • وحين حضر المتصرف وجدهم جالسين فوق سطح الدار • وتكلم الاصفهاني قائلا : ان السيد محسن ابو طيخ لديه أمور يود عرضها عليكم • ثم تكلم أبو طيخ فقال ما يلي :

« كنتُ في بغداد وقد قابلت مستشار الداخلية كورنواليس وذكرت

له أعمال المستشارين الأنكليز في الالوية وضمنهم على الناس وتجبرهم
وتعسفهم وطلبت منه رفعهم من الالوية . وبعد الكلام الطويل معه وعدني
بأنه سيزيح هؤلاء المستشارين عن مراكزهم . وقد مضت مدة فلم ينفذ
وعده فأطلب من المتصرف أن يطلب الى الداخلية تنفيذ هذا الامر حالا . واذا
لم يتحقق ذلك فنحن في حل مما يحدث في البلاد » .

وعند انتهاء أبو طيخ من كلامه التفت الالفهاني نحو المتصرف
يسأله : « ماذا تقول في هذا الطلب ؟ » ، فأجاب المتصرف :
« اني لا أعلم بهذا الوعد ولكن عليّ شيء واحد هو السؤال من
الوزارة عن هذا الموضوع وتبليغكم جوابها عن ذلك » . فطلب الحاضرون
ان يكون الجواب غدا وانهم ينتظرونه بصورة مستعجلة حتى يعملوا
اللازم . وهنا التفت المتصرف نحو الالفهاني شارحا له خطورة الوضع
في النجف لكثرة الزوار فيها من جهة وكثرة الشرطة من الجهة الاخرى ،
وأبدى خشيته أن يحصل احتكاك يؤدي الى سفك الدماء ، ولهذا فهو يرجو
من الالفهاني اصدار فتوى بتحريم التجمعات في داخل البلدة اثناء الزيارة .
وحين سمع الالفهاني هذا القول التفت الى الشيخ عبدالكريم الجزائري الذي
كان جالسا بجانبه وأخذ يكلمه بالفارسية ، ثم أعلن الالفهاني موافقته
على رأي المتصرف وأوعز الى الجزائري بكتابة الفتوى . وبعد ان تمت
كتابتها وضع الالفهاني عليها توقيعها وناولها الى المتصرف ، فأخذها هذا
وغادر الاجتماع مسرعا لكي يعلن الفتوى على الناس بواسطة المناديين
المحليين . وقد انتجت الفتوى ثمرتها فورا حيث لم يقع بعدئذ في النجف
أي تجمع يخل بالامن .

وأبرق المتصرف الى وزارة الداخلية يستفسر منها عما قاله محسن
أبو طيخ في شأن المستشارين ، فعاد اليه الجواب من الوزارة ومن
كورنواليس ، وكلاهما ينفيان صدور أي وعد حول سحب المستشارين ،
وطلبت الوزارة من المتصرف تكذيب الخبر حالا .

وجد المتصرف نفسه في موقف دقيق للغاية ، إذ هو كان يخشى ان يؤدي تكذيب الخبر الى هياج الناس والقاء الخطب والقصائد المثيرة ، وقد رأى من الحكمة ان يترث في الامر . وعندما جاء اليه بعض الرؤساء في دار البلدية يطلبون منه الجواب قال لهم : انه سيلفهم الجواب قريباً . فانصرفوا . ولكنهم لم يكادوا يخرجون من عنده حتى شاع بينهم أن المتصرف عازم على القاء القبض عليهم ، فأسرعوا الى مغادرة النجف حيث ذهبوا الى أبو صخير ومن هناك أبرقوا الى وزارة الداخلية يشكون فيها من المتصرف ويتهمون به بأنه اراد القبض عليهم من غير أن يكونوا قد قاموا بأي عمل يخل بالامن^(٣٨) ، ثم ذكروا في برقيتهم أنهم عازمون عزماً أكيداً على مقاطعة الحكومة اذا لم تنفذ مطالبهم حالاً...^(٣٩) .

يقول عبدالعزيز القصاب في مذكراته : انه في الواقع لم يقصد القاء القبض عليهم كما تخيلوا ، بل كان ينوي زيارتهم لتوضيح الامر لهم . وقد أرسل أحد الخدم ليستعلم عن أماكن سكنهم من أجل زيارتهم ، ولكنهم حين سمعوا ان الخادم يسأل عنهم ظنوا خطأ ان ذلك من اجل اعتقالهم فركبوا سياراتهم وخیولهم وغادروا النجف مسرعين^(٤٠) .

استقالة الوزارة :

انتشر الاضطراب في بعض انحاء الفرات الاوسط ، لا سيما في منطقة أبو صخير والشامية . وشعر توفيق الخالدي وزير الداخلية بمجزء عن معالجة الموقف مادام الملك يؤيد القائمين بالاضطراب . وفي ٣ آب قدم الخالدي استقالته من الوزارة . وحين انعقد مجلس الوزراء في ٩ آب تكلم الخالدي شارحاً سبب استقالته فقال : ان الاضطراب يعم البلاد منذ

(٣٨) عبدالعزيز القصاب (المصدر السابق) - ص ٢٢٦ .

(٣٩) عبدالرزاق الحسني (تاريخ الوزارات العراقية) - صيدا ١٩٦٥ -

ج ١ ص ٦٨ .

(٤٠) عبدالعزيز القصاب (المصدر السابق) - ص ٢٢٥ - ٢٢٦ .

عشرة ايام وان ذلك قد أدى الى مشاغبة المتطرفين واستفحال الحركة ضد سياسة الحكومة • ثم عرض الخالدي على المجلس برقية من متصرف كربلاء وكتابا من قائممقام أبو صخير فيهما ذكر مايجري في النجف وعشائر الشامية من الخلل والارتباك مما أدى الى ظهور الوهن في المملكة^(٤١) • ثم ذكر الخالدي ان المتطرفين يدعون ان الملك يؤيدهم في مهاجمة الحكومة^(٤٢) ، ولهذا فهو يرى ان الملك يجب ان يعلن على الناس معاضدته للوزارة وثقته بها • وقد تكلم رئيس الوزراء مؤيدا رأى الخالدي • وبعد المداولة قرر مجلس الوزراء باتفاق الآراء رفع الطلب التالي الى الملك :

«بناء على ما سُمع من الاشاعات التي نشرها بعض المتطرفين في العاصمة والالوية ، والتي نسبت قلقا وارتباكا في بعض الاماكن ، وما يخشى من تفاقم الامر اذا دامت الحالة على ما هي عليه الآن ، يطلب مجلس الوزراء من حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم أن يؤازر حكومته المجدة في تمشية الامور على ما يرومه جلالته ويرضاه ، ليظهر للشعب ان حكومة جلالته مستندة على مؤازرة جلالته»^(٤٣) •

في ١٢ آب أرسل الملك جوابه على طلبه المجلس قائلا انه لا يجد مبررا لتبديل خطته الحاضرة • وقد دل هذا الجواب على ان الملك كان راغبا شخصا في سقوط الوزارة على خلاف رغبة السر برسي كوكس^(٤٤) • وعندما تلي جواب الملك في مجلس الوزراء شعر الوزراء بأنهم يجب ان يقدموا استقالاتهم ، فقدموها كلهم ماعدا واحدا منهم هو محمد علي فاضل وزير الاوقاف •

(٤١) عبدالرزاق الحسيني (المصدر السابق) - ج ١ ص ٨٧
(42) Graves (op. cit.) - p. 815.

(٤٣) عبدالرزاق الحسيني (المصدر السابق) - ج ١ ص ٨٧ •

(٤٤) فيليب آيرلاند (العراق) - ترجمة جعفر خياط - بيروت ١٩٤٩ - ص ٢٨٠ •

كتب النقيب الى الملك يقول له بانه امتنع عن قبول استقالة الوزراء راجيا منه تأييده في موقفه هذا واعلان ثقته به وبهم . واسرع كوكس الى الملك يحثه على دعم موقف النقيب في رفض استقالة الوزراء ، وقد وافق الملك في اول الامر على ما طلبه كوكس ثم غير رأيه بعد قليل طالبا استقالة النقيب بدعوى أن بقاءه في الحكم غير دستوري بسد استقالة أكثر وزرائه^(٤٥) . وقد اضطر النقيب عند هذا الى تقديم استقالته .

أصبح الوضع في غاية الدقة ، ومما زاد في دقته ان الملك أرسل الى كوكس رسالة شخصية تحتوي على ما يشبه التهديد حيث قال فيها : بالنظر الى عدم الاستقرار الموجود حاليا ، وعدم تحديد المسؤولية بينه وبين المندوب السامي في شؤون الادارة الداخلية ، فهو مضطر ان يبين للمندوب السامي وللحكومة البريطانية بأنه في حالة وقوع ثورة في البلاد ، وهو أمر متوقع حدوثه حسب معلوماته السرية على حد تعبيره ، فإنه غير مسؤول عما يترتب عليها من مسؤولية . وطلب الملك في رسالته من المندوب السامي أن يأخذ الحكم على عاتقه ، أو يفسح له المجال في ادارة شؤون البلاد بالطريقة التي يراها مناسبة .

كان هذا بالنسبة الى كوكس فوق مايمكن تحمله . فسودّ جوابا الى الملك شديد اللهجة ألقى فيه مسؤولية الاضطراب الراهن على عاتق الملك . ولكن كوكس لم يرسل هذا الجواب الى الملك ، بل أوقف اصداره لكي لا يحدث تأثيرا سلباً على الاحتفال بيوم التوقيع الذي كان قريبا^(٤٦) .

تقول المس بيل : ان نوري السعيد ذهب الى الملك وأخبره بأنه فقد ثقة الانكليز وأنه سائر نحو الدمار ، ولكن الملك ظل سائرا في طريقه لا يزعج حيث يلعب دور الطفل الوقح الذي لا ينفذ فيه اي اقناع^(٤٧) .

(45) Graves (op. cit.) - p. 315.

(٤٦) فيليب آيرلاند (المصدر السابق) - ص ٢٨٠ .
(47) Burgoyne (op. cit.) - vol. 2, p. 291.

تأسيس الاحزاب :

في ٢٥ حزيران ١٩٢٢ كان مجلس الوزراء قد أصدر قانوناً أجاز فيه تأسيس الاحزاب ووضع عقوبات صارمة على اى تجمع لم تصدر به اجازة رسمية . والمظنون ان هناك ثلاثة أسباب دعت الحكومة الى اصدار مثل هذا القانون ، وهى :

اولا : كانت الحكومة تخشى ان تطور الحالة فى صيف ١٩٢٢ الى مثل ما تطورت اليه فى صيف ١٩٢٠ من حيث اقامة المظاهرات السياسية باسم « المواليدين » النبوية و « التعازي » الحسينية ، فأرادت منع ذلك عن طريق القانون .

ثانيا : كانت الحكومة تعتقد ان مؤيديها فى العراق اكثر من المعارضين لها انما هم غير منظمين ، وهم بعد صدور القانون قد يتمكنون من تشكيل حزب أو أحزاب خاصة بهم يغلّبون بها المعارضين او يفحسونهم على الاقل .

ثالثا : كان وزير المالية ساسون حسيقل قد أبدى رأيا فى مجلس الوزراء هو ان الحكومة اذا منعت الناس من تأسيس الاحزاب فأنهم يلجأون الى تشكيل احزاب سرية . والظاهر ان الوزراء ، والانكليز من ورائهم ، قد اقتنعوا بصحة هذا الرأي لاسيما وأنه صادر من ساسون الذى كان موضع ثقة الانكليز واعجابهم .

وعلى أي حال فقد تأسست فى شهر آب ١٩٢٢ ثلاثة أحزاب كان اثنان منها معارضين هما حزب النهضة والحزب الوطني ، والثالث مؤيد للسلطة هو الحزب الحر .

تأسس حزب النهضة فى الكاظمية فى ٢ آب ، وكان اعضاء لجنته التنفيذية امين الجرججى وأحمد الظاهر وعبدالرسول كبة وآصف قاسم أغا وعبدالرزاق الازري ومهدي البير ومحمد حسن كبة . اما الحزب

الوطني فقد تأسس في بغداد في ١٩ منه وكان أعضاء لجنته التنفيذية : جعفر أبو التمن واحمد الشيخ داود وحدي الباججي ومولود مخلص وعبد الغفور البدري ومهدي البصير وبهجت زينل • وقد لوحظ في حينه ان حزب النهضة كان مدعوما من السيد محمد الصدر بينما كان الحزب الوطني مدعوما من الشيخ مهدي الخالصي^(٤٨) • ويقال ان التنافس التقليدي بين آل الصدر وآل الخالصي كان له أثره في تكوين ذينك الحزبين ، ولولا ذلك لكان الحزبان حزبا واحدا •

أما الحزب الحر فقد تأسس في بغداد بتأييد من النقيب ، وكان ابنه الأكبر السيد محمود رئيسا له بينما أعضاء لجنته التنفيذية هم : جميل صدقي الزهاوي وعبد المجيد الشاوي وفخري الجميل وحسن غصبيه وداود النقيب • وقد كتبت المس بيل في ١٥ آب تقول : « ان ابن النقيب ، السيد محمود ، قد أصبح رئيسا لحزب معتدل بعد الشيء الكثير من الدفع والحث • أما القوة المحركة الحقيقية فهي شيخ علي السليمان • وقد شكل المتطرفون حزبا لهم أيضا ولكنه حسبما سمعت عنه لم يحصل على تقدم كبير • وقد جاءني علي السليمان ومعه كل شيوخ العشائر الكبار حيث جعلهم يوقعون على الانتماء لحزب السيد محمود • انهم ملأوا دائرتي بالأمس فوق طاقتها وأوضحوا لي أنهم مستعدون لتنظيم البلاد كلها في سبيل تأييد العلاقات الانتدابية مع بريطانيا العظمى • انه كان شيئا مدهشا هذا الفوران التلقائي في الأولوية من أجلنا ، ولكن هناك الحزب المعارض في مقدوره أن يسبب اساءة واضحة ، وربما أنتح ثورة ، ما لم نحث الملك على ضبطهم » • وأضافت المس بيل في اليوم التالي الى ذلك تقول : « عاد شيوخ العشائر الى مواطنهم لتنظيم الفروع الحزبية في الأولوية ، وانسي سوف أرسل علي السليمان طائرا الى الرمادي • ان رجال القوة الجوية

(٤٨) محمد المهدي البصير (المصدر السابق) - ج ٢ ص ٤٥٠ - ٤٥١ •

الطبيين جهزوا طائرة خاصة لهذا الغرض لاني ذكرت لهم ان ذلك سوف يزيد مهابة وأن ذلك يوافق مصلحتنا ... ان المتطرفين يبذلون كل ما في وسعهم لاثارة الفرات الاوسط ...» (٤٩)

حادثة مشيرة :

عندما قدم الوزراء استقالتهم في ١٤ آب اعتبر الوطنيون ذلك نصرا لهم وأخذوا يجاهرون أمام الناس بأن وزارة وطنية سوف تخلف الوزارة النقيية قريبا برئاسة محمد الصدر وان جعفر أبو التمن وحسني الباججي ومولود مخلص سيدخلون فيها . وفي ١٩ آب نشرت جريدة «المفيد» بيانا من محمد الصدر يحث الناس فيه على الثابرة في المطالبة بالاستقلال التام ورفض الانتداب بكل الوسائل المشروعة .

وفي ٢٠ آب عقد الحزبان المعارضان جلسة مشتركة برئاسة محمد الصدر ، وتلتها جلسة أخرى في اليوم التالي ، حيث قرر الحزبان المعارضان تدير مظاهرة عامة في يوم التتويج وتقديم عريضة الى الملك تتضمن مطالب الشعب في الاستقلال التام وتآليف وزارة وطنية من الاكفاء المخلصين .

وفي ٢٣ آب حل يوم التتويج ، فجرى الاحتفال به في مقر الملك المطل على النهر في القشلة حيث كان الملك يستقبل المهتئين فيه . وعند هذا جاءت المظاهرة التي دبرها الحزبان المعارضان ، وكانت كبيرة قدر عدد المشاركين فيها بنحو عشرة آلاف . فامتألت ساحة القشلة بهم وأخذوا يهتفون بسقوط الانتداب والاستعمار . ثم وقف مهدي البصير على الشرفة المطللة على الساحة فألقى خطبة حماسية باسم الحزب الوطني ، ثم أعقبه محمد حسن كبة بخطبة أخرى باسم حزب النهضة .

وفي الوقت الذي كان فيه البصير يلقي خطبته وصل كوكس ومعه المس بيل وأفراد حاشيته ، وحين أخذ كوكس يصعد الدرج المؤدي الى

(49) Burgoyne (op. cit.) - vol. 2, p. 289-290.

قاعة استقبال الملك هتف رجل من بين المتظاهرين اسمه حسون أبسو الجبن^(٥٠) قائلا : « تسقط بريطانيا ! يسقط الاستعمار ! » ، وقد ردد المتظاهرون هذا الهتاف ، فظهرت علامات الارتباك على وجه كوكس وحاشيته غير أنهم استمروا في صعودهم الدرج ، ثم أدوا مراسيم التهنئة كما ينبغي وعادوا من حيث أتوا .

اعتبر كوكس هذه الحادثة اهانة شديدة موجهة اليه والى دولته ، وظن انها لم تكن قد جرت مصادفة بل كانت مدبرة من قبل أمناء الملك وخاصة رئيسهم فهمي المدرس . ويقول كوكس في تقريره الذي أرسله الى لندن عن الحادثة : أن أمناء الملك تعمدوا تعيين موعد لزعماء المعارضة لكي يحضروا لتهنئة الملك قبيل حضوري ، وكذلك تعمدوا اطالة بقاءهم هناك ، فلما وصلت أخذ مهدي البصير الذي كان من مهيجي ثورة العشرين يلقي خطبة نارية في اهانة الانكليز ، وهو قد فعل ذلك بتوجيه أو باذن من فهمي المدرس^(٥١) .

ومن الجدير بالذكر ان أمين الريحاني روى الحادثة بشكل آخر ، فهو يقول في ذلك مانعه : « جاء صباح اليوم الثالث والعشرين من شهر آب وقد الحزين المذكورين ومعهم جمهور من الانصار احتشدوا في فناء القصر ، فطلب الزعماء من الملك أن يأمر بمن يمثل جلالته لسماع الخطب هناك . فأمر جلالته رئيس الامناء لينوب عنه . فخطب في الجمع خطيب الحزب الوطني ، الشاعر الضرير الشيخ مهدي البصير ، فهيج في رئيس الامناء الشجون فاتصب خطيبا . وحق له الكلام إذ كان الملك أنابه عنه ،

(٥٠) كان هذا الرجل بقالا له دكان في سوق السراي واشتهر بحماسة في المظاهرات ، قيل انه كان يلبس في بعض الاحيان كفنا على متوا ما يفعل أهل التطبير في المواكب الحسينية للتدليل على أنه فدائي في سبيل الوطن .

(51) Elie Kedourie (Chatham House Version) - London 1970 - p. 243.

وحق له أيضا ان يبرهن على حماسة - وقيل حماقة - فيه أنسته انه موظف فى البلاط ، وأن المندوب السامى لبريطانيا العظمى قادم فى تلك الساعة لينهى جلالة الملك بعيد الجلوس ، وان عليه واجب الاستقبال والترحيب . وقد اتفق انه بينما كان حضرة الاستاذ رئيس الامناء يخطب ضد الانتداب أقبل المندوب السامى السر برسي كوكس ورجال الوكالة البريطانية لاداء التبريك فاستقبلهم الجمع صارخا : ليسقط الانتداب ! ليسقط الانكليز ! « (٥٢) »

الواقع ان رواية الريحاني هذه لم تؤيدها الوثائق البريطانية والعراقية، وقد كذبها مهدي البصير نفسه (٥٣) . ومهما كان الحال فقد أرسل سكرتير المندوب السامى فى صباح اليوم التالى رسالة الى الملك شديدة هذا نصها :

سعادة رئيس الديوان الملكى المحترم

نرجو أن تخبروا جلالة الملك بان فخامة المعتمد يحتج بعنف ضد ما لقيه من المعاملة ، فى وقت كان فخامته يمثل حكومة ملك بريطانيا العظمى ، مارا بباب غرفة الاستقبال لىؤدي مراسيم التبريك ، وان فخامته أخبر لندن بهذه الحادثة ويطلب أن يعتذر اليه وان يعزل فهمي أفندي المدرس اذا كان هو المسؤول رسميا ، ويطلب فخامته بيانا عن الاجراءات التى ينوى جلالة الملك اتخاذها ضد الخطيين اللذين حقرا مقام الملك بالقائهما خطبا مهيجة .

٢٤ أوكست سنة ١٩٢٢ م التوقيع : جانين بيرسي (٥٤)

(٥٢) أمين الريحاني (ملوك العرب) - ج ٢ ص ٢٩٧ - ٢٩٨ .

(٥٣) خيرى العمري (فهمي المدرس) - فى مجلة «الاقلام» - فى عددها الصادر فى كانون الاول ١٩٦٤ - ص ٧٩ .

(٥٤) عبدالرزاق الحسنى (المصدر السابق) - ج ١ ص ٩٥ .

وعندما وصلت هذه الرسالة الى الملك أمر حالا بعزل فهمي المدرس من منصبه ، كما أمر سكرتيره رستم حيدر بكتابة جواب الى المندوب السامي يبدي فيه أسفه العظيم على ما حدث ويتمهد بأنه سيعمل اللازم حسب رغبات المندوب السامي ، ويرجو أن لايبقى أي أثر للحدث في ذاكرته .

تشير بعض القرائن الى ان فهمي المدرس كان منذ بداية تعيينه فسى البلاط يمس سرا في تأييد المعارضة ، وقد أحس الانكليز بذلك ، ولذا رأينا كوكس ينتهز فرصة المظاهرة وما جرى فيها لكي يتخلص منه .

وكان فهمي المدرس يعتقد من جانبه أن رستم حيدر يخفي وراء هذه المناورة ، وظل هذا الشعور يسيطر عليه فترة من الزمن (٥٥) .

مقابلة عجيبة :

في صباح ٢٤ آب - أي في اليوم التالي ليوم التتويج - شعر الملك بألم شديد في بطنه . فاستدعي بعض الاطباء لفحصه كان من بينهم أمين معلوف وسندرسن وصائب شوكت ، فاختلفوا في تشخيص مرضه . يقول سندرسن في مذكراته : انه شخص المرض بالتهاب الزائدة الدودية بينما شخصه أمين معلوف بأنه مرض بسيط سيخف بعد قليل (٥٦) . وقد حدثني صائب شوكت قائلاً بأنه هو الذي شخص المرض بالتهاب الزائدة بينما شخصه سندرسن بأنه ملاريا .

وبعد اجراء التحليلات المخبرية تحقق تشخيص المرض بأنه التهاب الزائدة ، وتقرر اجراء عملية جراحية للملك في قصره في الساعة النامنة من صباح اليوم التالي على ان يقوم بها كبير الجراحين في المستشفى، الملكسي الدكتور ابراهيم . وحين علم كوكس بقرار اجراء العملية للملك طلب من

(٥٥) خيري العمري (المصدر السابق) - ص ٧٩ .

(56) Sinderson (Ten Thousand and one Nights) - London 1973 - p

سندرسن قائلاً : « يجب ان ارى الملك قبل العملية ، أرجوك أن تخبره انى سأكون في القصر فى الساعة السابعة والنصف » .

وفي الصباح الباكر من اليوم التالي حضر الى القصر ابراهيم ومعه جراح آخر أصغر منه اسمه وودمان لكي يعاونه على اجراء العملية . وقد عُهد الى سندرسن بمهمة التخدير . ثم جاء حنا خياط مدير الصحة العام ليشهد العملية مثلاً عن الحكومة العراقية ، كما جاء عدد من الاطباء العراقيين ليشهدوا العملية . ويقول سندرسن : ان ستة من عييد الملك المسلحين كانوا واقفين في الشرفة المطلة على النهر . ثم يعلق على ذلك قائلاً : لو حدث للملك شئ لكانت فرصتنا في النجاة بعيدة جداً (٥٧) .

وفي الساعة السابعة والنصف وصل كوكس ومعه كورنواليس ، ودخل على الملك فخرج الاطباء البريطانيون الثلاثة من الغرفة ووقفوا فى الشرفة ينتظرون . وهنا يواجهنا سؤال مهم : ماذا كان قصد كوكس من مقابله للملك في تلك الساعة الحرجة ، وماذا جرى فيها ؟

لدينا روايتان حول تلك المقابلة ، احدهما رواها أمين الريحاني نقلاً عن الملك نفسه ، والاخرى رواها المؤرخ البريطاني غريفرز نقلاً عن كورنواليس . وفيما يلي ننقل كلتا الروايتين لكي يتمكن القارئ من المقارنة بينهما :

يقول الريحاني : « في صباح اليوم التالي لعيد الجلوس ، عندما كان الملك فيصل محاطاً بالاطباء والمرضات ، وقد أعدوا المباحض والادوات للجراحة ، وصل المندوب السامى السرى كوكس ، فسلم وأخرج من جيبه أمراً قدمه للملك ليوقعه ، وهو أمر بأعتقال سبعة من الزعماء الوطنيين ونفيهم من العراق ، قرأه الملك مكموداً وهز برأسه . فأنصح السرى كوكس عما يبرر العمل ، فما أجاب الملك بكلمة . ولكن احد اطباء الانكليز تقدم

(57) Ibid, p. 68.

وخطابه قائلاً : « ليس هذا الوقت ، يا حصرة المندوب لمثل هذه المسائل » .
 فقال السر برسي : « المسألة ضرورية لحفظ الامن . ان البلاد في خطر » .
 فقال الطبيب : « أجلها الى أن تم الجراحة ، وهى ألزم لحياة جلالة الملك ،
 فيجب أن نباشرها حالا » . فقال الملك والامر بيده يخاطب السر برسي :
 « بعد دقائق قليلة اكون بين ايدي هؤلاء الاطباء ، وقد لا اعود من غيوبتي
 الى الحياة . فهل تطلب مني ، يا سربرسي ، ان يكون هذا الامر آخر
 أعمالي في الدنيا ؟ هل تنتظر مني أن أنفي هؤلاء الناس ، أهل البلاد ، من
 بلادهم قبل موتى ؟ لا والله . انه غير ممكن ، غير ممكن » . قال هذا ودفع
 الامر الى المندوب السامى ، فوضعه في جيبه ، وخرج من القاعة دون ان
 يفوه بكلمة واحدة ، (٥٨) .

أما رواية غريفر فهذا نصها : « في ٢٥ آب كان فيصل طريح الفراش
 لاصابته بالتهاب الزائدة الدودية الحاد . فقرر أطباؤه اجراء عملية له في
 اليوم نفسه . وقبل اجراء العملية بقليل زاره كوكس مع كورنواليس
 بعد استئذان اطبائه . وشرحا له ان الموقف دقيق ، وانهم وصلوا الى مفترق
 الطريق معه . وحضه كوكس ان يترك المتطرفين ويلتزم جانب البريطانيين ،
 والا فعليه أن يواجه العواقب من تحالفه مع الاقلية الهدامة التى تسمى وراء
 مصالحها . وضنط كوكس على فيصل لكي يأمر بإلقاء القبض على سبعة
 من قادة المهيجين . فرض فيصل ... وقال انه واثق بان هذا الاجراء سوف
 يؤدي الى قيام ثورة عامة وانه ليس فى مقدوره أن يموت مع وجود هذه
 المسؤولية في ضميره . وقد استمر الملك وكوكس يتجادلان فى الموضوع
 الى أن جاء الجراح وأصر على نقل الملك الى منصة الجراحة . ولقد كان
 ذلك منظرا متأزما مع وجود حشد من المييد والخدم خارج القاعة وهم
 مسلحون متربون ووجود ستة اطباء عراقيين داخل القاعة وهم يراقبون

مبضع الجراحة لثلا يساء استعماله • وظل الملك متمسكا بموقفه الى آخر
نفس ضد الامر الذي كان يعده مأساة ، (٥٩) •

قد يلاحظ القارئ ان هناك تشابها بين هاتين الروايتين ، ومن الممكن
ان نستنتج في ضوء هاتين الروايتين ان كوكس اراد انتهاز وقت العملية
لكي يحصل من الملك على الموافقة على ضرب زعماء المعارضة والقضاء على
حركتهم ، غير ان الملك فوت عليه تلك الفرصة •

ومما يلفت النظر ان كوكس لم يتطرق في تقاريره الرسمية الى ذكر
ما فعله مع فيصل ، وكذلك لم تتطرق المس بيل اليه في رسائلها ، وكأنهما
أدركا ما في ذلك الفعل من وضاعة فكتما ذكره • ويعلق الريحاني على
ذلك قائلاً ان كوكس عمل بالكلمة العربية المعروفة وهي « ان الكريم من
ستر اهاتته » ، ولهذا فانه لم يذكر تلك الحادثة في تقاريره (٦٠) •

وعلى أي حال فإن ابراهام أسرع الى اجراء العملية حال خروج
كوكس من الغرفة ، وقام بها بما عرف عنه من دقة وبراعة • ويقول غريغز:
ان حالة الزائدة كانت في وقت اجراء العملية على حافة الخطر إذ كانت
اذ ذاك مثقوبة وكان أي تأخير في اجراء العملية ربما يؤدي الى الوفاة (٦١) •

ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد ان الناس كانوا في تلك الآونة
جاهلين بما يجري ، وقد انتشرت الاشاعات المختلفة بينهم حول مرض الملك ،
فمنهم من قال ان الملك ليس مريضا ولكن الانكليز قد اضطروه الى التظاهر
بالمرض ، وقال آخرون ان الاطباء اوصوا باجراء العملية بأيـساز من
الانكليز (٦٢) • وكتب محمد الخالصي يقول عن الملك : « انه تمارض ولزم
فراشه وأظهر انه على شرف الموت ، وكنت أحس من وراء ذلك الشر

(59) Graves (op. cit.) - p. 817.

(٦٠) امين الريحاني (المصدر السابق) - ص ١١٨ •
(61) Graves (op. cit.) - p. 817.

(٦٢) عبدالرزاق الحسيني (المصدر السابق) - ج ١ ص ٩٦ •

وَأَعْتَقَدُ أَنَّ فِصْلَ مَرِيضِ الدِّينِ وَالْوَجْدَانِ وَالْحَمِيَّةِ لَمَرِيضِ
الْبَدَنِ ... ، (٦٣) .

ضَرْبُ الْمَعَارِضَةِ :

حِينَ وَجَدَ كُوكَسُ أَنَّ الْمَلِكَ لَا يُوَافِقُهُ عَلَى ضَرْبِ الْمَعَارِضَةِ قَرَّرَ أَنْ
يَأْخُذَ عَلَى عَاتِقِهِ مَسْئُولِيَّةَ ذَلِكَ . وَفِي ٢٦ آبَ نَشَرَ كُوكَسُ بَيَانًا طَوِيلًا
مُوجَّهًا إِلَى « عُمُومِ أَهَالِي الْعِرَاقِ » مَلَأَهُ بِالْتِهِيدِ وَالْوَعِيدِ ، وَأَعْقَبَ ذَلِكَ
إِغْلَاقَ الْحَزْبَيْنِ الْمَعَارِضِيْنَ وَتَعْطِيلَ جَرِيدَتِي « الْمَفِيدِ » وَ « الرَّافِدَانِ » . وَلَمَّا
ذَهَبَ جَعْفَرُ أَبِي التَّمَنِ وَحَمْدِي الْبَاجِجِي إِلَى دَائِرَةِ التَّحْقِيقَاتِ الْجَنَائِيسَةِ
لِلإِخْتِجَاجِ عَلَى هَذِهِ الْأَعْمَالِ التَّعْسِيفِيَّةِ كَانَتِ الشَّرْطَةُ فِي انْتِظَارِهَا وَأَلْقَتِ
الْقَبْضَ عَلَيْهِمَا حَالًا . وَكَذَلِكَ أَلْقَتِ الْقَبْضَ عَلَى مَهْدِيِّ الْبَصِيرِ وَأَمْسَيْنِ
الْجَرَجَفِجِيِّ وَعَبْدِ الرَّسُولِ كَبَّةَ وَسَامَى خُونْدَه . وَأَبْعَدُوا جَمِيعًا إِلَى جَزِيرَةِ
هَنْجَامَ . ثُمَّ أَبْعَدَ مِنْ بَعْدِهِمْ حَبِيبَ الْخِيزَرَانِ . وَلَمْ يَفْلِتْ مِنَ الْإِعْتِقَالِ مِنْ
رِجَالِ الْمَعَارِضَةِ سِوَى ثَلَاثَةٍ هُمْ : أَحْمَدُ الشَّيْخِ دَاوُدَ وَعَبْدُ الْغُفُورِ الْبَدْرِي
وَإِبْرَاهِيمَ حَلَمِي الْعَمَرِ ، فَقَدْ اخْتَفَى الْأَوَّلُ وَالثَّانِي مِنْهُمْ فَلَمْ تَنْلُهَا يَسْدُ
الشَّرْطَةُ ، أَمَّا الثَّلَاثُ فَقَدْ هَرَبَ إِلَى إِيْرَانِ .

وَأُصْدِرَ كُوكَسُ أَمْرَهُ بِعِزْلِ مُتَصَرِّفِ الْحَلَّةِ عَلِيِّ جُودَتِ الْإِيْيُوبِيِّ ،
وَعِزْلِ الْقَائِمِ قَامِيْنَ مِنْ أَعْوَانِهِ كَخَيْرِي الْهِنْدَاوِي وَشَاكِرِ الْمَلَا حَمَادِي ، كَمَا
أُرْسِلَ الطَّائِرَاتُ لِقَصْفِ بَعْضِ الْعَشَائِرِ كَعَشِيرَةِ آلِ فُتْلَةٍ فِي الْمَهْنَاوِيَّةِ ، وَعَشِيرَةِ
الْأَقْرَعِ فِي عَفْكَ ، وَعَشِيرَةِ خَفَاجَةِ فِي الشُّطْرَةِ ، وَعَشِيرَةِ الْعَمَزَةِ فِي
الْمَنْصُورِيَّةِ (٦٤) .

وَفِي ٢٨ آبَ أُرْسِلَ كُوكَسُ رِجَالًا هِنْدِيًّا مِنْ مَوْظِفِيهِ اسْمُهُ مُحَمَّدُ
حُسَيْنُ خَانَ الْكَابُولِيِّ إِلَى الشَّيْخِ مَهْدِيِّ الْخَالِصِيِّ وَالسَّيِّدِ حَسَنِ الصَّدْرِ

(٦٣) نَقْلًا عَنْ كِتَابِ مَخْطُوطِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ الْخَالِصِيِّ عُنْوَانُهُ «بَطْلُ الْإِسْلَامِ» .
(٦٤) عَبْدُ الرَّزَّاقِ الْحُسَيْنِيُّ (الْمَصْدَرُ السَّابِقُ) - ج ١ ص ٩٦ - ٩٩ .

في الكاظمية ينذرهما بوجوب سفر ولديهما الشيخ محمد والسيد محمد الى خارج العراق في خلال ٢٤ ساعة ، واذا لم يفعلا ذلك فسيضطر المتدوب السامي الى اتخاذ اجراءات ضدهما لاتناسب مع احترام رجال الدين • فاضطر الرجلان الى الاستجابة لهذا الانذار • وقد غادر المحمدان - الخالصي والصدر - بغداد في اليوم التالي متوجهين الى ايران • وخرج الكثير من أهالي الكاظمية وبغداد لتوديعهما في محطة القطار •

وصفت المس بيل في احدى رسائلها ما قام به كوكس من ضرب المعارضة بأنه عمل جريء وانه أنقذ الموقف ، ثم قالت : ان المتطرفين قد انهارت حركتهم ، أما المعتدلون فقد رفعوا رؤوسهم عاليا ، وأخذ حزب السيد محمود الكيلاني يتضخم بشكل ملحوظ ، وهذا معناه أن مرض الملك كان مصادفة حسنة جاءت في أوانها • وتشير المس بيل بعد هذا الى ان ناجي السويدي جاء اليها وقد أعد خطة ممتازة لجمع التواقيع في أنحاء البلاد من أجل توثيق العلاقات البريطانية العراقية ... (٦٥) •

موقف ياسين الهاشمي :

في الوقت الذي كان فيه الملك لايزال طريح الفراش عقب العملية الجراحية التي اجريت له ذهب ياسين الهاشمي الى المس بيل في دائرتها ليتحدث اليها حول الوضع العام ، وأخذ الهاشمي يذم الملك على سلوكه المتقلب ويضع اللوم على الانكليز لانهم لم يستطيعوا السيطرة عليه •

كتبت المس بيل في رسالة لها مؤرخة في ٣١ آب حول زيارة الهاشمي لها فقالت : أنه أبدى قلقه حول مصير البلاد ، فهو قد قرأ صيغة المعاهدة وكان رأييه ان العراق لا يستطيع ان يتوقع شروطا اكثر تسامحا منها ، وتساءل الهاشمي : لماذا لم يقبلها الملك ؟ ثم قال يخاطب المس بيل : « انه ذنبكم ، لماذا لم تسيطروا عليه ، ولماذا سمحتم له بان يكون تحت تأثير أناس

يريدون أن يسيروا بنا وبه نحو الخراب ، • فأخذت المس بيل تشرح للهاشمي كيف أنها هي وكورنواليس وكلايتون كانوا يملقون الملك في محاولة لاقناعه بلا جدوى • ثم تساءلت المس بيل : كيف يمكن العمل مع الملك حين يكون في القضايا الحيوية متفقا مع كوكس وكورنواليس ولكنه سرعان ما يغير رأيه حال خروج ذينك الرجلين من عنده ؟ فأجابها الهاشمي : « نعم أنا أعرف ، يأتي اليه احد الناس ، رجل من السوق ، وبكلمة واحدة يجعله يغير مقصده » • ثم قال الهاشمي : « انه الملك ، ولكن البلاد تأتي قبله ، • وتأخذ المس بيل بالثناء على ياسين الهاشمي وعلى قوة شخصيته وذكائه ، إذ تقول مانصه :

« اني اعتقد ان ياسين هو رجل القدر • فهو يملك من الذكاء والنشاط اكثر من اى عربي آخر اعرفه - ربما ليس أقوى خلقا من علي السليمان ولكنه أوسع منه معرفة بالامور • ان الملك يعرف قوته ، ويخشأها ، ولكنه لغروره الكبير يحسب ان في مقدوره ان يخضع ياسين ويستعمله • واني اعتقد ان ياسين سوف ينال الصخطوة لدى الملك عن طريق التظاهر بالرضوخ له ولكنه عندما يتمكن من الموقف بصورة مؤكدة سوف يمسك الملك من رقبته ويجبره على اتخاذ السياسة التي يريد لها وعند هذا سيتلوى الملك كما تتلوى الحية ، وسوف يتقرر مصير العراق على هذا الاساس ، حيث يعيد التاريخ نفسه في العراق ، فيصبح ياسين الحاكم الفعلي ويكون الملك مجرد رئيس رمزي • ويؤسفني اني مضطرة الى الاعتقاد بأن هذا هو المصير الذي يليق بالملك ، فهو مغرور وضعيف وجبان ، ولن تنضج مثله الرائعة أبدا ، (٦٦) .

يدو من هذا القول ان المس بيل اكتشفت في ياسين الهاشمي الرجل الذي كان الانكليز يبحثون عنه والذي يستطيع ان يقف في وجه فيصل

ويجبره على الرضوخ للسياسة التي يريدونها في العراق • فلانكليز كانوا في تلك الايام قد نفذ صبرهم من فيصل ، وكأنهم أصبحوا فيه بين خيارين : أما أن يعزلوه ، أو يشلوه بوضع رجل قوي أمامه يتحدها ويتغلب عليه • ولعلمهم وجدوا في الخيار الثاني ما يريحهم دون ان يثير عليهم ضجة ، وها هو ياسين الهاشمي . قد جاء اليهم مستعدا للقيام بالدور المطلوب منه •

ومن غرائب الصدف انه لم تمض سوى ايام قليلة على زيارة الهاشمي للمس بيل حتى وصلت الى يدها رسالة كان الهاشمي قد ارسلها اثناء وجوده في الناصرية الى صديق له ببغداد يشتم الانكليز فيها ويصفهم بـ «الجائرين» ويدعو من الله التوفيق لطردهم من البلاد • وقد سلم الصديق هذه الرسالة الى مدير الامن العام ، وسلمها هذا الى المس بيل • وعند هذا شعرت المس بيل ان اكتشافها لم يكن صائبا وان الهاشمي ليس بالرجل الذي يمكن الوثوق به .. (٦٧) •

الملك يغير موقفه :

في ١٠ ايلول ١٩٢٢ ، على أثر شفاء الملك من مرضه جاء اليه كوكس يهنئه بالشفاء وأخذ يتحدث اليه بصراحة قائلا له ان الحكومة البريطانية سوف لا تحمل بعد الآن اتصاله بأية حركة وطنية ولا تتساهل في أي تأخير قد يحدث في شأن تصديق المعاهدة ، وكذلك طلب منه أن يكون ملكا دستوريا - أي من طراز ملك بريطانيا - فيكف عن التدخل غير الضروري في شؤون الادارة والموظفين • وقيل ان كوكس خثر الملك بين أمرين : أما ان يعتذر عما فعل سابقا او يستقيل ، وقد فضل الملك الاعتذار (٦٨) • وقيل ايضا ان الملك اعتذر عن افعاله السابقة بأنه انما قام بها لعدم وجود الدستور ولأن الوزارة كانت غير متجانسة ، وانه حالما يحصل على الدستور

(67) Ibid, vol. 2, p. 298.

(68) Gassan Attiyyah (IRAQ) - Beirut 1978 - p. 378.

والمعاهدة سوف يقوم بتنفيذ ما يطلب منه بطيبة خاطر (٦٩) .

وقدم كوكس الى الملك مسودة كتاب يصادق فيه على الاجراءات القمعية التي قام بها كوكس اثناء مرضه ويشكره عليها ، وقد فعل الملك ما أراد كوكس وهذا هو نص الكتاب :

عزيزى السر برسي

الآن وقد تم شفائي بحمد الله تعالى ، وسمح لي اطبائي ان استأنف أشتالي في الدولة ، أرى من واجبي قبل ان أتولى هذه التبعة أن اقدم الى فخامتكم تشكراتي القلبية ، وان أعبّر لكم عن إعجابي الشديد للسياسة الحازمة والتدابير الضرورية التي اتخذها فخامتكم ، بصفتكم ممثلا لحكومة صاحب الجلالة ، لصيانة المصالح العامة والمحافظة على النظام والامن ، اثناء مرضي المفاجيء الذى صدف وقوعه بفترة في المدة التي تنقضي عادة بين استقالة الوزارة وتأليف وزارة غيرها . وختاماً أكرر تشكراتي الخالصة لفخامتكم على مساعدتكم الثمينة .

بغداد ١١ ايلول ١٩٢٢ م صديقكم المخلص : فيصل (٧٠)

اصبحت العلاقة بين الملك وكوكس بعد هذا ودية كما يقول غريفيز (٧١) . ولما حان وقت النظر فى أمر تشكيل وزارة جديدة كان رأي كوكس أن يعيد النقيب تشكيلها للمرة الثالثة وان يكون اكثر أعضائها من الذين كانوا فى الوزارة النقيية السابقة . فوافق الملك على جميع ماطلبه كوكس منه .

وفي ٣٠ ايلول تم تشكيل الوزارة الجديدة برئاسة النقيب ، وكان

(٦٩) فيليب آيرلاند (المصدر السابق) - ص ٢٨٣ .

(٧٠) عبدالرزاق الحسني (المصدر السابق) - ج ١ ص ٩٧ .

(71) Graves (op. cit.) - p. 828.

فيها عبدالمحسن السعدون وزيرا للداخلية ، وساسون حسيقل وزيرا للمالية ، وتوفيق الخالدي وزيرا للمدلية ، وجعفر العسكري وزيرا للدفاع ، وصبيح نشأت وزيرا للمواصلات والاشغال ، ومحمد علي فاضل وزيرا للاوقاف . وفي ١٧ تشرين الاول صدرت الارادة الملكية بتعيين عبدالمحسن شلاش النجفي وزيرا للمعارف ، غير انه اعتذر عن قبول الوزارة بكثرة أشغاله التجارية . ولهذا بقيت وزارة المعارف شاغرة (٧٢) .

وفي ١٣ تشرين الاول نشرت المعاهدة في بغداد وهي مذيلة بتوقيع الملك . وقد أذاع الملك بلاغا للشعب مدح فيه المعاهدة حيث وصفها بأنها بنيت على اسس المصالح المتبادلة بين العراق وبريطانيا العظمى ، وان الشعب سيقدر أهميتها بلا شك وسيزداد تمسكا بصداقة حليقتنا الكبرى على اعتبار ان صداقتها ضرورية لصيانة استقلال هذه المملكة وتأمين تقدمها الاقتصادي والعمراني (٧٣) .

يروى أمين الريحاني عن تلك الايام العصيبة التي مرت بالملك ويذكر ان الملك حدثه عنها حيث قال : ان الناس كانوا قبل مرضه يأتون اليه متحمسين ويقولون له : « ارفع العلم ، ونحن رجالك ، نفديك بأرواحنا » . وذكر فيصل على سبيل المثال واحدا من هؤلاء الفدائيين وكان من كبار زعماء المعارضة وأشدّهم تحمسا ، غير أنه اختفى قبل أن ينفذ كوكس أمره بنفي الزعماء ، ثم عاد بعدئذ ليهنئ الملك بشفاؤه ، فسأله الملك : « وماذا فعلتم بالانكليز ؟ هل عدلتم عن اخراجهم من البلاد ؟ » فأجاب الرجل فورا من غير ارتباك : « قالوا لنا انكم اتمم اخرجتم من البلاد ، فسكتنا » (٧٤) .

لعل من المناسب ان نذكر محاورة طريفة جرت بين الملك والمس

(٧٢) عبدالرزاق الحسيني (المصدر السابق) - ج ١ ص ١٠١ .

(٧٣) جريدة «العراق» - في عددها الصادر في ١٤ تشرين الاول ١٩٢٢ .

(٧٤) أمين الريحاني (المصدر السابق) - ص ١٢٢ - ١٢٣ .

بيل حول ياسين الهاشمي في تلك الايام • فقد كان الهاشمي مرشحا لوزارة الداخلية في الوزارة الجديدة ، وكان الملك راغبا في ذلك غير ان المس بيل لم توافق عليه • وقد ذهبت المس بيل الى الملك لاقناعه بعدم لياقة الهاشمي للوزارة ، فعرضت عليه الرسالة التي شتم الهاشمي بها الانكليز ، ثم قالت للملك مانصه : • نحن لانبالي اذا قال لنا أحد : اتم جائرون وأوغاد • وربما أجنبناه : والله ! الله اعلم • ولكنه حين يقول كما فعل الهاشمي : اتم الوسيلة الوحيدة لانقاذ بلادتي ، ثم يكتب في الوقت نفسه يصفنا بالجور ويدعو من الله التوفيق لطردنا من البلاد ، فهذا أمر لايمكن غفرانه • • وقد حاول الملك تبرير سلوك الهاشمي فقال للمس بيل : ان ما فعله الهاشمي أمر اعتيادي في الحياة الشرقية ، فالاستبعاد الذي عاناه الشعب على مدى ستة قرون جعل الفرد مضطرا ان يناقش ويلعب على الجبلين لكي يحمي نفسه عن طريق المكر • حتى أنا أفعل ذلك • فنحن لم نتعود على حياة الحرية لكي نكون في سلوكنا احرارا ، ومن يريد أن يسوس الشرقيين يجب ان ينظر بمنظارهم • وتقول المس بيل انها اقنعت بصحة ما قال الملك في الدفاع عن الهاشمي غير أنها ظلت مصرة على عدم اسناد أية وزارة الى الهاشمي في الوقت الحاضر • وكان رأيها ان من الجائز له ان يكون وزيرا فيما بعد ، وهي تظن انه في النهاية سوف يصل الى القمة (٧٥) •

يخيل لي ان الملك في دفاعه عن سلوك الهاشمي انما كان يدافع عن سلوكه هو • والظاهر ان المس بيل أدركت ذلك ، ولهذا قالت بان الهاشمي سوف يصل في النهاية الى القمة ، وكأنها أرادت ان تقول للملك انه سيصل الى القمة كما وصلت انت اليها •

الفصل الخامس

نفي الشيخ مهدي الخالسي

في ٢٠ تشرين الاول ١٩٢٢ أصدر عبدالمحسن السعدون بصفته وزير الداخلية أوامره الى المتصرفين بالشروع باجراء الانتخابات للمجلس التأسيسي . وفي ٢٤ منه أعلن السعدون بلاغاً عاماً ورد في ختامه ما نصه :
« وهنا اكرر القول وألتمس من أفراد شعبنا النجيب أن لا يحفلوا بالتمويهات والأباطيل ، التي ربما يتجاسر عليها بعض من لا تهمهم مصلحة الشعب الحقيقية ، ويوحدوا آراءهم ، ويضعوا ثقتهم بمن يتوقعون منه السعي لتحقيق رغباتهم ... أن القول الفصل هو للمجلس التأسيسي الذي يباشر الآن بانتخابه ، وفق الله الجميع لما فيه خير البلاد . » (١)

المعارضة الجديدة :

كان الانكليز والملك يظنون ان المعارضة قد انتهى أمرها وان الانتخابات ستجري حسب الخطة المرسومة . ثم تبين لهم في خلال أيام معدودة ان ظنهم هذا كان خاطئاً . فلقد انبثت المعارضة من جديد وبزخم شديد ، وكانت في هذه المرة بزعامة المجتهدين في الكاظمية والنجف وفي مقدمتهم الشيخ مهدي الخالسي .

ظهرت أولى بوادر المعارضة بشكل استفتاء موجه الى المجتهدين في ١٥ ربيع الاول ١٣٤١ هـ ، وهو يوافق ٥ تشرين الثاني ١٩٢٢ ، وهذا نصه :

« حضرات علمائنا الأعلام وحجج الاسلام متنا الله تعالى بظلمهم مدى الأيام ، بلغنا أنكم بمقتضى وظيفتكم الدينية ورئاستكم الروحانية حرثتم على

(١) عبدالرزاق الحسيني (تاريخ الوزارات العراقية) - صيدا ١٩٦٥ -

كافة الامة العراقية المداخلة في هذا الانتخاب وحرمتهم المساعدة فيه بكل وجه وجعلتم المساعدة فيه محادة لله ولرسوله فسترحم أن تبنوا صحة ذلك حتى نمثل أوامركم التي أمر الله تعالى بامثالها أدام الله ظلكم » .

وقد ذيل هذا الاستفتاء بأجوبة المجتهدين الثلاثة الكبار وهي كما يلي:

« بسم الله الرحمن الرحيم - نعم قد صدر منا تحريم الانتخاب في الوقت الحاضر لما هو غير خفي على كل باد وحاضر فمن دخل فيه أو ساعد عليه فهو كمن حارب الله ورسوله وأوليائه صلوات الله عليهم أجمعين - الأحقر أبو الحسن الموسوي الاصفهاني »

« بسم الله الرحمن الرحيم - نعم حكمنا بحرمة الانتخاب وحرمة الدخول فيه على كافة الامة العراقية وان من دخل في هذا الأمر أو ساعد عليه أدنى مساعدة فقد حاد الله ورسوله والأئمة الطاهرين صلوات الله عليهم أجمعين أعاذ الله الجميع عن ذلك - الأحقر محمد حسين الفروي النابيني » .

« بسم الله الرحمن الرحيم - نعم قد صدر منا الحكم بتحريم الانتخاب على كافة الامة العراقية فمن دخل أو تداخل أو ساعد فيه فقد حاد الله ورسوله وقد قال عز من قائل في كتابه المجيد ألم يعلموا انه من يحاد الله ورسوله فان له نار جهنم خالداً فيها ذلك الخزي العظيم أعاذ الله الجميع من ذلك - الراجي محمد مهدي الكاظمي الخراساني الخالصي عفى عنه » (٢) .

ولم يقف الأمر عند هذا الأمر بل صارت الفتاوى يتوالى صدورها حيناً بعد حين ، وكانت هناك عصبة من الشباب المتحمس كرسوا جهودهم على متابعة ذلك ، فكانوا يكتبون صيغة الاستفتاء ويقدمونها الى المجتهدين ليحصلوا منهم على الفتاوى المطلوبة . يقول محمد مهدي كبة في مذكراته :

(٢) من وثائق البلاط الملكي - رقم الاضبارة ٣ ، رقم الوثيقة ٧٠ .

« كنت وجماعة من شباب الكاظمية ، ومن طلاب مدرسة الخالصي ، دائبين على العمل في كتابة صيغ الاستفتاءات ومواجهة علماء الدين واستصدار الفتاوى منهم ، وانتداب بعض الشبان لكتابتها على الاوراق والكاربون وتوزيعها بين الناس ، وارسالها الى بغداد وغيرها من أنحاء البلاد ، » (٣) .

وصار المجتهدون من جانبهم يشتدون في تحريمهم للانتخاب . فالسيد أبو الحسن الاصفهانى مثلاً قال في فتوى صدرت له مؤخراً ما نصه : « الى اخواننا المسلمين ان هذا الانتخاب يبيت الامة الاسلامية فمن انتخب بعدما علم بحرمة الانتخاب حرمت عليه زوجته وزيارته ولا يجوز رد السلام عليه ولا يدخل حمام المسلمين . هذا ما أدى اليه رأينا والله العالم بالصواب » . وأصدر الشيخ مهدي الخالصي فتوى فيها اشارة واضحة الى ما فعله كوكس من نفي وتشريد وقصف بالطائرات ، والى تأييد حزب النقيب له ، وهذا نصها :

« لما كانت الانتخابات مبنية على أساس مخالف لرغائب الامة العراقية بواسطة السلطة العسكرية والحزب الحر المعتدل الذي أسس بالقهر والقوة وسد الاحزاب الموافقة لرغائب الامة وتسويق أهلها وتشيتت جمعها واضابة المتخلف عن حزب الحر بالطائرات حتى قتل بقنابلها الاطفال والعجزة والابرياء والنساء وغير ذلك مما لو مات المسلم دونه أسفاً لما كان عندي ملوماً بل كان به جديراً . ان المداخلة بالانتخابات وكل ما يبتي على هذا الاساس المضر بمستقبل العراق بل بجميع شؤونه محرمة شرعاً باجماع المسلمين ونحكم بخروجه عن ربة المسلمين . ومن الله التوفيق وهو حسبنا وهو نعم الوكيل ، » (٤) .

(٣) محمد مهدي كبه (مذكراتي في صميم الاحداث) - بيروت ١٩٦٥ - ص ٢٧ .

(٤) من وثائق البلاط الملكي - رقم التسلسل ١١٥ ، رقم الوثيقة ١ .

والملاحظ ان أكثر علماء الكاظمية ، أو كلهم تقريباً ، أيدوا الخالصي في تحريم الانتخاب . فهم قد تناسوا خلافاتهم الشخصية ومنافساتهم المحلية وصاروا جميعاً في صف واحد تجاه الحكومة . وقد وجدنا تواقيمهم على الفتاوي التي صدرت ، وهم السيد حسن الصدر والشيخ عبدالحسين آل ياسين والسيد محمد مهدي الصدر والشيخ مهدي الراياتي والشيخ مهدي جرموقه والسيد مهدي الخراساني والمرزا ابراهيم السلماسي والشيخ اسماعيل الأسدي والشيخ راضي الخالصي والشيخ محمد الاسدي والسيد أسدالله الحيدري . وهذا دليل على قوة المعارضة التي ظهرت آنذاك .

وأخذ الشيخ مهدي الخالصي يجاهر بدم الملك ، ويشجب موقفه من المعاهدة ، ويصفه ناكثاً بوعده الذي وعد به في بداية قدومه الى العراق . وذكر محمد مهدي كبة في مذكراته ان الخالصي أعلن في جمع حاشد في مدرسته قائلاً : « بايعنا فيصل ليكون ملكاً على العراق بشروط ، وقد أحل بتلك الشروط ، فلم تعد له في أعناقنا وأعناق الشعب العراقي أية يعة » . فكان لهذا التصريح من الخالصي دوي في الاوساط المختلفة ، وبلغ مسامع الملك فاستاء منه أشد الاستياء وأضر له الحقد^(٥) .

السعدون يخلف النقيب :

ضاق النقيب ذرعاً بهذه المعارضة الشديدة التي يتزعمها المجتهدون ويصولون فيها بفتاويهم . وكانت بعض منشورات المعارضة تهاجم النقيب شخصياً وتصفه بأنه مرتد عن الاسلام . ونظم الشاعر الشعبي المعروف عبود الكرخي قصيدة في ذم النقيب تداولتها الافواه ولاسيما هذين البيتين منها :

عجب ما عندك صحيح
صار لك كوكس حبيب

يانقيب ويانقيب
من عفت جذك محمد

(٥) محمد مهدي كبة (المصدر السابق) - ص ٢٦ .

ويروي أمين الريحاني انه زار النقيب في تلك الفترة فوجده غاضباً مضطرباً ، وقد قال له النقيب مانصه : « في البلاد وطنيون كثيرون ، وكلهم رجال سياسة ، ولكن ليس في رؤوسهم عيون تريهم ما هم فيه . أين هم من البلاد ، وأين البلاد منهم ؟ كانوا بالأمس تحت أقدام الترك ، واليوم يبيعون البلاد الى الترك بفلس ليستقموا ممن يظنونهم أعداءهم . نحن أخذنا الأمر على عاتقنا ، ولانسأل التوفيق من غير الله ، ولانتوكل الا عليه سبحانه وتعالى . أما اجتمعت بالوطنيين يافندي وسمعتهم يتبجحون ؟ غداً تجتمع بكبارهم في كربلا والتجف . نصف هذا الاجتهاد جهل ، ونصفه عناد . . . عند الانكليز العلم ، وعندهم المال ، وعندهم الحكمة . أما الوطنيون فلأي شيء عندهم ؟ هل هم يحبون البلاد أكثر منا وهي بلادنا قبل أن تكون بلادهم ؟ وأكثرهم لايزالون من الأجانب . . . » (٦) .

كان النقيب حريصاً على البقاء في الحكم ، وقد كتبت عنه المس ييل ذات يوم تقول : « ان هناك أمراً واحداً هو ان النقيب لن يتخلى عن رئاسة الوزارة الا اذا حمل حملاً ورجلاه الى الامام ، » (٧) . هذا ولكن الانكليز بدأوا يشعرون بأنه لم يعد يصلح لهم ، فالموقف السياسي أصبح في حاجة الى رجل قوي حازم من طراز غير طراز النقيب . ومن الممكن القول ان النقيب انما كان مناسباً لرئاسة الوزارة في بداية تشكيل الحكومة عندما كان الانكليز يريدون لها رجلاً ذا قدسية أو مهابة اجتماعية . أما الآن بعد أن أشهر المجتهدون فتاويهم الصارمة فان الموقف يحتاج الى رجل حازم وليس الى رجل ذي مهابة .

كان الملك غير مرتاح من النقيب ويريد تبديله برجل من أعوانه هو

(٦) أمين الريحاني (ملوك العرب) - بيروت ١٩٥١ - ج ٢ ص ٣٩٧ -

٣٩٨ .

(٧) Burgoyne (Gertrude Bell) - London 1961 - Vol. 2, P. 289.

جعفر العسكري ، ولكن الانكليز كانوا يعتبرون العسكري ضعيفاً غير قادر على معالجة الموقف ، وربما كانوا يعدونه آلة بيد الملك . وقد أخذ الانكليز في تلك الآونة ينظرون الى عبدالمحسن السعدون باعتباره الرجل الامثل ، وصاروا يمهّدون له الطريق لكي يخلف النقيب على رئاسة الوزارة في أقرب فرصة ممكنة .

كان الانكليز - كما رأينا سابقاً - يبحثون عن رجل قادر على الوقوف في وجه الملك وقد عثروا على هذا الرجل في شخص ياسين الهاشمي غير أنهم سرعان ما اكتشفوا خطأهم فيه . والظاهر ان الانكليز وجدوا أخيراً في السعدون الرجل المناسب الذي يبحثون عنه .

والواقع ان السعدون يختلف عن الهاشمي من حيث كونه صريحاً لا يداجي ولا يميل الى المداورة والرياء ، وقد جاءه ذلك من تراثه البدوي الذي نشأ عليه في طفولته . وكان علاوة على ذلك قوى الشخصية مهيباً ذا صلابة وثبات فاذا أبرم أمراً سار فيه قدماً لا يبالي أَرْضِي الناس عنه أم غضبوا .

ومن الجدير بالذكر ان السعدون كان معتقداً ان مفهوم الوطنية لم يتبلور بعد في العراق ، وأن اهل العراق ليسوا شعباً واحداً بل شعوباً متباينة^(٨) ، كما أن العراق محاط بالاعضاء من كل جانب كابن سمود والأتراك والایرانیين والفرنسيين ، ولهذا فان مصلحة العراق في رأي السعدون مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالتعاون مع الانكليز ، فليس من الحكمة أن يواجه العراق اولئك الاعداد بمفرده مع العلم أنه لا يملك من القوة ما يساعده على الصمود أمامهم ، فلو أن الانكليز انسحبوا من العراق لأكله أعداؤه المحيطون به خلال زمن قصير . وقد كان السعدون يبدي آراءه هذه علناً بلا مداواة بخلاف بعض الساسة الذين اعتادوا ان يملنوا أمام الناس غير

(٨) نقلاً عن كتاب مخطوط لخيري العمري .

ما يضمرونه في قلوبهم • أضف الى ذلك انه كان لا يشعر بالضعف أمام الملك وكثيراً ما كان يقف منه موقف الند للند يعارضه أو يتحداه • كتبت المس بيل في ١ تشرين الثاني ١٩٢٢ تقول : ان السعدون أحد الذين أحبهم أكثر من غيرهم فهو رجل جريء لا يخاف وليس عنده أقل ميل للتردد في أن يقف في وجه الملك حين يخالفه في الرأي ، وكثيراً ما كان يفعل ذلك (٩) .

في ٦ تشرين الثاني قدم السعدون استقالته من وزارة الداخلية وذكر في تعليل استقالته ان زملاءه الوزراء لم يوافقوه على خطته في استعمال الشدة في اجراء الانتخابات والضرب على أيدي مقاطعيها • ولم يحض على استقالته سوى عشرة أيام حتى قدم النقيب استقالة الوزارة كلها • وقد قبل الملك استقالة النقيب حالاً وبعد يومين عهد الملك الى السعدون بتشكيل وزارة جديدة •

ويعلق أمين الريحاني على استقالة النقيب حيث أشار الى ان الانكليز سكتوا عنها ولم يكثرثوا لها ، وذكر أن الناس أخذوا يتساءلون قائلين : « وأين وفاء الانكليز ؟ » وقال البغدادي بلهجة العريضة : « يسخرونه ، ويضجرونه ، ويهجرونه » (١٠) • أي ان الانكليز بعد ان استغلوا النقيب نبذوه !

الوزارة الجديدة :

تألفت الوزارة السعدونية من السعدون رئيساً ووزيراً للعدلية بالوكالة ، وناجي السويدي للداخلية ، وساسون حقيق لل مالية ، وياسين الهاشمي للاشغال والمواصلات ، وعبد اللطيف المنديل للاوقاف ، وعبد الحسين الجلبى للمعارف ، ونوري السعيد وكيلاً للدفاع •

(9) Burgoyne (op. cit.) - vol. 2, P. 308.

(١٠) أمين الريحاني (فيصل الاول) - بيروت ١٩٥٨ - ص ١٤٣ •

والملاحظ ان السعدون كان في أول الأمر يريد اسناد وزارة الاشغال والمواصلات الى عبدالمحسن شلاش ، وقد أبرق اليه بذلك في ١٧ تشرين الثاني ، ولكن شلاش اعتذر عن قبول المنصب . والمطلون انه كان يخشى من نقمة المجتهدين والرأي العام عليه ، وبمعد هذا أسند السعدون تلك الوزارة الى ياسين الهاشمي .

وقد قوبل استيزار عبدالحسين الجلبلي بالاستنكار الشديد في الكاظمية وأخذ الناس يشتمونه ويذمونه ذماً قبيحاً . فهم كانوا يمدونه من أعوان الخالصي ومريديه ثم وجدوه ينقلب فجاً فيصبح من رجال الحكومة . وفي ذات يوم وقفت له جماعة من أهل الكاظمية عند باب الصحن الشريف ، وكان على رأسهم الشيخ حسن بن الشيخ مهدي الخالصي ، وحين جاء الجلبلي يريد الدخول الى الصحن بغية المرور منه الى بيته كعادته في كل يوم تصدى له أولئك بدعوى أنه كافر لا يجوز له دخول المساجد . فانبرى رجلان من أعوانه للدفاع عنه ، وكادت تقع فنة لولا أنه واجه الأمر بالاناة والحلم وذهب الى بيته عن طريق الازقة المجاورة للصحن . وقد أثر أخيراً أن يسكن خارج الكاظمية في قصر « الأيل »

صمم السعدون على القيام بالانتخابات على الرغم من صدور الفتاوى بتحريمها . وحين شرع الموظفون باجراء التدابير التمهيدية لها جوبهوا بمقاطعة شديدة في بعض أنحاء البلاد ولاسيما في العتبات المقدسة .

ولم تقتصر المقاطعة على المناطق الشيعية وحدها بل تجاوزتها الى بعض المناطق الأخرى . ففي الموصل مثلاً الصقت اعلانات تدعو الى المقاطعة كما أخذت الشتائم توجه من الجمهور الى القائمين بشؤون الانتخاب . وقد شارك بعض المسيحيين في هذه المقاطعة حيث ظهر اعلان ملصق على باب دار البلدية مفاده ان رجال الدين المسيحيين أفتوا بمقاطعة الانتخابات ومؤازرة المسلمين فيها تمسكاً بالجامعة الوطنية وحفظاً للمصالح المشتركة

والتآلف القديم • وفي ٢٨ كانون الاول كتب متصرف الموصل الى وزارة الداخلية يقول بان الهيئة التفتيشية في الموصل لم تعد ترغب في مواصلة العمل وبدأت تخشى من عاقبة الفتاوي ، وان حركة المقاطعة ليست منبثقة من داخل اللواء بل هي آتية من العاصمة ، وان بطء حركة الانتخابات في الألوية وما يرد منها من الاخبار من اكبر الدواعي لتشويش الازدهان في الموصل (١١) •

ومن الطريف ان نذكر ان حزب النقيب المسمى بالحزب الحر قد وقف موقف المعارض للحكومة اثناء الانتخابات ، فكانت جريدة « العاصمة » الناطقة بلسان هذا الحزب تتقد سيرة الانتخابات • والظاهر ان حزب النقيب انما وقف هذا الموقف لكي يظهر عجز الوزارة السعدونية عن القيام بالعمل الذي كان السعدون قبل هذا يتهم الوزارة النقيبية بأنها عاجزة فيه (١٢) •

قرر السعدون أن يتولى وزارة الداخلية لكي يشرف بنفسه على سير الانتخابات • كتبت المس بيل في رسالة لها مؤرخة في ١٦ كانون الثاني ١٩٢٣ تقول : • • • • • جاءني رئيس الوزراء وناجي السويدي وعبد اللطيف المنديل لتناول طعام الغداء عندي • وأعلن رئيس الوزراء عند وصوله أنه يخشى ان تكون لديه قشعريرة • فأجبت بان براندي الكرز علاج ممتاز ، وكان عندي لحسن الحظ شيء منه من بقايا وليمة سابقة • فاحتوشوا كلهم نصيباً كبيراً منه حتى من كان منهم لا قشعريرة لديه • وبعد هذا تناولنا غذاءً ودياً للغاية • وقد أسروا لي أنهم يفكرون باحداث تغيير في المناصب الوزارية حيث يتحول ناجي بك الى وزارة العدلية ، ويعطى وزارة الداخلية الى رئيس الوزراء • ورجوني أن أهيم ذهن المندوب السامي لهذا التغيير ، فوافقت على ذلك حالاً ، لأن محسن بك سيكون أفضل جداً من ناجي لوزارة الداخلية ، اذ هو أقل

(١١) محمد مظفر الأدهمي (المجلس التأسيسي العراقي) - رسالة جامعية

غير مطبوعة - ج ١ ص ٣٥٧-٣٥٨ •

(١٢) المصدر السابق - ج ١ ص ٣٥٦-٣٥٧ •

حساسية تجاه التأثيرات السياسية منه • ان السربيسي وافق على ذلك ، وقد
تم الآن اجراء التعيينات ... ، (١٣)

تغيير في السياسة :

كان المتوقع عندما تولى السعدون وزارة الداخلية أن يتخذ الاجراءات
الشديدة لاتمام الانتخابات والضرب على ايدي مقاطعيها • ولكن الذي حدث
فعلاً كان على النقيض من ذلك • ففي أواخر كانون الثاني لوحظ ان
الانتخابات توقف سيرها في جميع أنحاء العراق ، ولم تفعل الحكومة شيئاً
ازاء ذلك بل سكنت عنه كأنها كانت راضية عنه •

أضف الى ذلك ان بعض رجال المعارضة الذين كانوا معتقلين فسي
هنجام أطلق سراحهم ، وفي ١٩ شباط وصل بغداد أربعة منهم وهم : أمين
الجرجفجي وحبيب الخيزران وعبدالرسول كبة وسامي خونده • ثم وصل
بعد ذلك ثلاثة آخرون هم حمدي الباججي وجعفر أبو التمن ومهدى البصير •
وكذلك قررت الحكومة معالجة التذمر الموجود في لواء المتفق من
سياسة الميجر يتس ، فنقلت الى اللواء عبدالعزيز القصاب الذي كان
متصرفاً في كربلا • وفي منتصف آذار ذهب كورنواليس الى المتفق
ليبحث الأمور بنفسه ، ووافق على الحلول التي قدمها القصاب لمشاكل
اللواء • وعند عودة كورنواليس الى بغداد صدر الأمر بعزل الميجر يتس
وتعيين رجل آخر مكانه • ويصف القصاب المستشار الجديد بأنه صريح
طيب القلب (١٤) •

يدل هذا كله على ان الوزارة السعدونية غيرت سياستها وأخذت تتبع
طريقة الدين والتسامح تجاه المعارضة • وهنا يواجهنا سؤال : ما هو
السبب الذي جعل الوزارة تغير سياستها مع العلم ان السعدون انما

(18) Burgoyne (op. cit.) - vol. 2, P. 807.

(١٤) عبدالعزيز القصاب (من ذكرياتي) - بيروت ١٩٦٢ - ٢٣١-٢٣٥ •

استقال من الوزارة السابقة احتجاجاً على اتباعها سياسة اللين ؟

يمكن أن نعزو هذا التغير الى سببين : اولهما استفحال التهديد التركي لحدود العراق الشمالية في ذلك الحين ، وكان تهديداً في غاية الخطورة كما سنأتي اليه . ويمكن القول ان الوزارة السعدونية وجدت من الضروري استرضاء المعارضة من أجل توحيد الصفوف تجاه ذلك الخطر .

أما السبب الثاني فهو حدوث تغير في السياسة البريطانية تجاه العراق آنذاك . ففي ٢٣ تشرين الثاني ١٩٢٢ استقالت وزارة لويد جورج ، وقد امتنعت الوزارة البريطانية الجديدة عن تصديق المعاهدة المفقودة مع العراق . ثم ظهرت في بريطانيا حملة قوية ضد الحكومة لانفاقها المبالغ الطائلة على العراق ، وطالب بعض النواب بالانسحاب من العراق في أول فرصة ، مما دعا الوزارة البريطانية الجديدة الى استدعاء كوكس لمشاورته في الأمر . وقد طار كوكس الى لندن في ١٩ كانون الثاني ١٩٢٣ وخلفه في منصبه بالوكالة السر هنري دويس^(١٥) . والظاهر ان الوزارة السعدونية لم تجد في هذه الظروف ما يبرر اصرارها على الاستمرار في الانتخابات ، وربما فضلت الانتظار الى حين استقرار الرأي في بريطانيا حول المعاهدة .

استفحال التهديد التركي :

كان مصطفى كمال باشا قد انتصر على اليونانيين انتصار ساحقاً في ايلول ١٩٢٢ ، فكان لاتنصاره هذا صدى عظيماً في بعض الاوساط العراقية خاصة بين اولئك الذين كانوا يحنون للمهد التركي ويتمنون عودته . وقد اعتز الاتراك بهذا الانتصار فأخذوا يحشدون قواتهم على حدود العراق الشمالية بغية استرجاع الموصل وربما استرجاع العراق كله .

(١٥) كوكس ودويس (تكوين الحكم الوطني في العراق) - الموصل - ص

ففي تشرين الاول ١٩٢٢ وصلت الى كوكس تقارير سرية مفادها ان التجنيد قائم على نطاق واسع في جزيرة ابن عمر وسيرت وماردين^(١٦) . وفي كانون الاول وصلت الى كوكس برقية من القنصل البريطاني في حلب مفادها ان قوات تركية بقيادة يوزدمير علي شفيق بك قد هاجمت ليلاً المسكر الانكليزي عند الحدود الشمالية ومحطة الطيران في زاخو ، وان السلطات التركية في مديات وضعت يدها على سبعمائة وخمسين ألف كيلو من الحنطة ، ووضعت بالمناقصة شراء ألفي قربة لاستعمالها في صنع الاكلاك ، كما أنها عبأت جميع السكان لتعبيد الطرق وبناء التحصينات^(١٧) . وفي ٢١ كانون الثاني ١٩٢٣ وصلت الى بغداد أنباء تفيد أن أربعة افواج تركية مع ملحقاتها وصلت الى جزيرة ابن عمر ، فدعا ذلك القيادة الانكليزية في بغداد الى توجيه بعض قواتها الى الموصل ، أما الجيش العراقي فقد عهد اليه المحافظة على خطوط المواصلات . وفي ٢٨ كانون الثاني ذهب الأمير زيد الى الموصل للاشراف على شؤون الدفاع عن الحدود الشمالية ، وقد لحق به بعدئذ الكابتن كلايتون . وأخذ الاتراك يرسلون عملاءهم ودعاتهم الى العراق سراً ليتصلوا ببعض رؤساء العشائر العراقية ، ولاسيما الكردية منها ، وبعض زعماء المعارضة والمجاهدين . وقد وقع الكثير من رسائلهم في ايدي الانكليز^(١٨) .

كتب المس بيل في ٣٠ كانون الثاني الى عائلتها تقول : « هل نحن معرضون للغزو أم لا ؟ واذا كنا معرضين للغزو فهل سنترك وحدنا ندافع حسب امكانياتنا ... » واذا لم يرسل الاتراك فيلقاً آخر أو فيلقين فنحن بخير ، اما اذا أرسلوا ذلك فالأمر يختلف . وبالرغم من مفاخرات عصمت

(١٦) عن دائرة الوثائق العامة بلندن - رقم (اف . او . ٣٧١-٧٧٨١) .

(١٧) عن دائرة الوثائق العامة بلندن - رقم (اف . او . ٣٧١-٩٠٢) .

(18) Burgoyne (op. cit.) - vol. 2, P. 808-809.

باشا فانهم لا يبدأون بالهجوم ، لان في نيتهم أن تكون القبائل المحلية هي البادئة ، غير ان تلك القبائل مترددة في الاستجابة للضغط . وقصارى القول : انه اذا كان الاتراك يخادعون فنحن نخادع مثلهم ، أما اذا كانوا جادين فنحن نمسك يداً خاسرة » . ثم تقول المس بيل : « وفي هذا اليوم دعاني الملك لتناول الشاي ، وكان قلقاً يريد أن يعرف هل نحن مستعدون في النهاية للدفاع عن البلاد أم أننا نريد ترك الأمر له . وأخبرني أنه عند الضرورة قد يقبل باجراء استفتاء على شرط أن يشمل هذا الاستفتاء المناطق التركية التي معظم سكانها من العرب كنصبيين وماردين ، وان تسحب منها القوات المسلحة لكلا الطرفين ، وأن تشرف على الاستفتاء دولة محايدة . ولكنه أيضاً سوف يطلب منا أن نقوي جانبه بالغاء الانتداب . واذا لم نقبل بهذا الاقتراح ، أو اذا كانت القوات الانكليزية في الموصل في خطر ، أو اذا ترك العرب لوحدهم ليدافعوا عن بلادهم ، فانه سيذهب بنفسه الى الحدود ليقضي فيها حياته صامداً الى النهاية » . وتعلق المس بيل على هذه الكلمة الاخيرة من فيصل فتقول : « وبروحي فاني لا أطلب شيئاً أفضل من الذهاب معه » (١٩) .

كانت الدعاية التركية في العراق آنذاك تستمد قوتها من الدين بدعوى ان الاتراك مسلمون وان الانكليز كفار ، ولهذا فالواجب على العراق شرعاً ان يكون تحت حكم الاتراك بدلاً من حكم الانكليز . وقد لقيت هذه الدعاية في العراق رواجاً كبيراً ، وتبناها المجتهدون بوجه خاص لانهم بطبيعة مهنتهم لا يعترفون بالحدود القومية أو السياسية التي تفرق بين المسلمين ، فالمسلمون في نظرهم أمة واحدة لا فرق فيها بين التركي أو العربي أو الفارسي ، والمسلم أولى من الكافر على أي حال .

كتبت المس بيل في ١٢ نيسان تقول : « ان المجتهدين أصدروا

فتوى في تحريم الدفاع عن العراق ضد الاتراك ، وألصقت الفتوى على باب صحن الكاظمية ، وقد وصلتني نسخة منها مبكراً في هذا الصباح . والسؤال هو : ماذا سوف تصنع الحكومة العراقية في هذا الشأن ؟ فني رأي المستر كورنواليس ان المجتهدين الموقعين على الفتوى يجب نفيهم الى ايران باعتبارهم رعايا ايرانيين ، ولكن هذا قرار خطير . فلو أن الملك ترك الأمور تسير على رسلها ، فان الأيام القليلة القادمة ربما ستكون ذات خطورة بالغة نظراً لاقتراب شهر رمضان وما يثيره من هياج ديني ، (٢٠) .

كان الشيخ مهدي الخالصي شديد الميل الى الاتراك ، كما أشرنا اليه من قبل . ويقال انه كان في تلك الآونة يتراسل معهم سراً . وقد انتشرت في الكاظمية قصة جديرة بالذكر في هذا الصدد هي ان رجلاً من أصل تركي اسمه رفعت أفندي كان يعمل في الاستخبارات البريطانية ، فكان يأتي الى الخالصي بعد غياب طويل وهو يحمل اليه رسائل مدعياً انها رسالة من مصطفى كمال باشا . فكان الخالصي يصدق بذلك ويكتب أجوبة الرسائل ثم يعطيها الى رفعت أفندي لكي يوصلها الى مصطفى كمال باشا ، ولكن رفعت أفندي كان يوصلها الى المندوب السامي .

ان هذه قصة لاندري مبلغ صحتها ، ولم نجد في الوثائق البريطانية او رسائل المس بيل ما يؤيدها ، وربما كانت من مبالغات الخصوم ، انما هي على أي حال غير مستبعدة بالنظر الى ما نعرفه في الشيخ مهدي الخالصي من ميل شديد الى الاتراك .

وهناك قصة أخرى حدثني بها رجل من أهل الكاظمية أثق به ، وهي ان الشيخ مهدي الخالصي تسلم في ذلك الحين رسالة من الاتراك فوضعها تحت الفراش الذي يجلس عليه على عادة الناس في تلك الايام ، وكان من بين رواد مجلسه رجل يعمل في الاستخبارات البريطانية اسمه

(2) Ibid , vol. 2, P. 313.

« ش . . . » فاراد أن يحصل على الرسالة فذهب الى السيد محمد رضا الحيدري وعرض عليه مبلغ خمسمائة روبية لقاء مساعدته في الحصول على الرسالة من تحت فراش الخالصي ، ولكن السيد محمد رضا طرد الرجل ووبخه ، فذهب الرجل ثم عاد بعد فترة من الزمن وهو يقول انه تمكن من الحصول على الرسالة ومعها رسائل أخرى لقاء مائة روبية فقط لا غير .

العودة الى التحريم :

في ٣١ آذار ١٩٢٣ عاد كوكس الى بغداد وهو يحمل ملحقاً للمعاهدة باسم « بروتكول » يتضمن موافقة الحكومة البريطانية على تخفيض مدة المعاهدة من عشرين سنة الى أربع سنوات . وقد استبشر الملك والوزراء بهذا « البروتكول » . وفي ٣٠ نيسان اذاع الملك الى الشعب بياناً افتتحه بهذه العبارة : « بعناية الله جل وعلا ، وروحانية نبيه المصطفى (ص) تمكنت حكومتنا بأن تخطو خطوة كبيرة أخرى في سبيل تحقيق اماني الأمة وذلك بمقدها الملحق الجديد للمعاهدة العراقية البريطانية » (٢١) . ولم يكد هذا البيان ينشر في الجرائد حتى بدأت البرقيات تنهال على بغداد من مختلف أنحاء العراق لتهنئة الملك والوزارة بهذه « الخطوة المباركة » .

وصادف في تلك الآونة ان القوات البريطانية تمكنت من طرد القوات التركية من راوندوز وبعض المناطق الشمالية ، فحف بذلك التهديد التركي وتقلصت الدعاية التركية الى حد كبير . وعند هذا شعر الملك ورئيس الوزراء ان الظروف ملائمة للعودة الى موضوع الانتخاب والشروع به من جديد .

استدعى الملك اليه عدداً من شيوخ الفرات الاوسط كان من بينهم

(٢١) عبدالرزاق الحسيني (المصدر السابق) - ج ١ ص ١٢٤ .

عبدالواحد الحاج سكر ومحسن أبو طيخ وعلوان الياسري وقاطع العوادي وشعلان أبو الجون . وأقنعهم بأن « البروتكول » كسبب للعراق وإن الشروع بالانتخاب ضروري ، فوافق الرؤساء على رأيه ماعدا أبو طيخ حيث صرح بأنه غير قادر على مخالفة علماء الدين الذين أفتوا بحرمة الانتخاب ولكنه يبذل جهده للتوفيق بين ارادة العلماء وسياسة الحكومة^(٢٢).

أرسل الملك علوان الياسري وقاطع العوادي الى الشيخ مهدي الخالصي في محاولة لاقتناعه بسحب فتوى تحريم الانتخاب . ولكنهما لم يوفقا في محاولتهما ، وقيل ان الخالصي اتهمها بالكفر . وتروى في هذا الصدد قصة جرت للياسري هي أنه بعد أن فشل في اقناع الخالصي ذهب لزيارة مرقد الامام الكاظم ، وحين وصل الى باب المرقد رأى الخالصي خارجاً من المرقد تحف به حاشيته ، فقال الخالصي له : « كيف يجوز لك أن تأتي لزيارة الامام وأنت كافر ؟ » . فرد الياسري عليه بكلمة جارحة ، وهنا صاح أحد الحاشية بصوت مرتفع ليسمعه الجمهور : « اخرج يا كافر » ، فاضطر الياسري أن يهرب من المرقد بلا حذاء خوفاً من غضب الجمهور .

أخذ الشيخ مهدي الخالصي يعد العدة لاعادة اعلان فتاوى التحريم التي كانت قد أعلنت سابقاً . ففي ١٦ أيار أخبرت التحقيقات الجنائية وزارة الداخلية بأن رسالة وصلت من النجف الى الكاظمية بخصوص التحريم ، وان الشيخ مهدي الخالصي تداول حوله مع علماء الكاظمية وأنهم وافقوا عليه جميعاً . وفي مساء ١٧ أيار ظهرت اعلانات ملصقة على أبواب الصحن في الكاظمية تذكر الناس بتحريم المجتهدين للانتخاب وتقول : ان

(٢٢) محمد المهدي البصير (تاريخ القضية العراقية) - بغداد ١٩٢٣ -
ج ٢ ص ٥٠١ .

الحكومة تحاول الآن خداع الشعب بملحق المعاهدة وانها تبذل جهدها لاجراء الانتخاب ضاربة بفتاوى المجتهدين عرض الحائط « فانتبهوا يا قوم ولا تتخذوا بزخارف القول ، وبغوا وابصروا ياأولى الألباب » (٢٣) .

وفي ٣٠ أيار تقدم أحد المؤمنين باستفتاء موجه الى المجتهدين هذا نصه :
« حجج الاسلام وآيات الله في الأنام أعز الله بكم الدين وحماية الشريعة .
هل تجوز المداخلة ببعض الوجوه في انتخاب المجلس التأسيسي العراقي أو لا تجوز لكل أحد من العراقيين ؟ أفئونا أدام الله ظلكم على العالمين » .
فكتب المجتهدون تحت هذا الاستفتاء فتاويهم حيث ذكروا فيها ان حكمهم السابق في تحريم الانتخاب لايزال ثابتاً لم يتغير ، وهم : أبو الحسن الاصفهاني وحسين النائيني وتحسن الصدر ومحمد مهدي الصدر وعلي الشيرازي ومهدي المراياتي وابراهيم السلماسي ومحمد الأسدي ومحمد مهدي الخراساني وصادق الخالصي وابراهيم الاعرجي وراضي الخالصي وأسد الله الحيدري واسماعيل الأسدي . وقد كتب في آخرهم الشيخ مهدي الخالصي يقول ما نصه : « نعم ما حكم به حجج الاسلام وآيات الملك العلام ماضي نافذ . والراد عليهم راد على الله وهو على حد الشرك بالله » (٢٤) .

وأخذت الفتاوى من هذا النمط يتوالى صدورها ، فتلصق على الجدران وأبواب المساجد ، وترسل نسخ منها الى الأولوية . وكان بعض الشبان المتحمسين يتطوعون لالصاقها على الجدران حيث يختارون الساعات المبكرة من الصباح فيتظاهرون انهم خارجون لاداء صلاة الفجر في المساجد وحين يجدون الشوارع خالية يسرعون الى الصاق الفتاوى ثم يختفون .

نفذ صبر الانكليز كما نفذ صبر الملك وعبدالمحسن السعدون ، غير أنهم اختلفوا في طريقة العلاج ، فكان من رأي السعدون استعمال الشدة

(٢٣) محمد مظفر الأدهمي (المصدر السابق) - ج ٢ ص ٤٠٥ .

(٢٤) المصدر السابق - الملحق رقم ١٦ .

مع المجتهدين بلا خشية. أو تردد بينما كان الانكليز يتخوفون من اتباع هذه السياسة ويعتقدون انها قد تؤدي الى ثورة عشائرية واضطراب الأمن . أما الملك فكان لا يزال يأمل أنه قادر على التفاهم مع المجتهدين واقناعهم بحلى وجه من الوجوه .

مما يجدر ذكره أن اكثر المجتهدين كانوا يحملون الجنسية الايرانية ، فمنهم من كان من أصل ايراني فعلاً ومنهم من اتخذ الجنسية الايرانية في العهد العثماني تهرباً من التجنيد الاجباري . وقد وجد السعدون في هذا ثغرة يمكن أن ينفذ منها اليهم . فكان رأيه ان المجتهدين عجم وهم اذن غرباء عن العراق وليس لهم حق بالتدخل في سياسة هذا البلد ، أما اذا أرادوا العمل في السياسة فالواجب يقضي عليهم أن يتجنسوا بالجنسية العراقية ، والا فان الحكومة يجوز لها أن تبعدهم عن البلاد .

صمم السعدون على تنفيذ رأيه هذا . ففي ٩ حزيران صدر تعديل لقانون العقوبات البغدادي ، وبهذا التعديل أصبح للحكومة الحق في نفي الاجانب بسبب الجنح التي يرتكبونها . وفي ١٧ حزيران عقد مجلس الوزراء جلسة خاصة قر فيها الشروع بالانتخابات واستعمال الشدة مع الذين يقاومونها عن طريق نفي الاجانب منهم الى خارج البلاد واحالة العراقيين منهم الى المحاكم .

وفي تلك الآونة كتبت جريدة «العاصمة» تدعو الى محاربة الدخلاء الذين لا ارتباط لهم بالعراق ، وتطلب من الحكومة أن تكف يد كل من ليس بعراقي ولا عربي عن التدخل في شؤون الأمة^(٢٥) .

تمهيد :

كان محسن أبو طييح - كما أشرنا اليه آنفاً - قد خالف ما اتفق عليه زملاؤه من شيوخ الفرات الأوسط في أمر الشروع بالانتخاب . ويقال ان

(٢٥) جريدة «العاصمة» - في عددها الصادر في ١٤ حزيران ١٩٢٣ .

الملك امتنع من موقفه هذا وطلب منه مغادرة العراق أيما إلى أن يهدأ
الوضع فيعود • وقرر أبو طيخ أن يغادر إلى سوريا في ١٤ حزيران •

أراد الشيخ مهدي الخالصي أن يجعل من توديع أبو طيخ مظهرة
سياسية تجدياً للملك والحكومة • ففي صباح اليوم المعين لسفر أبو طيخ
حصل اجتماع كبير في صحن الكاظمية حتى غص الصحن على سقته
بالناس ، وحضره الخالصي وكثير من رؤساء العشائر ورجال المعارضة •
ونفض سلمان القطيفي^(٢٦) فألقى كلمة حماسية مؤثرة ، وأخذ الحاضرون
يهتفون بسقوط الحكومة وحياة المجاهدين ، وعند انتهاء الحفلة سارت
الجماهير تحف بأبو طيخ متوجهة نحو محطة القطار في جانب الكرخ ،
فركب فريق منهم عربات الترامواي ، وركب آخرون السيارات ، بينما مشى
الباقون على أقدامهم • وحين وصلوا إلى علاوي الحلة في الكرخ طلب
الكرخيون من سلمان القطيفي إعادة اللقاء الكلمة التي ألقاها في صحن
الكاظمية ، فاستجاب لهم وصعد على منصة صنعت من تخوت المقاهي القريبة ،
كما صعد إلى جانبه أبو طيخ • ولم يكده القطيفي يبدأ باللقاء حتى تقدم
نحوه معاون الشرطة عبدالرزاق الفضلي وقال له بصوت مرتفع « اني باسم
الحكومة والقانون أمنعك من اللقاء الخطاب وعند عدم الكف عن القائه
سأستعمل القوة » • فحصلت مشادة بين القطيفي والفضلي ، فتدخل أبو
طيخ راجياً من القطيفي العدول عن اللقاء الكلمة حذراً من ازاحة الدماء •
وهاجت الجماهير عندئذ ، وتدافعت مع الشرطة ، وانطلق الرصاص من هنا
وهناك دون أن يصاب به أحد من الناس • وقد استطاعت الشرطة أن
تختطف أبو طيخ بسيارة وأخذته إلى محطة القطار ، كما استطاع رجال
من أهل الكاظمية اختطاف القطيفي وأخذوه إلى الكاظمية حيث احتفسي
فيها^(٢٧) •

(٢٦) هو الذي عرف فيما بعد باسم « سلمان الصفواني » وكان يومذاك
من تلاميذ الخالصي ومن المقربين إليه •

(٢٧) نقلاً عن مذكرات مخطوطة لسلمان الصفواني وهي مذكرات مهدية
نرجو أن تنشر •

كانت هذه الحادثة للحكومة بمثابة القشة التي تقصم ظهر البعير ، وقد اعتبرتها الحكومة تحدياً لها وجرأة لا يجوز الصبر عليها ، فعقدت النية على نفي الشيخ مهدي الخالصي ، وأصدرت أوامرها السرية الى معاون الشرطة عبدالرزاق الفضلي بالاستعداد لالقاء القبض عليه في أقرب فرصة .

كان لدى الفضلي يومذاك عشرون شرطيا من المشاة وعشرون من الخيالة ، فسألته الحكومة هل هو في حاجة الى مزيد من القوة فكان جوابه ان ما لديه منها يكفيه وهو لا يريد مزيداً لكي لا يلفت أنظار الأهالي اليه فيستمدوا للمقاومة . وقد حدثني الفضلي عن تلك الأيام فقال : انه أخذ يتهاى لالقاء القبض على الخالصي ويترقب الوقت المناسب له ، وكان مما فعله في هذا السيل انه أرسل بعض أفراد الشرطة السرية بملابسهم المدنية ليختلطوا بالناس في الصحن وخارجه ، وجعل بعضهم يتقمصون هيئة الشحاذين ويجلسون عند أبواب الصحن يتظاهرون بالاستجداء حتى اذا جاء أحد أعوان الخالصي يريد الصاق الفتاوى او الاعلانات على أبواب الصحن أمسكوا به أو أشاروا الى افراد الشرطة القريبين منهم للامساك به .

وفي عصر ٢١ حزيران جاء شاب من آل الخالصي اسمه علي نقي ، وهو حفيد أخ الخالصي ، يروم الصاق اعلان على احدى ابواب الصحن . فلمحه اثنان من أفراد الشرطة السرية ، وحاولا لقاء القبض عليه ، فأسرع بعض الأهالي لمساعدته على الهرب ، ثم جاء شرطي ثالث لمعاونة زميله . وتمكن الثلاثة أخيراً من الامساك به ، فذهبوا به الى مركز الشرطة في السراي . وعند التحقيق معه في المركز أعترف ، قائلاً بأن واجبه هو الصاق الفتاوى التي تصدر من المجتهدين ، وذكر أسماء بعضهم ، كما اعترف بأنه لا يعمل وحده بل يعاونه سلمان القطيفي واثنان من أولاد الخالصي هما حسن وعلي .

وفي الوقت الذي كان فيه علي نقي يدلي باعترافاته في مركز الشرطة

ذهب حسن الخالصي الى الصحن يريد الصاق اعلان على باب القبلة منه •
 وحين حاول أحد افراد الشرطة القاء القبض عليه أخذ يصيح في الناس
 قائلاً : « اقتلوا هذا الرجل انه كافر يهودي » • وعند هذا اثنال الناس على
 الشرطي فأمسكوا به وأدخلوه الى الصحن وطرحوه أرضاً ، وأخرج حسن
 سكينه من جيبه وقال له : « سوف أقتلك » • ولكن الشرطي استطاع التلصص
 من أيدي الناس بصعوبة ، وعاد الى مركز الشرطة وهو حافي القدمين مصفر
 الوجه • وأسرعت ثلة من الشرطة بقيادة معاون عبدالرزاق الفضلي ،
 فتوجهت الى الصحن بغية القاء القبض على الذين هاجموا الشرطي ، فلم
 تجد أحداً منهم • وأخذت الشرطة بعد هذا تبحث عن حسن الخالصي
 وأخيه علي وعن سلمان القطيفي ، وحين عثرت عليهم أرسلتهم مع علي نقي
 مخفوريين الى بغداد • وهناك أودع الأربعة رهن الاعتقال في السراي (٢٨) •

القبض على الخالصي :

كان القبض على أولاد الخالصي بمثابة جس النبض ، فلما رأت
 الحكومة ان القبض عليهم لم ينتج الاضطراب الذي كانت تخشاه قررت
 القبض عليه بالذات ، وتعين مساء ٢٦ حزيران للقيام بذلك •

تشير بعض القرائن الى ان الملك كان يومذاك على شيء من الحيرة
 والتردد ، فهو في أعماق نفسه يمتق الخالصي ويجب نفيه عن العراق
 ولكنه يخشى العواقب • أما عبدالمحسن السعدون فكان قد صمم على نفسي
 الخالصي وكان واثقا من عدم حدوث أي خطر من ذلك • ومما يجدر ذكره
 في هذا الصدد ان السر هنري دويس كان قد تولى منصب المندوب السامي
 بالابصاله منذ اوائل أيار الماضي ، وكان هو كسلفه كوكس يتخوف من أمر
 نفي الخالصي ولكن السعدون تعهد له بأنه قادر على القيام بالأمر دون أن
 يثير أية اضطراب في الأمن ، وقد اطمأن دويس من قوله وترك له الأمر
 ليقوم به على مسؤوليته •

(٢٨) محمد مظفر الأدهمي (المصدر السابق) ج ١ ص ٤١٨-٤١٩ •

أراد الملك أن يتعد عن بغداد عند نفي الخالصي ، فقرر القيام بجولة الى البصرة • وقد اتفق مع السعدون على ان يبرق اليه من البصرة في حالة موافقته النهائية على نفي الخالصي وان يكون الرمز بينها «الدجاجة» ويعنى بها الخالصي •

وفي الساعة الواحدة من بعد ظهر ١٨ حزيران غادر الملك بغداد على باخرة نهرية من بواخر عبدالقادر الخضيري ، وكانت خاشيته مؤلفة من رستم خيدر وناجي السويدي وصفوت العوا وعبدالله المضايقي وناصر الدين النقيب والمرافقين تحسين قدري وتوفيق الدملوجي • والمظنون ان الملك كان منذ مغادرته بغداد حتى وصوله البصرة مشغول البال في أمر الخالصي لا يدري هل من الصواب أن يسمح بنفيه أم لا • ويبدو انسه عندما وصل البصرة استقر رأيه على عدم نفي الخالصي ، ولهذا أوعز الى ناجي السويدي بأن يبرق الى السعدون ينصحه « أن يترك الدجاجة » (٢٩) • ولكن السعدون رفض أن يصني لنصيحة الملك ، وأبرق اليه يخبره بضرورة نفي الخالصي وان الحكومة لا يمكنها أن تستمر في الصبر عليه مدة أطول • وهذا هو نص برقية السعدون :

« عرضنا في برقيتنا السابقة أن حاول بعضهم الصاق فتاوي في الكاظمية بمنع الانتخاب • الذي ألصقها حفيد الخالصي الشيخ علي ، فألقت الشرطة القبض عليه في الحال ، وبعد قليل حاول الشيخ حسن بن الشيخ مهدي الصاق فتوى أخرى ، فمنعه الشرطي الذي كان واقفاً باللباس الرسمي ، فلم يمتنع بل حث الناس على الهجوم على الشرطي وهجم هو معهم ويده سكين فضرب بها الشرطي ، فألقي القبض عليه أيضاً • وعند استجواب الشيخ علي اعترف بأن جميع هذه الأعمال هي بأمر الخالصي وولديه

(٢٩) خيري أمين العمري (شخصيات عراقية) - بغداد ١٩٥٥ - ج ١ ص

الشيخ علي والشيخ حسن وشريكهما الشيخ سلمان القطيفي • الشيخ مهدي يحرك الناس جهراً على القيام في بغداد والكاظمية ، وعلى كل حال لا يمكن للحكومة أن تصبر على أفعاله ، فأرى من الضروري إبعاده عاجلاً هو وأولاده والقطيفي والشيخ علي حفيد الخالصي • المعتمد السامي يوافق على إبعادهم بشرط ان لا يكون ذلك الى ايران ، فاذا توافقون يرسلوا الى البصرة ومنها الى جدة بحراً • لم يصلني خبر بعد من محسن شلاش •

فأجاب الملك بريقة قال فيها : « اذا كان العمل ضرورياً تجاه الشيخ مهدي فأرغب أن يكون بكل احترام وبصورة لا تخل بكرامته الشخصية وان لا تعجز عائلته ولا تخوف » • ثم أعقبها الملك بريقة أخرى قال فيها : « لكم الصلاحية المطلقة فيما ترونه مناسباً في الكاظمية وبغداد لحفظ الأمن وشرف الحكومة ويجب اتخاذ خطة حازمة • بعد الكاظمية أخبروا مجتهدي النجف بواسطة المتصرف بكل ما جرى مع الخالصي واتباعه وطمنوهم بأن يداوموا محافظين على السكينة وقائمين بواجباتهم الدينية مع ابلاغهم أسف الحكومة على اضطرارها الى اتخاذ هذه الاجراءات رغماً عن الوسائل السلمية التي أتبعتها حتى الآن • أعلنوا ذلك في الصحف بصورة مناسبة » •

وفي ٢٥ حزيران أصدرت الحكومة بياناً رسمياً ذمت فيه المجتهدين ذمّاً قبيحاً حيث وصفتهم بأنهم دخلاء لا علاقة لهم بالقضية العربية ولا تهمهم مصالح الشعب الحقيقية ، وانهم يختلقون أقوالاً يزعمون انها مستنبطة من الشرائع الدينية غير أنهم لا يقصدون منها سوى الاخلال بسير الانتخابات وتضليل الرأي العام وعرقلة وصول الشعب الى السلطة • ويقول البيان أيضاً : ان ما أظهرته الحكومة من الحلم والاناة شجع هؤلاء الغرباء التهوسين على التماادي في التضليل حتى أنهم تجاوزوا مؤخراً على حرمة المراقدة المقدسة بحركات تخالف الآداب الدينية كل المخالفة ويتحاشاها

أهل التقوى والدين أي تحاشي وذلك بالصاقهم على أضرحة الأئمة عليهم السلام وجدران الحرم نشریات مفسدة ومهيجة تحت ستار الدين وباسمه مما يهتك حرمة العتبات المقدسة ويجعلها معرضاً لتلك الغايات المضلة التي لم تبين الا على سوء النية والاضرار بمنافع الشعب . وفي الحتام يقول البيان: « وبهذه المناسبة يجب ان يعلم ان الحكومة لا يمكنها أن تنهون في مثل هذه الأعمال . . . آية كل من يتصدى للعبث بحقوق الشعب المشروعة » (٣٠) .

وقد علقت جريدة «العاصمة» على هذا البيان قائلة : ان مقاطعة الانتخاب أكبر مظهر من مظاهر الفكرة الأعجمية تلك الفكرة الدخيلة التي لا تخلص للقومية العربية واستقلال العراق . وطلبت الجريدة من الحكومة الضرب بشدة على الأيدي الأثيمة التي تدس السم بالدم لتتمكن من القضاء على القومية العربية في ربوع العراق (٣١) .

وفي ساعة متأخرة من مساء ٢٦ حزيران جرى لقاء القبض على الخالصي ، وتم كل شيء بهدوء !

كيف جرى لقاء القبض :

كان الخالصي قد اعتاد في كل ليلة ان يذهب الى مدرسته بعد انتهائه من اداء صلاة المغرب والعشاء ، وكانت مدرسته ملاصقة لبيته ، فيلقي فيها بعض الدروس على طلبة المدرسة ثم يأوى بعدئذ الى بيته . وقد وضع عبدالرزاق الفضلي خطته في أن يكون القبض على الخالصي في ساعة متأخرة من الليل حين تخلو الشوارع من المارة .

وفي تلك الليلة التي تقرر فيها القبض على الخالصي ، كلف الفضلي احد رجال الشرطة السرية بمراقبة المدرسة واخباره متى يغادرها الخالصي الى البيت . وفي الساعة الحادية عشرة تقريباً عندما تأكد الفضلي من وجود

(٣٠) عبدالرزاق الحسيني (المصدر السابق) - ج ١ ص ١٣٠-١٣٣ .

(٣١) جريدة « العاصمة » في عددها الصادر في ٢٥ حزيران ٩٢٣ .

الخالصي في بيته أسرع اليه بسيارتين يصحبه مفوض واحد وخمسة أفراد من الشرطة مع مختار محلة الشيوخ .

لدينا روايتان مختلفتان عن كيفية اللقاء القبض على الخالصي ، احدهما يرويها عبدالرزاق الفضلي ، والأخرى يرويها سلمان الصفواني . وفيما يلي نذكر كلتا الروايتين نقلاً عن مذكراتهما المخطوطة .

يقول الفضلي : « ... أما كيف جرى أخذه - يقصد الخالصي - فقد ذهبت لبيته بعد العاشرة مساءً وبعد عودته من مدرسته . وطرقت بابه ، فكلمني هو من الطابق الثاني من البيت وسألني : ماذا تريد ؟ قلت : تفضل أفتح الباب لابلغك الأمر الذي تلقّيته الآن من الحكومة . فنزل الرجل ، فقلت له : ان مجلس الوزراء ملتئم في البلاط ويطلبون حضورك . فأرجو أن تتفضل لأنهم أرسلوا لك سيارة خاصة . فقال : انني رجل ديني ولا يجوز خروجي من بيتي بعد المساء . فأجبته : يا سيدي انك سياسي لانك تداخلت بأمور ليس لك حق بالمداخلة فيها ولذلك يجب أن تذهب معي حالاً . فقال : دعني ادخل الى بيت الماء ثم أتوضأ وأذهب معك . فوافقت ، ولكنه أراد أن يغلّق الباب فحلت دون مقصده . وفعلاً دخل الى الخلاء وأنا واقف بالباب ، وانتظرتة حوالي نصف ساعة ولم يخرج ، فاضطرت ان أرسل المفوض الافغاني سيد حسن الى الخلاء ليرى ماذا حل بالخالصي ، ولما دخل عليه وجد أن أعصابه قد تقلصت ولا يستطيع السير . وبما ان الوقت الذي يجب ان يصل به الخالصي الى القطار على وشك الانتهاء فقد اركبته بالسيارة وتوجهت به الى محطة القطار ... » .

أما الرواية الثانية فيرويها الصفواني نقلاً عن الخالصي نفسه اذ قال ما نصه : « كنت نائماً على سطح داري وأيقظني طرق الباب المتوالي بعنف . فنهضت من فراشي وأطللت براسي على جهة الباب فاذا بي أرى الدار مطوقة بالقوات المسلحة وكذلك الطرق المؤدية اليها . وسألت من فوق السطح

من الطارق ، فطلب اليّ النزول وفتح الباب بسرعة • فأدركت ان هذه القوة الكبيرة قد جىء بها للقبض عليّ لا محالة • وفكرت في أن أمثل دور الصقر أم دور العصفور ؟ ان العصفور حينما يقع في يد الصياد يحاول أن يقاوم ليتخلص ويطير ، ويستعمل منقاره ومخالبه وأجنحته وهي كل أسلحته في المقاومة ، ولكن حيلة ذلك أن يتنف ريشه وتنكسر سيقانه ويتعرض للموت • أما الصقر فانه يخلد الى الهدوء حينما يقع في يـد الصياد ويستسلم للقضاء والقدر في انتظار الفرصة المواتية للنجاة • لقد كان بإمكانني أن أستغيث وأستجد بأهالي الكاظمية فيهبون سراعاً لنجدي والدفاع عني ، ولكن ما هي النتيجة غير اراقة الدماء ثم ينتهي الأمر بالقبض عليّ ذليلاً مهاناً • فاخترت على عجل وبهدوء ان أكون صقراً وأوصيت أهل بيتي ان لا يرفعوا صوتاً ، وارتديت ملابس بسرعه وفتحت الباب حيث اختلقت بسرعة أيضاً في سيارة الى القطار ، •

كانت محطة القطار عند وصول الخالصي اليها في ظلام دامس ، وقد أحيطت بقوة كبيرة من الجيش والشرطة • وكان قد أعد فيها قطار خاص مؤلف من قاطرة وثلاث عربات ، فخصصت احدى العربات لنقل الخالصي وهي من الدرجة الاولى • أما العريتان الاخريان فكانت من الدرجة الثالثة وخصصتا لنقل القوة المكلفة بحراسة القطار في الطريق •

وجىء بالأربعة الذين كانوا معتقلين في السراي ببغداد ، فاركبوا في العربة التي كان الخالصي فيها • وكان الظلام شديداً فلم يعرفوا ان الخالصي في العربة معهم • يقول سلمان الصفواتي في مذكراته : « كنت وحدي المدخن بين رفاقي فأشعلت عوداً من الثقاب لأرى ، ويا لهول ما رأيت ، رأيت الامام الخالصي حاسر الرأس وقد جلس في زاوية من المقطورة واضعاً رأسه بين يديه ، وكان مطرقاً تبدو عليه علامات الكآبة والاعياء ، فتقدمت اليه وسلمت عليه ، وقبلت يديه ، وهكذا فعل رفاقي ، وجلست الى

جنبه في صمت مطبق وأنا غير مصدق أفي يقظة أنا أم في منام (٣٢) .
تحرك القطار بهم متوجهاً نحو البصرة . وفي صباح اليوم التالي نشرت
الجرائد في بغداد بلاغاً رسمياً هذا نصه :

« لقد توفرت الادلة المقنعة بان الشيخ مهدي الخالصي وولديه
والشيخ سلمان القطيفي والشيخ علي نقي هم الذين أتوا بما ورد في البيان
السابق ، وعليه أخرجوا من البلاد العراقية . والحكومة تود أن تعلن مرة
أخرى بأنها عازمة على تسليم السلطة القانونية الى ممثلي الشعب الحقيقيين
ولا يمكنها أن تساهل ازاء تلاعب الأهواء الأجنبية تحت ستار السلطة
الدينية في الأمور الحيوية المتعلقة بحقوق الأمة » (٣٣) .

حركة المجتهدين :

عندما انتشر الخبر في الكاظمية صباحاً امتنع الناس عن فتح دكاكينهم
احتجاجاً ، وأخذوا يتجمعون في الصحن . وقد أبدى عبدالرزاق الفضلي
شائطاً ملحوظاً في تفريق المتجمعين وبث جواً من الارهاب في البلدة ،
فأرسل الناديين ينادون في الاسواق يهددون من يستمر على اغلاق دكانه
بالعقوبات الصارمة ، كما أرسل افراداً من الشرطة ليسجلوا أسماء أصحاب
الدكاكين المغلقة والبحث عنهم . وقد أثمرت جهوده في هذا السيل فصار
الناس يفتحون دكاكينهم شيئاً فشيئاً ، ولم يكذب يتصف النهار حتى كانت
البلدة قد عادت الى حالتها الاعتيادية ، ولم يبق فيها سوى بعض الاشاعات
يتهامس بها الناس هنا وهناك وهم ي تلفتون مخافة أن يراهم أحد .

وقد جرى مثل هذا في بغداد حيث انتشر الاضراب في بعض
الاسواق ، لاسيما في سوق الصفاير وبعض الأسواق المجاورة ، ولكن التدابير
الشديدة التي اتخذتها الحكومة جعلت الناس يسرعون الى فتح دكاكينهم على
نحو ما فعل اخوانهم في الكاظمية .

(٣٢) جريدة «الحوادث» - في عددها الصادر في ١١ نيسان ١٩٣٠ .

(٣٣) جريدة «العراق» - في عددها الصادر في ٢٧ حزيران ١٩٣٣ .

وقد حاول فريق من رجال الدين في الكاظمية أن يقوموا بحركة يعلنون بها تضامنهم مع الخالصي واحتجاجهم على نفيه ، فاجتمعوا في دار الشيخ مهدي المراتي في محلة التل ، وأرسلوا الى رجال الدين الآخرين يطلبون منهم الانضمام الى حركتهم ، فاعتذر هؤلاء ولم يؤيدوهم . وقيل ان أحد المجتهدين الكبار لم يكتف بعدم التأييد بل تفوه بكلمة شديدة ذم بها الشيخ مهدي الخالصي لتدخله في السياسة وقال انه طالما نصحه فلم يرتدع . وبهذا ماتت الحركة في مهدها وتفرق أصحابها .

ولكن الأمر في النجف جرى على خلاف ما جرى في الكاظمية ، اذ لم يكد الخبر يصل الى النجف في صباح ٢٧ حزيران حتى عم الاضراب الاسواق ، وتجمهر الناس ، وأعلن المجتهدون انهم متضامنون مع الخالصي وأن نفيه اهانة للدين وأهله ، وصمموا على الهجرة من العراق احتجاجاً . وفي عصر ذلك اليوم غادر عدد من المجتهدين النجف ، وكان في مقدمتهم السيد أبو الحسن الاصفهاني والمرزا حسين النائيني ، فذهبوا الى مسجد « السهلة » للاعتكاف فيه ليلة واحدة كما جرت عليه العادة ، فرأهم هناك جمهور من أهل الكوفة . وفي صباح اليوم التالي توجه المجتهدون الى الكوفة ، ومن هناك استقلوا الزوارق البخارية متوجهين الى طويريج . ومن طويريج ركبوا السيارات الى كربلاء .

كانت الحكومة قد استعدت للأمر مقدماً . ففي ٢٦ حزيران وصل الى كربلاء مولود مخلص بعد أن صدرت الارادة الملكية بتعيينه متصرفاً للواء . وقد شرع هذا المتصرف باتخاذ الاجراءات الشديدة فور وصوله الى كربلاء ، فأبرق الى قائمقام النجف يقول له : « يجب أن لا تأذنوا لاحد بالسفر الى ايران مع العلماء الايرانيين . يجب أيضاً أن لا تأذنوا لأحد بالخروج من النجف الا باذن من الحكومة . امنعوا الوسائط الثقيلة عن نقلها ركاب بدون اذن من دائرة الشرطة الى صدور أمر آخر . بلغوا بذلك دائرة الشرطة » .

وقد أجابته القائمقام قائلاً : « لم يسافر أحد من أهالي النجف الى ايران مع العلماء الايرانيين ، بل سافروا الى كربلاء وكلهم اليوم في كربلاء ، ولم يبق هنا من لم يلتحق . وأما منع جميع الركاب والمسافرين مطلقاً الى كربلاء وغيرها فوجب الحرج والكيل والقال ، والحال - والحمد لله - في القضاء في كمال الهدوء والسكينة . فاسترحم التصريح من يجب منعه ومن لم يجب . منتظرون أمركم » (٣٤) .

حين وصل المجتهدون الى كربلاء أعدت لهم خيمة خاصة للنزول فيها ، ومنع الأهالي من الاتصال بهم . وقد انضم اليهم عدد من المجتهدين الكربلائين . وحاول المتصرف التفاهم معهم غير أنهم أصروا على مفادرة العراق . فأبرقت الحكومة الى المتصرف تأمره بتسهيل سفر الذين يحملون الجنسية الايرانية منهم ، أما الباقون فيجب ابقاؤهم في العراق ووضعهم تحت مراقبة الشرطة .

وفي ١ تموز تولى صالح حمام مدير شرطة كربلاء تسفير المجتهدين الذين يحملون الجنسية الايرانية ، وكانوا تسعة وهم : أبو الحسن الاصفهاني وحسين النائيني وجواد الجواهري وعلي الشهرستاني وعبدالحسين الشيرازي وأحمد الخراساني ومهدي الخراساني وحسن الطباطبائي وعبدالحسين الطباطبائي . وكان يصحبهم ٢٥ رجلاً من أتباعهم . وقد أركبوا جميعاً في سيارات تحت حراسة قوية من الشرطة . ولما وصلوا الى الخر قرباً من بغداد سير بهم الى منعطف الدورة حيث عبروا دجلة من هناك ، وكان القصد من ذلك ابعادهم عن أنظار الناس لكي لا يعلم بوصولهم أحد . وفي صباح ٢ تموز سار بهم قطار خاص الى خانقين ، ثم نقلوا الى ماوراء الحدود .

وفي ٣ تموز نشرت جريدة « العراق » خبراً بعنوان « سفر بعض العلماء الى ايران » هذا نصه :

(٣٤) عبدالرحيم محمد علي (النجف والمجلس التأسيسي) - في مجلة « الرابطة » النجفية - في عددها الصادر في ايلول ١٩٧٥ .

« لقد شاع في العاصمة ان بعض العلماء المجتهدين في النجف الأشرف قد عقدوا النية على مغادرة البلاد العراقية وقد استقصينا الأمر من مديرية المطبوعات فأخبرتنا بصورة رسمية ان البعض من حضرات العلماء الايرانيين على أمر نشر بلاغ الحكومة بشأن تدخل الاجانب بشؤون البلاد السياسية قد أظهروا رغبتهم في الرجوع الى وطنهم ايران • وقد قابلهم سعادة متصرف كربلاء باسم الحكومة العراقية وأفهمهم ان الحكومة لاتضمر عليهم أي سوء وانهم لايزالون موضع الحفاوة والاحترام ما داموا مواظبين على الخدمة الدينية بإرشاد الناس الى أمور دينهم • فأظهر العلماء شديد رغبتهم في الرجوع الى أوطانهم • ولذلك قامت الحكومة بكل التسهيلات المقتضية لتوفير استراحتهم في سفرهم • • • • »

وفي اليوم نفسه - أي في ٣ تموز - كتب جلال الدين خان كيهان القنصل الايراني العام ببغداد الى المندوب السامي يحتاج على تسفير المجتهدين ، وقد ذكر في كتابه ان المجتهدين عوملوا معاملة خشنّة كما يعامل المجرمون ، وان هذا يعد اهانة لا يمكن تبريرها تجاه ممثلي الدين الاسلامي بوجه عام ، والطائفة الشيعية بوجه خاص • فأجاب المندوب السامي عليه بكتاب قال فيه ان الشيخ مهدي الخالصي انما أبعدته الحكومة العراقية بموجب قانون الإقامة لانه تدخل في سير الانتخاب بصورة غير قانونية وأصدر فتوى بتكفير الذين يشاركون فيها ، أما المجتهدون الآخرون فان الحكومة لم تبعدهم وان متصرف كربلاء حاول اقناعهم بأنهم سيقون موضع احترام الحكومة اذا حصروا جهودهم في المسائل الدينية وحدها ، غير أنهم أصرروا على العودة الى وطنهم ايران ، وقد وفرت الحكومة العراقية لهم كل أسباب الراحة أثناء السفر وأعدت لهم قطاراً خاصاً على الرغم من أنهم حاولوا إثارة المظاهرات ضد الحكومة في طريقهم من النجف الى كربلاء •

ويتهمني كتاب المندوب السامي بابداء الاعتذار عن التأخر في ارسال الجواب باعتبار ان هذا التأخر كان ضرورياً لقيام المندوب السامي بالتحقيق في

الشكاوي التي ذكرها القنصل الايراني العام (٣٥).

حادثة في الحلة :

حين جرى تسفير المجتهدين من كربلاء في ١ تموز أخذت الحلة تتحضر لاعلان احتجاجها على هذا العمل . وكان العالم الديني في الحلة يومذاك هو الشيخ محمد سماكة اذ كان وكيلاً لاحد المجتهدين الكبار في النجف ، وقد صار هذا الرجل يحرض الناس على التظاهر تأييداً للمجتهدين واحتجاجاً على تسفيرهم . ولم يهن ذلك على متصرف اللواء ناجي شوكت فاوعز الى مدير الشرطة بابعاد الرجل الى بغداد .

جرى ابعاد الشيخ محمد سماكة في مساء ٢ تموز ويحدثنا ناجي شوكت في مذكراته عن كيفية القاء القبض عليه فيقول ما نصه :

« ... فطلبت الى مدير الشرطة أن يزور الرجل في داره بعد عودته من صلاته في المسجد مساءً ويستصعبه الى محطة القطار ... وكان من عادة الرجل بعد أن يؤدي الفريضة في المسجد القريب من داره أن يسهر بعض الوقت مع من يأتون به في صلاته ثم يعود الى داره . والظاهر ان مدير الشرطة كان حديث عهد بالاجراءات والاحتياطات في مثل هذه الظروف فقام بعمل طائش كاد يوقنا في ورطة ، فقد اصطحب ثلة من الشرطة وأحاط بالمسجد المذكور وأكره وكيل المجتهد على أن يتجه الى محطة القطار . وهكذا استله من بين جماعته ومريديه وذهب به الى المحطة ، واذا بهؤلاء المريدين يخرجون الى الشارع على شكل مظاهرات صاخبة ، وكانت حوالي العاشرة ليلاً . وبينما أنا انتظر نتائج الابعاد اذا بخادمي يقول ان الاهلين بدأوا يجمعون بداري وان عددهم آخذ بالازدياد . وكنت أسكن في الدار وحدي ولم يكن معي فيها غير الخادم المذكور ، فاطفأت الانوار في غرفتي المظلة على الشارع ، وصرت أطلع الى ما يجري في الشارع ومسدسي بيدي ، واذا بالخادم يقول

(٣٥) عن دائرة الوثائق العامة بلندن - رقم (اف . ٠ أو . ٣٧١ - ٩٠٤٧)

ان التجمهرين يطلبون اليه ان يفتح باب الدار ليدخلوها ويقابلوني فيها . فكان الوضع في منتهى الحرجة ، وزاد في حرجته اني لم ألتق من مدير الشرطة شيئاً عما جرى وتم ، ورأيت من المصلحة أن لا أقابل الناس لئلا يطلبون أمراً قد لا أَرْضاه مثل العدول عن ابعاد وكيل المجتهد . لذا طلبت من خادمي أن يتسلق سطح الدار ويتسلل الى معاون مدير الشرطة ، وهو في داره القريبة من داري ، ويستدعيه الى مقابلي فوراً بعد أن يتخذ التدابير التي يراها مناسبة لابعاد التجمهرين حول الدار . وكان المعاون المذكور عند حسن الظن به ، فقد استطاع أن يشتت الجموع المحتشدة في الشوارع . وفي الساعة الحادية عشرة بدأ الوضع يتحسن والازدحام يخف » (٣٦)

ويقول ناجي شوكت ان المستشار البريطاني في اللواء ، وهو الميجر لونكريك الذي اشتهر فيما بعد بمؤلفاته عن العراق ، زاره في بيته في الساعة الحادية عشرة من تلك الليلة واخذ يستفسر منه عن الاسباب التي حملته على ابعاد الشيخ دون أخذ رأيه باعتباره مستشار اللواء ، وألمح الى أنه لا يستطيع تحمل مسؤولية تردي الوضع العام ، ونصح به بأن يلغي قرار الابعاد ويطلق سراح الشيخ فوراً . فأجابه المتصرف بأنه مستعد لتحمل كل مسؤولية عما سيحدث من جراء العمل الذي قام به ، وأنه سيخبر الوزارة ببغداد بأنه اتخذ قرار الابعاد دون استشارة المستشار . ثم طلب المتصرف من المستشار أن لا يتقبل مراجعة أي شخص في هذا الشأن على أساس أنه - أي المتصرف - قام به على مسؤوليته .

كانت بلدة الحلة في صباح اليوم التالي هادئة ، وحين وصل المتصرف الى دائرة لمزاولة عمله كالعتاد زاره سلمان البراك وطلب منه الإذن لوفد من الاهالي يريدون مقابلة . وكان الوفد مؤلفاً من عشرين شخصاً . وحين دخلوا على المتصرف أخذوا يرجون أن يساعدهم في اعادة الشيخ المبعد ،

فقال المتصرف لهم : « اذا تعهدتم لي بانتهاء مقاطعة الانتخابات وتأمين جريانها بحسب الاصول ، فاني أعدكم بارجاعه بعد اسبوع واحد » . فآظفروا استعدادهم للتعاون مع الحكومة في هذا الشأن . فابرق المتصرف الى وزارة الداخلية يطلب منها رفع الرقابة عن الشيخ والسماح له بالعودة لزوال الاسباب التي أدت الى ابعاده . وقد زار لونكريك المتصرف بعد هذا وقال له : لقد نجحت في خطتك نجاحاً ملحوظاً واني كنت اخشى العواقب من هذا الابعاد (٣٧) .

الملك في الفرات الأوسط :

قلنا ان الملك أراد أن يبتعد عن بغداد عند القاء القبض على الخالصي فذهب الى البصرة . ولم يغادر الملك البصرة الا بعد ان اطمأن من القاء القبض على الخالصي وان كل شيء سار على مايرام . وفي مساء ٢٧ حزيران غادر الملك مع حاشيته البصرة . ومن مفارقات القدر ان يصل قطار الخالصي الى محطة البصرة في نفس الوقت الذي كان فيه قطار الملك يغادر المحطة . يقول سلمان الصفواني : « وقفت القاطرة في محطة البصرة التي التقينا فيها بقطار صاحب الجلالة الخاص خارجاً من البصرة . فكان من فيه يطل علينا من نوافذ المركبات المتألقة بالانوار الكهربائية » (٣٨) .

وفي ٢٨ حزيران جرى للملك في الديوانية احتفال عظيم حضره الكثير من رؤساء عشائر الفرات الأوسط . وقد أظنبت جرائد بغداد في وصف ذلك الاحتفال ووصفت الحاضرين فيه بأنهم أبطال ثورة العشرين . وفيما يلي نص مانشرته جريدة « العراق » في هذا الصدد نقلاً عن مندوبها في الديوانية :

« اجتمع شيوخ الشامية ورؤساؤها وزعماء قبائلها منها الظوالم

(٣٧) المصدر السابق - ص ٦٩ - ٧١ .

(٣٨) جريدة «الحوادث» - في عددها الصادر في ١١ نيسان ١٩٣٠ .

والبو حسان والصفوان والأعاجيب وبني زريع والاكراع والبحاحنة
وعفج والبدير والدغارة والخزاعل والشبل والقتلة وبني حسن والسعيد
وغيرهم في سرادق كبير عصراً بجلالة الملك. وأقسموا لجلالته بالايمان
المغلظة انهم متفانون في اتباع سياسة جلالته وامثال أوامره وهم متأهبون
لقتل كل فكرة أو دسياسة تمس مصالح البلاد الرئيسية والقومية العربية
وسحق كل مروج لذلك وهم لا يصبرون على تأخير الانتخابات يوماً واحداً. وما
قاله الزعيم الشيخ شعلان أبو الجون : انا يد جلالتك القوية في تحقيق
استقلال الأمة المطلق بالطرق التي ترجحونها وطوع ارادتك اليوم وغداً كما
بالأمس • فأجابهم جلالته بأن الحكم اليوم للامة وما أنا الا كبير خدامها
العامل على تحقيق أمانها الحرة • انى سررت كثيراً بشعوركم الوطني في
ضرورة قبض الأمة على مقاليد أمورها وان هذه البلاد التي حررت نفسها
والتي لو عصرنا ترابها لقطر دم الاجداد منه لا يمكن أن تستسلم لدعوة
أجنبية أو تعرض كيانها للخطر • الأمة بحاجة الى دستور يصنعه مثلوها
طبق ارادتها وتقاليدها وشرائعها • فاشتدت الحماسة وأمن الجميع على
كلمات جلالته وزادوا بأن قبايلنا بأسرها سيفك القاطع في تأييد سياستك
الرشيده ، هذا عهدنا أمام الله والعالم ، (٣٩) .

ان هذا الذي نشرته الجرائد البغدادية كان المقصود به طبعاً ان يعلم
الرأي العام بأن عشائر الفرات الاوسط ، ولاسيما تلك التي ساهمت في
ثورة العشرين ، تقف الى جانب الملك وتؤيده على ما فعل من نفى الخالصي
وتفسير المجتهدين • ومن الجدير بالذكر أن الجرائد لم تكتف بما نشرته
بل أخذت بعد ذلك تنشر المقالات الطويلة في ذم المجتهدين بصورة غير
مباشرة وتصفهم بأنهم أجنب وأنها هم يملكون ذهنية محدودة ويريدون هدم
كيان الدولة التي أقيمت على جماجم الألوف من الشهداء •

(٣٩) جريدة «العراق» - في عددها الصادر في ٣٠ حزيران ١٩٢٣ •

كانت أعنف المقالات التي نشرت في ذم المجتهدين تلك التي كتبها سلمان الشيخ داود بتوقيع (س . د .) • وفيما يلي نموذج من إحدى مقالاته وهي بعنوان « الجبن الادبي » حيث قال فيها :

« مع ان هؤلاء المتذبذبين قد عاشوا متظلمين بسماء العراق العربي واستنشقوا هواء هذه البلاد فانهم لم يفتأوا عن محاربتها والايقاع بها تحت ستار مزركش يأخذ لمعانه بأبصار السذج من أبناء البلاد ألا وهو ستار الديانة والوحدة الدينية وغيرها التي لايمكن تحقيقها نظراً الى انتشار مبدأ القومية • وأنا على يقين من أنهم لم يقصدوا سوى الفت في ساعد الحركة العربية المباركة ، فهم بذلك يخونون البلاد التي يتنعمون تحت ظلها الوارف بقصد خدمة شعب أجنبي كان من اكبر عوامل القضاء على دولة العرب وابادة مدينتهم الزاهرة • ومع ما انطوى عليه هؤلاء الافراد من روح العداء للبلاد فانهم يظهرون اذا جوبهوا كل جبن وخضوع » (٤٠)

وفي مقالة أخرى بعنوان « العقلية البسيطة » هاجم سلمان الشيخ داود المجتهدين حيث وصفهم بأنهم يعملون في السياسة دون أن يكون لديهم أي الملم بالعلوم العصرية التي هي ضرورية لكل من يعمل في السياسة ، فهم لايعرفون تاريخ الشعوب ونفسياتها ، بل لايعرفون حتى حدود بلادهم ، ولايعرفون من تاريخ قومهم الاً صفحة مليئة بالخزعبسات والخرافات (٤١)

المجتهدون في ايران :

كان المجتهدون عندما أخرجوا من العراق من جهة خائفين توجهوا نحو كرمانشاه فوصلوها في ٧ تموز ، وقد جرى لهم في تلك البلدة استقبال عظيم اشترك فيه الأهالي والحكومة • ومكثوا في كرمانشاه شهراً • وقد

(٤٠) جريدة «العراق» - في عددها الصادر في ٥ تسوز ١٩٢٣ •

(٤١) جريدة «العراق» - في عددها الصادر في ١٠ تموز ١٩٢٣ •

أُبرق القنصل البريطاني في تلك البلدة في ١٧ تموز الى السير برسي لورين الوزير المفوض البريطاني في طهران يذكر له ماجرى في البلدة أثناء مكوثهم فيها ، حيث قال : ان المجتهدين كان حقهم موجهاً ضد الحكومة العراقية وانهم ذكروا على ملأ من الناس أنهم لن يعودوا الى العراق الا بشروط منها عزل الملك فيصل وأن لديهم رسائل من رؤساء العشائر الكبار في العراق يؤيدونهم في مطلبهم هذا • ويشير القنصل البريطاني في برقيته الى ظاهرة طريفة هي ان الحزب الشيوعي في كرمانشاه أصبح فجأة شديد التدين وأعلن أعضاؤه تعلقهم بأحد المجتهدين وهو السيد علي الشهرستاني وأخذوا يحضرون المسجد من أجله كل يوم ، وصار رئيس الحزب بمثابة الناطق باسمه • ويقول القنصل ان هذه الظاهرة ربما أدت الى عواقب خطيرة وأتاحت مجالاً للبلاشفة لينفذوا منه ، وقد ذهب القنصل الروسي بصحبة ترجمانه المرزا ابراهيم خان لزيارة المجتهدين الثلاثة : السيد أبو الحسن الاصفهاني والمرزا حسين النائيني والسيد علي الشهرستاني ، غير أن الاصفهاني والنائيني لم يكلماه ، أما الشهرستاني فكان لقاؤه معه ودياً • ثم ذكر القنصل البريطاني في برقيته ان المرزا ابراهيم خان نجح قبل بضعة ايام في تحريض الاهالي ضد بريطانيا ، فاغلقت الاسواق وخرجت مظاهرة غير أن السلطة العسكرية منعتها بايعاز من السيد علي الشهرستاني... (٤٢)

غادر المجتهدون كرمانشاه متوجهين نحو بلدة قم • وقد جرى لهم في المدن والقرى التي مروا بها استقبال هائل لأمثال له حتى ان بعض الناس كانوا يرمون بأنفسهم أمام سيارات المجتهدين لاطهار فدائيتهم لهم • وفي ١٧ آب وصل المجتهدون الى قم فاستقروا فيها • وهي بلدة مقدسة تضم ضريحاً فخماً لاحدى بنات الامام الكاظم كما تضم حوزة للعلوم الدينية كبيرة •

(٤٢) عن دائرة الوثائق العامة بلندن - رقم (أف. ١٠ - ٣٧ - ٩٠٤٧) •

أخذت الحركة المعادية لبريطانيا تستفحل في مختلف أنحاء إيران ،
ولاسيما في العاصمة طهران • وقام الحزب الشيوعي بدور مهم في هذا
السييل • وحين حل شهر محرم في ١٤ آب صار خطباء التعزية والوعاظ
يشيرون الناس ضد الانكليز ويدعونهم الى اقامة المظاهرات ومقاطعة
البضائع البريطانية •

كان الشيخ محمد الخالصي قد أبعد الى إيران في السنة الماضية ، كما
أشرنا اليه في الفصل السابق • وقد استقر في طهران • وحين حدث تسفير
المجتهدين انتهز الشيخ محمد الفرصة ، وهو خطيب مفوه ، فأخذ يشن
الحملات الشعواء على بريطانيا والمؤيدين لها • وقد ذكر السريبرسي لوردين
في برقية له الى لندن : ان الشيخ محمد الخالصي يعد المهيح الرئيس ضد
الانكليز في طهران وانه على اتصال وثيق بالمفوضية الروسية • وذكر أيضاً
ان الموظفين السوفياتيين في إيران استغلوا حادث تسفير المجتهدين واتخذوه
سلاحاً بأيديهم لاثارة الناس ضد بريطانيا (٤٣) •

اضطر السريبرسي لوزين أن يذهب الى بغداد بطائرة عسكرية أرسلت
اليه من بغداد لكي يحدث المسؤولين العراقيين بغية اقناعهم في اعادة
المجتهدين الى العراق • ولكنه عاد من غير نتيجة • وفي ٣٠ آب أرسل الى
اللورد كرزون وزير الخارجية البريطانية برقية طويلة شرح فيها الموقف
المتأزم في إيران من جراء تسفير المجتهدين • وفيما يلي نقل جزءاً من تلك
البرقية •

« سيدى اللورد - ان حادثة خروج المجتهدين من العراق وتناجج
وصولهم الى هذه البلاد كانت موضوع سلسلة من البرقيات التي أرى من
الضروري عرضها عليكم • ان ظروف خروجهم والطريقة التي عوملوا بها
أظهرت خلافاً في الرأي بين هذه المفوضية والندوب السامي في بغداد •

(٤٣) عن دائرة الوثائق بلندن - رقم (أف ٠ أوه ٣٧١ - ٩٠٤٧) •

فمن وجهة نظر السياسة البريطانية في ايران لا يمكن أن يكون هناك أمر أشد سوءاً من هذه الحادثة . فبعد مدة طويلة من العلاقات غير المرضية مع الحكومة الايرانية أخذ العداء لبريطانيا يضعف بينما هبطت سمعة المفوضية السوفياتية ونفذوها الى الحضيض ، وأصبح الطريق مفتوحاً لاعادة العلاقات الودية بين بريطانيا وايران على أساس ان بريطانيا هي الدولة الوحيدة التي تسكن وتود ان تساعد ايران في طريق التقدم الاداري والتنمية الاقتصادية لما لها من عواطف تقليدية في هذا الشأن . ولكن نفى الشيخ مهدي الخالصي وما أعقبه من خروج المجتهدين الكبار مع ستة وعشرين رجلاً من أتباعهم احتجاجاً على ذلك أنتج ضجة كبرى في ايران بدعوى ان هؤلاء الاشخاص المقدسين قد طردوا بالقوة من العراق بواسطة الانكليز ، وان الانكليز قد وجهوا بذلك أفضع اهانة الى القيدة الشيعية ، وكشفوا القناع عما كانوا يدعونه من جهف للإسلام وأظهروا أنفسهم بأنهم أعداء الألداء . وليس ضرورياً أن أضيف الى ذلك ان البلاشفة استغلوا ذلك تمام الاستغلال حيث أصبح في يدهم سلاح للدعاية لم يتوقعوه ، فاستخدموه بكل طاقهم لاثارة العداء ضد بريطانيا والنقمة عليها اني عند وصولي الى بغداد وتبادل الرأي مع السر هنري دويس والمسؤولين البريطانيين الآخرين في العراق وجدت الموضوع أكثر دقة مما كنت أتصوره فأن المسؤولين العراقيين قد اتخذوا اجراءات النفي من تلقاء أنفسهم وعلى مسؤوليتهم ، وانهم مسرورون جداً من النتائج ولم يكونوا راضين عمن قدمي الى بغداد ، فانهم يخشون أن يؤدي الضغط البريطاني عليهم ان يعودوا الى ما كانوا فيه ويضحون ما يعتقدون أنه في مصلحتهم والواقع ان وضعهم يجعلهم مضطرين الى الاستقالة في حالة الضغط عليهم ، وهم يؤكدون ان ليس هناك أية حكومة أخرى يمكن أن تحل محلهم ، واذا حدث هذا فان السلطة البريطانية ستجد من الضروري العودة الى الادارة المباشرة الأمر الذي لا ترضاه حكومة صاحب الجلالة البريطانية . ومن

الناحية الأخرى فإن الحكومة العراقية ليس لديها أية نية أو رغبة في عودة المجتهدين الى العراق خلال أية مدة محددة وعلى هذا فقد شعرت بأن اصراري على وجهة نظري ، وهي الوجهة التي تبررها الظروف في ايران حسب فهمي لها ، لا تؤدي الا الى الفشل التام في الحصول على طريقة وسطي للحل »

وأشار السربرسي لورين في برقيته الى أنه في أثناء مكوثه في بغداد قابل الملك فيصل بحضور السر هنري دوبس وعبدالمحسن السعدون وكورنواليس ، فوجد السعدون متصبلاً جداً تجاه عودة المجتهدين بينما كان الملك ميالاً للنظر فيما يهديء الوضع الخطير في ايران . وقد اتفقوا أخيراً على النظر في أمر عودة المجتهدين بعد الانتهاء من انتخابات المجلس التأسيسي والمصادقة على المعاهدة وملحقها . وذكر لورين انه بعد عودته الى طهران قابل الشاه كما قابل الوزراء وحادثهم في الموضوع الذي كان يشغل بالهم وقال لهم : « ان مصلحة الحكومة الايرانية والحكومة العراقية في هذا الموضوع واحدة ، ذلك أن تركز السلطة الدينية في أيدي المجتهدين الكبار في ايران بحيث جعلهم فوق سلطة الحكومة المدنية أمر شاذ لا يمكن لأية حكومة حديثة أن تتسامح به مدة طويلة ، ولهذا كان من الطبيعي أن تقاوم الحكومة العراقية مثل هذا التسلط بكل ما تملك من طاقة » . ويقول لورين ان هذا الكلام كان له أثره في الشاه ووزرائه (٤٤) .

الخالصي في البصرة :

ان القطار الذي نقل الشيخ مهدي الخالصي ورفاقه الاربعة من بغداد قد وصل الى محطة البصرة في مساء ٢٧ حزيران كما أشرنا اليه من قبل . وقد نقلوا من المحطة رأساً الى قصر يقع على شط العرب تجاه السراجي يسمى « قصر آغا جعفر » . وادعت الحكومة في حينه انها انما اسكتهم في

(٤٤) عن دائرة الوثائق العامة بلندن - رقم (أف . أو . ٣٧١ - ٩٠٤٨) .

هذا القصر لكي توفر لهم أسباب الراحة والترف باعتبار ان هذا القصر كان يعتبر من أفخم قصور البصرة في تلك الايام . ولكن سلمان الصفواني ينفي صحة ما ادعته الحكومة حيث قال : صحيح انها اسكنتنا في ذلك القصر الفخم غير أنها وضعتنا في غرفة تحتانية منه ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب الاليم^(٤٥) . ويصف الصفواني ما جرى عليهم في تلك الغرفة فيقول مانحه :

« لم يكن في هذه الغرفة حتى حصر نجلس عليه ، فنمنا جلوساً في تلك الليلة مستندين الى نوافذ الغرفة ، وكان الحر شديداً ، وكان البعوض بأحجام كبيرة وأسراب كثيرة يهاجمنا بلارحمة ، فلم تغمض لنا عين ، مضافاً الى أننا لم نتناول طعاماً منذ الليلة التي قبض فيها على الامام الخالصي ، والجائع لا ينام . وكان الواحد منا اذا ذهب الى المرافق الصحية رافقه جندي هندي مسلح . وكان هؤلاء الجنود شرسين جداً . وفي الصباح جىء لنا ببضعة أرغفة من الخبز العادي وقطعة من الجبن الابيض المتحجر مع الخيار التبروزي . فلم نستطع تناول شيء من هذا الطعام . وجىء لنا ظهراً ومساءً بمثل ذلك فلم نتناول منه شيئاً ، وقررنا الاضراب عن الطعام . ودام اضرابنا ثلاثة أيام ظهر علينا خلالها الاعياء التام . وفي اليوم الثالث من اضرابنا جاءنا مفتش شرطة بريطاني وألقى نظرة على الغرفة التي نحن فيها فشم رائحة كريهة تنبعث من زاوية الغرفة مما يلي الباب فدنا منها حيث رأى كمية من الخبز والجبن والخيار قد وضع بعضه على بعض من دون أن تمسه يد حتى تعفن ، ورأى أن الغرفة خالية حتى من الحصران وأن لا شيء ننام عليه . فبدت عليه علائم الاستياء وخرج من الغرفة من دون أن ينبس ببنت شفة . وبعد بضع ساعات عاد المفتش اليها ، وكان قد ذهب الى البصرة بزورق بخاري ، فاذا بالجنود ينقلون اليها أثاث بيت كامل من سجاد وفرش وقنبات وكراسي ومناضد وأواني ومواد التموين والطعام

(٤٥) جريدة «الحوادث» - في عددها الصادر في ١١ نيسان ١٩٣٠ .

على اختلافها ، بسخاء عجيب • وقيل لنا ان الحكومة قد عينت لنا طباعاً ليطهو الطعام لنا حسب ذوقنا • ولما كنت المدخن الوحيد بين رفاقي فقد تقرر تزويدي بـ (٤٠٠٠) سيكارة في الشهر من السكاير العراقية ذات العقب • وقد أفادتنا أعقاب هذه السكاير اذ لم يكن لدينا ورق نكتب عليه ، فكنت أحتفظ بعقب كل سيكارة لتدوين يومياتي الموجزة عليها في غفلة عن أعين الرقباء ... (٤٦) •

مكث الخالصي ورفاقه في ذلك القصر «الفخم» حتى يوم ٣٠ حزيران • وفي مساء ذلك اليوم طلب اليهم أن يتهيأوا للانتقال الى مكان آخر ، وأعد لهم زورق بخاري لنقلهم ، وكان الزورق مليئاً بأكياس الرز والسكر والشاي وصفائح السمن بالإضافة الى قطع من الفخم ، وهي كلها مخصصة لطعامهم • ثم تحرك الزورق بهم نحو باخرة اسمها «فاساء» كانت راسية في موضع بعيد في شط العرب • فصعدوا الى الباخرة حيث خصص لهم فيها جناح من الدرجة الاولى ، كما دفعت لكل واحد منهم نفقات جيب مقدارها ٥٠٠ روبية (٤٧) •

وقبل أن تبحر الباخرة بهم اقرب منها زورق بخاري آخر وهو يحمل أحمد الراوي الذي كان يومذاك مديراً لشرطة المتفق ومعه عبدان من عبيد الملك هما سالم وبرجس • فصعد الراوي ومعه العبدان الى الباخرة ، وقدم نفسه الى الخالصي قائلاً له : انه من بيت علم ودين وانه ابن العلامة السيد ابراهيم الراوي وقد انتدبه الملك لمرافقتهم كما بحث معه اثنين من عبيده للتدليل على تكريمه لهم ورعايته •

من الجدير بالذكر ان أحمد الراوي انما كان مراسلاً من الملك في البداية لجلب الأمير غازي وأمه واخواته من الحجاز ، ولكن الملك

(٤٦) نقلا عن مذكرات سلمان الصفواني المخطوطة •

(٤٧) سلمان آل ابراهيم الصفواني (محكوميته) - صيدا ١٩٥٢ - ص ٢٤ •

كلفه بمهمة اضافية حين علم انه سيركب في نفس الباخرة التي يركب فيها الخالصي . وقد حدثني الراوي فقال ان الملك أوصاه بالخالصي خيراً وأمره بان يوفر له جميع اسباب الراحة . والواقع ان الراوي لم يقصر بشيء في خدمة الخالصي ورعايته ، وقد بذل في سبيل ذلك أقصى جهده .

الخالصي حاجاً :

حينما وصلت الباخرة «فاسنا» الى بومبي نقل منها الخالصي ورفاقه الى باخرة أخرى اكبر منها وهي من البواخر التي تحمل الركاب بين الهند ولندن . وقد خصص لهم فيها جناح من الدرجة الاولى كما دفع لكل واحد منهم نفقات جيب للمرة الثانية مقدارها ٤١ جنيه انكليزيا (٤٨) .

وبينما كانت الباخرة في طريقها الى عدن أرسل الشيخ خزعل أمير المحمرة الى الملك فيصل يطلب منه ان يكون الخالصي في ضيافته . فاجابه الملك معترداً ، وهذا هو نص الرسالة التي أرسلها الملك الى خزعل :

الى عظمة السردار أقدس الشيخ خزعل خان حاكم المحمرة
أخي العزيز

تلقيت في أهنا ساعة كتابكم الكريم الذي تنوهون به عن رغبتكم في ابقاء حضرة الشيخ مهدي في ضيافتكم فشكرت لعظمتكم شعوركم النيل نحوي ونحو الشيخ المشار اليه الا انه وياللاسف كان حضرة الشيخ قد سافر من بومبي متجها نحو الحج قبل وصول كتابكم الكريم . اني وأسم الله لشديد الأسف على ما حصل ولكنه مراد الله واقتضت المسؤولية المتوجهة علي للوطن ومنفته أن يغادر حضرة الشيخ القطر في هذه الآونة بسبب معارضته الشديدة لانتخابات المجلس التأسيسي ومع ذلك فاني مقدر وجاهة دعوتكم وسأعمل كل ما يمكن لتحقيق رغبتكم بشأنه وفي الختام أرجوكم أن تتقوا بدوام مودتي واحترامي لشخصكم الكريم .
أخوكم فيصل (٤٩)

٢٨ تموز ١٩٢٣

(٤٨) المصدر السابق - ص ٢٤ .

(٤٩) عن وثائق البلاط الملكي - تسلسل ٣ ، رقم ٦٩ .

وصلت الباخرة الى عدن في ١٦ تموز ، فنزلوا منها الى الميناء ،
وأخذ أحمد الراوي يبحث لهم عن فندق اسلامي لينزلوا فيه فلم يجد ، لان
الفنادق التي في الميناء كانت كلها افرنجية . ولكن الحظ ساعدهم فسي
الوقت المناسب اذ رأهم تاجر كبير من تجار عدن كان من سكنة الكاظمية
سابقاً اسمه حسن علي ، فتعرف عليهم وأخذهم الى محله ووفر لهم
أسباب الراحة .

وصلت الى الخالصي عن طريق حاكم عدن برقية من الحكومة
الايرائية تدعوه هو وأولاده الى بلادها . غير ان الخالصي رفض الاستجابة
للدعوة وقال ان موسم الحج قريب وانه يجب أن يذهب لاداء فريضة
الحج اولاً ثم ينظر في أمر الدعوة بعدئذ .

كان من الصعب جداً في ذلك الوقت الحصول على وسيلة للوصول
الى مكة قبل بدء الحج ، فلم يكن هناك سوى باخرة واحدة ذاهبة الى
الحجاز وهي آخر بواخر الحجاج ، وكانت بالاضافة الى ذلك مزدحمة
بركابها وليس فيها أي محل شاغر . ولكن حاكم عدن استطاع أن يهيء
للخالصي ورفاقه محلاً في جناح قائد الباخرة ، وبذلك تم لهم الوصول
الى جدة في الوقت المناسب .

عندما اقتربت الباخرة من جدة خرج لاستقبالها في زورق بخاري
قائمقام جدة مع مدير الكمر ك ووزير الصحة ، فاستقبلوا الخالصي بالنيابة
عن الملك حسين وأعلنوا له أنه هو ورفاقه سيكونون في ضيافة الملك طيلة
مكوثهم في الحجاز .

لم يمكث الخالصي في جدة سوى بضع ساعات ، فقد كان على عجل
يريد الوصول الى مكة قبل فوات أوان الحج . فأعدت له ولرفاقه حمير
حساوية نقلتهم الى مكة حيث وصلوها بعد رحلة متعبة استغرقت تسع
ساعات . وعلى أثر خروج الخالصي من جدة وصلت الى القنصل

البريطاني في جدة برقية من السر برسي لورين في طهران هذا نصها :
« أرجو ان تجعلوا الشيخ مهدي الخالصي يرسل برقية الى رئيس
الوزارة الايرانية يعرب فيها عن امتنانه للحكومة الايرانية لاهتمامها بأمره
ويصرح فيها ان الحكومة البريطانية عرضت عليه أن ترسله الى ايران
ولكنه فضل اغتنام الفرصة لاداء الحج . ان من المهم جداً أن تجعلوا
الخالصي يرسل مثل هذه البرقية لكي يهدأ الهياج الذي يشتد هنا في
أوساط رجال الدين » .

فأجاب القنصل على هذه البرقية قائلاً : انه يأسف لعدم امكانه أن
يقوم بما طلب منه كما ينبغي ، لأن الخالصي لم يبق في جدة سوى ساعات
قليلة حيث وصل اليها ضحى وغادرها عصراً ، ولهذا كان من المستحيل
على القنصل زيارة الخالصي فكلف السيد أحمد الراوي بذلك ، وقد ذكر
الراوي ان الخالصي كثير الريبة والتلصص ولا يفعل شيئاً قبل استشارة
القنصل الايراني ، وقد تمكن الراوي أخيراً أن يحصل من الخالصي على
ورقة موقعة منه ولكنها فيما يبدو لا تنفع الحكومة البريطانية كثيراً . ثم
يختم القنصل برقيقته بمدح أحمد الراوي قائلاً انه يستحق التقدير على
الجهد الذي بذله في الحصول على الورقة ، وهو لذلك يلفت نظر المندوب
السامي ببغداد الى كفاءة هذا الرجل ويرجو منه اذا وجد ذلك مناسباً أن
يلفت نظر الحكومة العراقية الى ذلك ايضا (٥٠) .

عند وصول الخالصي الى مكة لم يتم بزيارة الملك حسين كما تقضي
به التقاليد الرسمية . فقد كان رأي الخالصي ان العلماء لايجوز لهم زيارة
الملوك ، بل ان الملوك هم الذين يجب ان يقوموا بزيارة العلماء . ويقول
الراوي انه استطاع في منى ان يقنع الخالصي بحضور السراشق الملكي
الذي اعد لاستعراض الجيش . وهناك التقى الخالصي بالملك وعانقا ،

(٥٠) عن دائرة الوثائق العامة بلندن - رقم (أف . أو . ٣٧١ - ٩٠٤٧) .

وابدى الملك نحو الخالصي احتراماً كبيراً وكان يخاطبه دائماً بلقب « مولانا الشيخ » .

ويروي سلمان الصفواني قصة طريفة جرت في أثناء جلوس الخالصي ورفاقه الى جانب الملك حسين في السراوق الملكي ، وهي انهم شاهدوا الامير غازي يتطلع عليهم من وراء ستار وكان يومذاك صبياً في الحادية عشرة من عمره ، فناداه الملك باسم « عون » وقال له : « تعال ياعون سلم على اعمامك الذين استدعوا أباك الى العراق » . ثم أخذ الملك يتحدث اليهم عن السبب الذي جعله ينادى الامير غازي باسم « عون » ، فقال : « عندما كانت أمه حاملة به ظهر لي عمنا الحسين عليه السلام في المنام وقال انها ستلد غلاماً ذكرأ فأطلق عليه اسم عون » . ولما ولد الغلام أرادت الاسرة ان تسميه باسم غازي لان والده كان حينذاك في العسير غازياً ، وأصرت على هذه التسمية ، فقلت لهم : سموه ماتشاؤون ولكنى لا أسميه الا عون استجابة لطلب عمنا الحسين » .

الخالصي في قم :

بعد اتمام فريضة الحج وزيارة قبر النبي قرر الخالصي تلبية دعوة الحكومة الايرانية . فركب باخرة أقلته مع رفاقه الى بوشهر . وقد افرق عنهم سلمان الصفواني حيث ذهب الى البصرة ومنها الى بغداد في قصة طويلة لامجال هنا لذكرها .

عند وصول الخالصي الى بوشهر جرى له فيها استقبال عظيم جداً اذ خرج أهل البلدة كلهم لاستقباله ، كما جاءت وفود كثيرة من المناطق المجاورة لهذا الغرض . وقد حدثت في أثناء الاستقبال حادثة عجيبة يصعب تحليلها : هي أن رجلاً انكليزياً كان يعمل في شركة النفط بعبادان اخترق جمهور المستقبلين وتعلق بسيارة الخالصي ثم أطلق عليه رصاصة من مسدسه أخطأته . وقد اثنال الجمهور على الرجل يريدون قتله ، غير ان الجنود

أسرعوا لاستخلاصه منهم • وحين علم السر أنرولد ويلسون بالامر ، وكان يومذاك مديرا لشركة النفط ، أرسل الى الخالصي يبدى أسفه لما جرى ويعتذر بان الرجل كان أثناء الحادث سكران لايعي وانه قد عزله من وظيفته واعاده الى لندن • ولما وصل الخبر الى طهران حدث هياج بين الناس وكادت تقع فتنة غير أن الحكومة عمدت الى تهدئة الناس حيث أكدت لهم بان الخالصي لم يصب بسوء وان الرجل قد غلبت على عقله الخمرة ولم يعتمد ذلك العمل ، فسكن الناس (٥١) •

وبعد أن مكث الخالصي في بوشهر قليلا غادرها الى شيراز ، ومنها الى أصفهان ، ومنها الى قم • وقد جرت له استقبالات عظيمة في جميع المدن والقرى التي مر بها • وكان وصوله الى قم في أواخر تشرين الاول ١٩٢٣ ، وفيها التقى بالمجتهدين الذين كانوا قد وصلوا اليها قبله •

ولم يكد الخالصي يستقر في قم حتى نشب الخلاف بينه وبين المجتهدين فقد كان هؤلاء يرغبون في العودة الى العراق ، وكانوا قد أرسلوا الى الملك فيصل رسولين منهم لمفاوضته في الامر هما المرزا مهدي الخراساني والشيخ جواد الجواهري • وحين علم الخالصي بإرسال هذين الرسولين تأثر أشد التأثير ، وقيل ان عدة مشاجرات حصلت بينه وبين المجتهدين • وقد أشار الشيخ محمد الخالصي الى ذلك في مذكراته حيث قال ما نصه :

• لما ورد أبيي الى قم ورأى ما أصاب العلماء من الوهن والخوف بمراجعتهم لفصل وعزمهم على العودة الى العراق لامهم أشد الموم ، وبين لهم ان التكليف الشرعي والأمر الالهي لايساعدان على هذا العمل ، وانه يجب البقاء في ايران والسعي في اصلاحها ثم اصلاح العراق وسائر البلاد الاسلامية بواسطتها ، لأنها اذا صلحت تكون مركز الحركات الاصلاحية في جميع البلاد الاسلامية لموقعها الجغرافي واستقلالها التام ، وانه يحرم التسليم

(٥١) نقلا عن مذكرات الشيخ محمد الخالصي المخطوطة •

الى الانكليز ويفصلهم ولا سيما بعد ما أقدموا عليه من نفي العلماء جميعهم وعدم رعايتهم حرمة أحد منهم ، وبين لهم أن رضوخهم الى الضيم واستسلامهم الى الذل يرجوعهم الى العراق يوجب بأس العالم الاسلامي واستسلام سائر الطبقات من المسلمين الى مثل ما استسلم اليه العلماء ، وفي هذا هلاك المسلمين عامة والعراق وايران خاصة ، وان ذلك من أشد المحرمات الشرعية ولا يقدم على مثله أبي للضم أو عاقل عرف قدر الحياة ومنزلتها • ولم يزل أبي ينصح العلماء ويرشدهم فلا ينفع ذلك حتى يش منكم وقال : ليتكم لا تجتم الى ايران ولا اشركنم معي ، وتركموني وحدي والانكليز ، واليوم إذ صمتم على ما يخالف مصلحة الاسلام وأقدمتم على أمر أراه من أشد المحرمات فلا بد لي من مفارقتكم والبقاء في ايران حتى يحكم الله لي وهو خير الحاكمين • وفارقهم منضبا وقصد خراسان ، وبقي العلماء في قم يستعدون للرجوع الى العراق منتسليين لأمر الانكليز راضين بالذل والهوان متظرين لصدور الاذن من فيصل والانكليز بالرجوع الى العراق • وحسابهم في ذلك على ربهم وهو أعلم بحالهم ، (٥٢) •

يعزو الشيخ محمد الخالصي رغبة المجتهدين في العودة الى العراق الى اسباب ثلاثة هي :

أولا : ان المجتهدين كانوا سيئي الظن بالاييرانيين ، ولا سيما السيد أبو الحسن الاصفهاني إذ هو لم يكن يذكر ايران بخير •

ثانيا : ان المجتهدين كانوا يظنون ان الرئاسة لا تتم الا في النجف ، وقد علموا ان السيد محمد الفيروزآبادي بدأ يعمل للانفراد بالرئاسة فيها وصار يكتب الرسائل الى ايران ينتقص فيها من شأن المجتهدين المبعدين ويذكر ان الحوزة العلمية في النجف مشغولة بالبحث والدرس وان العلماء فيها على أحسن حال •

ثالثاً : ان الشيخ عبدالكريم اليزدي الذي كان كبير المجتهدين فسي قم لا يرغب في بقاء المجتهدين فيها لانهم يزاحمون في الرئاسة ، فهو كان يعارضهم من وراء ستار (٥٣) .

ومما يجدر ذكره في هذا الصدد ان السربرسي لورين أشار الى مثل هذا التعليل في رسالته الى اللورد كرزن المؤرخة في ٣٠ آب ١٩٢٣ حيث قال : ان المجتهدين يملكون في العراق دورا واملاكا واموالا خيرية للتوزيع كثيرة ، ولهذا فان من مصلحتهم العودة الى « مراتهم » بأسرع ما يمكن ، يضاف الى ذلك ان كبار المجتهدين في ايران وان كانوا مضطرين للترحيب بالمجتهدين المنفيين واحترامهم غير أنهم يعتبرونهم متطفلين عليهم يزاحمونهم على مقاماتهم وامتيازاتهم (٥٤) .

الخالصي في خراسان :

قرر الخالصي الانفصال عن المجتهدين ، والذهاب الى خراسان . وفي منتصف كانون الاول ١٩٢٣ غادر قم . وعند وصوله الى بلدة الشاه عبد العظيم التي تقع الى الجنوب من طهران جاءت اليه الجماهير من طهران للسلام عليه وتقبل يديه ، كما جاء رضا خان الذي كان قد تولى رئاسة الوزارة منذ عهد قريب واختلى به اكثر من ساعتين .

وصل الخالصي الى خراسان في اوائل عام ١٩٢٤ وبعد ان أتم زيارة مرقد الرضا نوى الاستقرار في البلدة واستخار الله بالقرآن فخرج قوله تعالى « بلدة طيبة ورب غفور » . وبهذا عقد العزم على سكناها (٥٥) .

أول عمل قام به الخالصي في خراسان هو تأسيس جمعية سماها « جمعية استخلاص الحرمين وبين النهرين » . وفي ٢٦ كانون الثاني

(٥٣) نقلا عن كتاب مخطوط للشيخ محمد الخالصي عنوانه « بطل الاسلام » .

(٥٤) عن دائرة الوثائق العامة بلندن - رقم (أف . ٥٠٠ - ٣٧١ - ٩٠٤٨) .

(٥٥) نقلا عن كتاب الخالصي السابق .

أصدر بلاغا باللغة العربية دعا فيه المسلمين في جميع البلاد الاسلامية
للاتساب الى الجمعية وحثهم على السعي لتطهير الأماكن المقدسة فسي
الحجاز والعراق من لوث الكفار . وقد تُرجم هذا البلاغ الى اللغات
الفارسية والتركية والبشتو والاوردو ، وطبع في كتاب صغير نشر بين الناس
كما أرسل عن طريق التهريب الى الهند .

واهتم الخالصي بتقوية الحكومة الايرانية وتنمية قواتها المسلحة
ليجعلها ركيزة للمسلمين في محاربة الكفار . فهو عندما كان في شيراز في
طريقه الى قم أصدر فتواه بتفويض الحكومة الايرانية بجباية اموال الزكاة
والخمس من المسلمين وانفاقها على القوات المسلحة المكلفة بحماية
الثغور^(٥٦) . ولما استقر في خراسان أصدر فتوى ثانية في انفاق واردات
أوقاف الرضا لسد العجز المالي الذي كانت الحكومة الايرانية تعاني منه في
تلك الايام^(٥٧) .

لاحاجة بنا الى القول ان اصدار هاتين الفتوين خلق للخالصي خصوما
كثيرين لاسيما بين رجال الدين . فقد كان هناك عدد كبير من رجال الدين
وغيرهم يتفقون من أموال الخمس والزكاة وواردات أوقاف الرضا ، ولم
يهن عليهم ان تتصرف الحكومة بتلك الاموال دون ان يكون لهم نصيب
منها . أضف الى ذلك ان كثيرا من رجال الدين ، ولا سيما في خراسان ،
وجدوا في الخالصي منافسا لهم يهدد مقامهم الديني في أوساط العامة
ويتفوق عليهم بانجذاب القلوب اليه .

أخذ خصوم الخالصي يتحينون الفرصة للكيد له والايقاع به . وقد
واتهم الفرصة في ٢٣ شباط ١٩٢٤ حين أصدر الخالصي فتوى بجعل عيد
النيروز يوم حداد ديني . ففي ذلك اليوم أخرجت جريدة « شرقي ايران »
التي كانت تصدر في خراسان عددا خاصا كتبت في مقدمته بحروف بارزة

(56) Report On The Administration of IRAQ - 1923 - 1924 - London
1925 - p. 13.

(٥٧) عبدالرزاق أمين (ذكرى الخالصي) - بغداد ١٩٢٥ - ج ١ ص ١٣ .

هذه العبارة : « عيد قومي - أو يوم حداد اسلامي » • وذكرت الجريدة استثناءً موجهًا الى الخالصي هو : هل يجوز الاحتفال بعيد السيروز القادم في الوقت الذي تكون فيه مكة والمدينة والنجف وكر بلاء والكاظمية وسامراء تحت حكم اعداء الاسلام وتدوس تربتها المقدسة خيول الاجانب ؟ ثم اوردت الجريدة اجواب الخالصي إذ يقول فيه : ان الاحتفال بعيد السيروز في هذه السنة يجب أن يكون كما لو كان قد حل في شهر محرم وفي يوم مقتل الامام الحسين وأخيه أبي الفضل العباس •

لا يخفى ان عيد السيروز كان ولا يزال يعتبر عيداً قومياً عظيماً في ايران ، وهم يروون فيه الاحاديث والمأثورات الدينية • ومن غرائب الصدف ان كان السيروز في تلك السنة موافقاً ليوم منتصف شعبان وهو اليوم الذي يحتفل فيه الشيعة بميلاد صاحب الزمان ، وكان كذلك موافقاً لليوم الذي يحتفل فيه البهائيون بذكرى وفاة عباس أفندي • فأخذ خصوم الخالصي يشيعون بين الناس أن الخالصي بهائي وأنه يريد أن يقلب العيد مأتما حزناً على عباس أفندي • وقد راجت هذه التهمة بين كثير من الناس خصوصاً بسين أولئك الذين كانوا يعقنون الخالصي لفتاويه الجريئة •

انشق أهل خراسان الى فريقين متعادين ، فريق مع الخالصي وآخر عليه • ومما زاد في العداء بين الفريقين ان القنصلية الروسية كانت تؤيد الخالصي بينما كانت القنصلية البريطانية تؤيد خصومه •

وعندما اقترب يوم السيروز في ٢١ آذار جاء الى الخالصي بعض مقلديه يطلبون منه الاجازة للاحتفال بميلاد صاحب الزمان ، فاجاز لهم ذلك على أن يكون الاحتفال في اليوم التالي ليوم السيروز • وقد اقيم الاحتفال في اليوم التالي فعلاً حيث جرى مساءً في مسجد گوهر شاه وحضره الحاكم العام وكبار الموظفين واعيان البلدة • وحينذاك جاءت مظاهرة معادية تحمل تماثيل عباس أفندي وعلي محمد الباب فأقربت من مكان الاحتفال وأخذت تحيي عيد السيروز وتشم البهائية • ثم توجهت نحو بيت الخالصي وصارت

تهتف ضده ، وأطلقت بعض المفرقات • وانطلقت بمدن تجول في بعض شوارع البلدة ، واعتدت على افراد من البهائيين ، ثم تفرقت بعد ان اشعلت النار في التماثيل التي كانت تحملها •

لم يسكت أتباع الخالسي عن هذه الاهانة فاخرجوا في اليوم التالي مظاهرة لتأييد الخالسي وأخذ المتظاهرون يهتفون ضد البهائية وضد فكرة الجمهورية ، ذلك لان الخالسي كان يؤمن بحارب فكرة الجمهورية التي كان بعض الايرانيين ينادون بها ، وكان يعدها مكيدة للقضاء على الاسلام • ومرت المظاهرة بصحن الرضا وبعض الشوارع الرئيسية ، واعتدت على بعض البهائيين على نحو ما فعلت المظاهرة السابقة • فاستدغيت قوة مسن الجيش لتفريق المظاهرة ، وحصل تدافع باليدى بين الجنود والمتظاهرين ، وأطلق الجنود النار في الهواء • ثم تفرقت المظاهرة بعد ما تم القاء القبض على عدد كبير منهم ، ولكنهم افرج عنهم في اليوم التالي (٥٨) •

سُم الخالسي من خراسان وأهلها ، وقرر مغادرة البلدة الى طهران ، وصرح أن الخراسانيين أهانوه أكثر من اهانة الانكليز له • وحين شاع خبر عزمه على الرحيل جاء اليه الكثير من الخراسانيين يعلنون ندمهم على ما فعلوا ويصرون عليه بالبقاء • وذكر التقرير البريطاني السري ان القنصل الروسي كان له دور في اقناع الخالسي بالبقاء في خراسان (٥٩) •

وفاة الخالسي :

توفي الشيخ مهدي الخالسي بالسكته القلبية في مساء ١١ رمضان ١٣٤٣ هـ - الموافق ل ٥ نيسان ١٩٢٥ م • وقد جرى لجازته في خراسان تشييع لم تشهد له البلدة مثيلا من قبل • وعظمت الاسواق والدوائر الرسمية أعمالها في ذلك اليوم ، كما أعلنت القنصلتان الروسية والافغانية الحداد •

(٥٨) عن دائرة الوثائق العامة بلندن - رقم (أف . أو . ١٣٧١ - ١٠١٤٠)

(٥٩) المصدر السابق •

وفي مساء ٧ نيسان وصلت الى الكاظمية برقية من خراسان تنبئ
ب وفاة الخالصي ، فارتجت البلدة لهذا النبأ وارتفع صوت البكاء والعيول فيها .
وفي اليوم التالي اغلقت الاسواق حدادا وخرجت مواكب اللطم من المحلات
المختلفة قاصدة مدرسة الخالصي وهي تنوح وتلطم الصدور . وجاء موكب
الاعظمية لمشاركة أهل الكاظمية في العزاء ، وكانت هذه أهزواجتهم :
ياعمود الاسلام حامي الشريعة يتمت هاالمخلوق سنة وشيعة

كنت يومذاك صيا في الثانية عشرة من عمري ومن طريف ما أذكره
أن الناس حين كانوا يتحدثون عن نفي الخالصي وموته يشبهون ذلك بمقتل
الحسين ، فكانوا يقولون ان يزيد بن معاوية هو اليوم جورج الخامس ،
وعبيد الله بن زياد هو فيصل ، وعمر بن سعد هو عبدالمحسن السعدون ،
أما شمر بن ذى الجوشن فهو عبدالرزاق الفضلي . ونسى الناس أن يذكروا
أنهم هم أنفسهم أهل الكوفة .

أقيمت مجالس الفاتحة على الخالصي في اكثر المدن العراقية وظلت
تتوالى مدة طويلة ، كما أقيمت حفلات التأبين وكانت اولها حفلة حزب
النهضة التي جرت في مساء ٩ نيسان وشارك فيها عبدالرزاق الرويشدي
وجميل صدقي الزهاوي ونعمان الاعظمي وعبودالكرخي ومحمد عبدالحسين
وابراهيم حلمي العمر وحسون القزويني وخميس آل تويج . وفي مساء ٢٠
نيسان أقام نادي الاصلاح ببغداد حفلة ثانية شارك فيها جعفر الشيبني ومهدى
البصير وعبدالحسين الازري وقاسم العلوي ومعروف الرصافي .

أصبحت مدرسة الخالصي في الكاظمية كأنها سوق عكاظ لكثرة
الشعراء الذين أخذوا يتوافدون عليها لالقاء قصائدهم من على منبرها . ولم
تتخذ الحكومة أى اجراء لمنع الشعراء من القاء قصائدهم هناك ، بل تركهم
يفعلون مايشاؤون كأنها أدركت ان ليس هناك اى خطر منهم .

والملاحظ ان الشعراء لم يخرجوا في نظمهم عن الاطار التقليدي الذي
اعتادوا عليه في الرثاء منذ قديم الزمان . فقد كانت قصائدهم كلها تقريبا
متشابهة في معانيها تدور حول عظمة الفقيده ومناقبه ، وكيف انهد ركن الدين

واظلمت الدنيا بموته ، وكيف أصبح الناس من بعده حيارى لا يدرون أين يتوجهون ، وغير ذلك من المفاهيم التى تكرر عند موت أي شخص عظيم . ولكن الفرق بين شاعر وآخر هو في صياغة الالفاظ الزنانة التى يعبرون بها عن تلك المفاهيم والمبالغات التى يصورونها بها .

وقد انشغل الادباء والمتعلمين فى تلك الايام بالمفاضلة بين القصائد ، ونسوا الهدف الذى مات الخالصى من أجله ، فاذا اجتمعوا كان معظم حديثهم يدور حول الشعراء الذين ألقوا قصائدهم في ذلك اليوم وماهى الأبيات التى نالت استحسانا أكثر ، وربما تجادلوا فى ذلك واختلفوا وارتفعت أصواتهم على نحو ما كان يجرى في العصور « الذهبية » الاولى .

ومما اذكره في هذا الصدد ان شاعرا نجفيا اسمه السيد صادق الهندي ألقى قصيدة في رثاء الخالصى ظلت مدة طويلة محسور حديث الناس واعجابهم . وفيما يلي بعض أبيات نموذجية منها ليطلع القارىء بها على المستوى الفكرى الذى كان الناس يعيشون فيه حينذاك :

هل أنت يا أعجوبة الاكوان ملك تجلب صورة الانسان
أم أنت مثلك الجليل لكي ترى فيك الانام حقيقة الايمان
أم هل لهذا المصير غيرك آخر قد حاز فى الدارين سبق رهان
أبقيت سيرتك الحميدة فى الورى يتلونها كتلاوة القرآن
يانوح هذا المصير كيف تركتنا من لجة الأخطار في طوفان
وخليل هذا القطر تمرود الأسى أصلى القلوب عليك بالنيران
وكليم هذا المصير الا انه للصبر وجه آية الثبان
أحييت ميت شعبنا فكأنما عيسى أعيد بهذه الازمان (٦٠)

الواقع أن هذا ديدن الشعر العربى منذ عصوره الاولى ، إذ كان الناس ينشغلون به عما حولهم من المشاكل والمآسى ، ولهذا كان السلاطين يشجعونه ويجزلون له المعاء ، فقد وجدوا فيه خير وسيلة يلهون به الشعب ويخدرونه . وربما صح قول من قال : « الشعر أفيون العرب » .

(٦٠) عبدالرزاق أمين (المصدر السابق) - ج ١ ص ٥٤ - ٥٥ .

الفصل السادس

الوزارة العسكرية

كان نجاح عبدالمحسن السعدون في نفي الخالصي وتسفير المجتهدين قد رفع من مكانته عند الانكليز وجعله في نظرهم الرجل الذي يمكن الاعتماد عليه في تمشية سياستهم من جهة وفي مقاومة مناورات الملك فيصل من الجهة الاخرى . وقد أحس الملك بالخطر الناجم من ذلك وبدأ يشعر بالغيرة من ارتفاع مكانة السعدون لدى الانكليز .

ومما زاد في قلق الملك ان المندوب السامي الجديد السير هنري دويس كان شديد الاعجاب بالسعدون ويرى فيه الرجل الذي يتمثل فيه نبل البدواة وبساطتها^(١) . ولهذا أخذ الملك وأعوانه يبتون الاشاعات السيئة ضد السعدون ، ويحاولون الانتقاص من شأنه في الاوساط الوطنية ويخلقون له المصاعب^(٢) .

ظل الملك طيلة صيف ١٩٢٣ يتحين الفرص لاسقاط وزارة السعدون . وفي أواخر تشرين الاول أثار أزمة وزارية بغية اسقاطها . كتبت المس بيل في ٣١ منه تقول : « ان الملك أثار في هذا اليوم أزمة وزارية كما هي عادته بين حين وآخر » ان الوزارة بوجه عام من أفضل ما يمكن الحصول عليه ، أما شكاوي الملك منها فهي في الغالب غير معقولة ... »^(٣)

نشأت الازمة الوزارية من كتاب أرسله رستم حيدر باسم الملك الى مجلس الوزراء يقول فيه : ان الوزارة السعدونية قد تمهدت في بداية أمرها

(١) خيري أمين العمري (شخصيات عراقية) - بغداد ١٩٥٥ - ج ١ ص ٤٩ - ٥٠ .

(٢) خيري العمري (حكايات سياسية) - القاهرة ١٩٦٩ ص ١٩٩ .
(3) Burgoyne (Gertrude Bell) - London 1961 - vol. 2, p. 319.

بأنها ستعالج الضائقة الاقتصادية المسيطرة على البلاد ولكنها لم تفعل شيئاً سوى زيادة عبء الضرائب على عاتق الأمة ، ولهذا فإن جلالة الملك يطلب من الوزارة موافاته بأسرع ما يمكن من الوقت بالإيضاح عما فكرت به أو قامت به من الأعمال لدرء خطر الحالة الاقتصادية . وقد امتنع السعدون من هذا الكتاب واعتبره لوفاً من الملك على تقصير الوزارة في القيام بواجباتها ، فأرسل جواباً الى الملك يقول فيه : اذا كان جلالة الملك يعتبر الوزارة مقصرة في القيام بواجباتها فهي اذن لايسمها سوى تقديم استقالتها ، اما اذا كان الملك يريد الاستفهام حقاً عما قامت به الوزارة لحل الازمة الاقتصادية فسترحم من جلالته توقيف الكتاب المذكور وارسال كتاب آخر بدلا عنه . وعند وصول هذا الجواب الى الملك تراجع وأرسل الى السعدون يقول له معتذراً بأنه لم يقصد اللوم على تقصير الوزارة في اعمالها كما تبادر الى ذهن فخامتكم بل أراد لفت نظرها الى شدة الضائقة الاقتصادية ووجوب مضاعفة الجهد في سبيل معالجتها^(٤) .

لم يكد يمر على انتهاء الازمة الوزارية سوى اسبوعين حتى عادت من جديد ، وأخذ الملك يتصيد الاسباب لاسقاط الوزارة . تقول المس بيل في ١٤ تشرين الثاني : « في يوم الاثنين ذهبت لرؤية لعبة البولو للجيش العربي ، وكان الملك هناك فركبت في سيارته وحاولت اقناعه بعدم اسقاط الوزارة دون جدوى ،^(٥) » .

اضطر السعدون الى تقديم استقالته في ١٥ تشرين الثاني . وأسرع الملك الى تكليف أحد رجاله الذين يعتمد عليهم - وهو جعفر العسكري - بتشكيل وزارة جديدة . وقد كان العسكري يومذاك متصرفاً في الموصل ولم يكن قد مضى على تعيينه هناك سوى مدة قصيرة ، فوصلت اليه برقية من الملك تأمره بالعودة الى بغداد حالاً .

(٤) عبدالرزاق الحسيني (تاريخ الوزارات العراقية) - صيدا ١٩٦٥ -

ج ١ ص ١٤٤ - ١٤٥ .

(٥) Burgoyne (op. cit.) - vol. 2, p. 820.

تشكلت الوزارة العسكرية في ٢٦ تشرين الثاني ، فكان فيها علي جودت الايوبي وزيرا للداخلية ، ونوري السعيد وزيرا للدفاع ، وعبدالمحسن شلاش وزيرا للمالية ، وأحمد الفخري وزيرا للمدلية ، وصيح نشأت وزيرا للمواصلات والاشغال . وفي نفس اليوم صدرت الارادة الملكية باسناد وزارة الاوقاف الى صالح باش اعيان . ولكن وزارة المعارف بقت شاغرة . فقد كانت النية متجهة نحو اسنادها الى رجل شيعي لكي يكون في الوزارة وزيران شيعيان بدلا من واحد . وبدأ البحث عن هذا الرجل .

يروى ساطع الحصري : ان الآراء كانت متضاربة حول الرجل الذي يتولى وزارة المعارف ، فاقترح علي جودت الايوبي اسم رجل من كربلاء يعرفه منذ كان فيها متصرفا هو محمد حسن أبو المحاسن ، ووصفه بأنه « فقير » أي انه مطواع لايميل الى مخالفة زملائه . وفي ٣ كانون الاول صدرت الارادة الملكية بتعيين أبو المحاسن وزيرا للمعارف . وقد تبين فيما بعد ان هذا الرجل ليس « فقيرا » كما كانوا يتصورونه بل كان من أكثر الوزراء اعتراضا ومخالفة^(٦) .

يقول التقرير البريطاني المقدم الى عصبة الامم عن الوزارة العسكرية مانصه : « ان تشكيل الوزارة الجديدة أعطى للطائفة الشيعية فرصة للمصالحة كانت تتوق اليها سرا . وعندما اتضح ان الوزارة تضم وزيرين شيعيين ، أحدهما لوزارة المالية ، ذهب وفد من رؤساء الشيعة لمقابلة الملك وقدموا له بياناً أعربوا فيه عن يقينهم بأن الشيعة كانوا على خطأ في معارضة السياسة البريطانية وأنهم مصممون على تغيير جذري لموقفهم منها ،^(٧) .

(٦) ساطع الحصري (مذكراتي في العراق) - بيروت ١٩٦٧ - ج ١ ص

٣٧١ - ٣٨٤ .

(7) Report on The Administration of IRAQ - 1928 - 1924 - p. 17.

لا حاجة بنا الى القول ان هذا الوفد الذى أشار اليه التقرير البريطاني لم يكن يمثل الشيعة حقاً ، بل كان مؤلفاً من اولئك الوجهاء والرؤساء الذين اعتادوا على مقابلة الحكام وعلى التفوه بما يرغب فيه الحكام من معسول الكلام . وهم كانوا كثيرين في تلك الايام - ومازالوا !

المفاوضة مع المجتهدين :

كان السعدون - كما رأينا - شديد التصلب ضد المجتهدين لا يريد أن يتسامح في أمر عودتهم من ايران ، وكان الانكليز يؤيدونه فى ذلك ، بينما كان الملك على العكس منهم يريد الاتصال بالمجتهدين ومفاوضتهم من أجل اعادتهم ، ولعله انما أراد ذلك نكاية بالسعدون وتحدياً له .

كتب السر برنسي لوريتن من طهران في برقية منه الى لندن بتاريخ ٣٠ آب ١٩٢٣ يقول مانصه :

• سمعت الآن من مصادر إيرانية موثوقة ان قضية المجتهدين من المحتمل ان تسوى قريباً عن طريق محادثة مباشرة بينهم وبين رسولين أرسلهما الملك اليهم في قم . . . وقد حاول بعض الإيرانيين بصورة غير مباشرة جرتي للاشتراك في المحادثة حول الشروط التى يمكن ان تتم بها عودة المجتهدين ، ولكنني رفضت ان أقبل شيئاً في هذا الخصوص وقلت للشخص الذى جاء لمقابلتي اني لا أملك أي تخويل من الحكومة العراقية التى هى المسئولة الرئيسة في هذا الامر للاشتراك في اية مفاوضة ، (٨) .

وفى اواسط تشرين الثاني - أي قبل سقوط الوزارة السعدونية - وقعت في يد الانكليز رسائل كان المجتهدون قد أرسلوها الى وكلائهم فى العراق يقولون فيها ان الملك فيصل وعدهم بأمور هى : (١) اسقاط الوزارة السعدونية ، (٢) تشكيل وزارة شيعية برئاسة رجل شيعي ، (٣) اعادة جميع المجتهدين المنفيين الى العراق ، (٤) رفض المعاهدة

(٨) عن دائرة الوثائق العامة بلندن - رقم (أف . ٠ أو . ٣٧١٠ - ٩٠٤٨) .

وقال المجتهدون فى رسائلهم انهم بالرغم من عدم ثقتهم بوعود الملك قد ارسلوا طي رسائلهم فتوى موقعة من قبلهم ومختومة يعلنون فيها رفع التحريم عن الانتخاب فى حالة تحقيق الملك لوعوده . وعندما اطلع السر هنرى دويس على هذه الرسائل ذهب الى الملك وقال له : ان لعبته مع المجتهدين لا تخلو من خطر وقد يستعملونها سلاحا ضده . وتقول المس بيل : ان الملك أخذ الامر بمرح وقال لدويس ان المجتهدين قد بالغوا فى مطالبهم وان من الممكن تركهم الآن يطهون حساءهم ببطء وانه سيقطع مفاوضاتهم معهم (٩) .

قطع الملك مفاوضاته مع المجتهدين حسبما تعهد به لدويس ، غير أنه أخذ يحرك على عادته بعض الجهات الوطنية للمطالبة بإعادة المجتهدين لكي يتخذ ذلك ذريعة لفتح الموضوع من جديد مع دويس . ففي ٦ كانون الاول ذكرت جريدة «الاستقلال» تقول ان فريقا من منوري العاصمة ومفكرها راجعوا فأبدوا شكرهم للحكومة الحاضرة لزمها على إعادة الشيخ مهدي الخالصي وزملائه المجتهدين ، كما أظهروا استبشارهم بحسن نوايا الحكومة ، وهم ينتظرون تأييد أقوالها بالأفعال . وفي ١٠ منه عادت الجريدة فذكرت ان عدة رسائل وردتها من الحلة والنجف وكربلاء وفيها يشكر اصحابها الوزارة الجديدة على عزمها على إعادة حجة الاسلام الخالصي وبقية العلماء الاعلام ، وهم يأملون أن تتحقق هذه الآمال .

وعلى اى حال فقد استطاع الملك فى اوائل شباط ١٩٢٤ أن يتفاهم مع دويس حول إعادة المجتهدين على اساس ان الانتخابات اوشكت على الانتهاء ولم يبق هناك أي سبب للتصلب ضد عودتهم . وقد ورد في التقرير البريطانى المقدم الى عصبة الامم حول هذا الموضوع ما نصه :

« تقرر في شباط ١٩٢٤ بعد موافقة المندوب السامى ان ليس هناك

(9) Burgoyne (op. cit.) - vol. 2, p. 321 .

ما يمنع عودة المجتهدين ، ماعدا الشيخ مهدي ، بشرط أن يتمهّدوا للملك بأنهم سوف يتجنبون التدخل في السياسة . فان نفهم وان كان باختيارهم قد أدى الى حصول نفور شديد بين الحكومتين الايرانية والعراقية ، وان سيل الطلبة والزوار من ايران قد توقف ، فأتج ذلك ضائقة مالية فسي الثبات المقدسة ، وفي جهاز السكك الحديدية أيضا . وهناك علاوة على ذلك شعور بأن قدرة المجتهدين على الشر قد اقلعت من جذورها من جراء عملهم الاحمق في الاحتجاج وما تلاه من ندم . . . ان الحكومة العراقية تستحق التهنة على موقفها الصلب الذي انتهى بانتصارها على رجال الدين الايرانيين المشاغبين . . . (١٠) .

اجتمع الملك مع دويس في ٩ شباط للتفاهم حول الخطة التي يجب اتباعها لاعادة المجتهدين . فقد كان دويس يخشى ان يعود المجتهدون الى العراق ، او يكونوا عند الحدود ، قبل افتتاح المجلس التأسيسي الذي كان مقررا في أواسط شهر آذار . ولهذا حصل الاتفاق بينهما على ان يرسل الملك الى المجتهدين يخبرهم بأنهم يجب ان لا يبادروا قم قبل وصول رسالة من الملك تأذن لهم بدخول العراق ، أما اذا وصلوا الى الحدود قبل وصول الاذن لهم فسوف ترفض الحكومة العراقية دخولهم . وقد قدر الملك مع دويس طول المدة التي يستغرقها وصول الرسالة وعودة جوابها ، بالاضافة الى تدقيق التعمد الذي يقدمه المجتهدون ، فوجدوا ان ذلك لا يقل عن ستة أسابيع وهي مدة كافية لان يكون المجلس التأسيسي قد تم افتتاحه قبل وصولهم (١١) .

وبعد ان تم الاتفاق بين الملك والمندوب السامي على ذلك حصل ما ادى الى عرقلة المفاوضات مع المجتهدين ، فقد كان المجتهدون يريدون ان

(10) Report on The Administration of IRAQ - 1923 - 1924 - p. 13.

(١١) محمد مظفر الأدهمي (المجلس التأسيسي العراقي) - رسالة جامعية غير مطبوعة - ج ٢ ص ٥٦١ .

يعود الخالصي معهم بينما كان الملك والمندوب السامي يخشيان من عودة الخالصي ويصران على عدم السماح بها على أى حال . وقد ورد فسى تقرير للاستخبارات العراقية مؤرخ في ٥ آذار مانصه :

« ان الاتصال مع المجتهدين فى ايران حول الشروط التى يمكنهم العودة بها الى العراق ... قد أصابه التأخر . وقد وصلت منهم رسائل يحتجون فيها حيث يقولون ان من العار عليهم أن يعودوا من غير ان يكون الشيخ الخالصي معهم ، وقد خطب الملك في هذا الموضوع ولكنه ظل ثابتا . وأرسلت برقية الى المجتهدين في هذا الشأن كما ان الشيخ جواد الجواهري كتب الى المرزا حسين النائيني يرجو منه ومن زملائه أن يفتنموا هذه الفرصة والا فانهم سيفقدون مكاتبتهم فى العراق تلك المكانة التى أخذ مجتهدون آخرون يحسحوظون عليها سريعا . ومن ناحية أخرى كان آل الخالصي يضغطون على المجتهدين لاقناعهم بأن لا يعودوا بدون الشيخ مهدي . ويقول الملك ان رضا خان أبرق اليه برغبته فى عودة المجتهدين بالشروط المعروضة عليهم ، وان الشيخ جواد والمرزا مهدي سيفادران بغداد الى قم في ١ آذار يصحبهما السيد باقر واحد العين مندوبا عن الملك . وسيحمل هذا معه مسودة التعهد التى يجب أن يوقع عليها المجتهدون ، ثم يأتي بها معه أو يرسلها الى بغداد عندما يعين الملك اليوم الذي يعود المجتهدون فيه الى العراق ، (١٢) .

وفي ١ آذار سافر الى ايران الشيخ جواد الجواهري والمرزا مهدي الخراساني ومعهما السيد باقر واحد العين (١٣) . وقد بذل هؤلاء جهدا كبيرا في اقناع المجتهدين بالعودة الى العراق بدون الخالصي ونجحوا في ذلك . والمظنون ان رضا خان كان يؤيدهم فى مساهم ، فقد اشارت إحدى الوثائق البريطانية السرية الى ان رضا خان كان ينصح المجتهدين

(١٢) عن دائرة الوثائق العامة بلندن - رقم (أف . أو . ٣٧١ - ١٠١٤٧) .

(١٣) ان السيد باقر هذا هو الذى عرف فيما بعد بلقب « سرکشيك » . وكان قبلئذ يلقب باللقب المذكور في الوثائق ، أي « واحد العين » ، وهو لقب والده .

بالعودة دون أن يهتموا بالخالصي وكان يقول لهم ان الخالصي وجل
سخيخ خالي من التعقل وأنه آله بيد ابنه الشيخ محمد^(١٤) .

عودة المجتهدين :

كتب المجتهدون تعهدا يذكرون فيه أنهم لن يتدخلوا في السياسة
العراقية بعد الآن . وقد عثرت في وثائق البلاط الملكي على اربع رسائل
موجهة الى الملك وهي بتوقيع كل من السيد أبو الحسن الاصفهاني والمرزا
حسين الناييني والسيد عبدالحسين الطباطبائي والسيد حسن الطباطبائي
وهي كلها بنص واحد تقريبا ، والمظنون انها تضمنت التعهد المطلوب منهم
نكتفي هنا بنقل رسالة الاصفهاني فقط ، وهذا نصها :

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة جلالة ملك العراق أيد الله ملكه وسلطانه

بعد السلام عليكم والسؤال عن أحوالكم ورحمة الله وبركاته نعرض
ان كتابكم المؤرخ ٢٦ رجب المرسل مع حجتي الاسلام جناب الشيخ جواد
صاحب الجواهر وجناب ميرزا مهدي آية الله زاده دامت بركاتهما أخذته
بكمال الاحترام وكما ذكرتموه فيه وأودعتموه في مطاويه صار معلوم لدينا
ولقد أفادا بما دار بينكم من الشؤون وبيان الاسباب الموجبة الى تأخير
حركتنا وطلب جلالتك المؤازرة وكذلك المحروس السيد باقر سركشيك
أقام بواجبه وبلغ خطابه الشفاهية هذا وان كنا قد أخذنا على عاتقنا عدم
المداخلة في الامور السياسية والاعتزال عن كل ما يطلبه العراقيون ولسنا
بمسؤولين عن ذلك ، وانما المسؤول عن مقتضيات الشعب وسياسته جلالتك
لكن المؤازرة للملوكية الهاشمية حسبما تقتضيه الديانة الاسلامية ذلك من
مبدئنا الاسلامي وأما ما أمرتم من توحيد الكلمة وتوطيد عرى الصداقة بين

(١٤) عن دائرة الوثائق العامة بلندن - رقم (آف . او . ٣٧١ - ١٠١٤٧) .

ايران والعراق فذلك من وظائفنا الدينية وحينما دخلنا ايران لن نزل نبذل
الجهد في ذلك وسوف تظهر نتيجة اعمالنا المبرورة والسلام عليكم ورحمة
الله وبركاته .

الاحقر أبو الحسن الموسوي
الاصفهاني (١٥)

٢١ شعبان سنة ١٣٤٢

(المهر)

وفي ه نيسان كتب الشيخ جواد الجواهري والمرزا مهدي الخراساني
رسالة الى الملك يعلنان فيها نجاح مهنتهما . وهذا نصها :

بسم الله تعالى

حضرة جلالة ملك العراق أيده الله تعالى وخلد ملكه وسلطانه .
بعد السلام عليكم والسؤال عن أحوالكم ورحمة الله وبركاته نعرض
أنا في كمال الشوق الى تلك السمائل الحسينية حفظها وأيدها رب البرية .
ثم نعرض ان الاخ السيد باقر بعد الوصول الى قم مضى الى طهران وقابل
حضرة رئيس الوزراء دام اقباله وأفاد في البلوغ وأجاد في المحاوراة وعقد
المودة بين الحكومة العربية والايرانية وكثير أظهر رئيس الوزراء الامتنان
من جلالته واحترم السيد باقر من أجل نسبه الى جلالته ومن أجل
لياقته وحسن تأديبه لما أمرتموه به ولازم يعرض لجلالته التفصيل . ثم
سبدي نعرض ابلاغ سلام الآيتين السيد والميرزا دام ظلهم لمقامكم السامي
وتفصيل جوابهما بعد أن عرضنا لخدمتهما ان صاحب الجلالة يقول اكبر
هدية ارغب اليها اعتراف حكومة ايران برسمية الحكومة العربية قال دام
ظلهمما اتنا قبل مجيئكما تكلمنا بهذا المطلب وكان النبأ بعد انعقاد المجلس
يعطى القرار بذلك وقد أوعز الى اغلب الوكلاء بذلك وحيث اننا
نفخر بالحكومة العربية ولا سيما ملكها المؤيد من الدوحة الهاشمية ونرى
ان العراق وطننا وحكومته حكومتنا وملكها ملكنا نأمل الزيادة في الحكومة

(١٥) عن وثائق البلاط الملكي - رقم التسلسل ٣ ، رقم الوثيقة ٥٩ .

العراقية وبذلك ترتفع رؤوسنا وجلالتكم سيد العارفين ثم ان مدير الأمن العام الايراني الذي هو الآن بخدمة العلماء العظام ارسل لمقابلتكم وهو يحمل الوداد من قبل رئيس الحكومة الايرانية لجلالتكم ويكون مع العلماء الى النجف الاشرف وانشاء الله تعالى تتوفق للتشرف بخدمتكم ونعرض التفاصيل والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

٢٩ شبان ١٣٤٣

الداعي مهدي الخراساني جواد نجل المرحوم صاحب
(الخاتم) الجواهر قدس سره (١٦)
(الخاتم)

وفي صباح ٢١ نيسان وصل المجتهدون الى خانقين يرافقه السردار رفعت مدير الأمن العام الايراني . وكانت البلدة قد استعدت لاستقبالهم فزينت شوارعها بالاعلام العربية وسعف النخيل . وكان في استقبالهم الشيخ محمد حسن أبو المحاسن وزير المعارف، وتحسين العسكري نيابة عن وزير الداخلية ، وحسام الدين جمعة ممثلا عن الشرطة لمرافقة السردار رفعت . وبات المجتهدون تلك الليلة في خانقين ثم ركبوا القطار في الصباح التالي متوجهين الى بغداد . وحينما وصلوا الى محطة بعقوبة نزلوا للصلاة وكان في استقبالهم هناك عبدالمحسن شلاش وزير المالية والشيخ جواد الشيبسي وآخرون .

اجتمع عند محطة القطار في باب المعظم ببغداد جمهور كبير من أهالي بغداد والكاظمية ووفود من الالوية . وقد نصبت الخيام هنالك استعدادا لاستقبال المجتهدين عند وصولهم بالقطار . وحين اقرب القطار من الجمهور ارتفعت اصواتهم بالتهليل والتكبير وأخذوا يتطلعون الى القطار توقفا لوقوفه . ولكنهم فوجئوا بأن القطار لم يتوقف بل ظل مستمرا في

(١٦) عن وثائق البلاط الملكي - رقم التسلسل ٣ ، رقم الوثيقة ٥٥ .

سيره . ولم يتوقف القطار الا عند شاطئ النهر على مقربة من بيت رئيس الوزراء ، وكان هناك الوزراء في استقباله كما كان مندوب الملك صفوت العوا وغيرهم (١٧) . ومن هناك عبر القطار نهر دجلة بواسطة « العبارة » ثم سار بهم الى كربلاء

عودة المحمدين :

كان السيد محمد الصدر والشيخ محمد الخالصي قد نفيا الى ايران في آب ١٩٢٢ على نحو مذكرونا في الفصل الرابع . والمعروف عن هذين الرجلين انهما غير متحابين ، ولهذا لم يكونا على وفاق عند وصولهما الى طهران ، وقد جرت بينهما أمور ليس هنا مجال ذكرها .

كان الشيخ محمد الخالصي في طهران كثير الدأب على محاربة الانكليز ، وقيل انه اتصل بالبالاشفة للتعاون معهم على ذلك . أما السيد محمد الصدر فتشير بعض القرائن الى أنه أخذ يتصل بالملك فيصل بنية تسهيل عودته الى العراق .

أخذت جريدة « الاستقلال » منذ أواخر ١٩٢٣ تشير الى ان السيد محمد الصدر قد تردت صحته في طهران لعدم ملائمة المناخ له . وفي ٣٠ كانون الاول ١٩٢٣ ذكرت الجريدة ان وفدا من شيبة العاصمة قابلوا الملك وعرضوا عليه حالة الصدر الصحية ، وان الملك أبدى أسفه وأعلن عن رغبته في عودة الصدر الى العراق ولكنه قال ان الصدر تماهل في اعطاء التعمد الذي يؤخذ عادة من المنفيين ، وهذا هو سبب تأخر عودته ، ولولا ذلك لعاد منذ مدة . وفي ٩ آذار ١٩٢٤ نشرت الجريدة خبرا تحت عنوان : « قدوم زعيم خطير - السيد محمد صدر الدين » قالت فيه : « امتلأت الافئدة سرورا وعلا البشر وجوه الوطنيين عامة ، واهالي الكاظمية خاصة ، حينما ذاع خبر عودة الزعيم الكبير من ايران الى وطنه العراق » . وفي ٢٦ منه نشرت الجريدة تقول : ان السيد محمد الصدر قد تضررت

(١٧) جريدة « العالم العربي » - في عددها الصادر في ٢٤ نيسان ١٩٢٤ .

صحته كثيراً في الشتاء المنصرم ، وإن الأطباء في طهران حظروا عليه البقاء فيها ، ولهذا فقد صمم على العودة الى العراق نهائياً ، وإن الحكومة العراقية لاتعارض في ذلك فالبشرى للوطنيين ولوالده الجليل الامام العلامة .

وفي ٢٩ أيار ذكرت جريدة « العالم العربي » ان السيد محمد الصدر سوف يصل الى بغداد في صباح الغد ، وإن لجنة قد تشكلت لاستقباله . ونشرت الجريدة منهاج الاستقبال الذي وضعته اللجنة حيث تقرر أن يذهب محمد حسن حبة الى خانقين لاستقباله باسم اللجنة ، وإن يذهب عبد الحميد كنة الى بعقوبة ، وأن يصطف تلاميذ المدارس الاهلية لتحيته عند وصوله الى محطة باب المعظم ، ويلقي عبد المجيد زيدان بين يديه كلمة ترحيبية بالنيابة عن اللجنة .

وصل الصدر الى بغداد في الوقت المحدد وجرى له في المحطة استقبال كبير . ولما وصل الى دأوه في الكاظمية غصت الدار بالمهئين ، وألقى بعض الشعراء قصائد في مدحه والترحيب به كان من بينها قصيدة الشيخ راضي آل ياسين ، وهذا مطلعها :

أزعم العراق طال الفراق ولكم مل من نواك العراق

لوحظ ان الصدر اخذ بعد عودته الى العراق يسلك طريقاً في السياسة يختلف عن الطريق الذي كان يسلكه من قبل . انه طريق «الايجاب» بدلاً من طريق «السلب» - على حد تعبير كاتب سيرته عباس علي . فقد قال الكاتب في ذلك ما نصه : « عاد سماحته بعد المدة التي قضها في طهران ليتبوأ مكانه في قيادة الجبهة الوطنية بمواهبه المهمة وعقله النفاذ ، وكان في هذه المرحلة أقرب الى سياسة الايجاب منه الى سياسة السلب لأنه رأى أنها بعدئذٍ أنجح في الوصول الى ما يريد لهذا الوطن من العزة والسيادة والاستقلال » (١٨) .

وعلى أي حال فقد قوبل هذا التحول في سلوك الصدر بامتناس وافتقاد شديد من قبل الكثيرين في الكاظمية وغيرها . انهم اعتادوا ان يجعلوا

(١٨) عباس علي (زعيم الثورة العراقية) - بغداد ١٩٥٠ - ص ١٦٨ .

المعارضة مرادفة للوطنية ، فالمعارض هو الوطني عندهم واذا ترك المعارضة أصبح في نظرهم خائناً .

تلك هي قصة السيد محمد الصدر ، أما الشيخ محمد الخالصي فله قصة أخرى . فهو قد عاد الى الكاظمية فجأة في مساء ١٦ نيسان ١٩٣٢ ، والظاهر انه دخل العراق على غفلة من الحكومة . ولم يكذ يتشر خبر وصوله في الكاظمية في صباح اليوم التالي حتى صار الناس يتهافون على مدرسة الخالصي للسلام عليه ، فكانوا يمرون عليه صفوفاً ، وهو واقف يستقبلهم عند باب الفناء الداخلي للمدرسة ، فيقبل كل واحد منهم يده ويمشي ليفسح المجال للذي يليه .

ولكن الشيخ محمد لم يبق في الكاظمية سوى ثلاثة أيام . ففي ظهر ١٩ نيسان ، عندما كان عائداً الى بيته بعد اداء صلاة الظهر في الجامع الصفوي ، اعترض طريقه مفوض من الشرطة وقال له ان وزير الداخلية ومدير الشرطة ومتصرف بغداد يريدون مقابلته الآن في بغداد للمداولة معه في أمر مهم . فطلب الشيخ من المفوض مهلة صغيرة لكي يتناول طعام الغداء في بيته ، فسمح المفوض له بذلك ، ولكنه عندما وجده قد تأخر في البيت دخل عليه وطلب منه الاسراع في الخروج معه . ثم سار به الى مركز السراي ببغداد . وقد ذهب وراءه جمع من أهل الكاظمية كما انضم اليهم في بغداد جمع آخر من البغداديين . وبعد اجراء التحقيق معه أركب سيارة يرفقه مفوض واثنين من أفراد الشرطة المسلحين ، وسارت به السيارة باتجاه بعقوبة فخانقين . وقد حاول بعض الأهالي التجمهر لمنع السيارة من الحركة ، فقاومتهم الشرطة ، وصاح بهم أحد الضباط متتهراً ثم أخذ يضربهم بالصفا ، ففارقوا . (١٩)

وعندما وصل الشيخ محمد الى الحدود الايرانية أعيد اليه جواز سفره ومعه كتاب رسمي صادر من وزارة الداخلية هذا نصه : « بما أن الشخص الاجنبي المسمى الشيخ محمد بن الشيخ مهدي الخالصي والمثبتة صفاته أدناه ينطبق عليه منطوق الفقرة (ج) من المادة الحادية عشرة من

قانون الاقامة العراقي لسنة ١٩٢٣ ، وبما أنه لا يُرغب في بقاء الشخص المذكور في القطر العراقي ، فعليه نحن وزير الداخلية عملاً بالصلاحيات التي تخولنا اياها المادة المذكورة من قانون الاقامة العراقي لسنة ١٩٢٣ تأمر بإبعاد الشخص المذكور الى ما وراء الحدود العراقية وان يبقى خارجاً عنها ما لم يصدر من لدينا أمر يخالفه - صدر عن ديوان وزارة الداخلية في ٢٠ نيسان ١٩٣٢ - التوقيع : ناجي شوكت .

ظل الشيخ محمد الخالصي في ايران حتى عام ١٩٤٩ . وقد لقي هناك من حكومة رضا شاه اضطهاداً وعتاً وإبعاداً . ثم اقتضت السياسة في العراق أخيراً السماح بعودته ، فعاد الى العراق ، واستقبل من الحدود استقبالا رسمياً وشعبياً . وقد تهافت الناس عليه في أول مجيئه وأحبوه وأعجبوا به ، ولكنهم أخذوا ينفضون عنه شيئاً فشيئاً . وسوف نتحدث عن قصة تهافتهم عليه ثم انفضاضهم عنه في جزء قادم من هذا الكتاب .

سير الانتخابات :

كانت الوزارة السعدونية قد شرعت باجراء الانتخابات للمجلس التأسيسي منذ ١٢ تموز ١٩٢٣ ، وظلت عملية الانتخابات مستمرة في عهد الوزارة العسكرية . والملاحظ ان الفتاوى التي كان المجتهدون قد أصدروها سابقاً في تحرير الانتخاب احدثت بعض الاثر في عدد من المدن كالنجف و كربلاء والحلة والكاظمية والحج . وكان أكبر أثر لها قد حصل فسي النجف حيث عقد اجتماع سري حضره الكثير من النجفيين كان على رأسهم عبدالكريم الجزائري وجواد الجواهري ومحمد علي بحر العلوم ومحسن شلاش وعباس الكليدار . وهادي النقيب ، وقرروا مقاطعة الانتخابات ، ووقعوا مضبطة في ذلك ، ولم يتمتع عن التوقيع منهم سوى الكليدار^(٢٠) . وفي ٢٨ تموز أرسل قائمقام النجف الى متصرف كربلاء كتاباً يذكر فيه العوامل التي أدت الى عرقلة سير الانتخاب في النجف وهي :

اولا : شرود البعض من المرشحين للهيئة التفتيشية الى الخارج وترك

(٢٠) محمد مظفر الادهمي (المصدر السابق) - ج ٢ ص ٤٨١ - ٤٨٣ .

رفاقهم في موقع حرج لم يستطيعوا أن يقتحموه خوفاً من انفعال الرأي العام منهم ومؤاخذته أيامهم .

ثانياً : انتظارهم للنتائج التي تحصل في المواقع التابعة للمذهب الجعفري من أمر الانتخابات كي لا يكونوا هم المباشرين ابتدائياً لهذا الأمر ويلازموا بعدئذٍ عليه .

ثالثاً : مجاهرة قسم من المرشحين للهيئة التفتيشية بالمخالفة للانتخابات وإخلالهم لأفكار البسطاء الذين يخشون سوء الدواقب ، واذكر من هؤلاء المجاهرين بالمخالفة خاصة السيد حسين كمال الدين مدير مدرسة الغري فان هذا الرجل على جانب من التطرف حقاً في معاكسته لآمال الحكومة ومضاد لغاياتها . ولو لم يقصد لهذه الاعمال لكانت الانتخابات قد خطت خطوة مهمة في سبيل سيرها ، ولهذا أرجو أن تسمحوا بجلب المومي اليه ، وإبقائه في مركز اللواء ريثما تكمل الانتخابات على شرط أن يمنع اختلاطه مع أي كان خوفاً من أن يذيع أفكاره الضارة بين ذوى الافكار الضعيفة ويؤثر عليهم . (٢١)

أرادت الحكومة ارسال قوة عسكرية الى النجف ولكن مولود مخلص أبرق اليها في ٥ آب ينصحها بعدم ارسال القوة لان ذلك من شأنه إثارة الاتباء . وفي ٩ آب ذهب مولود مخلص بنفسه الى النجف واستطاع أن يذلل الصعوبات المعرقة لسير الانتخابات (٢٢) .

ومما يلفت النظر انه بينما كان الصراع ناشباً في النجف على نحو ما ذكرناه ، كان هناك صراع من نوع آخر بين الملك والندوب السامسي حول سير الانتخابات في بعض المناطق ولا سيما في بغداد والموصل وبعض نواحي الدليم . فقد بلغ الندوب السامسي ان الملك يشجع في تلك المناطق من طرف خفي بعض المرشحين المعروفين لعدائهم للانكليز . وفي ٣١ آب أرسل الندوب السامسي الى كورنواليس كتاباً جاء فيه ما نصه :

(٢١) عبدالرحيم محمد علي (النجف والمجلس التأسيسي) - في مجلة

« الرابطة » النجفية - في عددها الصادر في ايلول ١٩٧٥ .

(٢٢) محمد مظفر الادهمي (المصدر السابق) - ج ٢ ص ٤٨١ - ٤٨٣ .

« ... اني أسمع من منابع مختلفة بأن الرأي السائد هو أن جلالة الملك يرغب في اكثرية للمستطرفين في المجلس ، وإن مثل هذه الاكثرية سترفض تصديق المعاهدة » فإذا كانت هذه النتيجة تظهر فعلاً للوجود فانها طبعاً ستؤدي الى المصائب ، واني أرى من واجبي أن أُنذر حكومة جلالة الملك فيصل رسيماً عما أعتقد حدوثه محتملاً ، هذا اذا لم يتغير جريان الأحوال في الاسبوع القادم » .

كان هذا بمثابة انذار للملك . وحين اطلع الملك عليه أجاب عليه موجهاً كلامه الى كورنواليس حيث قال :

« ... أنت بما عزيزي لاشك عالم تمام العلم بالجهود العظيمة التي بذلتها في سبيل نجاح الانتخابات ، وواقفاً تماماً على الأعمال التي قمت بها في جميع الامكنة والاندية التي زرتها مؤخراً للغاية نفسها ، والله أعلم انه لم يكن لي غاية من وراء المساعي التي بذلتها في سبيل تشجيع الانتخابات الا أن تكون المعاهدة في النتيجة مؤيدة بأغلبية سكان البلاد الساحقة ، ولقد اعترضتني مصاعب جمة في هذا السبيل فلم أحفل بها لأنني كنت ولا أزال معتقداً بأن التصديق على المعاهدة قوام لهذه المملكة ، وإن أعمالي انما ترمي الى تحقيق واجب دتس يهون دونه كل عسير ، ومن أجل هذا الواجب أبعدنا العلماء ، وفي سبيله تحملت ما تحملت من اشتاق وقمست بسياحات عديدة لم تكن نتائجها سيئة على ما أعتقد بل أدت الى اقدام أهل الموصل على الانتخابات بعد أن كان قسم منهم مقاطعاً لها وقسم آخر متردد في أمرها ، ثم الى التحاق قسم من شيعة المدين ، ويمكنني أن أقول جميع قبائلهم ، بالانتخابات رغم الفتاوي المعلومة . ولا بد أنك تذكر قولني لك قبل مدة أنه يجب أن نستوثق بكل عضو من أعضاء المجلس قبل أن يُنتخب وذلك لكي نكون في مأمن تام عند تصديق المعاهدة ، وإن كل من يرشح شخصاً منا يجب عليه أن يكون أميناً منه ومسؤولاً عن رأيه في المجلس ... » . ثم اختتم الملك رسالته بقوله : انه متألم جداً أن يسرب الى ذهن فخامة المندوب السامي أقل شبهة باخلاصي لبلادي ولصديقتي بريطانيا ، أو أنني اسمي لنقض عهد اعتبره قوام الحياة لمملكتي المهددة من جميع أطرافها .

حين اطلع المندوب السامي على هذا الجواب كتب يعرب عن أسفه لأن الملك أساء فهمه ، وقال انه ليس لديه ريب في نوايا الملك تجاه المعاهدة ولكن هناك جمهوراً كبيراً من العامة يعتقدون ان الملك يؤيد المرشحين المعارضين للمعاهدة ، ولا بد ان هذا الاعتقاد سينزل منهم سريعاً اذا اطلعوا على رغبة الحكومة الحقيقية بصورة دائمة (٢٣) .

افتتاح المجلس التأسيسي :

بعد ان انتهت الانتخابات تقرر أن يكون افتتاح المجلس التأسيسي في يوم ٢٧ آذار ١٩٢٤ . وقد اختلفت الآراء في أول الأمر حول مقر المجلس ، فارتأي بعضهم أن يكون المقر في بناية مدرسة الصنائع التي بناها مدحت باشا في ١٨٧٠ والتي تقع على دجلة قرب نادي الضباط بين القلعة والقشلة ، ولكن مجلس الوزراء لم يوافق على هذا الرأي . واقترح وزير الداخلية أن تكون بناية سينما رويال الواقعة في محلة باب الأغا مقراً للمجلس ، فلم يلق اقتراحه هذا قبولا . واستقر الرأي أخيراً على بناية « مستشفى الغرباء » التي بناها مدحت باشا على شاطئ دجلة في جانب الكرخ ، فأجريت عليها الترميمات والاضافات اللازمة استعداداً ليعقد الافتتاح .

وقد اعتبر يوم افتتاح المجلس عطلة رسمية ، وأمرت وزارة الداخلية جميع متصرفي الألوية بإقامة المهرجانات احتفاءً به ، كما طلب مجلس الوزراء من امانة العاصمة تزوين مدينة بغداد ليلاً ونهاراً . وخفضت محكوميات المسجونين وأطلق سراح بعضهم .

وقبل يوم الافتتاح أقام الملك مأدبة غداء في قصره دعا إليها أعضاء المجلس ، وقد أقسم الأعضاء بالولاء للملك وللبلاد . وكانت هناك مشكلة تقلق بالهم هي انتخاب رئيس المجلس فقد كان الانكليز يريدون أن يكون عبدالحسن السعدون رئيساً ، بينما كان الملك يريد ياسين الهاشمي . كتبت المس بيل في مساء ٢٦ آذار - أي في الليلة التي سبقت افتتاح المجلس - تقول ما نصه :

« اكتب هذا في منتصف الليل ، وأنا غير قادرة على النوم . ففسي
يوم الاثنين كان هناك دعوة للغداء في قصر الملك ، وقد جلست بجانب
الملك فوجدته متألّفاً . انه أنجز عملاً رائعاً مع أعضاء المجلس اذ هم
أقسموا بالولاء له وللبلاد في ذلك اليوم . وغداً سوف يفتح المجلس في
الساعة العاشرة ، وقد كان لدينا يوم مليء بالانزعاجات والتحركات حول
قضية رئاسة المجلس . فاذا لم ينتخبوا محسن بك فلن يكون ذلك
جسناً ، ولكن جعفر يغير فكره مرة كل ربع ساعة ويؤثر على الملك . وقد
أخبرت الجميع بأنهم يجب أن ينتخبوا محسن ، أما البقية فهي في عهدة
الآلهة . انها مثل لعبة القناني الخشبية ، فانت تشغل نفسك بطرف واحد
من الترتيب ثم تلتفت لترى أن الطرف الآخر قد انهار » . (٢٤)

وفي صباح اليوم المعين للافتتاح اصطف عدد من الجنود في اشرار
المؤدي الى المجلس لاداء التحية للملك عند قدومه ، كما اصطف تلاميذ
المدارس . وازدحمت الجماهير على الجانبين كما هي عادتهم بنية التفرج .
وفي الساعة التاسعة بدأ اعضاء المجلس يتوافدون تباعاً . وعندما اقتربت
الساعة العاشرة وصل قائد القوات البريطانية بصحبة المندوب السامي . وفي
العاشرة تماما وصل الموكب الملكي وكان الملك ممتطيا سيارته الحمراء
المكشوفة وهو بلباسه العربي متقلداً سيفاً من ذهب وفي حزامه خنجر من
ذهب أيضاً ، فعجت الجماهير بالتصفيق ، كما عزفت موسيقى الجيش تحية
له وأطلقت المدافع .

وحين دخل الملك الى قاعة المجلس وقف الاعضاء له احتراماً ، ثم
ألقى الملك خطاب العرش عبّر فيه عن غبطته لافتتاح أول مجلس شوري
في العراق وقال ان هناك ثلاثة أمور جوهرية على المجلس أن يبت فيها
وهي : (١) تصديق المعاهدة (٢) سن الدستور (٣) سن قانون الانتخاب

(24) Burgoyne (op. cit.) - vol. 2, p. 386.

للمجلس النيابي • ودعا الملك في خطابه أعضاء المجلس الى تصديق المعاهدة لان عليها يتوقف حل المسائل الحيوية لبلادنا بمعونة الحكومة البريطانية وعصبة الأمم • ثم أشار بعد ذلك الى الدستور حيث وصفه قائلاً :

• أن أحكام الاسلام مؤسسة على الشورى ، وأعظم ما ارتكبه الطوائف الاسلامية من الخلفيات حياها عن قوله تعالى : وأمرهم شورى بينهم • فعلى كل مسلم يعلم ما يأمر به دينه أن يؤيد هذا الحكم الآلهي ، وكل تكاسل عنه مخالفة لأمر الله ، فاتباعاً لهذا الأمر الجليل ، واقتداءً بالامم العريقة في الحضارة ، وعملاً برغبات الأمة العراقية ، ندعوكم أيها النواب الكرام الى سن هذا القانون ، ووضع نظام الانتخاب للمجلس النيابي ، ... (٢٥) •

وحين انتهى الملك من القاء خطابه غادر القاعة ، فقرأس جعفر العسكري الجلسة مؤقتاً من أجل انتخاب رئيس المجلس • وعند فرز الاصوات تبين ان السعدون قد حصل على خمسين صوتاً بينما حصل الهاشمي على ثلاثة وعشرين صوتاً ، وحصل ابراهيم الحيدري على ثمانية أصوات • فصعد السعدون على منصة الرئاسة وشكر أعضاء المجلس على تقفهم به كما شكر بريطانيا لوفائها بمهداها في تسهيل اجتماع المجلس •

كانت المس بيل قد حضرت حفلة الافتتاح ، وكتبت بعد ذلك تصف ما جرى فيها فقالت : ان الملك القى خطاباً رائعاً ولكنه كان عند القائسه عصياً جداً • ثم وصفت اللحظة التي تم فيها انتخاب السعدون بأنها لحظة مثيرة ، وأشارت الى ظاهرة طريفة حدثت في أثناء الانتخاب اذ قالت : ان بعض شيوخ العشائر الذين كانوا جالسين أمامنا حملوا أوراق تصويتهم وهي موجهة نحونا قبل أن يلقوها في صندوق الانتخاب وذلك لكي يظهروا لنا أنهم كتبوا اسم السعدون عليها • (٢٦)

(٢٥) عبدالرزاق الحسني (المصدر السابق) - ج ١ ص ١٦٨ - ١٦٩ •
(26) Burgoyne (op. cit.) - vol. 2, p. 886.

المعارضة من جديد :

تقرر أن ينظر المجلس في أمر تصديق المعاهدة قبل النظر في سن الدستور • وقد لوحظ ان هذا أمر لا ينسجم مع الأصول الدستورية في البلاد الديمقراطية اذ لا يصح النظر في تصديق معاهدة مع دولة أجنبية قبل تحديد وضع البلاد من حيث شكل الحكومة فيها وتحديد سلطاتها المختلفة • وعلى أي حال فقد تم الاتفاق بين الملك والانكليز على تقديم أمر المعاهدة لاهميتها بالنسبة لوضع العراق الخاص •

ومن الجدير بالذكر ان الانكليز كانوا متفائلين من ناحية المعاهدة يحسبون ان المجلس سوف يصادق عليها بسرعة وان ليس هناك معارضة بعد الذي جرى من تفسير المجتهدين في عهد الوزارة السابقة (٢٧) • اضاف الى ذلك ان معظم أعضاء المجلس كانوا موضع اطمئنان الانكليز ، ولا سيما شيوخ العشائر الذين يبلغ عددهم في المجلس أربعين ، اذ هم كانوا قد اجتمعوا قبل افتتاح المجلس وتعاهدوا فيما بينهم على تأييد المعاهدة وعلى أن لا يقوم أي منهم بعمل مخالف من دون موافقة الجميع (٢٨) •

ادرك الانكليز بعد قليل انهم كانوا في تفاؤلهم واهمين ، فقد تبين لهم ان المعارضة قادرة أن تنهض من جديد وبقوة اكبر ، وان الكثيرين من الأعضاء الذين كانوا موضع اطمئنانهم سيكونون من زعماء المعارضة او المشجعين لها على الاقل •

ظهرت أولى بوادر المعارضة على لسان ناجي السويدي وذلك على أثر تقديم المعاهدة الى المجلس في ٢ نيسان ، فقد قدم السويدي حينذاك اقتراحاً قال فيه : ان المعاهدة يجب أن تعلن على الشعب الذي هو الوسيلة الوحيدة للبت فيها ، وان النواب لا يجوز لهم ان ينظروا في المعاهدة الا

(27) Elie Kedourie (Chatham House Version) - London 1970 .
p. 265.

(٢٨) فيليب آيرلاند (العراق) - ترجمة جعفر الخياط - بيروت ١٩٤٩ -
ص ٣١٠ •

بعد أن يطلعوا على رأي الشعب لأنهم مجبورون على العمل برأي الشعب وطبق أمانيه ورغباته • وحين عرض اقتراح السويدي هذا في التصويت قبله المجلس (٢٩) •

يمكن القول ان هذا الاقتراح قد حكم على المعاهدة منذ البدايسة بالرفض • فالمعاهدة اذا عرضت على الشعب حسبما اقترحه السويدي فان ذلك بطبيعته لا بد أن يثير في أوساط المثقفين حركة مضادة للمعاهدة ، وهؤلاء سيجركون الجماهير ، وعند هذا لا بد أن تتقل عدوى المعارضة الى داخل المجلس ، فيأخذ بعض النواب بانتقاد المعاهدة طمعاً بهتاف الجماهير ، ويقوم نواب آخرون بمباراتهم في ذلك ، وبذا ينقسم النواب في نظر الجماهير الى فريقين متضادين : وطنيين وخونة • وقد ينتهي الأمر الى رفض المعاهدة بأكثرية الاصوات •

ان هذا الذي ذكرناه قد حصل فعلاً • ففي ٦ نيسان - أي بعد أربعة ايام من ادلاء ناجي السويدي باقتراحه - نشرت جريدة «الاستقلال» مقالاً افتتاحياً بعنوان « الى المحامين من أبناء الرافدين » وهو مذيّل بتوقيع «س» والمظنون انه المحامي داود السعدي ، وقد أشار فيه الى ما لوحظ من هدوء المحامين في هذه الأيام التاريخية التي يت فيها مجلس الأمة فسي مصير الوطن ، كما أشار الى ان المحامين في كل بلاد العالم لهم القدح الممل في الكفاح في سبيل أوطانهم • ثم قال يخاطب المحامين : ان الوطن يلفظ آخر نفس له ، وعليكم أن تقوموا بواجبكم المقدس وان تشاركوا أعضاء المجلس في السراء والضراء ، فالشعب يرقب جهودكم بفارغ الصبر •

وفي ٩ نيسان تقدم داود السعدي ورشيد رشدي بطلب الى متصرف بغداد لعقد اجتماع في فندق الهلال الواقع في محلة الميدان من أجل تكريم النواب والاستماع الى كلمات بعض المحامين حول السياسة العامة للبلاد • وقد وافق المتصرف على الطلب في أول الأمر ثم سحب موافقته بعدئذٍ على

أثر ايعاز صدر اليه من وزارة الداخلية • وفي اليوم التالي أثار النائب عبدالرزاق الرويشدي هذا الموضوع في المجلس وطلب من الحكومة السماح بعقد الاجتماع للاطلاع على رأي المحامين الذين هم اختصاصيون في القانون ولهم وقوف تام على مواد المعاهدة • فقام نوري السعيد طالباً غلق الموضوع لأن النظر في المعاهدة من شأن أعضاء المجلس وحدهم وليس لأحد غيرهم حق الاشتراك فيه • فقام النائب صالح شكاره يرد على نوري السعيد قائلاً ان المعاهدة تخص الشعب بأجمعه وان من الواجب على المجلس أن يتفاهم مع الشعب على صفحات الجرائد وفي الاجتماعات • وبعد مناقشة حادة بين النواب في هذا الموضوع تقرر إحالته الى رئاسة المجلس للتحقيق فيه • وفي الجلسة التالية أعلن ياسين الهاشمي ان التحقيق أظهر ان الحكومة لم تمنع الاجتماع بل طلبت تأجيله • ثم أعلن السعدون بصفتة رئيس المجلس ان المسألة انتهت وأنه لا مانع للمحامين من دعوة النواب والاجتماع بهم •

قرر المحامون عقد الاجتماع في ١٧ نيسان في سينما رويال بدلاً من فندق الهلال ، وأن يكون في الساعة الثانية بعد غروب الشمس لأن الوقت كان في شهر رمضان • وفي صباح ذلك اليوم طلعت جريدة « العراق » وفيها حديث لنوري السعيد اعترف فيه بمساوئ المعاهدة ولكنه قال أن تصديق المعاهدة بالرغم من ذلك سيؤدي الى تثبيت كيان العراق السياسي، أما رفضها فسيقذف بالبلاد في هوة يعلم كل منا حق العلم ما ورائها من خيبة آمالنا القومية وضياح جميع الجهود العظيمة التي بذلتها أمتنا حتى اليوم • وكان نوري السعيد يقصد من ذلك أن رفض المعاهدة يؤدي الى ضياح منطقة الموصل التي تطالب بها تركيا وغير ذلك من الأخطار التي تهدد البلاد من جميع جوانبها •

وقد تم عقد الاجتماع في الوقت المحدد ، وحضره أعضاء المجلس وعدد كبير من المحامين والوجهاء والمثقفين ، حتى غصت بهم قاعة السينما • وافتتحت الحفلة بنشيد حماسي من تلامذة مدرسة «التفويض» الاهلية ، ثم قام داود السعدي فألقى كلمة رحب فيها بالمدعوين وشرح الوضع السياسي

ثم قال : ايها النواب اعتقدوا ان الأمة العراقية واقفة أمامكم موقف المتهم بجريمة كبرى وهو في الواقع برىء ، وهي تنتظر منكم القرار أما بموتها أو ببراءتها • فقبلت كلمته - حسبما روته جريدة « العالم العربي » - بتصفيق حاد وضجة عظيمة وهتاف عالي • ثم أعقبه المحامي شفيق نوري السعيد فتلا بصوت حماسي عالي بياناً للمحاميين يتضمن انتقاداً شديداً للمعاهدة وتظلماً من بعض بنودها • ثم نهض ياسين الهاشمي ليتكلم بالنيابة عن أعضاء المجلس ، وقال يخاطب المحامين : بالله عليكم كثروا من مثل هذا الاجتماع في كل وقت عصيب ، ثم قال : « أقسمنا على الصدق والاخلاص لمملكتنا وملكننا مهما كانت القيود والتهديدات الشديدة » • فقبلت كلمته بالتصفيق العجاج والهتاف^(٣٠) .

وصفت المس بيل في إحدى رسائلها الاجتماع الذي عقد في سينما رويال فقالت ما نصه : « ان جماعة من المحامين الأوغاد الذين لا ممارسة لهم أقاموا حفلة دعوا فيها النواب ، وألقى اثنان من هؤلاء الحمير الصغار خطباً عنيفة ضد الانكليز بوجه عام ، وضد المعاهدة بوجه خاص ، ووصفوا المعاهدة بما ليس فيها مثل ان الفرد الانكليزي لا يمكن توقيفه في العراق في حالة خرقه للقانون • وأخذ الحاضرون يضربون صدورهم عند هذا • وتكلم ياسين الهاشمي فشكر المحامين على دعوتهم ثم أضاف قائلاً اننا يجب أن لا ننسى ان بريطانيا هي الصديقة الوحيدة للعراق • ولكن هذا القول لا ينفع الهاشمي شيئاً لأنه كان المحرك لاقامة هذه الحفلة في البداية ، وهو الآن يريد تهدئتها ، لكي يكون له قدم في كلا الجانبين^(٣١) » •

اسلوب المعارضة :

ان المعارضة الجديدة تختلف عن سابقتها بالاسلوب • ففي عهد المعارضة السابقة كان يكفي للمجتهدين أن يصدروا فتاويهم في تحریم

(٣٠) جريدة « العالم العربي » - في عددها الصادر في ٢٠ نيسان ١٩٢٤ .
(31) Burgoyne (op. cit.) vol. 2, p. 340

أمر من أمور السياسة ، وكانت تلك الفتاوي ذات تأثير كبير على الناس لان المخالف لها ينال نبذاً واجتقاراً اجتماعياً بالإضافة الى ما ينتظره في الآخرة من عذاب مقيم ، أما الآن فقد صارت المعارضة الجديدة تستعمل أسلوباً آخر مستمد من طبيعة الدنيا وليس للآخرة فيه نصيب ، اذ هي لجأت الى الارهاب تارة والى النخوة العشائرية تارة أخرى .

يقول توفيق الفكيكي في مذكراته ، وكان يومذاك طالباً في الحقوق : انه كان وزملاؤه الطلاب يذهبون الى بيوت بعض النواب البارزين يستعملون معهم طرق النخوة المعروفة لدى العشائر ، كعقد الكوفية او الامتناع عن شرب القهوة ، وقد فعلوا ذلك مع سالم الخيون وزامل المناع وسلمان الظاهر . ويروى الفكيكي عن سالم الخيون ان الملك فيصل سأله فيما بعد : « ما الذي حملك على رفض المعاهدة بعد ما آنتست منك الموافقة ؟ » فأجاب سالم الخيون : « سيدي أخرجني طالب قصير من طلاب الحقوق يدعى توفيق الفكيكي ، حيث امتنع هو ورفقاؤه من شرب قهوتي ، ولم يكف بذلك بل عقد كفتي على الطريقة العشائرية فاضطرت أن أتمهله برفض المعاهدة . ويظهر ان هذا الطالب عليم بتقاليد العرب » (٣٢) .

وأخذت المعارضة تستخدم النساء والصبيان للتأثير على النواب . حدثني عبدالهادي الظاهر : أن عبدالغفور البدري كان يأتي بالنساء الاعرابيات من ذوات الشخصية القوية ، يجمعهن من بعض المحلات كالبوشبل والدورين ، ويرسلهن الى بيوت الشيوخ من النواب ، فاذا دخلت احدهن على الشيخ صرخت في وجهه على الطريقة العشائرية : « على بختك يا أبو فلان ، تينعونا للصوحر ، ألف وسفة عليكم » . وكثيراً ما كانت هذه الطريقة تؤثر في الشيوخ لأنها تمس أوتار قلوبهم البدوية . كتبت امس بيل في ٤ حزيران تقول ان عجيل الياور جاء لرؤيتها في هذا الصباح وقال لها : « خاتون ، جئت لأخبرك بأن ليس على وجهه

الارض قوة قادرة على جعل المجلس يصادق على المعاهدة • فأنت لا تدبرين ماذا يجري في المدينة ، فهناك أمام بيتي يقف ليلاً ونهاراً شخص من أهل السوق • انه ليس كبيراً في السن بل صبي رث الملابس • وفي كل مرة أدخل الى البيت أو أخرج منه يتلقاني هذا الصبي فيمسك بيدي لتقيلها ، أو يقبل عباتي أو طرف قبائي ، ثم يبكي قائلاً : ايها الشيخ ، يا والدي ، أرفض المعاهدة ، لا تبيعنا الى الانكليز • انه لا يعرف محتوى المعاهدة • وقد استؤجر لكي يقف عند باب بيتي ويقول ما يقول •••• ثم يختتم عجيب الياور كلامه بقوله : « اذا كان أمام بيتي واحد ، فان هناك ثلاثة أو أربعة أمام بيت كل عضو من أعضاء المجلس » • (٣٣)

محاولة اغتيال :

كتبت المس بيل في رسالة لها تقول : ان كورنواليس تلفن لها في صباح ١٨ نيسان وأخبرها ان شيوخ العشائر المؤيدين للمعاهدة نقص عددهم الى ستة فقط ، وهم حاضرون عنده الآن ويريدون اصدار تصريح يؤيدون به المعاهدة بلا مبالاة بما يفعله الشيوخ الآخرون الاشرار • ثم قال كورنواليس وهو متضجر : ان الأمور يجب أن نبدأ بها من جديد ، ويجب أن نؤلف حزباً من شيوخ العشائر تكون نواته من هؤلاء الستة (٣٤) •

لم نعرف من هؤلاء الستة الذين كانوا يؤيدون المعاهدة سوى اثنين هما عداي الجريان وسلمان البراك • وقد كان هذا الرجلان في الواقع جريئين في اعلان تأييدهما للمعاهدة لا يخافان أحداً أو يكثران للرأي العام •

والظاهر ان المعارضة صممت على ارباب هذين الشيخين لتجعل منهما عبرة لغيرهما • ففي الساعة الثانية والنصف من بعد ظهر ٢٠ نيسان بينما كان الشيخان يسيران معاً عائدين الى بيتهما المشترك - الواقع في محلة باب الأغا قرب سينما رويال - أطلق شخصان مجهولان النار

(33) Burgoyne (op. cit.) vol. 2, p. 343

(34) Ibid. - vol. 2, p. 340.

عليهما ، فأصيب عداي في ذراعه ، وسلمان في ساقه ، ولكن أصابتهما لم تكن خطرة ، ونقلنا حالاً الى المستشفى • وقد تأجلت جلسة المجلس في اليوم التالي استياءً من الحادثة • وعلقت المس بيل على الحادثة تقول : « من مزايا سياستنا في العراق انهم حين يختلفون فيما بينهم يطلقون النار بعضهم على بعض ، وليس علينا ، والا كنت أنا المصابة بدلاً من عداي ، (٣٥) •

أسرعت الشرطة فألقت القبض على واحد وعشرين شخصاً من رجال المعارضة كان من بينهم : داود السعدي وشفيق نوري السعيد و رشيد رشدي وعلي محمود الشيخ علي وعوني النقشلي وأنور النقشلي وسامي النقشلي ومحمد عبدالحسين وعبدالرزاق الحسيني و رشيد الصوفي وعبدالهادي الظاهر وتوفيق الفكيكي وصادق حبه ونصرت الفارسي وفخري الطبقجلي وعبدالرحمن خضر وطالب مشتاق ومحي الدين أبو الخطاب وهاشم السعدي وعبدالمجيد زيدان وقاسم العلوي وغيرهم • كما أمرت وزارة الداخلية باغلاق جريدتي « الاستقلال » و « الشعب » •

عرض المقبوض عليهم على عداي الجريان وسلمان البراك لكي يتعرفا من بينهم على الشخصين اللذين أطلقا النار عليهما • فأشار سلمان الى علي محمود الشيخ علي وقال انه أحد الشخصين ، ثم أشار الى عوني النقشلي وقال انه الثاني ولكنه قال انه غير متأكد منه • وقد تحقق فيما بعد ان سلمان كان مخطئاً في تشخيصه • وقيل في حينه ان الفاعلين الحقيقيين هما شاكر القرغولي وعبدالله سرية ، وكانا قبل هذا بشهرين قد اغتالا توفيق الخالدي كما هو معروف •

وفي ٢٣ نيسان أطلق حاكم التحقيق سراح اثني عشر من المقبوض عليهم • وفي ٢٥ منه أطلق سراح رجل آخر منهم هو عبدالرحمن خضر • أما الباقيون فلم يطلق سراحهم الا في ٢ أيار • وقد حدثني عبدالهادي

(35) Ibid, vol. 2, p. 340 - 341.

الظاهر بان شاكر القرغولي وعبدالله سرية أرسلوا الى المقبوض عليهم قبل اطلاق سراحهم يقولان لهم : لا تخافوا فنحن مستعدان للاعتراف عند اللزوم بأننا نحن اللذان أطلقنا الرصاص على عداي الجريان وسلمان البراك .

وعلى أي حال فان تلك الحادثة أدت الى انتشار الرعب بين النواب ، وصار بعضهم يخشى أن يأتي دوره بعد سلمان البراك وعداي الجريان . ولهذا أخذ عدد النواب الذين يحضرون المجلس يتناقص بمرور الأيام حتى بلغ عدد الحاضرين في جلسة ١٠ أيار ثلاثة وخمسين فقط مع العلم ان عدد النواب كلهم يبلغ المائة ، كما أخذ بعض النواب يقدمون استقالاتهم من عضوية المجلس ، وصرح أحدهم أنه يريد الاستقالة بسبب التهديدات المستمرة من الرسائل غير الموقعة والاعلانات التي كانت تلصق فسي الاسواق (٣٦) .

كتبت المس بيل في ٢١ أيار حول صديقها الحاج ناجي وهو أحد النواب المعروفين بتأييدهم للمعاهدة ، فقالت : « ذهبت لزيارة عزيزي المعجوز فوجدته في هياج مكبوت . انه كان متأكداً بأن دوره هو التالي ويقول ان كل انسان يظن ذلك . فان بينه البعيد وتنقلاته الرتيبة تجعل العمل الاعتداء عليه سهلاً . واني حاولت تسليته ولكنني عند عودتي كنت قلقة عليه جداً . فاتصلت بكورنواليس لكي يحيطه بحماية من الشرطة ، واذا لم يفعل ذلك فأني سأذهب الى الحاج ناجي وأسكن معه فترة من الزمن ولا أسمح له بالمجيء الى بغداد الا معي . واتفقنا في الرأي على أنهم لا يطلقون عليه النار ما دمت أنا معه في أرجح الظن » (٣٧) .

سلوك الهاشمي :

كان سلوك الهاشمي في تلك الآونة يصح أن نصفه بالازدواج ، فهو

(٣٦) فيليب آيرلاند (المصدر السابق) - ص ٣١١ .
(٣٧) Burgoyne (op. cit.) - vol. 2, p. 342.

في الظاهر كان معارضا للمعاهدة وكان حين يجتمع بالمحامين الذين تزعّموا المعارضة يشجعهم ويبارك عملهم ، ولكنه عندما يختلي بالملك أو بالانكليز أو ببعض اصحابه الذين يطمئن منهم يحمّد المعاهدة وربما وصفها بأنها خير ما يمكن الحصول عليه (٣٨) .

هناك في تفسير هذا السلوك المزدوج من الهاشمي رأيان ، أحدهما يقول بأن الهاشمي انما فعل ذلك بالتفاهم مع الملك وذلك للاستفادة من المعارضة في تخفيف وطأة بعض المواد في المعاهدة وتعديلها لمصلحة البلاد (٣٩) . والرأي الثاني يقول بأن الهاشمي كان يريد بمعارضته الوصول الى الحكم .

يبدو ان جعفر العسكري كان يذهب الى الرأي الثاني في تفسير سلوك الهاشمي . فهو كان يشعر بان المعارضة خرجت عن حدها واصبحت لاتطاق ، وانها تستهدف ابعاده عن الحكم لكي يتوالاه الهاشمي . وقد أيد هذا الشعور لديه ان الهاشمي طالما أعلن أمام الملك والمندوب السامي ان الوزارة العسكرية غير مهيمنة على المجلس كأنه يعني بذلك انه وحده القادر على اقناع المجلس بتضيق المعاهدة .

وفي أوائل أيار بادر جعفر العسكري بتقديم استقالته الى الملك ، وبعد أن استشار الملك المندوب السامي استدعى اليه الهاشمي وكلفه بتشكيل وزارة جديدة . فطلب الهاشمي مهلة أربع وعشرين ساعة لدراسة الوضع ، واتصل خلال هذه المهلة بالمندوب السامي طالبا منه تعديل بعض مواد المعاهدة من أجل تسهيل تصديقها في المجلس ، ولكن المندوب السامي رفض طلبه . واضطر الهاشمي اخيرا الى الاعتذار عن تشكيل وزارة جديدة غير أنه أعطى وعدا للملك بان لجنة تدقيق المعاهدة التي يرأسها سوف تقدم تقريرا الى المجلس في صالح المعاهدة . فاقنع العسكري بالاستمرار

(٣٨) خيري أمين العمري (شخصيات عراقية) - ج ١ ص ١٠٩ .

(٣٩) علي جودت (ذكريات) - بيروت ١٩٦٧ - ص ١٧٢ .

في رئاسة الوزارة حتى يتم تصديق المعاهدة (٤٠) .

ومما يلفت النظر ان الهاشمي كان في تلك الآونة يتجنب الى المس بيل بغية اكتساب ثقتها من جديد بعد ما فقد تلك الثقة على نحو ما ذكرناه سابقا . كتبت المس بيل في ٢١ أيار تقول في وصف الهاشمي مانصه :
« ان لديه وصمات داكنة ولكنني مع ذلك أحبه . انه يملك جاذبية ويعطي الانسان احساسا بالقوة . وقد ذهبت لزيارته في بيته قبل اسبوعين بمناسبة العيد ، فرحب بي ترحيا لم اجده في اي بيت آخر ، واصر على مصاحبتني لرؤية زوجته وبناته الصغيرات الثلاث . ان حياته العائلية جميلة ، واني أظن ان من النادر أن نجد في بغداد رجلا يتمتع بمثل هذه الحياة العائلية » (٤١) .

المعروف عن الهاشمي ان حياته العائلية لم تكن كما صورتها المس بيل ، فقد كانت المناقرة بينه وبين زوجته متصلة ، وكان هو دائم التذمر منها . والمظنون أنه أظهر حياته العائلية للمس بيل بتلك الصورة الجميلة لكي يؤثر عليها نفسيا ويجعلها تميل اليه . ويبدو انه نجح في ذلك نجاحا غير قليل .

في ٢٠ أيار قدم الهاشمي تقرير اللجنة المكلفة بتدقيق المعاهدة الى المجلس ، وقال يصف المعاهدة : « وجدنا فيها ما يمس بسيادتنا ويخل بحقوقنا ويضعف استقلالنا » ، وطلب من المجلس رفضها اذا لم تجر عليها التعديلات المطلوبة . فكانت تلك مفاجأة غير متوقعة للملك وللمندوب السامي وللوزارة (٤٢) . ولكن المس بيل حين قدمت تقريرها الى المندوب السامي حول ماجرى في المجلس قالت : انهم سيشهدون منظرا عجيبا حين

(٤٠) فيليب آيرلاند (المصدر السابق) - ص ٣١٢ .
(41) Burgoyne (op. cit.) - vol. 2, p. 342.

(٤٢) سامي عبدالحافظ القيسي (ياسين الهاشمي) - رسالة جامعية غير مطبوعة - ص ١٣٢ ، ١٣٥

يتم تصديق المعاهدة على يد ياسين الهاشمي (٤٣) .

تفاهم الازمة :

أجمع رأي المعارضة في داخل المجلس وخارجه على وجوب تعديل المعاهدة قبل تصديقها . وفي ٢٦ أيار قدم المندوب السامي الى الملك شبه انذار يقول فيه ان موعد الجلسة القادمة لمجلس عصبة الامم هو ١١ حزيران ، واذا لم تصدق المعاهدة قبل ذلك فان الحكومة البريطانية تفكر في أن تعرض على مجلس العصبة ترتيبا آخر عوضا عن المعاهدة (٤٤) .

وفي ٢٧ أيار قدم وزير المعارف محمد حسن أبو المحاسن استقالته من الوزارة بسبب اختلافه مع زملائه الوزراء حول وجوب تعديل المعاهدة قبل عرضها على المجلس . ويروي ساطع الحصري طريقة في هذا الصدد هي ان رئيس الوزراء قال للوزير ابو المحاسن قبل استقالته : « انك تكثر من مخالفتنا .. والعادة ان الوزير الذي لايتفق مع زملائه ينسحب ويستقيل .. فأرى انه يجب عليك أن تستقيل .. » فرد أبو المحاسن عليه قائلا : « أنا لا استقيل - أنت استقيل .. » (٤٥) .

كان يوم ٢٩ أيار يوما صاخبا في بغداد ، فقد كان المقرر ان يقوم المجلس في ذلك اليوم بالنظر في أمر المعاهدة نهائيا أما أن يصادق عليها او يرفضها . وقد استعدت المعارضة لهذا اليوم وعبأت الرأي العام له وأعدت الجماهير .

ولما طلع النهار في ذلك اليوم عم الاضراب في الكثير من الاسواق ، وتجمهر الناس في جانب الكرخ حول بناية المجلس وهم يهتفون : « ليحيى سالم الخيون » ، « ليحيى رجال الوطن » ، « ليحيى الاستقلال » ، « لاتمهروا المعاهدة لاتمضوها .. » وقد حاول رجال الشرطة اسكاتهم وتهديتهم ولكنهم

(43) Burgoyne (op. cit.) - vol. 2, p. 342.

(٤٤) عبدالرزاق الحسني (المصدر السابق) - ج ١ ص ١٨٣ .

(٤٥) ساطع الحصري (المصدر السابق) - ج ١ ص ٣٨٤ .

ازدادوا صراخا وهتافا^(٤٦) . ومن الطرائف التي تروى في هذا الصدد ان صبيح نشأت وزير المواصلات والاشغال كان قادما بسيارته الى المجلس فأحاط بسيارته الجمهور وازدحموا عليه ومنعوا سيارته من السير وهم يهتفون « تسقط المعاهدة » . فأخذ يهتف معهم بسقوط المعاهدة ليتخلص منهم ، فطلبوا منه قول شرف بأنه سوف لا يصدق المعاهدة ، فصاح مؤيدا لهم : « لعنة على أمه وأبوه كل من يصدق المعاهدة ! » ولم يتخلص منهم الا « بجهد جهيد » .

وعندما اشتد الهياج خارج المجلس خرج بعض النواب يرجون من الجمهور الهدوء ، كما خرج رئيس المجلس يرجوهم كذلك ، فلم يؤثر ذلك فيهم شيئا . ولما اراد الشرطة تفريقهم أخذوا يقذفون الشرطة بالحجارة ، وحاول بعضهم الدخول الى قاعة المجلس ، فاستدعى نوري السعيد قوة من الجنود الخيالة لمساعدة الشرطة في تفريق المتجمهرين ، وأطلق هؤلاء النار في الهواء في أول الأمر ثم اضطروا الى اطلاق النار على المتجمهرين فأحدثت فيهم بعض الاصابات الخفيفة . ودخل بعض الجنود وهم يحملون الرشاشات الى داخل المجلس وكاد يحدث تصادم بينهم وبين الرجال المسلحين الذين كانوا قد جاؤوا بصحبة سالم الخيون وغيره من رؤساء العشائر .

وكانت مناقشات المجلس في ذلك اليوم لاتخلو من حماس ، وقد برز فيها سالم الخيون بخطبته المثيرة للنخوة على الطريقة العشائرية ، كما برز رايح العطية وغيره . ثم تأجلت الجلسة الى يوم ٣١ أيار .

وعندما أريد عقد الجلسة في ٣١ أيار تبين ان كثيرا من النواب غائبون . وتأخر جرس البدء بالجلسة ساعة كاملة . وحين دق الجرس أخيرا ظهر ان النصاب غير مكتمل إذ كان عدد الحاضرين تسعة وأربعين فقط مما اضطر الرئيس الى تأجيل الجلسة الى ٢ حزيران .

(٤٦) محمد مظفر الادهمي (المصدر السابق) - ج ٢ ص ٦٤٣ .

وبينما كان النواب يهيمون بالخروج من قاعة المجلس شاهدوا المندوب السامي قادما ومعه كورنواليس ، فكانت تلك مفاجأة لهم • وذهبوا جميعا الى غرفة الاستراحة وأخذ دويس يتحدث اليهم محاولا اقناعهم بقبول المعاهدة فأشار الى محادثات السر برسي كوكس في اسطنبول حول قضية الموصل وقال ان الاتراك كانوا متساهلين فيها ولكنهم عندما بلغهم ما جرى في المجلس تغيروا وأخذوا يطالبون بولاية الموصل • ثم قال دويس ان التعديل الذى يطلبه النواب للمعاهدة ممكن ولكن بعد تصديقها ، ثم تناول ورقة وكتب عليها هذه العبارة : « ان الحكومة البريطانية مستعدة للنظر في تعديل الاتفاقيتين المالية والعسكرية بما يتفق والسخاء المعروف عن الشعب الانكليزي ، ما دامت المادة الثامنة عشرة من المعاهدة نفسها جوزت هذا التعديل على أن يكون بعد الابرام » • وبعد ان انتهى دويس من كتابة الورقة سلمها الى رئيس المجلس ، ثم خرج مع صاحبه كورنواليس • (٤٧) •

مباراة خطابية :

ظن دويس انه عندما تحدث الى النواب أقنمهم وانهم سيسرعون الى تصديق المعاهدة بلا تردد • واتضح فيما بعد انهم ازدادوا اصرارا على وجوب تعديل المعاهدة وصاروا يشتدون في خطبهم الحماسية في المجلس يوما بعد يوم •

من يطلع على محاضر جلسات المجلس التى عقدت بعد ٣١ أيار يجد نفسه كأنه في مباراة خطابية حيث كان كل واحد من النواب يحاول أن يتفوق على زملائه بما يظهر من حماسة وطنية وجراءة فى الكلام • لقد كان أكثر النواب فى تلك الايام واقعين تحت تأثير الحماسة العامة التى كانت مشحونة بالنقمة على المعاهدة وتمد تصديقها خيانة للوطن • فكان النائب الذى يتحمس فى شجب المعاهدة تحيطه الجماهير بهالة من التقدير ويصبح فى نظرهم وطنيا غيورا ويجري ذكره الطيب على كل لسان • وكانت شرفات المستمعين فى المجلس تفص عادة بروادها ، وهؤلاء كانوا يراقبون

النواب لبيدوا اعجابهم بمن يعارض المعاهدة منهم ويلعنوا المؤيد لها • وكان النائب الذي يتكلم لايبالي الا بصدى كلامه بين المستمعين وما سوف ينقله المستمعون الى الجماهير خارج المجلس من أقاويل المدح والذم •

عندما عقد المجلس التأسيسي جلسته في ٢ حزيران ، تكلم رؤوف الجادرجي وعمر العلوان وعبدالرزاق منير وصالح شكاره ومحمد حسن حيدر وأحمد الشيخ داود ، فهاجموا المعاهدة هجوما عنيفا وهاجم بعضهم بريطانيا معها • فقد قال محمد حسن حيدر مثلاً : « ان اعطاء زمام البلاد لأجنبي هي خيانة وان الخيانة تعني خسران الدين والشرف والعيش الحر • وقال أحمد الشيخ داود يصف المعاهدة بأنها « ضربة قاضية على استقلالنا مميتة لشعبنا مهدمة لكياننا السياسي » ، ثم ختم كلامه قائلاً : « ان ما أتملي علينا في هذه المعاهدة لا يمكن أن يطلق عليه تعبير تعاهد دولي بل هو صك استعباد واستعمار (تصفيق) ، فعليه أطلب من اخواني أن يقوموا ويصوتوا برد المعاهدة الى الحكومة • قوموا سألتكم بالله • » وكان يقصد من ذلك ان تنتهي الجلسة ويترك النواب القاعة ، فاعترض رئيس المجلس على ذلك قائلاً ان انتهاء الجلسة يجب أن لا يكون الا بعد التصويت ، فرد سالم الخيون عليه بأن الاكثرية قد حصلت بخصوص اعادة المعاهدة الى الحكومة • وحدث من جراء ذلك جدال انتهى بتأجيل الجلسة الى اليوم التالي •

وفي اليوم التالي كان الحماس أشد مما كان بالأمس ، وكان من أوائل المتكلمين عبدالرزاق الرويشدي وشعلان أبو الجون وسالم الخيون • وكانت كلمة سالم عاطفية مليئة بالاشعار ، وقال يصف نفسه وزملاءه شيوخ العشائر انهم يمثلون الاكثرية في البلاد وأنهم أهل الحل والعقد وهم الذين ضحوا بأنفسهم واشتروا البلاد بدمائهم ودماء آبائهم ، « فهيئات أن نقبل المعاهدة التي جاءت لتستعبدنا (تصفيق) » ، فأصرح بأن المعاهدة مردودة الى الحكومة » ، ثم قال انه يعتبر التراجع عن مطلب تعديل المعاهدة عاراً • وكان يشير بذلك الى ناجي السويدي الذي انشبق عن المعارضة في ذلك الوقت بعدما كان هو الباديء بها •

كان نوري السعيد الوحيد من بين النواب الذي أبدى رأيه علناً في تأييد المعاهدة دون أن يخشى نقمة الجمهور عليه • والظاهر أن له جمهوراً آخر يهتم به غير الجمهور الذي كان يهتم به بقية النواب • فقد قام يدافع عن المعاهدة قائلاً : اني اعترف بأنها تؤدي الى تقييد استقلال البلاد ولكن ذلك لا يعني عدم الاستقلال ، فان السلاح الحديث تملكه الدول الكبرى ، والسعي للاستقلال بدون سلاح غير ممكن • فقام حسن الشبوط يرد عليه قائلاً : ان الاتفاقية المالية تقيّد استقلال العراق فكيف له أن يتسلح وليس لديه مال ؟!

وعند هذا قدم بعض نواب الشمال تقريراً قرأه عنهم محمد شريف بك نائب أربيل مفاده انهم يستنكفون من ابداء رأيهم في المعاهدة اذا لم تؤجل المذاكرة فيها الى حين حسم قضية الموصل • وقال محمد شريف بك انه علم بان الاتراك يلحون في طلب الحاق الموصل بهم حتى جبال حميرين ، وهو لذلك يرجو من الملك والندوب السامي أن يهتما بإبقاء منطقة الموصل مع العراق والا ف لمنطقة تصبح في خطر • فقام أحمد الشيخ داود مؤكداً أن لا علاقة بين المعاهدة وقضية الموصل الا اذا أرادت بريطانيا أن تشدد على المجلس وتؤثر عليه عن طريق هذه القضية • وقام زامل المناع فأخذ يتحمس قائلاً ان العراقي لا خوف عليه في حالة رفض بريطانيا مساعدته ، فهو قادر على منازلة ابن سعود ، والایرانيون يهابون العرب ، أما الاتراك فهم مقيدون بقيود دولية وهم اذا أصروا على معاداة العرب فإن العرب قادرون على صدهم • ولهذا فهو يصر على تعديل المعاهدة •

ثم تكلم عمر العلوان وآصف قاسم أغا وعبدالواحد الحاج سكر ومحمد حسن حيدر وحبيب الخيزران ، ضاربين على هذا الوتر • ومما قاله محمد حسن حيدر : « أقسم بالله لو صدقت هذه المعاهدة فلن تكون هناك صداقة » • وأخذ حبيب الخيزران يهدد بقيام ثورة في حالة اصرار بريطانيا على عدم تعديل المعاهدة ، ثم قال ان بريطانيا لن تسخلى عن الموصل

لأنها منبع النفط الثمين ، وإن المنافع التي تتوخى بريطانيا الحصول عليها من العراق مرتبطة يدفاعها عنه .

وقد استمرت المناقشات على هذا المنوال في الجلسات التالية التي عقدت في ٥ و ٧ و ٩ حزيران . ولوحظ أن عبدالمحسن السعدون كان في رئاسته للمجلس يشجع النواب المعارضين من طرف خفي ، ويسمح لهم بابتداء انحماس كما يجبون . والمظنون أنه فعل ذلك نكاية بالملك وصاحبه جعفر العسكري .

كتبت المس بيل تعلق على « ما يجري في المجلس قائلة : « اتفقت مع كورنواليس في الرأي على أننا اقترفنا غلطة . وقد أدركنا أن من العبث أن نطلب من أناس غير مثقفين سياسياً أن يتخذوا قراراً حيوياً عن طريق نوابهم في أمر يخص مستقبلهم . فإن عوامل الجهل والطمع الشخصي والعداء الأعمى سيكون لها أثرها المباشر في القرار ، وتكون القضية عند ذلك على درجة من الغموض بحيث لا يستطيع صاحبها أن يرى طريقه » (٤٨) .

حملة الجرائد الموالية :

كان في بغداد يومذاك ثلاث جرائد موالية للانكليز ، أولها جريدة « الاوقات البغدادية » وهي التي كان الانكليز يصدرونها ، والثانية جريدة «العراق» لصاحبها رزوق غنام الذي كان عضواً في المجلس التأسيسي ومعروفاً بتأييده للسلطة ، أما الثالثة فهي جريدة «المفيد» لصاحبها ابراهيم حلمي العمر ، وكان هذا من قبل معدوداً من الصحافيين المعارضين ولكنه بدّل موقفه أخيراً .

كانت هذه الجرائد تدعو الى تصديق المعاهدة قبل تعديلها . ففي ٢٦ أيار نشرت جريدة «المفيد» مقالاً بعنوان « الوطن في خطر » ايمن المتقدون ، طالب فيه بتحكيم العقل قبل العاطفة ، ووازنت بين خطر رفض

المعاهدة وضرر ابرامها وأوضحت ان الخطر الذي ينتج عن رفض المعاهدة جسيم من جراء جلاء الانكليز عن العراق وحرمان العراق من معاضدتهم في قضية الموصل وخلو البلاد من الكثير من المقومات لحياة الدولة الحديثة . أما الضرر الذي ينتج عن ابرام المعاهدة فلا يستمر سوى أربع سنين وهي مدة المعاهدة كما ورد في ملحقها . وهاجمت الجريدة أولئك الذين يقولون ان بريطانيا لن تتخلى عن العراق ولن تجلو عنه في حالة رفض المجلس للمعاهدة .

وفي ٣ حزيران نشرت «المفيد» مقالاً بعنوان « الموقف البامض » حذرت فيه من خطر رفض المعاهدة فيما يتعلق بقضية الموصل وقالت : « ونحن اذا بذلنا النصح في هذا الشأن فليس لانا لا نعترف بما في المعاهدة وذيولها من القيود الثقيلة بل لانا نعتقد أن خطر الرفض أعظم بكثير من خطر الابرام ولانا لا نريد أن نختار أهون السيلين ، وعلى الذين يخالفوننا في هذه العقيدة ان يذكروا أن جسد الوطن على طاولة التشريح في مؤتمر الاستانة ... فماذا نحن فاعلون ؟! »

وقد سارت جريدة «العراق» على هذا المنوال الذي سارت عليه جريدة «المفيد» ، ومن الطريف انها نشرت في ٩ حزيران تحت عنوان « الشعب يحاسب نوابه » برقية من بعض النخبين الثانويين في الشرطة يعلنون فيها انتزاعهم الثقة من سالم الخيون .

أما جريدة «الاقوات البغدادية» فقد سارت على منوال آخر اذ هي اتخذت اسلوب التهديد بدلاً من اسلوب الاقناع العقلي . وفيما يلي نموذج من أسلوبها نقلاً عن مقال لها نشرته في ٢٢ أيار :

« كاد ينقضي شهران على المجلس التأسيسي وهو ينظر في المعاهدة العراقية البريطانية ، ونسمع الآن باعداد تقارير ضافية الذبول وبمناقشات طويلة عريضة في أمر رفض المعاهدة أو تعديلها أو قبولها بشروط ترمي الى تعديلها في المستقبل . ولكن ما فائدة هذا الكلام كله فقد وضع لأقل الناس ادراكاً وضوح الشمس في رابعة النهار ان البلاد لا تريد المعاهدة

على ما تفسرها ذيولها وعليه فليقدم أعضاء المجلس التأسيسي على ابداء آرائهم ويرفضوا المعاهدة ويقضوا عليها القضاء المبرم ، وليعلموا ان البريطانيين أنفسهم لا يريدون المعاهدة . فلو أتيح لهم المكث في البلاد وهم مشمولون بالصدقة والمحبة بنية معاونتها في السير في سبيل النجاح لرضوا بالبقاء عن طيب خاطر ولكن ذلك الحلم قد انقضى ، فقد حل الشك محل الصداقة ، فلماذا اذن يبقى البريطانيون في هذه البلاد . فان الاوفق لسياسة بريطانيا في تركيا وفارس والهند ان يخرج البريطانيون من العراق من غير قيل وقال ، وبذلك يزيلون عنهم بالكلية ظنون الخاطم الامبراطورية . والذي تتساءل عنه الآن : هل يخرج البريطانيون من العراق اذا ما قلب لهم أهلوه ظهر المجن كما يبدو على موقفهم الحالي ؟ ان التجارة في العراق لا يبعأ بها ، وقمح العراق وجلده وصوفه أردأ قمح وجلد وصوف في الدنيا ، والشركات البريطانية في العراق لا تربح شيئاً ، ويحتمل أن يزرع القطن هنا في المستقبل ولكنه أردأ من القطن الذي يزرع في السودان والمستعمرات الافريقية ، ويحتمل كذلك أن تكثر الشركات على النفط ولكننا نستطيع الحصول عليه في بلدان أخرى من غير أن نخاطر برؤوس أموالنا، فلا فائدة لامبراطوريتنا من البقاء في العراق . فليتشجع أعضاء المجلس التأسيسي ويسرعوا في التصويت طبق رغبة الشعب ، فقد آن لنا أن نتخلص من الدسائس والمراوغات . فاذا كان العراقيون غير قابلين بالمعاهدة وذيولها فليصرحوا بذلك وليخرج البريطانيون من هذه البلاد ، ونقول قولاً أكيداً أن ما أمة مثل الأمة البريطانية يسرها التخلص من مشاكل بلاد منحلة وشغوب يستحيل ارضاؤه بشيء .

وفي ٢ حزيران كتبت الجريدة نفسها تقول : ان المسألة الرئيسية للعراق اليوم ليس الاستقلال بل الدفاع عن الموصل ضد الاتراك وأنه يجب ان يفهم الجميع اليوم وكل يوم انهم اذا لم يصادقوا على المعاهدة فمن المحتمل أن يضيعوا الموصل ، واذا صادقوا عليها فبريطانيا تبذل كل ما في جهدها لابقاء ولاية الموصل جزءاً من العراق ، ولن تدافع بريطانيا عن

هذه الولاية في حالة عدم تصديق المعاهدة مع العلم ان العراق في وضعه الحاضر لا يمكنه الدفاع عنها •

وفي ٧ حزيران كتبت تقول : « وفي الاخير نريد ان نقول شيئا لاهالي العراق فان بعضا من النواب الذين يصرخون ضد المعاهدة هم حقيقة يصرخون ضد الحكومة لماذا ؟ لانهم يريدون أن يكونوا وزراء ... اذا كان المجلس لا يزال راغباً بعدم ابرام المعاهدة وبعدم الثقة ببريطانيا العظمى فلا نؤمل من الحكومة البريطانية ان تساعد العراق أو تضع فيه ثقتها ، فتكون بريطانيا حينئذ حرة بعملها كما تشاء » •

وفي ٩ حزيران نشرت الجريدة مقالاً بعنوان مثيره هي : « الدسائس التركية في بغداد » بيانات مذهشة ، لم يبق سوى ٤٨ ساعة لاتخاذ الموصلي ، على البلاد أن تنتخب اما استبداد تركيا أو حرية بمساعدة البريطانيين ، كيف أضل الاتراك النواب والاهلين ، رفض المعاهدة يقضي على القضية العربية واستقلال العرب » • وقد أشارت الجريدة في مقالها هذا الى ما يفعله أشياخ الاتراك في العراق من ترويج للاكاذيب في شأن المعاهدة والانكليز ، وكيف أن دعاء الوطنية الذين كانوا ناقلين على الانتداب في صيف ١٩٢٢ كانوا يسمعون سرّاً لبيع الموصلي للاتراك • وكذلك أشارت الجريدة الى ان الاتراك هم الذين دبروا حادثة كركوك وهي الحادثة التي قتل فيها الكثير من أهل كركوك على أيدي الجنود الاثوريين كما سنأتي اليه في الجزء القادم ، وقالت الجريدة : « كنا نظن الشعب العراقي شعباً عاقلاً مدركاً ولكننا بتنا نعتقد اليوم أنه قد عمي عن الحقائق أوجهلها بتاتاً فلم يعد يفرق بين الأخبار الباطلة والحقة ، ولم يبق لنا الا أن نفصح له عن الحقيقة الجارحة المؤلمة ... »

وفي ١٠ حزيران نشرت الجريدة آخر مقالة تهديدية لها • ففسي ذلك اليوم ينتهي أمد الانذار الذي قدمه المندوب السامي الى الملك • وكانت المقالة بعنوان مثيره هي : « القرار العظيم » أما أن يريح العراق حريته والعرب قوميتهم أو يخسروها في هذا اليوم » • وقد أكدت الجريدة في مقالاتها دعواها السابقة بوجود علاقة بين المعارضين للمعاهدة وبين الاتراك

الذين يريدون احتلال العراق ، وتساءلت : لماذا لا يطرد الاتراك من بغداد ؟! ثم اشارت الى ان الشروط الثقيلة الموجودة في المعاهدة هي بمثابة الثمن الذي تناله بريطانيا جزاء صرفها المبالغ الطائلة من الأموال وبذلها الكثير من ارواح الجنود البريطانيين من أجل المحافظة على العراق ، فلبريطانيا الحق اذن في اصرارها على تلك الشروط مقابل هذه التضحيات . ثم ختمت الجريدة المقالة بما يلي :

« اذا رفض المجلس ابرام المعاهدة اليوم فيكون العراقيون من عرب واكراد قد رفضوا تقدمه بريطانيا ، ويكونون قد نقضوا وعد الجنرال مود بأنفسهم . وتكون بريطانيا حرة وغير مجبرة في الدفاع عن الموصل ، فعلى النواب واجب محتم عليهم أداؤه عن الاهالي والبلاد ، ولهم أن ينتخبوا بين بناء مملكة العراق أو خرابها ، فكل فرد منهم يكون مسؤولاً أمام الشعب العراقي والأمم الأخرى للقرار النهائي الذي يصدرونه ، وذلك القرار يجب أن يكون اليوم لان بريطانيا تسحب تقدمتها حالما تدق الساعة الثانية عشرة من ليلة هذا اليوم ، وتحال مسألة ومستقبل العراق لقرار أوروبا فأما أن يفوز المجلس التأسيسي بعمله اليوم ويخرج مظفراً لصالح البلاد أو يقضي على حياة شعب حديث ربما الى الابد » .

دوبس يقضب :

كان الملك في ورطة لا يحسد عليها . ففي منتصف الليل من يوم ١٠ حزيران ينتهي أمد الانذار الذي قدمه دوبس . وكان الملك يخشى أن يمتنع المجلس عن تصديق المعاهدة في ذلك اليوم ، وهو لا يدري ماذا سوف تكون العاقبة .

دعا الملك أعضاء المجلس للاجتماع به في قصره في الساعة الرابعة والنصف من عصر يوم ٩ حزيران ، وعندما اكتمل عددهم وقف يحدثهم حديثاً طويلاً بنية اقناعهم بتصديق المعاهدة . نقل فيما يلي الجزء الأخير من حديثه لأهميته :

« لما قرأت المعاهدة واتفاقياتها شعرت ما شعر به المجلس وشعرت به

الأمة الا اني لا أخفي عنكم شيئاً ولا أريد أن اكنم ما يكنه صدري • أرى ان موقف البلاد في خطر فلا يجب ان نسير وراء العواطف بل يجب أن نحكم العقل وأتم المسؤولون فانا أرفع غني المسؤولية وألقيها عليكم • أنا لا أقول لكم اقبلوا المعاهدة أو ارفضوها ، انما أقول اعملوا ما ترونه الأنفع لمصلحة البلاد فان أردتم رفضها فلا تتركوا فيصلاً معلقاً بين السماء والارض ، بل أوجدوا لنا طريقاً غير المعاهدة ، وأتم ترون اننا في حاجة الى مال ورجال لنحارب الاتراك ونقاوم الانتداب البريطاني ونقف ازاء الايرانيين وغيرهم فانا أمامكم في ميدان الحرب والسياسية ، وماضي معلوم ، فلا تضيعوا مافي يدكم • اني أشكر للمجلس وقفته وللجنة مساعيها ، فانا بذلك حصلنا على تحفظات وايضاحات في مصلحة العراق وعلى وعد صريح من المعتمد السامي بتعديل الاتفاقية المالية ودخولنا في المفاوضات حالاً بعد الابرام لتعديل بقية المواد وذلك اذا وافقتم على ابرامها وحسم المعضلة ، (٤٩) •

يبدو ان حديث الملك هذا لم يكن ذا تأثير كبير على النواب • فقد كان المفروض أن يعقد المجلس جلسته التالية في الساعة التاسعة صباحاً ، وحين حلت تلك الساعة لم يظهر على النواب أنهم مستعدون للحضور • ومضت ساعتان بلا جدوى اذ كان النواب يدخلون ويخرجون كأنهم مترددون في الحضور • وانطلقت اذ ذاك مجادلة عنيفة مع صراخ وضجة في البهو المؤدي الى المجلس ، وشوهد سالم الخيون على رأس عدد من النواب وهم يهيمون بالخروج من المجلس ، وجاء نواب آخرون يدعونهم للعودة ويلحون عليهم حتى استطاعوا ارجاعهم • وفي الساعة الحادية عشرة والنصف اكتمل النصاب في القاعة غير أن أحد النواب طلب تأجيل الجلسة قليلاً من الوقت فوافق الرئيس على تأجيلها نصف ساعة •

وعندما بدأت الجلسة في الساعة الثانية عشرة والنصف حصلت مجادلة بين فريقين من النواب احدهما يؤيد اقتراح نواب الشمال في تأجيل

(٤٩) جريدة « العالم العربي » - في عددها الصادر في ١٠ حزيران ١٩٢٤ •

تصديق المعاهدة الى ما بعد حسم قضية الموصل ، والآخر يؤيد اقتراح الهاشمي وجماعته في وجوب تعديل المعاهدة قبل تصديقها . وقد امتنع رئيس الوزراء من ذلك كل الامتناع ، ذلك لانه كان يأمل من النواب أن ينظروا في أمر تصديق المعاهدة بوضعها الحالي ولكنه وجدهم مختلفين حول اقتراحين لا يؤدي أي منهما الى المطلوب . وخرج رئيس الوزراء من القاعة حيث اتصل بالملك تلفونياً وأخبره بأن الحالة سيئة ، ثم عاد الى القاعة طالباً من رئيس المجلس تأجيل الجلسة الى الغد ، فوافق الرئيس على ذلك حالاً . وانطلق النواب خارجين كما ينطلق الطير على حد تعبير الكاتبين هولت الذي كان حاضراً آنذاك في شرفة المستمعين⁽⁵⁰⁾ .

حين علم دويس بما جرى في المجلس انفجر غاضباً بشكل غير مألوف في الخلق البريطاني . ومما يجدر ذكره في هذا الصدد ان دويس معروف بشدة غضبه ، وتروى عنه في ذلك أقاصيص غريبة ، فقد شاع عنه انه اذا غضب على موظف لديه قذف بالمجبرة في وجهه . وقد قذف ذات مرة أبيضاً للزهور على الأرض وحطمه لانه لم تعجبه الطريقة التي زرعت الزهور فيها .⁽⁵¹⁾

وقد تحدثت المس بيل في رسالة لها عن غضب دويس عند سماعه بما جرى في المجلس فقالت : « أسرعت باخبار كورنواليس بالأمر تلفونيا فتهتف قائلاً : يا الهي ! . ثم ذهبت الى السر هنري لالخبره فكان على درجة من الغضب لم أشهد مثها في أحد غيره . وبينما كنا نتداول الحديث ون جرس التلفون وكان من الملك وهو يطلب مهلة يوم واحد . فأجابه السر هنري دويس بالرفض وقال له انه سيزوره ليطلب منه حل المجلس في منتصف الليل اذا لم يكن في الامكان جمعه عصرآ . . . » . وتضيف المس بيل الى ذلك قائلة : « ان السر هنري أخذ يزداد غضباً لحظة بعد أخرى ،

(50) Burgoyne (op. cit.) - vol. 2, p. 845.

(51) Sinderson (Ten Thourand and One Nights) - London 1978 - p. 77.

معتبراً الأمر من تدبير الملك ، ولكن هذا غير صحيح • وصار يسب هذا ويسب ذاك ، الى أن اقترحت عليه أن نذهب لتناول طعام الغداء • ان السر هنري المثير للشفقة أخذ يهدأ غضبه تحت تأثير كأس من البيرة الثلجة ، (٥٢)

ليلة ليلاء :

في الساعة الثالثة من عصر ذلك اليوم ذهب جعفر العسكري ومعه ياسين الهاشمي الى دار الاعتماد البريطاني في الكرخ لمقابلة دويس • وحين وصلا الى الدار وجدا دويس يهيم بالخروج منها ، وقد نظر اليهما شزراً وقال انه ذاهب الى الملك فيصل ليطلب منه حل المجلس التأسيسي فوراً اذ لا يرجي من وجود المجلس أي خير للعلاقات بين بريطانيا والعراق (٥٣) •

عاد العسكري الى مقره عاجلاً وأخذ يسعى لجمع النواب أملاً بأن يجتمع المجلس مساءً ويصادق على المعاهدة قبل انتهاء أمد الانذار • أما دويس فقد وصل الى قصر الملك في الساعة الرابعة ، وحين دخل عليه وجد كورنواليس جالساً عنده ، فقدم الى الملك ورقة تتضمن انذاراً يطلب فيه حل المجلس اعتباراً من منتصف تلك الليلة واصدار التعليمات السي وزارة الداخلية لغلق بناية المجلس فوراً واحاطتها بقوة من الشرطة تكفي لتنفيذ هذا الامر • وقد أذعن الملك لهذا الانذار ، واستدعى مستشار وزارة العدلية البريطاني الى القصر لاعداد لائحة قانون لحل المجلس •

كان جعفر العسكري في اثناء ذلك منهمكاً في محاولاته لجمع النواب ، واستطاع أن يأتي بعدد منهم الى بناية المجلس ، ولكن سالم الخيون وجماعته وقفوا عند باب المجلس يحرضون النواب على عدم الدخول • وفي الساعة الثامنة اتصل العسكري بالملك تلفونياً يخبره بأنه لم يتمكن من جمع العدد الكافي من النواب وهو يرجو منحه مهلة يوم واحد ، فرفض دويس منحه هذه المهلة • وكانت لائحة قانون حل المجلس قد تم اعدادها

(52) Burgoyne (op. cit.) - vol. 2, p. 344 - 345.

(٥٣) عبدالرزاق الحسيني (المصدر السابق) - ج ١ ص ١٨٥ •

حينئذ وضعت بين يدي الملك لتصديقها (٥٤) .

عاد جعفر العسكري الى السعي من جديد لجمع النواب ، وصار يبذل اقصى جهده في هذا السبيل كأنه أدرك بان مصيره السياسي معلق بنجاحه فيه . وقد عاونوه في ذلك اخوه تحسين العسكري الذي كان يومذاك مديراً عاما للشرطة ، واستنفر هذا جهاز الشرطة كله للبحث عن النواب في كل مكان والاتيان بهم الى المجلس . وكان الملك قد أرسل مرافقه تحسين قدرتي لمعاونتهم .

استعملت شتى الوسائل من أجل جلب النواب الى المجلس ، حيث استعمل الرجاء والتضرع أحيانا ، والالاحاح الشديد أحيانا أخرى ، وربما استعمل التهديد أو العنف مع البعض منهم . قال الحاج ناجي الكراي في حديث له مع المس بيل عن تلك الليلة : « ان الشرطة سحبوه من فراشه ووضعوه في سيارة وكان لا يدري هل سيأخذونه الى المقصلة أم الى مكان آخر » (٥٥) .

وفي العاشرة والنصف من تلك الليلة أمكن جمع ثمانية وستين نائبا . فحشروا في قاعة المجلس وبدأت الجلسة يسودها التوتر الشديد .

لقد كانت تلك جلسة يندر أن يكون لها مثل في تاريخ المجالس النيابية في العالم ، فقد كان كل نائب في القاعة يشعر كأن الدنيا كلها تراقبه وستحاسبه على ما يفعل في هذه الجلسة . وكانت شرفات المستمعين غاصة بالمحامين وغيرهم وقد شخصت أبصارهم نحو القاعة وألسنتهم مستعدة لصب اللعنات على آباء الذين سيوافقون على المعاهدة . أما الوزراء فقد تركوا مقاعدهم الخاصة بهم على يمين منصة الرئاسة واندسوا بين النواب يتوسلون اليهم ان يوافقوا على المعاهدة : « يا معودين ، البلاد في خطر ، حكموا العقل » . وكان ياسين الهاشمي يلعب لعبته المعروفة في اثناء ذلك اذ كان يعارض المعاهدة ظاهراً ويدعو الى تصديقها سراً ، كما كان

(٥٤) فيليب آيرلاند (المصدر السابق) - ص ٣١٦ .

(٥٥) Burgoyne (op. cit.) - vol. 2, 348.

السعدون يلعب لعبته أيضاً في عرقلة تصديق المعاهدة تشفياً بالملك وبصاحبه
جعفر العسكري .

كان هناك بين يدي السعدون تقريران هما تقرير المعارضة الذي يدعو
الى تعديل المعاهدة قبل تصديقها ، والثاني تقرير الحكومة الذي يدعو الى
تصديق المعاهدة أولاً ثم الدخول بعدئذ في المفاوضة لتعديلها . فقدم
السعدون تقرير المعارضة أولاً ، وطلب من كل نائب أن يقف عند ابداء
رأيه ، وكان قصد السعدون من ذلك تخويف المؤيدين للمعاهدة من ابداء
آرائهم تحت أنظار الجالسين في شرفات المستمعين^(٥٦) . ولكن خطته
فشلت اذ لم يؤيد تقرير المعارضة سوى ثلاثة وعشرين نائباً فقط ، أما
تقرير الحكومة فقد أيدته ٣٧ نائباً . وقد استنكف عن التصويت
ثمانية^(٥٧) .

ومن طريف ما يروى في هذا الصدد ان أحد النواب كان قد وعد
المس بيل باعطاء رأيه في تأييد المعاهدة ، ولكنه عند التصويت أخرج
مسيبته من جيبه فاستخار الله بها وكانت نتيجة «الخيرة» سلبية ، وأصيبت
المس بيل بخيبة أمل فيه أخيراً .

وكان الحاج ناجي الكراي من جملة المستنكفين الثمانية . وقد جاء
الى المس بيل بعدئذ وهو خجلان وأخذ يعتذر اليها عن عدم تأييده
للمعاهدة ، وبرّر ذلك بما جرى له عندما سجنوه من فراشه ليلاً . فقبلت
المس بيل عذره وأخذت تسليه ووعدته بزيارته في بيته لتناول طعام العشاء
معه فوق السطح تحت أشعة البدر^(٥٨) .

عندما انتهت الجلسة على أثر تصديق المعاهدة أبدى بعض النواب
المؤيدين لها تردداً في الخروج من المجلس مخافة أن يتألم أحد ، ولهذا
وجب تجهيز كل منهم بشرطي واحد او اثنين لحمايته . ولكن الخوف
لم يتطرق الى نوري السعيد ، فهو كان يحمل في جيبه قنبلة يدوية ، وحين

(56) Ibid, vol. 2, p. 846.

(57) عبدالرزاق الحسني (المصدر السابق) - ج ١ ص ١٨٧ - ١٨٩ .
(58) Burgoyne (op. cit.) - vol. 2, p. 848.

خرج من المجلس استصحب معه بسيارته احد النواب المؤيدين للمعاهدة وهو مظهر الحاج صكب، وأخرج نوري القبلة من جيبه وقال لمظهر: ان هذه في مقدورها أن تقتل مائتي شخص مرة واحدة . وتقول المس بيل في تعليقها على ذلك : ان وجود القبلة كان ذا تأثير مهديء على مظهر الحاج صكب ولكنها ليست كذلك معي حين أركب سيارة شديدة الاهتزاز (٥٩) .

خرجت جريدة « الاوقات البغدادية » في ١٢ حزيران تقول : « استقبل تصديق المعاهدة بصورة عامة بعدم المبالاة ، ولم يكن هناك مظهر من مظاهر النخب او الفرح التي كنا نتوقعها ، فلم نسمع شيئاً من هذا بينما كنا نسير في الشوارع بعد ان تم انجاز الحادث الهام في المجلس التأسيسي ، كما لم نشاهد او نلاحظ أيّاً من زمر الشباب المسلحين بالعصي والسكاكين والمسدسات والذين جعلوا أنفسهم بارزين الى درجة كبيرة خلال فترة مناقشات المجلس » .

وفي ١٨ حزيران كتبت المس بيل تقول : « ان السر هنري عندما أبرق بالمعاهدة الى لندن في ١١ حزيران طالبا اخباره هل هي مقبولة ، لم نحصل على جواب . ان من الصعب أن تتصور ذلك ولكننا لم نحصل على جواب الا في ١٧ منه . انه أمر غير لائق للغاية . فالجرائد المحلية بدأت تظهر شكوكها حول رفض الحكومة البريطانية للمعاهدة . وأخذ النواب الذين أيدوا المعاهدة يتوافدون عليّ قلقين ، ولم استطع الا أن أعطيهم جوابا غير قابل للتصديق تقريبا هو ان الحكومة البريطانية كلها ذهبت في عطلة ولم تنظر في المعاهدة بعد . ولما وصل الجواب اخيرا لم يكن فيه سوى خبر مجرد هو أن الحكومة البريطانية قبلت القرار - دون أن تكون فيه كلمة واحدة لشكر السر هنري أو تهنته وهو الذي كان عليه ان يتخذ القرارات الخطيرة والذي اتخذ فعلا القرارات الصحيحة التي أدت بالسياسة البريطانية الى هذه النتيجة السعيدة . أن السر هنري متسالم جدا ، (٦٠) .

(59) Ibid, vol. 2; p. 846.

(60) Ibid, vol. 2, p. 847 - 848.

الهاشمي من السلب الى الايجاب :

في ١٣ حزيران كتبت جريدة « المفيد » ، تهاجم الهاشمي وتندد بسلوكه المزدوج ، إذ قالت مخاطبة : « انكم كما علمنا من مصادر موثوقة يعمل عليها قد صرحتم مرارا عديدة لبعض الساسة البريطانيين ولاصداقكم من الوزراء الحاليين وغيرهم بأن الافيد للمراق هو ابرام المعاهدة وحرضتم الكثير من النواب بمثل هذه الاساليب على تصديقها ، وهذا شيء لايمكن نكرانه لاننا لانعجز عن اثباته بالبراهين الكثيرة ، فاذا كان الامر كذلك فما هو الذي حدا بكم الى المعارضة عند التصويت بعد أن زودتم كثيرا من زملائكم بالنصائح في تأييد المعاهدة » .

وفي ١٨ حزيران كتبت المس بيل تقول : « اني اتوقع ان جعفر سوف يضطر الى ادخال ياسين في الوزارة - اذا اراد هو الدخول فيها . انه قوة وان قوته مستمدة من تأييد المتطرفين له ، ومع ذلك فهو أقل خطرا في الوزارة منه في خارجها . انه كان منذ اسبوع تقريبا ينوى تبديل موقفه وتأييد المعاهدة وأخذ يعمل في هذا الاتجاه ، ولكنه وجد أنه غير قادر على الاحتفاظ بحزبه ، وأنه سيفقد اعتباره بينهم ، وعلى الرغم من يقينه بان ذلك قد يؤدي الى كارثة فانه رفض المعاهدة . يجب أن نذكر انهم كانوا جميعا غير مصدقين بأننا سوف نخرج من البلاد ، ولهذا فان رفض المعاهدة لم يكن في نظرهم بهذه الخطورة » (٦١) .

وفي ٩ تموز كتبت المس بيل تقول : « ان وزارة جعفر العسكري ترنح سائرة نحو قبرها ، وآخر عمل قام به السر هنري هو الاستعداد لمولد وزارة جديدة . ان ياسين باشا هو الذي اختير لتشكيل الوزارة . انه اقدر انسان هنا من ناحية الذكاء ولكنني انظر الى أمر تسنمه منصب رئاسة الوزارة بعين الريبة . غير أنني أسلي نفسي بالتفكير بان السر هنري يعرف الامور أكثر مني وأنه قد اتخذ الحل الافضل » (٦٢) .

من الجدير بالذكر ان وزارة العسكري لم تسقط في تلك الفترة

(61) Ibid, vol. 2, p. 847 - 848.

(62) Ibid, vol. 2, p. 248 - 249.

كما تنبأت المس بيل ، بل ظلت قائمة حتى أنهى المجلس التأسيسي تصديق الدستور وقانون انتخاب النواب • وفى ٢ آب انفض المجلس التأسيسى بعد أن اكمل عمله • وفى اليوم نفسه قدم العسكرى استقالة وزارته ، فقبلها الملك واستدعى اليه ياسين الهاشمي لتشكيل وزارة جديدة •

تولى الهاشمي وزارة الدفاع وكالة بالإضافة الى رئاسة الوزراء ، وتولى السعدون وزارة الداخلية ، وساسون حسيقل وزارة المالية ، ورشيد عالي الكيلاني وزارة العدلية ، ومزاحم الباججي وزارة الاشغال والمواصلات ، وابراهيم الحيدري وزارة الاوقاف ، ورضا الشيبسي وزارة المعارف •

كان الملك يريد اسناد وزارة الدفاع الى نوري السعيد ، ولكنه لم يوفق • انه كان يريد ابعاد الهاشمي عن أن يكون ذا اتصال مباشر بالجيش ، ولهذا طلب ايجاد منصب جديد في وزارة الدفاع هو منصب وكيل القائد العام - باعتبار ان الملك نفسه هو القائد العام - واسناد المنصب الى نوري لكي تذهب أمور الجيش عن طريقه الى الهاشمي • وقد أجيب الملك الى طلبه هذا •

وفي ٥ آب كتبت المس بيل تقول : « ان ياسين وساسون جاءا لزيارتي في يوم الاثنين • وعندما صافحني ياسين قال : انا نريد مساعدتك ، مساعدتك انت بصفة خاصة • فقلت لهما ان كل وزارة تُعيّن من قبل الملك ويوافق عليها المندوب السامي لها الحق بأن تطلب مساعدتي • ولما أرادا الخروج كرر ياسين قوله الاول بجديّة تامة • فكتبت اليه أقول إنه سوف يحصل طبعا على مساعدتي كاملة ، ولكنني لم أضف الى ذلك شيئاً • فان لي ملاحظة دقيقة جدا هي ان جريدة « الاستقلال » التي كان جعفر قد اغلقها في وقت الاضطرابات اثناء مناقشة المعاهدة قفزت أمس الى عالم الوجود وهي تشتم وزارة جعفر متهمة اياها بالطفغان • ان محرر الجريدة وكاتبها الرئيسي كليهما الآن في جيب ياسين ، وأنا متأكدة الى حد كبير ان كل شيء يظهر في جريدة « الاستقلال » أما ان يكون من وحي ياسين أو يكون هو قد وافق عليه على أقل تقدير » (٦٣) •

(68) Ibid, vol. 2, p. 349 - 350.

خاتمة

نمو الوعي السياسي في العراق الحديث

قد يلاحظ القارئ من مطالعته هذا الجزء ظهور الوعي السياسي في العراق بشكل واضح قوى . ومن الجدير بالذكر ان هذا الوعي لم يكن موجودا في العراق في بداية هذا القرن ، اذ كان الوعي الديني حينذاك هو الذى يقوم مقامه في اذهان الناس . والواقع ان هذا التحول الذى يشبه الطفرة في الوعي السياسي ظاهرة اجتماعية جديدة بالدراسة ، ومن المؤسف أن نراها غير مدروسة من قبل كتابنا وباحثينا بالرغم من أهميتها لفهم حياتنا الحاضرة . واني أقدم فيما يلي دراسة موجزة لتلك الظاهرة عسى أن يكون في ذلك تشجيع لغيري للتوسع فيها .

المعروف عن العامة في العهد العثماني انهم كانوا لا يحبون التدخل في السياسة وكانوا يعتبرونها أمرا خارجا عن مجال اهتمامهم ، لانها خطيرة عليهم من جهة ، ولانها لاتعطيهم « خبزا » من الجهة الاخرى . فاذا تحدثت الى أحد منهم في السياسة قال لك : « عمي هذا موشغلي ، أنا أريد شغل ينطيني خبز » . وتروى في ذلك قصة حدثت في الحرب الاولى ، خلاصتها : ان شابا من أهل الكاظمية كان مولعا بقراءة الجرائد وتبع أخبار الحرب ، وكان أبوه ينصحه ويردعه دون جدوى ، وفي أحد الايام جاء هذا الشاب الى بيته وهو يهتف : « سقطت وارشو ! » . فقد قرأ ذلك في الجرائد وفرح به ، فاراد أبوه أن يلقنه درسا يردعه عن الاشتغال بمثل هذه الامور التي لا فائدة منها ، فأخذ بيده وجاء به الى بائعة شوك في السوق حيث قال لها : « هل تبعين باقة الشوك بسقوط وارشو ؟ » . فلم ترض المرأة بذلك طبعا وسخرت منه ، وعند هذا التفت الاب نحو ابنه قائلا « انظر الى هذا الخبر الذي جئت به فهو لا يسوى باقة شوك ! » .

وكان العامة بالاضافة الى ذلك يحرصون على احترام رجال الحكم والتزلف اليهم درءاً لشرهم . وقد اتضح هذا في امثالهم الدارجة : « كل من يأخذ أُمِّي أسميه عمي » ، « انا عبد الله يخلي بالسكلة رگي » « اذا صارت حاجتك عند الكلب سميه حاج كليب » ، « جيب نقش وكل عوافي » ، « اليد التي ماتقدر تقطعها بوسها » ، « أنا شعليه » ، « يا هي مالتي » ، « الحاكم حكيم » ، « لان ما كان الله ينصر السلطان » ، وغيرها .

تمثلت هذه العادة بوضوح لدى الرؤساء والوجهاء إذ هم اعتادوا على التزلف الى رجال الحكم ، ووضع اختامهم على كل « مضبطة » يطلبونها منهم ، والدعاء اليه تعالى ان ينصر الدين والدولة « آمين ! » . وقد اعتاد العامة ان يتزلفوا الى هؤلاء الوجهاء بمقدار ما يتزلف الوجهاء الى الحكام . فهي كانت حلقة متصلة الحلقات ، يتزلف الواطي فيها الى العالي درجة فوق درجة . والملاحظ ان كلاً منهم إذ يحترم الذي فوقه ظاهراً يبغضه باطناً ويدعو الله أن يهلكه « آمين ! » .

هذا هو ما كان الناس عليه حتى بداية القرن العشرين ، أو بعبارة أدق : حتى عام ١٩٠٦ . ومنذ هذا العام أخذت الاحداث تتوالى على العراق من النوع الذي يحرك الازهان ويثير الجدل . وقد استطاعت تلك الاحداث في خلال بضع عشرة سنة ان تحول الشعب العراقي من طور اللاوعي في السياسة الى طور الوعي الشديد .

لقد تطرقنا في هذا الجزء وبمض الاجزاء السابقة الى ذكر تلك الاحداث بتفصيل . وسنحاول اعادة ذكرها باختصار مع بعض الاضافات اليها ، وقد جعلناها مرقمة حسب تسلسلها الزمني لكي يستطيع القارئ ان يأخذ عنها صورة عامة موحدة .

اولاً : ان اول حدث نبه أذهان العراقيين الى السياسة هو ما يسمى بحركة « المشروطة » أي حركة المطالبة بالدستور ، وذلك في عام ١٩٠٦

حين وصلت الى النجف أنباء النزاع الذي استفحل في ايران بين انصار
المشروطة وانصار الاستبداد . وسرعان ما انتقلت عدوى النزاع الى النجف ،
فتبنى الملا كاظم الخراساني مبدأ المشروطة ، والسيد كاظم اليزدي مبدأ
الاستبداد . وانقسم الناس الى فريقين متخاصمين ، وصار كل منهما يتهم
الآخر بالكفر وبالمروق عن الاسلام .

يجب أن لانسى ان النجف لها تراث جدلي قديم ، ولكن الجدل فيها
كان فى الماضي يدور حول قضايا اعتقادية وكلامية لاصلة لها بالواقع
الراهن ، كقضية الخلافة مثلا ومن هو أحق الناس بها بعد النبي : علي أم
أبو بكر . فلما جاءت حركة المشروطة خرج الجدل بها من اطاره القديم
وصار واقعا له مساس بمصالح الناس ومشكلات حياتهم . وأخذ الوعاظ
والروضخونية يتحدثون عن السياسة كمثل ما كانوا قبلئذ يتحدثون عن علي
وأبي بكر ، وربما ربطوا بين الحاضر والماضي ليخرجوا من ذلك بالتيجبة
التى يريدونها .

لقد كان اكثر العامة من انصار الاستبداد . أما انصار المشروطة فكانوا
في الغالب من الفئة التى يطلق عليها اسم « المتورين » ، وقد أخذ هؤلاء
يدعون الى بعض المبادئ والمفاهيم الحديثة كفتح المدارس ومطالعة الجرائد
وتعلم اللغات الاجنبية وتحرير المرأة وغيرها من الامور التى كان العامة
يعدونها من الامور المستنكرة أو المحرمة . حدثني أحدهم: ان الجرائد كانت
تأتي اليهم خلصة فيجتمعون في بيت أحدهم سرا لمطالعتها ، فاذا خرجوا من
البيت أخفوها تحت عباداتهم مخافة أن يراها أحد من العامة أو مؤيديهم
من رجال الدين فيتهمهم بالتفرنج أو الماسونية .

لاحاجة بنا الى القول ان هذا الصراع الذى حدث في النجف لا بد أن
ينتقل أثره الى المدن الشيعية الاخرى ، ولا سيما القبات المقدسة . وصار
الكثير من الناس هنالك لاحديث لهم فى مجالسهم ومقاهيهم سوى حديث
الاستبداد والمشروطة ، والنزاع بين الخراساني واليزدي .

ثانيا : في عام ١٩٠٨ حدث حادث له صلة وثيقة بالحادث الآنف الذكر ، ففي ٢٤ تموز من ذلك العام وصل الى بغداد نبأ انتصار جمعية الاتحاد والترقي في اسطنبول ، وهي الجمعية التي كانت تدعو الى الدستور في البلاد العثمانية . وقد اهتز العراق لهذا النبأ وانتشرت معالم الزينة والفرح في كل مكان ، وظهر على الجدران شعار الجمعية المؤلف من أربع كلمات هي : « حرية عدالت مساوات اخوت » . وبدأت فروع الجمعية تفتح في بغداد والمدن الاخرى حيث اتمى اليها الافندية والوجهاء والرؤساء ، وظهرت جرائد عديدة وهي تلحن المهد البائد وتبشر الناس بمهد زاهر جديد تسود فيه الحرية ويساوى الناس أمام القانون بمختلف أديانهم وطبقاتهم .

ان هذه الموجة من الفرح والتفاؤل لا بد ان تثير رد فعل لدى المحافظين ، فهم اعتبروا المهد الجديد مخالفا للشريعة الاسلامية لانه يساوى بين المسلمين والنصارى واليهود ، ولانه يستمد دستورهم من الافرنج ينمسا الواجب أن يستمد من كلام الله . وقد تأسست في بغداد جمعية باسم « المشور » للدفاع عن الشريعة المحمدية ومقاومة الافكار اللادينية . وفي ١٣ تشرين الثاني حدث حادث كان بمثابة الشرارة التي تشعل النار خلاصته : ان اثنين من الاتحاديين هما معروف الرصافي وعبد اللطيف ثيان ذهبا الى جامع الوزير المقابل للسراي ، وكان معهما بعض انصارهما . وصادف آنذاك ان كان أحد الوعاظ على المنبر يعظ الناس ، فأنزله الرصافي من على المنبر وصعد مكانه وأخذ يقرأ بيانا حزبيا ، ثم ألقى خطبة حماسية أشاد فيها بمبادئ جمعية الاتحاد والترقي من حيث منحها الحرية والمساواة للناس على مختلف أديانهم وطبقاتهم . ولم يكد الرصافي ينتهي من خطبته ويخرج من الجامع مع اصحابه حتى انطلقت اشاعة في الاسواق مفادها ان الاتحاديين أهانوا الدين الاسلامي . فاجتمع أعضاء جمعية « المشور » في احد الجوامع وأصدر احدهم فتوى باعدام الرصافي واصحابه شنقا ، ثم خرجت من الجامع مظاهرة وهي تهتف : « الدين يامحمدا » . واتجهت نحو دار الوالي القريبة

من الباب الشرقي ، وأغلقت الاسواق مخافة النهب . وعندما وصل المتظاهرون الى دار الوالي ارتفعت أصواتهم بشتم الكفرة المارقين ، وطالبوا بشنقهم ، واضطر الوالي أن يوعز الى الشرطة بالبقاء القبض على معروف الرصافي وعبد اللطيف ثيان ، ف قضى هذان الرجلان في الحبس بضعة أيام ثم أطلق سراحهما بعد أن هدا الناس .

ثالثا : في أواخر ١٩١١ تأسس في اسطنبول حزب معارض لحزب « الاتحاد والترقي » هو « الحرية والائتلاف » . وبدأ منذ ذلك الحين صراع عنيف بين الحزبين انتقلت عدواه الى العراق ، وظهرت آثاره على صفحات الجرائد ، وفي دوائر الحكومة ، والانتخابات . وصار الافندية في بغداد فريقين متخاصمين : هذا اتحادي وذاك ائتلافي .

وقد لعب السيد طالب النقيب دورا مهما في هذه المرحلة . فهو في أول الامر فتح فرعا لحزب الائتلاف في البصرة ، ولكنه في أوائل ١٩١٣ حول ذلك الفرع الى حزب قائم بذاته سماه « الجمعية الاصلاحية » ، وأخذ ينادي بالعروبة والقومية العربية ويوثق علاقاته مع دعاة العروبة في لبنان والجمعية اللامركزية في مصر . وقد اشتد النزاع من جراء ذلك بين السيد طالب والاتحاديين ، وأخذ هؤلاء يكينون له ، فأرسلوا الى البصرة قائدا صارما اسمه فريد بك للقضاء عليه ، ولكن السيد طالب أرسل اليه من اعتقاله في ٢٠ حزيران ١٩١٣ . ولم يستطع الاتحاديون ان يفعلوا شيئا للانتقام من السيد طالب أو كبح جماحه .

كان السيد طالب يملك الشخصية التي تثير اعجاب العراقيين وهي الشخصية التي تستمد جذورها من قيم البداوة ، إذ كان « سباعا كريما » أو بعبارة أخرى : نهابا وهابا . وعندما تمكن من اغتيال القائد التركي فريد بك ارتفعت سمعته بين العراقيين الى القمة ، وأصبح اسمه على الافواه في كل مكان ، وسمي بـ « عميد المراق » ، وقصده الشعراء ليلقوا بين يديه قصائد المديح على طريقة السلاطين القدامى ، وكان هو من جانبه يبذل لهم الجوائز .

انه كان يفرض الاتاوات على الاغنياء من جهة ، وينفق الاموال على الشعراء وغيرهم من الجهة الاخرى .

لم يكن لدى الاتحاديين من سلاح تجاه السيد طالب سوى سلاح الدين ، فقد كانت الدعوة القومية تعتبر في تلك الايام دسيسة من الكفار للتفريق بين المسلمين وهدم كيان الدولة العثمانية . يقول سليمان فيضي الذي كان آنذاك سكرتير السيد طالب : انه عندما ذهب الى الموصل في عام ١٩١٣ لم يجد فيها من المؤمنين بالقضية العربية الا أفرادا قلائل جدا ، ذلك لان النزعة الدينية التي يتميز بها أهل الموصل وقفت حائلا بينهم وبين التمرد على الدولة العثمانية ذات الصبغة الاسلامية والخلافة المقدسة . ولهذا راجت في الموصل حول سليمان فيضي اشاعات واراخيف مؤاها انه يبشر بنبد التقاليد الدينية وعصيان خليفة رسول الله (١) .

وابعا : في اوائل تشرين الثاني ١٩١٤ بدأ الانكليز هجومهم على العراق من ناحية الفاو ، وعند هذا انطلقت البرقيات المثيرة من البصرة موجهة الى سكان العراق قائلة : ان الكفار يهددون البصرة ، وان بلاد الاسلام في خطر ، ساعدونا ! فقرأت هذه البرقيات على الناس في المساجد ونادى المتنادون بها في الاسواق ، وأخذ الوعاظ والخطباء يلهبون مشاعر الناس بخطبهم الحماسية يؤكدون فيها على ان الانكليز اذا احتلوا العراق فسيهدمون مساجدهم وعتباته المقدسة ويحرقون القرآن ويتهكون حرمان النساء ويذبحون الاطفال . وقد صدق الناس بهذه الاقوال ، وانتشر الرعب بينهم ، واصر رجال الدين فتاويهم بوجوب الدفاع عن البلاد الاسلامية واعلان الجهاد على الكفار ، وأخذ الكثير منهم يستعدون للذهاب الى جهة الحرب للقيام بهذا الواجب الذي يحتمه الشرع عليهم .

الواقع ان العامة كانوا ينفضون الحكومة التركية بنفسا شديدا ويتمنون زوالها لما أنزلته بهم من ويلات التجنيد والتقود الورقية والمصادرات

(١) سليمان فيضي (في غمرة النضال) - بغداد ١٩٥٢ - ص ١٢١ .

وغيرها ، فلما أعلن الجهاد صاروا في حيرة من امرهم ، فان الدين يأمرهم بالدفاع عن الحكومة من جهة ، بينما ظروفهم الواقعية تدفعهم نحو عصيان الحكومة من الجهة الاخرى . وهذا هو الذى جعل الكثيرين منهم يتحولون من موقف الجهاد الى موقف الضياع خلال فترة قصيرة ، وقد اتضح هذا في النجف بشكل محسوس إذ رأيناها مركزا لحركة الجهاد فى أول الامر ثم أصبحت بصد قليل مركزا لحركة الضياع . وكذلك رأينا العشائر تنهب الى جبهة الحرب اطاعة لامر رجال الدين ، غير أنها لم تكد ترى الجيش التركي مهزوما حتى اثالت عليه نهباً وقتيلاً .

خامساً : كان الانكليز قبيل الحرب وفي أثنائها قد اتخنوا مع العرب سياسة تشجيع المبادئ القومية والاستقلالية والتحررية وما أشبه ، وذلك لغرض إضعاف الدولة العثمانية وتفتيتها . ولما احتل الانكليز العراق صاروا يضربون على هذه الاوتار ، وكان مما أعلنوه في ذلك عابرتهم المشهورة : « انا جئناكم محررين لا فاتحين » . ومن الجدير بالذكر ان العسكريين البريطانيين فى العراق لم يكونوا راضين عن هذه السياسة اعتقاداً منهم أنها تفتح عيون العراقيين وتجعلهم يتطلعون الى الحرية والاستقلال ويطالبون بهما مما يسبب لهم المشاكل في المستقبل . ولكن حكومة لندن أصرت على التمسك بهذه السياسة تحت تأثير بعض الدوافع السياسية والدولية .

كان يتولى حكم العراق في فترة الاحتلال ضابط شاب هو الكولونيل ويلسون ، وكان هذا الضابط معتقداً اعتقاداً جازماً بخطأ سياسة حكومته في اغداق الوعود للعراقيين ، ففي رأيه ان العراقيين جهلة لا يصلحون للحكم الذاتي ، وان من مصلحتهم ان يظلوا تحت الحكم البريطانى المباشر الى ان يتعلموا فن الحكم . وقد اشتد الخلاف بين ويلسون وحكومته حول هذا الموضوع ، فكانت لندن تريد انشاء حكومة وطنية في العراق ذات مظهر عربي وباطن انكليزي بينما كان ويلسون يريد انشاء حكومة انكليزية قلباً وقالباً . وقد أدى هذا الاختلاف في السياسة الى ظهور وضع متوتر في

العراق أشار اليه السيد علوان الياصري ، وهو من قادة ثورة العشرين ، إذ قال مخاطباً أحد الحكام البريطانيين : « نحن عشنا قبل هذا مئات السنين في وضع بعيدا جدا عن الاستقلال ، ولكنكم جئتم إلينا أخيرا فاعطيتمونا وعودا بالاستقلال . انكم عرضتم علينا فكرة الاستقلال في وقت نحن لم نطلبه منكم . ولم نكن نحلم به حتى جئتم فوضعتم الفكرة في رؤسنا ، والآن في كل مرة نطالبكم بالاستقلال تسجنونا ، (٢) » .

سادسا : في ٣٠ تشرين الثاني ١٩١٨ أبرقت حكومة لندن الى ويلسون تطلب منه القيام باستفتاء عام في العراق بغية التعرف على نوع الحكم الذي يرغب فيه السكان والشخص الذي يريدونه أميرا عليهم . وقد أكدت البرقية على ويلسون أن يكون تعبير السكان عن آرائهم حقيقيا ، ولكن ويلسون وجد في هذا الأمر ما لا ينسجم مع رأيه فلم يتبعه حرفيا وحاول المراوغة فيه . انه أصدر أوامره السرية الى الحكام السياسيين في الالوية يؤكد عليهم أن يستحصلوا من السكان الآراء المؤيدة لاستمرار الحكم البريطاني وان لا يسمحوا للآراء المخالفة بالظهور . وقد أطاع الحكام أمره ، ولهذا كانت نتيجة الاستفتاء ان أكثر السكان طلبوا بقاء الحكم البريطاني في العراق ، ولم يشذ عنهم في ذلك سوى فئة قليلة - في بغداد والكاظمية وكربلاء والنجف - إذ هي طلبت حكما عربيا برئاسة أحد أنجال الشريف حسين .

الواقع ان الاستفتاء كان مفاجأة غير مفهومة في نظر أكثر العراقيين ، اذ هو كان اول مرة في تاريخ العراق تسأل الحكومة رعاياها : ماهو نوع الحكم الذي يرغبون فيه . انهم لم يستطيعوا أن يصدقوا آذانهم عندما قيل لهم ان الدولة التي فتحت بلادهم بحد السيف ، وبذلت فيها الكثير من الاموال والارواح توجه اليهم مثل هذا السؤال حقا . فهذا أمر لم يكونوا يفهمونه أو أنه خطر

(2) Mann (An Administrator In The Making) - London 1921
P. 292.

بإلهم • وعندما وجدوا الأمر أصبح جدياً وأن الحكام استدعواهم ليسألوهم «ماذا تريدون» أخذوا يتساءلون فيما بينهم : ما هو الغرض من هذا السؤال ، ولابد أن يكون وراءه سر لا يفهمونه •

ان أحد الوجهاء أعلن ذلك بصراحة حين قال يخاطب الحاكم الذي وجه إليه السؤال : « ان سؤالكم لنا وانتم الحكومة ماهو نوع الحكم الذي نريده يدل على شيء غير اعتيادي، وهو أمر لم نسمع به من قبل • فما شأني أنا في هذا الموضوع • فانتهم لو عينتم علينا حاكماً نصرانياً أو يهودياً أو عبداً حبشياً كان ذلك بالنسبة لي حكومة على أي حال ،^(٣) • ويقول مهدي البصير الذي عاصر الاستفتاء وشهد بعض أحداثه : ان وقت الاستفتاء كان وقت عجائب وغرائب واشاعات وأراجيف ، وقد أشيع في البداية ان غرض الحكومة من الاستفتاء هو أنها تريد ان تسبر غور الناس لكي تعلم من هم أصدقاؤها ومن هم أعداؤها فتشيب هؤلاء وتعاقب اولئك بما تقتضيه مصلحتها^(٤) •

وعلى أي حال فان ويلسون فرح بنتيجة الاستفتاء وأبرق الى حكومته يعلمها بالنبا السار هو ان اكثر العراقيين يرغبون في استمرار الحكم البريطاني المباشر • والملاحظ ان ويلسون في تقاريره التي أرسلها الى حكومته بعد ذلك يؤكد على هذه النقطة ، فهو قد تجول في أنحاء العراق واجتمع بالوجهاء والرؤساء واستمع الى آرائهم ، فوجدهم جميعاً يدعون الله أن يديم عليهم ظل الدولة البريطانية «العادلة» - «آمين !» • فصدق بما كانوا يقولون وكتب به التقارير الى حكومته - ثم نام مطمئناً !

سابعاً : ان الفئة القليلة التي طالبت بالحكم العربي في اثناء الاستفتاء تعتبر البذرة التي انبثقت منها ثورة العشرين • فهي أخذت تنمو بمسرور الايام وصار ينضم اليها كل تدمير من الانكليز •

(3) Atiyah (IRAQ) - Beirut 1978 - P. 272.

(٤) محمد البصير (تاريخ القضية العراقية) - بغداد ١٩٢٣ - ص ٨١ •

أطلق الناس على هذه الفئة اسم « الوطنيين » ، اما المخالفون لها فكانوا في نظر الناس حونة وموالين للكفار . وصار الشعراء ينظمون القصائد الحماسية في الأمير عبدالله باعتباره مرشح الوطنيين لعرش العراق ، فيهتف الناس عند سماع اسمه ويصفقون له طويلاً . والواقع انهم لم يفعلوا ذلك الا نكاية بالانكليز وتحدياً لهم . فلو أن الانكليز كانوا يرغبون فيه لكان هتافهم ضده طبعاً حسب المبدأ القائل « المرء حريص على ما منع » . وقد فطنت المس بيل الى ذلك ، ولكن بعد فوات الاوان . فهي كتبت في ١٢ حزيران ١٩٢١ - أي بعد مضي بضعة اشهر على الثورة - تقول : انهم عندما كانوا في السنة الماضية يهتفون باسم عبدالله ليس لانه كان الرجل الامثل في نظرهم بل لانهم كانوا يعدون الهتاف باسمه خلاف رغبة الانكليز (٥) .

يمكن اعتبار ثورة العشرين على أي حال من أهم الاحداث في تاريخ العراق الحديث من حيث أثرها في تنمية الوعي السياسي . انها كانت بمثابة مدرسة شعبية تعلم العامة فيها بعض المبادئ والمفاهيم التي كانوا يستهجنونها من قبل كـ « الحرية » و « الاستقلال » و « القومية » و « الوطنية » وما أشبه . فقد كانت هذه المفاهيم محصورة سابقاً في نطاق الافندية ومن لف لفهم ، بينما كان العامة يعدونها من الامور التي لا تعطي خبزاً . فلما قامت الثورة تغير الحال تغيراً مدهلاً حيث صارت تلك المفاهيم محور اهتمام العامة ، وأخذوا يلهجون بها ويهتفون لها يوماً بعد يوم .

ثامناً : كان تنصيب فيصل ملكاً في عام ١٩٢١ قد استتبشر به الوطنيون والانكليز في آن واحد . فالوطنيون اعتبروه كأنه جاء تليية لرغبتهم التي أعلنوها من قبل في اختيار أحد انجال الشريف حسين ملكاً . أما الانكليز فكانوا يحسبون أن فيصل سيكون آلة طيعة في أيديهم على نمط

(5) Burgoyne (Gertrude Bell) - London 1961 - vol. 2, P. 220.

الأمراء الذين نصبوهم في ممتلكاتهم الأخرى • ولكن هذا الاستبشار من الفريقين لم يدم طويلاً ، وسرعان ما تبين لكل منهما انه كان مخطئاً في ظنه وان فيصل ليس كما تخيلوه سابقاً •

ان فيصل قد حاول بكل جهده ان يكون عند حسن ظن الفريقين ، فأخذ يبدي لكل منهما أنه مخلص له ، ولكن هذا أمر صعب للغاية او لعله مستحيل ، فليس في مقدور انسان أن يوفق بين اتجاهين متعاكسين ، وان هو تمكن من ذلك فقرة من الزمن فليس في مقدوره أن يستمر فيه الى النهاية • يقول آيرلاند : ان فيصل وجد نفسه نقطة التوازن بين البريطانيين والوطنيين ، فقد كان مديناً بعرشه للبريطانيين من جهة بينما كان من الجهة الأخرى يحتاج الى مؤازرة الوطنيين له لكي يتمكن من الحصول على الاستقلال الحقيقي من الحكومة البريطانية (٦) •

الى أي مدى استطاع فيصل أن يوفق بين هذين الاتجاهين المتعاكسين؟ ان هذا سؤال من الصعب الاجابة عليه ، وربما عدنا اليه في جزء قادم عند الحديث عن موت فيصل وانقارنه بينه وبين ابنه غازي • وقد يكفي هنا أن نقول ان فيصل حاول في السنة الأولى من حكمه أن يكون أقرب الى الوطنيين منه الى الانكليز ، وهذا هو الذي جعل الانكليز يضررون له الحقد الشديد ويفكرون في عزله • فقد اعتبروه خائناً لهم كافرين بنعمتهم • وشاء القدر ان يصاب فيصل بالتهاب الزائدة الدودية في هذا الوقت بالذات ، فاتتهز المندوب السامي الفرصة وتسلم الزمام بيده وأخذ يضرب الحركة الوطنية ضرباً شديداً حتى أسكتها وشرد رجالها • ولما شفي فيصل من مرضه وجد ان الحركة التي كان يمتدح عليها قد تفتت • وجاء اليه أحد زعماء الحركة ليهنئه بالشفاء ، فسأله فيصل : وماذا فعلتم بالانكليز ؟ هل عدلتم

(٦) فيليب آيرلاند (العراق) - ترجمة جعفر خياط - بيروت ١٩٤٩ -
ص ٢٧٩ •

عن اخراجهم من البلاد ؟ « فأجابه الرجل فوراً : « قالوا لنا انكم اتسم
أخرجتم من البلاد ، فسكتنا » (٧) .

كان هذا بداية تبدل واضح في سلوك فيصل ، فقد أصبح منذ ذلك
الحين أقرب الى الانكليز منه الى الوطنيين ، غير أنه لم يترك عاداته القديمة
تركاً تاماً ، حيث وجدناه يعود الى الاتصال بالوطنيين حيناً بعد حين كلما
وجد في الانكليز تصبلاً تجاهه .

تاسعاً : عندما صار فيصل يتقرب للانكليز درءاً للمشكلة ظهرت
أمامه من الجانب الآخر مشكلة ثانية ، هي مشكلة ارضاء الوطنيين وفي
مقدمتهم المجتهدين . لقد كانت علاقته في السنة الاولى حسنة مع المجتهدين
سيئة مع الانكليز ، فانقلبت الآن الى العكس من ذلك حيث اصبحت حسنة
مع الانكليز سيئة مع المجتهدين . وقد بذل فيصل جهده لاقناع المجتهدين
بأن يراعوا ظروفه ، ويرحموا حاله ، دون جدوى . وصار المجتهدون ،
ولاسيما الشيخ مهدي الخالصي ، يعدونه ناكثاً بعهده لهم وانه باع نفسه
للسيطان واصبح العوبة بيد الانكليز . وقال الخالصي على ملاء من الناس
« خلعت فيصل كما خلعت خاتمي هذا ! » .

وفي تلك الآونة عاد الى العراق من اسطنبول شخص يعد رجل دولة
من الطراز الاول - هو عبدالمحسن السعدون . وسرعان ما اكتشف الانكليز
فيه الرجل القوي الذي يستطيع أن يحل لهم مشكلة المجتهدين ومشكلة
فيصل في آن واحد ، فسلموه زمام الأمور ، ودعموه ، وقالوا له : افعل
ما شئت فنحن وراءك !

كان رأي السعدون ان معالجة مشكلة المجتهدين لا تتم الا على
طريقة الاسكندر المقدوني ، أي بقطع العقدة بدلاً من حلها . انه صمم
على نفي المجتهدين الى ايران للتخلص من معارضتهم الدائمة وفتاويهم

(٧) أمين الريحاني (فيصل الاول) - بيروت ١٩٥٨ - ص ١٢٣ .

تخلصا نهائيا • وقد ابدى فيصل تخوفه من هذا العمل الجريء ، كما تخوف منه الانكليز ، وظنوا ان ثورة أشد من ثورة العشرين ستحدث في العراق من جراء نفى المجتهدين • ولكن السعدون أصر على موقفه وأكد للمتخوفين أنه قادر على القيام بالعمل دون أن يقع أي محذور • وقد أظهرت الحوادث أنه كان في رأيه مصيبا •

كان العامة قد أيدوا المجتهدين في معارضتهم وأبدوا في تأييدهم كل حماس ، ولكنهم ما كادوا يرون المجتهدين قد أبعدوا خارج الحدود حتى عادوا هم الى شعارهم القديم : « أنا شعليه » • انهم قد تعلموا الوعي السياسي حديثاً ولكنهم لم يستطيعوا ان ينسوا عاداتهم القديمة ، وهم لذلك يتحمسون تارة ويخمدون تارة أخرى • وتلك احدى ظواهر التناثر الاجتماعي فيهم •

* * *

خلاصة القول ان هذه الاحداث التي ذكرناها آنفاً - والتي بدأت منذ عام ١٩٠٦ - أثارَت في العراق تنازعا وجدلا لا عهد له بهما من قبل • اتنا لا ننكر ان العراق شهد قبل ذلك أحداثاً أعظم من هذه الاحداث وأدعى الى التنازع ، انما هي كانت من نوع آخر غير النوع الذي شهدناه في هذه الفترة •

كان تنازع العراقيين فيما مضى تقليدياً ينشأ الفرد عليه منذ طفولته الباكسة ويظل عليه في كبره ، كالتنازع الذي يقع بين الطوائف الدينية أو بين القبائل والمدن والمحلات • فقد كان الفرد آنذاك يتحصب لطائفته أو قبيلته أو بلدته أو محلته ، وينصرها على أعدائها ، بحكم تراثه الاجتماعي الذي نشأ عليه في بيئته • وكان من العار عليه أن يخرج على هذا التراث أو يخالفه • أما الاحداث الجديدة فقد صارت تثير في الناس تنازعا مبدئياً غير مرتبط بالانتماءات التقليدية المألوفة • وبهذا بدأنا نشهد نزاعاً وجدلاً شديداً بين أبناء الطائفة الواحدة ، أو المحلة الواحدة ، وربما حدث النزاع بين الاخوة في البيت الواحد : هذا مشروطي وذاك استبدادي ، أو هذا قومي وذاك عثماني ، أو هذا جهادي وذاك فرازي ، أو هذا وطني وذاك حكومي ، الخ.

فترة تدريب :

ان الفترة التي تحدثنا عنها - والتي امتدت ما بين عام ١٩٠٦ وعام ١٩٢٣ - لها أهميتها في تطور الوعي السياسي في العراق . يجب أن لا ننسى ان الوعي السياسي حين بدأت بوادره في ١٩٠٦ كانت تحت حضانة الدين ورعايته ، أي انه نما من خلال الوعي الديني ولم يكن قائماً بذاته . فالناس حين كانوا يتجادلون في قضية من قضايا السياسة كالدستور مثلاً لم يكونوا يريدون أن يعرفوا هل الدستور نافع للشعب أو ضار به ، بل كانوا يريدون أن يعرفوا بالاحرى هل هو حلال أو حرام ، وهل هو موافق للشريعة الاسلامية أو مخالف لها . وقد ظلّ الناس كذلك طيلة الفترة التي كان فيها رجال الدين يشتغلون بالسياسة في العراق .

والواقع انها كانت فترة شاذة تميزت ببعض الظواهر الاجتماعية الخاصة بها ، ومن تلك الظواهر ان كثيراً من الكسبة وأصحاب الدكاكين الذين لم يكونوا قبل هذا يهتمون بالسياسة أصبحوا يهتمون بها ويتحمسون لها . خذ مثلاً حسون أبو الجبن الذي كان بقالاً في سوق السراي ببغداد ، فهو في صباه كان مثل أبيه يتجنب السياسة ويعتبرها لا تعطي خبزاً ، ولكننا رأينا انقلب فجأة الى متحمس سياسي من الطراز الاول يلبس الكفن ويشترك في المظاهرات ويهتف بأعلا صوته : « لتسقط بريطانيا العظمى ! » . ولا حاجة بنا الى القول ان السبب في تبدل هذا الرجل وأمثاله هو الدين وفتاوى رجال الدين . ولولا ذلك لظل هذا الرجل باقياً على سنة الآباء والاجداد : « أنا شطيه » .

يبدو ان هذه الفترة كانت ضرورية لنمو الوعي السياسي في العراق ، ولعلها كانت بمثابة تدريب وتمهيد للعامة على الاهتمام بالسياسة . فلما انتهت هذه الفترة بنفي المجتهدين كان العامة قد تم تدريبهم ولم يعودوا بحاجة الى فتاوى رجال الدين . ولهذا رأيناهم في عام ١٩٢٤ ، عندما جرى النقاش حول المعاهدة ، يتظاهرون ويتحمسون بالقرب من المجلس التأسيسي على نحو ما كانوا يفعلون في جامع الحيدرخانة في عام ١٩٢٠ . انهم خرجوا من قوقعتهم القديمة ، ولن يعودوا اليها !

بين الافندية والملائية :

يمكن القول أن نفى المجتهدين الذي جرى في عام ١٩٢٣ هو أحد مظاهر الصراع بين الملائية والافندية ، أو بعبارة أخرى : بين رجال الدين ورجال الدولة . وهذا الصراع ليس جديداً إذ تمتد جذوره الى القرن الثامن عشر حينما بدأت بواكير الحضارة الحديثة تصل الى البلاد الاسلامية ، فقد قاوم رجال الدين تلك الحضارة واعتبروها مخالفة للشريعة الاسلامية ، بينما أولع بها رجال الدولة واعتبروها ضرورية لأمتهم لكي تتمكن بها من البقاء في معترك الحياة الحديثة .

من الجدير بالذكر ان الافندية والملائية في العراق كانوا متحالفين في أثناء ثورة العشرين وفي الفترة القصيرة التي تلتها ، ولكن هذا التحالف كان مؤقتاً وليس من طبيعته أن يدوم طويلاً ، فان كلا من هاتين الفئتين لها اتجاه ذهني معاكس لاتجاه الاخرى . فالملائية يريدون تطبيق الشريعة الاسلامية على أمور السياسة بينما الافندية يريدون ابعاد الدين عن السياسة . وهم حين تحالفوا وانفقوا فترة قصيرة من الزمن كان ذلك من جراء وجود مصلحة مشتركة بينهم ، ولم تكد تلك المصلحة تغاوت عندما نال الافندية المناصب التي يطلبونها حتى بدأ الاختلاف يظهر بين الفئتين وصار يشتد يوماً بعد يوم .

ان بعض الافندية من أولى النظر البعيد ادركوا منذ وقت مبكر سعة الفجوة التي تفصل بين تفكيرهم وتفكير الملائية . ذكرت المسألة في رسالة لها في ٣ تشرين الثاني ١٩٢٠ رآياً أدلى به عبدالمجيد الشاوي في هذا الشأن ، حيث قالت ما يلي :

« ان مشكلة الشيعة ربما كانت أعظم المشاكل في هذه البلاد ، وقد تناقشنا حول هذه المشكلة ليلة أمس في اثناء مأدبة أقيمتها في بيتي . فقد قال عبدالمجيد بك : ماذا سوف تصنمون اذا أصدر المجتهد الأكبر فتواه بأنه لا يجوز للفرد الشيعي أن يكون عضواً في المجلس التشريعي ما دامت

الحكومة تحت الانتداب البريطاني ، علماً ان المجتهد يعتبر كلامه من كلام الله • أو افرضوا أن المجلس أخذ يتناقش لسن أحد القوانين فينبري المجتهد لاصدار فتوى مفادها ان القانون مخالف للشريعة ويجب رفضه من غير اهتمام بأي اعتبار آخر ؟ تصوروا ان البابا يمارس في ايطاليا سلطة دنيوية ويعرقل الحكومة في كل عمل تقوم به فماذا يكون الوضع • ان العلاج يكون بمرور الزمان على النحو الذي حصل في ايطاليا ، حيث صاروا هناك ينظرون الى البابا كما ينظرون الى عجوز سخي • ولكننا هنا لم نصل بعد الى هذه المرحلة ... (٨) .

قد يسأل سائل : لماذا انفرد رجال الدين الشيعة بمعارضة الحكومة في تلك الايام بينما سكت زملاؤهم السنيون ؟ للجواب على هذا نرجع الى ما ذكرناه في الجزء الثالث من هذا الكتاب حول نظام الاجتهاد الشيعي ، ذلك ان المجتهد الشيعي يعتمد في رزقه على ما يقدمه اليه مقلدوه من حقوق شرعية ، ولهذا فهو مضطر بدافع الحفاظ على رزقه ومكاته ان يكون وثيق الصلة بجماهير الشعب يتحسس بأحاسيسهم ويقف الى جانبهم ضد حكاهم • أما رجل الدين السني فهو يشبه أن يكون موظفا حكوميا يعتمد في رزقه على مرتبه الذي يتسلمه في رأس كل شهر ، ولهذا فهو مضطر في الغالب أن يكون مؤيدا للحكومة في أعمالها •

نقطة تحول :

كان نفي المجتهدين في عام ١٩٢٣ بمثابة نقطة تحول في الوعي السياسي في العراق • فان اعتزال المجتهدين للسياسة جعل الميدان خالياً للافندية يصلون فيه ويجولون ، حيث تولى فريق منهم زمام الحكم ، بينما تولى الفريق الآخر زمام المعارضة ، وأخذوا يتداولون الأمر بينهم على طريقة دولاب الهواء الذي يلعب به الاطفال في العيد - صاعداً نازلاً •

(8) Burgoyne (op. cit) - vol. 2, p. 168 - 169

هناك فرق كبير بين معارضة المجتهدين ومعارضة الافندية • فالافندي انما يسلك سبيل المعارضة لكي يصل بها الى الحكم • أما الملائي فانه لا يفكر في الوصول الى الحكم ولا يريد • وهو انما يسلك سبيل المعارضة لكي يرفع بها مكانته الدينية بين الجماهير • وهو يعلم انه اذا تولى منصباً من مناصب الحكم فقد تلك المكانة حالاً وأخذ الناس يذمونهم ويقولون عنه : « انه باع دينه بدنياه » • انه يصبح في نظر الناس عندئذ افندياً على الرغم من احتفاظه بعمامته السوداء أو البيضاء !

معنى هذا ان الملائية كانوا يتخذون المعارضة عاية لذاتها لانها ترفع من مكانتهم الاجتماعية في نظر الناس • أما الافندية فكانوا يتخذونها وسيلة لغاية أخرى هي الوصول الى الحكم • ان الافندي يدرك انه اذا بقي خارج الحكم مدة طويلة من الزمن خسر مكانته الاجتماعية وأصبح من رواد مقهى المتقاعدين •

الملاحظ ان الافندية في العهد الملكي كانوا يتقلبون في مواقفهم السياسية مرة بعد مرة • فاذا كانوا خارج الحكم صاروا معارضين متحمسين ينادون بالحرية والاستقلال التام ويتهمون الحكام بالظلم وخيانة الوطن ، غير أنهم لا يكادون يتسنمون كراسي الحكم حتى ينسوا ما قالوه ويسبوا سيرة من كانوا يتقدونهم بالأمس •

وكان بعض الافندية لا يترددون عند المعارضة ان يستخدموا أية وسيلة توصلهم الى هدفهم بغض النظر عما قد ينجم عنها من عواقب وخيمة • ظهر هذا للبيان وإضحاً بعد موت فيصل حين تولى العرش ابنه الأمير الضعيف • فقد رأينا فريقاً منهم يلجأ الى اثارة المشائر • وفريقاً آخر يلجأ الى اثارة الجيش • وفريقاً ثالثاً يلجأ الى المكائدات والدسائس • وكانوا في كل ذلك يدعون انهم يريدون انقاذ البلاد من الظلم والتفسخ • حتى اذا وصلوا الى الحكم لم يجد الناس في عهدهم اختلافاً عن عهد من كان قبلهم •

ان هذا أدى الى كثرة تبدل الوزارات في العهد الملكي في العراق ،
وتلك بدورها أدت الى تضخم الوعي السياسي فيه . فان كل انقلاب او
تبدل وزاري عنيف لابد أن يثير الاهتمام في اوساط العامة ويفتح عيونهم الى
قضايا السياسة ويبعث فيهم الجذالة والتنازع حولها .

اعتراض وجهه :

نقف عند هذا الحد في الدراسة على أن نحاول تكملتها في جزء قادم
من هذا الكتاب . وهنا لا بد من الإشارة الى اعتراض وجهه أظن ان بعض
القراء قد يوجهونه على هذه الدراسة .

فالقارئ ربما يعجب ويتساءل حين يراني أتحدث عن صراع الافندية
والملائية مثلا بينما المفكرون اليوم مشغولون بموضوع الصراع بين
البرجوازية والبروليتارية ، أو بين الرجعية والتقدمية ، أو غير ذلك من
مظاهر الصراع التي يكثر الحديث حولها على صفحات الجرائد والكتب في
هذه الايام .

الواقع اني لا أختلف في الرأي مع هؤلاء الذين يتحدثون في مثل
هذه المواضيع ، ولكنني أرى اننا لا يجوز أن ننسى في الوقت نفسه طبيعة
مجتمعا وظروفه وتركيبه الطبقي . أذكر اني كتبت ذات يوم في مجلس
يضم بعض الاساتذة ، وكان النقاش يدور حول المجتمع العراقي وتركيبه
الطبقي ، فأشرت في معرض حديثي عنه الى « الافندية » باعتبار انهم كانوا
يؤلفون في بداية هذا القرن طبقة متميزة تتعالى على العامة ولها تقاليدها
وعصبيتها الخاصة بها . فاعترض احد الحاضرين منكرا اطلاق مصطلح
الطبقة على الافندية . وقد لاحظت ان سبب اعتراضه ناشئ من أنه لم يجد
في المؤلفات الاجنبية التي اطلع عليها ما يشير الى ذلك أو يبحث فيه .

قد يصح القول ان كثيرا من كتابنا ومفكرينا هم من هذا الطراز ، فهم
يملكون في اذهانهم « مساطر » جاهزة استمدوها من المصادر الاجنبية ،

فاتخذوها قوالب فكرية جامدة ، وصاروا يطبقونها على مجتمعاتهم وتاريخه بغض النظر عن الفروق الكثيرة بين هذا المجتمع والمجتمعات الاخرى .

نلاحظ هذا واضحا في بعض الدراسات التي ظهرت حول ثورة العشرين ، ولا سيما تلك التي قام بها الباحث الروسي كوتلوف مؤخرا^(٩) . فهذا المؤلف لديه في ذهنه « مسطرة » يريد تطبيقها على المجتمع العراقي بوجه عام ، وثورة العشرين بوجه خاص . وصار يسمى جاهدا للتنقيب عن المعلومات التي توافق مسطرتة ، مع غرض النظر عن المعلومات المخالفة لها . وقد استطاع أخيرا أن يأتي لنا بدراسة عن مجتمعا جعلته كأنه ليس كهذا المجتمع الذي نعيش فيه .

يريد كوتلوف في دراسته ان يثبت اولا ان المجتمع العراقي كان قبل ثورة العشرين يسيطر عليه النظام الاقطاعي ، وان الذين قاموا بالثورة هم جماهير الفلاحين والبدو والعمال والحرفيين ، ثم يستدرك فيقول ان قيادة الثورة كانت في يد شيوخ العشائر ورجال الدين والبرجوازية الوطنية .

لو ان ثورة العشرين قامت في بلاد بعيدة عنا لربما جاز لنا ان نؤمن بصحة ماقاله كوتلوف ، لاننا لانعرف عن تلك البلاد شيئا . ولكن الثورة قامت في بلادنا ، وقد ادر كنا الكثيرين ممن شاركوا فيها ، وعرفنا بعضهم وخالطناهم . ولست أدري كيف يمكن أن تكون الثورة قامت ضد الاقطاع بينما شيوخ العشائر ورجال الدين هم الذين تولوا قيادتها .

ليس هنا مجال التبسط في هذا الموضوع ، فقد اشبعناه بخنا في الجزء الخامس من هذا الكتاب الذي نأمل ان يصدر قريبا . وعلى أي حال فان الذي ندعو اليه هو أن تكون دراستنا الاجتماعية نابعة من واقع حياتنا ، ولكن هذا لايعني أن نطلق اذهاننا عما يجري في العالم من دراسات مختلفة . فالمفروض اننا نستشير بتلك الدراسات لا أن نقيد بها .

(٩) انظر كتابه (ثورة العشرين) - ترجمة عبدالواحد كرم .

الفهرس

الفصل	الصفحة	
	٣	مقدمة
١	٩	إنشاء الحكومة العراقية
٢	٤٥	طبخة الملكية
٣	١٠٦	فيصل ملكاً
٤	١٦١	الصراع بين كوكس وفيصل
٥	٢٠١	نفي الشيخ مهدي الخالسي
٦	٢٥٤	الوزارة العسكرية
	٣٠١	خاتمة

حول الاخطاء المطبعية

وقعت في هذا الجزء أخطاء مطبعية كثيرة على الرغم من شدة العناية بالتصحيح • وهي أخطاء تأمل إن يفتن لها القارئ ويصححها بنفسه •

حول الجزء الخامس

ان الجزء الخامس يبحث في ثورة العشرين ، وهو قد تأجل طبعه لحاجته الى مزيد من البحث عن الوثائق والمراجع الخاصة به •
والآن بعد ان تم الحصول على معظم تلك الوثائق والمراجع تقرر أن يباشر بطبعه في أقرب فرصة ممكنة • فمعدرة الى القراء •

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ١٣١ لسنة ١٩٧٦.

SOCIAL ASPECTS Of IRAQI MODERN HISTORY

by

Dr. ALI WARDI

EMERITUS PROFESSOR OF SOCIOLOGY

IN THE UNIVERSITY OF BAGHDAD

VOLUME SIX

SECOND EDITION

1992

كتب المؤلف المطبوعة

- | | | | |
|------|---------------------------|------|--------------------------------|
| ١٩٦٥ | (٨) طبيعة المجتمع العراقي | ١٩٥١ | (١) شخصية الفرد العراقي |
| | (٩) لمحات اجتماعية ... | ١٩٥٢ | (٢) خوارق اللاشعور |
| ١٩٦٩ | (الجزء الاول) | ١٩٥٤ | (٣) وقاظ السلاطين |
| ١٩٧١ | (الجزء الثاني) | ١٩٥٥ | (٤) مهزلة العقل البشري |
| ١٩٧٢ | (الجزء الثالث) | ١٩٥٧ | (٥) اسطورة الادب الرفيع |
| ١٩٧٤ | (الجزء الرابع) | ١٩٥٩ | (٦) الاحلام بين العلم والعقيدة |
| ١٩٧٦ | (الجزء السادس) | ١٩٦٢ | (٧) منطق ابن خلدون ... |